تقديم

القسم الثاني من عروض ندوة تاريخ الأندلس وحياة ابن حيان

د. محمد حجي
كلية الآداب / الرباط

تنشر «المناهل» في هذا العدد الخاص الثاني ما بقي من عروض **ندوة تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان**، التي أقامتها وزارة الشؤون الثقافية في خريف سنة 1981، بعد أن نشرت القسم الأول في العدد الخاص رقم 29، وبحوثا أخرى في أعداد متفرقة.

يشتمل هذا القسم على عشر دراسات(*) تتناول جوانب متعددة من تاريخ الأندلس منذ مجيء المسلمين إليها إلى نهاية دولة الإسلام فيها، وذيول هذه النهاية التي استمرت حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري / 19م. وتكوّن هذه الدراسات أربع مجموعات متميزة، تتمحور أربع منها حول تاريخ الثقافة والحضارة بالأندلس وتفاعلها مع الثقافات والحضارات المجاورة أو البعيدة التي تمتُّ لها بصلات، أو مع الثقافة والحضارة الإنسانية بصفة عامة. وتتحدث دراستان بكيفية معمقة عن نموذجين خاصين من الثقافة

(*) لم يراع في ترتيبها عن الطبع كذلك لا الأهمية ولا الترتيب الذي قدمت به الندوة. وإنما روعي تجانس الموضوعات.

الأندلسية، وأخريان عن الأندلس من منظور المؤرخين المشارقة القدامى والمحدثين، بينما تهتم الدراستان الأخيرتان بملاحظات حول الجغرافيا المتعلقة بالأندلس، وأوضاع بقايا المسلمين في هذه البلاد خلال القرون الثلاثة التي تلت سقوط غرناطة.

تناول الدكتور عمر فروخ من أعلى وبنفس طويل الجانب الحضاري الإنساني من تاريخ الغرب الإسلامي ووضعه في إطاره العام من تاريخ الإنسانية، تسعفه سعة أفق في المعرفة، ورسوخ قدم في ميدان البحث والتأليف. اختار أحداثاً بارزة في تاريخ هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي كان لها الأثر البين في مجرى تاريخ البشرية، سياسياً وعسكرياً وعلمياً وأدبياً : معركة بلاط الشهداء التي «كانت بدءاً للحروب الصليبية التي لم تنته بعد، ويبدو أنها لن تنتهي»... وسفارة الشاعر يحي بن حكم الغزال عن الخليفة الأموي عبد الرحمن الأوسط إلى روم القسطنطينية ومجوس شمالي شمال أوربا بالدانمارك أو إيرلندة البريطانية، وكانت من بوادر التعارف الأولى بين العالم الإسلامي الغربي والعالم المسيحي والمجوسي في أوربا وآسيا، واتصال اللغة العربية بلغات تلك البلاد بواسطة التراجمة الأندلسيين والاسكندنافيين وغيرهم... وتمهيد عبد الرحمن الناصر قواعد الخلافة بالقضاء على فتن الفرنجة والبابوية الظاهرة والمتسترة، لتتسع في عهد ابنه الحكم المستنصر حركة العلم والفلسفة، وينتشر الفكر العربي في أوربا المسيحية عن طريق نقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية... وازدهار الأدب في بلاطات ملوك الطوائف، حيث ظهرت الموشحات فزادت الأندلس بهاء، ووهبت اللغات الأجنبية أدباً لم يكن لها، ولولاها لتأخر نشوء الآداب الافرنجية قروناً كثيرة... وتطور الفلسفة في عصر المرابطين مع ابن باجة

الذي بنى التفكير الفلسفي على الرياضيات والطبيعيات، وفصل البحث في الدين عن البحث في الفلسفة، لتسير قدماً مع ابن طفيل وابن رشد في بلاط يعقوب المنصور الموحد... وسبق ابن خلدون في فهم علم التاريخ واختراع علم الاجتماع، مع مقارنة نظرياته فيها بنظريات العالمين الغربيين هيكَل وماركس، وإثبات الأحداث التاريخية مصداقية النظرية الخلدونية...

ثم استعرض الدكتور فروخ بإيجاز ثمان عينات من الحضارة والثقافة الإنسانيتين كان أثر الإسلام فيها بارزاً، وانتقلت إلى التاريخ الإنساني العامّ عن طريق الأندلس : البناء، والإصلاح الديني، والفلسفة، والعلم، والزخرف العربي، واللغة العربية، والأدب العربي، والقصص الفلسفي. وفصل القول في انتقال علم الجبر إلى العالَم الأوربي على يد محمد بن موسى الخوارزمي البغدادي من طريق الغرب الإسلامي : الأندلس في الأكثر، وصقلية وجنوب إيطاليا يوم كانت تنعم بالحكم الإسلامي.

وتحدث الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله عن العلاقات بين العدوتين، والعناصر المغربية الداخلة إلى الأندلس منذ الفتح وعهد المنصور بن أبي عامر إلى زمن المرابطين والموحدين، والمهاجرين الأندلسيين إلى المغرب من وقعة الربض إلى نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس. ثم ذكر في مجال تسرب الحضارة الأندلسية إلى المغرب مع الربضيين، خاصة في نظام البلاط واستعمال مصطلحاته... وللتدليل على تلاحم حضارة العدوتين أتى بنماذج في مجالات شتى... ففي ميدان الطب والصيدلة استعرض أسماء أشهر الأطباء والصيادلة الأندلسيين والمغاربة الذين عاشوا في بلاط المرابطين والموحدين بمراكش، حيث لا يمكن الفصل بين دراسة الطب في المغرب والأندلس. وفي الرياضيات والهندسة أتى أيضا بعدد من أسماء الرياضيين المشهورين في

العـدوتين. وفي العلوم الإسلاميـة ضرب أمثلـة من المخضرمين المغـاربـة والأنـدلسيين، وختم بـالفن المعماري الأنـدلسي ـ المغربي منـذ عهـد المرابطين والموحدين، إلى المرينيين والسعديين والعلويين.

وتكلم الدكتور محسن جمال الدين عن العلاقات الثقافية بين الأنـدلس والبلاد العربية، إلا أنه اهتم بجانب واحد هو الثقافـة المشرقيـة ودخولها إلى الأندلس ضـاربـاً صفحـاً عن الجـانب الآخر المتمثل في الثقـافـة الأنـدلسيـة الداخلة إلى المشرق، وما أكثرها ! وقد ذكر عرضا عـدداً من أعلام الأنـدلس عـاشوا ومـاتوا في المشرق، وكأنهم مجرد طـلاب علم، أو مضطهـدين فروا من وجه العدو الكافر، حتى ابن عربي والمرسي...!

وأثار الأستاذ محمد المنوني مسألة تعليم الصقالبة في الأندلس، في نطـاق ظاهرة عناية الإسلام بالرقيق وحضه على تربيته ورعايته والإحسـان إليـه، وذكر أن العنصر الغالب من مماليك الأنـدلس هم الصقـالبـة أو الفتيـان، أي البيض المجلـوبـون من وسـط أوربـا أو شمال إسبـانيـا، وأن عمليـة تثقيفهم انطلقت من عهد عبـد الرحمن النـاصر، فكان هـؤلاء المماليـك يربـون منـذ صغرهم في قصور الخلفاء تربية تؤهلهم لشغل مناصب إداريـة أو عسكريـة، أو تجعلهم في مصاف العلماء والأدباء. واستمرت عملية التثقيف في عهـد ملوك الطوائف ومَن بعدهم. ولم تعد هذه المبرة في الأندلس قـاصرة على الملوك، بل شملت الأمراء والعلماء والتجار. وانتشر كـذلـك تعليم الجواري لا سيما الغنـاء في إشبيلية، حيث كانت الجاريـة المغنيـة تبـاع بـألف دينـار فـأكثر، لملوك المغرب وإفريقية.

واستعرض الأستاذ المنوني بعد ذلك أسماء نيف وأربعين من المماليك المتعلمين، رجالاً ونساء، أدرك بعضهم شهرة واسعة في ميدان الرواية، أو التأليف، أو الكتابة، أو الوراقة، أو الغناء.

أما الأستاذ محمد ابن تاويت فتناول في بحثه الذي هو أطول بحث قَدم في الندوة ـ 100 صفحة ـ ومن أهم الدراسات وأفيدها، تاريخ النحو في الأندلس والمقارنة بينه وبين النحو في مصر، من خلال نموذج ابن هشام الذي قال عنه ابن خلدون : «مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه». بدأ بفرش تاريخي عن علاقة النحو بالقراءات ليبين وحدة أصول النحو الأندلسي ـ المغربي المصري المستمد من قراءة ورش القبطي أو القيرواني الآخذ عن مقرئ المدينة نافع بن عبد الرحمن الليثي، ثم ثنى بذكر أسماء الرواد من النحاة في كل من مصر والأندلس، وفيهم من سبق ورشا وأخذ عن أبي الأسود الدؤلي، والأصمعي، والكسائي، وغيرهم من أئمة اللغة والنحو الأولين. خلص بعد ذلك إلى القول بأن النحو دخل مصر والأندلس في نفس القرن الثاني الهجري على يد طبقة متقاربة استقت من نفس الينابيع، واستمرت العلاقات النحوية الأندلسية ـ المصرية قوية حتى منتصف القرن الرابع، حيث انفصمت عرى الاتصال لَمـا استحكم العداء بين الفاطميين والأمويين. ومن ثَمّ أخذ النحو طابعاً خاصاً في كل من الأندلس ومصر، بسط الباحث فيه القول بسطاً قبل أن يبرهن على استمرار العلاقات النحوية بين المؤلفين في مصر والأندلس، بالرغم على القطيعة السياسية ومرور عدة قرون، من خلال كتب ابن هشام الثلاثة المشهورة : **مغنى اللبيب** عن كتب الأعاريب، **وأوضح المسالك** إلى ألفية ابن مالك. **وشذور الذهب** في معرفة كلام العرب.

وهنا تبتدئ الدراسة الحقيقية الدسمة التي لا يمكن تلخيصها ولا تصنيفها، وإنما يستفيد منها من أقبل عليها بالقراءة المتأنية المستوعبة، وهي الآن ـ بحمد الله ـ ميسرة لا تتطلب أكثر من ساعات أو أيام، بعد أن قضى الأستاذ ابن تاويت ـ ولا شك ـ سنوات في استخلاصها وضبطها وتوثيقها. استخلص الباحث أن عدد مَن رجع إليهم ابن هشام في كتبه الثلاثة المذكورة من النحاة الأندلسيين والمغاربة يفوق بكثير النحاة المشارقة المذكورين عنده. فعرّف بهؤلاء الأئمة الأندلسيين والمغاربة ـ وعددهم 41 ـ تعريفاً موجزاً، محدّداً مواضعهم بأسمائها العربية واللاتينية، وسنوات وفياتهم، ثم أجمل موقف ابن هشام منهم وهو يتعرض لآرائهم بالتأييد تارة والمعارضة أخرى «وهذا لا يهمنا ـ يقول الباحث ـ بقدر ما يهمنا اتصاله بهؤلاء الأندلسيين وعرضه لآرائهم التي لولاه لضاع جانب كبير منها». وتتبع بعد ذلك بتفصيل ما ورد عند ابن هشام من آراء نحاة الأندلس والمغرب.

وأتى الدكتور محمد عبد الوهاب خلاف بدراسة مستفيضة عن الحياة القضائية بقرطبة الإسلامية حتى أواخر القرن الخامس الهجري، اعتماداً على كتاب **الأحكام الكبرى** أو **نوازل ابن سهل** عيسى بن سهل الأسدي الجياني (ت 486). وقد سبق للدكتور خلاف أن أعد أطروحة دكتوراه الدولة عن قرطبة في القرن الخامس اقتصادياً واجتماعياً، وأصدر في السنوات الأخيرة أربعة كتب مستقاة من هذه النوازل : في أحكام القضاء الجنائي، وقضاء أهل الذمة، ومحاربة الأهواء والبدع، والطب الإسلامي ووظيفته في معاونة القضاء في الأندلس.

بعد تمهيد تاريخي موسع لوضعية فقهاء قرطبة على عهد الخلافة الأموية، والإمارة العامرية وعصر الفتنة والطوائف، تعرض لألقاب القضاة،

والمهام التي نيطت بهم - علاوة الأحكام والخطبة والإمامة بالمسجد الجامع - من وزارة وسفارة، وقيادة الصّوائف، وأحكام السوق، والوثائق السلطانية. ثم فصل القول في أصناف وظيفة القاضي العشرة : قطع التشاجر والخصام، وإلزام الولاية لمن لا يحسن حفظ الأموال، والنظر في الأوقاف، وإقامة الحدود، والنظر في المصالح العامة الخ مستعرضا أمثلة على قيام قضاة قرطبة بتلك الوظائف فعلاً، أخذاً من **أحكام** ابن سهل.

وفصل القول في المشاورين، وهم طائفة من الفقهاء يعينهم السلطان ليستشيرهم القاضي فيما يعرض عليه من القضايا دون أن يلزم بالتقيد بآرائهم، وشبّهم بنظام المحكّمين المأخوذ به في بعض الدول، أو نظام المفوضين في مجلس الدولة الفرنسي الذي سارت على نهجه مصر في مجلس الدولة المصري والمحكمة العليا الدستورية... ثم تحدث عن عزل القضاة وأسبابه المختلفة، وأتى بثبت أسماء قضاة قرطبة في القرن الخامس حسب تاريخ توليتهم، وعددهم ستة عشر.

ويلي البحث ملحق عن **نوازل** ابن سهل، والتعريف بمؤلفه، ومخطوطاته في المكتبات العربية، ومحتوى أبوابه، وعمل الأستاذ خلاف في تحقيقه.

وتتركب المجموعة الثالثة من دراستين :

أولاهما عن أصداء كتب خليفة بن خياط في الأندلس، للأستاذ خوسي ماريا فورنيباس. فبعد التعريف بابن خياط (ت 240 هـ / 4 - 855 م) ذكر أنه لم يصلنا من الكتب الأربعة التي نسبها إليه ابن النديم في **الفهرست** سوى كتابين : **التاريخ**، **والطبقات**، وكلاهما تحدث عن

الأندلس ودخل إليها. أما **تاريخ ابن خياط** الذي كان محفوظا بالمغرب ونشر بتحقيق سهيل زكار - وهو أقدم تاريخ إسلامي وصل إلينا - فيعتبر وثيقة هامة لدراسة النظم الإسلامية في بدايتها بما يذكر من رجال الدولة والولاة والكتاب. **وطبقات ابن الخياط** المنشورة في بغداد بتحقيق أكرم العمرى، هي أيضا أقدم كتاب طبقات وصل إلينا كاملا، وتكمن أهميته في تتبع ذكر كل قبيلة عربية وكل مجموعة منها، وتحديد مكان كل عائلة هاجرت في صدر الإسلام.

استخرج الأستاذ فورنياس من التاريخ والطبقات ما يتعلق بالمغرب والأندلس، وهو على قلته مفيد يصحح كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها المشتغلون بالدراسات الأندلسية، وأورد من ذلك نماذج تتعلق بولاية موسى ابن نصير وأبنائه. وختم بذكر دخول تاريخ ابن الخياط وطبقاته إلى الأندلس على يد بقي بن مخلد، ورواية الأندلسيين لهما اعتماداً على مصادر أندلسية عديدة.

وتحدثت الأستاذة راشيل أريبي عن اهتمام المؤرخين الشرقيين بالأندلس منذ نشأتها كقطر بأقصى غرب بلاد الإسلام، ودور الحج والرحلات العلمية والتجارية في ربط الصلات بين المشرق والأندلس. انطلاقا مما كتبه المؤرخون الواقدي (في فتح افريقية) وعبد الملك بن حبيب (في استفتاح الأندلس) وابن عبد الحكم في **فتوح مصر**، والبلاذري في **فتوح البلدان**، والطبري في **تاريخه الكبير**، إلى الجغرافيين ابن حوقل، والمقدسي، واحمد الرازي، وياقوت الحموي... ولاحظت أن حظ الأندلس ضئيل في هذه الكتب على العموم، ولا يخلو من خلط عند من لم يزر

الأندلس منهم. وختم العرض بالإشارة إلى مؤرخي القرن التاسع هـ / 15 م كبهاء الدين الخالدي، وعمر بن الوردي، وعبد الباسط المصري، وما يستفاد من كتاباتهم عن المراحل الأخيرة لدولة الإسلام في الأندلس.

واشتملت مداخلة الدكتور عبد الله غنيم على ثلاث ملاحظات، تتعلق أولاها والثانية بلقاء الرحالة أبي عبيد البكري بابن حيان في قرطبة، وتحقيق سن هذا الرحالة الذي زار الأندلس وكتب عنها في المسالك والمهالك. وتعرض الملاحظة الثالثة إلى تداخل التاريخ والجغرافيا والادب فيا كتب كثير من المؤلفين المسلمين، أندلسيين ومشارقة، وتحقيق المناط في طبيعة كتب المسالك والمهالك.

وتأتي دراسة الدكتور عبد الرحمن علي الحجي أخيراً عن محاكم التفتيش الإسبانية لتغطي تاريخ المسلمين في الأندلس خلال القرون الثلاثة التي تلت سقوط غرناطة، وهو تاريخ مظلم مليء بضروب الإرهاب والتعذيب والتقتيل، والتحريق. وتضم الدراسة معلومات مفيدة كثيرة ـ على ما فيها من تكرار وعدم تنسيق اعتذر عنهما المحاضر في البداية بتأخر حضوره إلى المؤتمر ـ تتعلق بهذه المرحلة الطويلة المهولة التي لن تنتهي إلا بإصدار نابليون بونابارت سنة 1808 (1223 هـ) مرسوم إلغاء محاكم التفتيش، بل واستمرار الرهبان المتعصبين في القيام بعمليات إبادة بقايا المسلمين في دهاليز أديرتهم متسترين... واكتشاف مقابر الدفن الجماعي، واخرها مقبرة كنيسة مدينة يرينا بجنوب إسبانيا على حدود البرتغال المكتشفة سنة 1979، ينيف عدد الجثث فيها على ثلاثة الاف...

وقد قُدِّر عدد المسلمين الأندلسيين الذين أبيدوا حرقاً وقتلاً وتشريداً على يد محاكم التفتيش بستة ملايين إلى ثمانية، وعُرضت صور شرائحية تبين مدى وحشية القتلة وأساليبهم الجهنمية في التعذيب تقشعر منها الجلود.

وبعد، فإن ندوة تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان، قد أسهمت في ميدان البحوث الأندلسية إسهاما إيجابيا «وحققت فعلاً - كما قال السيد وزير الشؤون الثقافية في خطاب الاختتام - إنجازا علمياً ذا نجاعة وقيمة في طريق بنائنا الحضاري».

د. محمد حجي

العَرَبُ المسْلم في إطار التاريخ الإنساني

الدكتور عمر فروخ

التـاريخ مجرى واسع تتقلب فيـه الإنسـانيـة، والتـاريخ، بهـذا النظر، موكب للأمم الكبيرة التي تتكاثف في سبيل تطور الحضـارة الإنسـانيـة، أمـا الشعوب الصغيرة فلا تاريخ لها البتة، ولا هي تذكر في التاريخ إلا إذا هي شـاركت تلـك الأمم الكبيرة في ذلـك الموكب الإنسـاني العظيم الـذي هـو التاريخ. إننا حين نذكر الكنعـانيين مثلا، وهم الـذين يعرفون في عـدد من الكتب الحـديثـة بـاسم الفينيقيين ـ وهو اسم سماهم بـه الإغريق أو اليـونـان الأقدمون، فـالتوراة، مثلا، لا تعرف هـذا الاسم ـ فـإنمـا نـذكر وجوهـا من حضارتهم : صنـاعـة الزجـاج والأرجوان ـ اتسـاع التجـارة وبنـاء السفن ـ حمل الأبجدية إلى اليونان ـ بناء قرطاجة (قرية أو مدينة جديـدة) في عـدد من بقاع العالم القديم مما ساعد على تنقل الحضـارات وتمـازجهـا وعلى العمل على رقي هذا الإنسان وسعادته.

قلت ان الكنعانيين حملوا الأبجدية إلى اليونان، ولم أقل ـ كما يقول نفر من أهل الحماسة الإقليمية ـ : «ان الفينيقيين اخترعوا الأبجدية أو الأحرف الهجائية»، ذلك لأن الحضارات تطور لا ابتداع. فليس هنالك أفراد أو جماعات ـ في مكان ما أو في زمان ما ـ اخترعوا الأحرف الهجائية أو ابتدعوا علم الكيمياء أو احتكروا صنع الطائرة، ان كل وجه من وجوه الحضارة الإنسانية التي ننعم بها اليوم قد تطور من حال بدائية إلى الحال التي هو فيها الآن في أثناء أحقاب طوال من الزمن وعلى أيدي جماعات كثيرة من البشر. فالحساب بتشديد السين : (الكومبيوتر) بدأ طريق تطوره حينما خطر لأحد سكان ما بين النهرين، في لحظة من لحظات الوعي الإنساني، أن يقطع جذع شجرة ضخمة قطعا مستعرضا ثم يجعل من قطعتين من ذلك الجذع دولابين فوقهما لوح يحمل عليه أمتعته الثقيلة بدلا من أن يحمل تلك الأمتعة على كتفيه. فلولا الدولاب ـ أو فكرة الدولاب، على الأصح ـ لما كان عندنا اليوم مركب يسير في البر أو البحر أوفي الفضاء.

وتاريخ الإنسان هو تاريخ الحضارة الإنسانية، لا حكايات الأفراد أو الجماعات من أولئك الذين يتنازعون ويتقاتلون ويحاول كل خصم منهم أن يقتل خصمه أو يتلف حضارة خصمه، فنحن اليوم لا نذكر ـ في حياتنا الإنسانية العملية ـ القبائل العربية في الجاهلية قبل الإسلام ولا اقتتال القبائل الإفريقية أو اقتتال قبائل الجرمان البرابرة في العصور القديمة ولا في العصور الوسطى. وكذلك لا يخطر في بال مؤرخ من العرب أو من الترك ولا في بال مؤرخ في أوروبة أو في أمريكا أن يفتح في كتاب له بابا واسعا أو ضيقا للأسكيمو إلا إذا هو أراد أن يدل على وجه من وجوه الحضارة الإنسانية فيرسم لنا بيتا منحوتا في الثلج وأمام ذلك البيت امرأة وطفل في

ملابس ملائمة للحياة الباردة في ذلك الصقع من الأرض. ولا أعلم أن أحدا قد أرخ للأسر الحاكمة أو النافذة في مناطق القطب الشمالي حيث يسكن جماعات الإسكيمو منذ قرون. غير أن للمؤرخين اهتماما بلغة الإسكيمو لأن معرفة بناء لغة الأسكيمو وتبين أصولها يساعدان على فهم الأسباب التي عملت على هجرة الحضارات الإنسانية من مكان إلى آخر.

فإذا نحن قبلنا أن يكون التاريخ مجرى واحدا واسعا وأن يكون فضل كل أمة على غيرها من الأمم إنما هو في حملها شعلة الحضارة - على رأس هذا الموكب الإنساني الحافل - مدة تطول أو تقصر، فإنني أنتقل إلى مكانة المغرب والأندلس في إطار تاريخنا الإنساني. غير أني أستبيح هذا الحفل الكريم جزءاً من دقيقة لكلمة شخصية كانت مفتاحاً لهذا الموضوع.

جئت إلى المغرب مرة واحدة قبل اليوم، في عام 1956، بعيد الاستقلال. وقد تفضل جلالة الملك محمد الخامس بدءا بأن أذن لي بمقابلة كريمة ثم تفضل عودة بألا أترك المغرب قبل أن أري ما أريد. ولم يكن بالإمكان أن أرى كل مكان فطلبت أن أذهب إلى تيمل. وحاول الذي رافقني أن أتبدل بتيمل مكاناً آخر، كأغمات مثلا. ولكني أصررت على الذهاب إلى تيمل. إنني كنت في ذلك الحين أستاذاً زائراً في الجامعة السورية (جامعة دمشق) لتاريخ المغرب والأندلس.

كنت أنتقل على توال من السيارات : واحدة بعد واحدة. فلما وصلت إلى كندافة، فيما أذكر قيل لي أن السيارات العادية لا تستطيع الوصول إلى تيمل، فركبت سيارة عسكرية كانت تعلو بنا تلالا وتهبط بنا أودية يحار السائر في مسالكها.

بعد تلك الرحلة المباركة جعلت أفكر في تلك الجيوش التي قطعت هذه المسافات من جنوبي المغرب إلى شماليه ثم إلى الأندلس، سيرا على الأقدام، وهي تحمل طعامها وشرابها وأمتعتها وسلاحها، ولا أحسب أنك ستقول لي أن تلك الأشياء كانت تحمل على الخيل أو الإبل. ان قطع تلك المسافة ما بين جنوبي المغرب وشمالي الأندلس ـ والبحر بينهما ـ كان يحتاج إلى إيمان وعزيمة ومثابرة يعجز اللسان عن وصفها.

وإذا كنت أنا لا أنكر ذلك الصراع الداخلي الذي كان في قلب دولة المرابطين وفي قلب دولة الموحدين ثم ذلك العداء الذي نشب بين تلك الدولتين ـ مما نعرف مثله في كل دولة وبين كل دولتين، فلا يحسن بغيري أن ينكر تلك الخدمات الجلى التي نهض بها المرابطون والموحدون في سبيل الإسلام وفي سبيل الحضارة الإسلامية ـ والتاريخ إنما هو هذا « السير في طريق الحضارة»، لا ذلك القتال المألوف بين كل عصبيتين متجاورتين. إن العصبية عامل من العوامل التي يندفع بها التاريخ الإنساني في سيره، ولكنها ليست التاريخ الإنساني : إن الطعام وسيلة من وسائل الحياة، ولكنه ليس فصلا من فصول التاريخ الإنساني إلا بما يدل عليه من مرتبة الحضارة في كل جماعة من الجماعات الإنسانية.

ومع الايقان بأني أنا لا أنسى ذلك الجانب القاتم من حياة الغرب المسلم ـ والذي نرى مثله في كل زمان ومكان ـ فإنني لا أريد من غيري أن ينسى ذلك الجانب المشرق وهو أن يوسف بن تاشفين والمنصور الموحدي والمنصور المريني قد مدوا عمر الإسلام في الأندلس قرنين من الزمن، بينما هم قد ساعدوا على بقاء الحضارة الإسلامية، في الأندلس خاصة وفي بلاد الغرب كله عامة، زاهية راسخة إلى اليوم، إن الملايين الذين يأتون إلى اسبانية في

كل عام ـ من كل صوب وأوب ومن كل أمة ولسان ـ لا يأتون ليروا آثار الملوك الإسپان الذي انتصروا بالقوة العسكرية والقوة السياسية على الملوك المسلمين ولا ليشاهدوا الغرف التي كانت تقام فيها محاكم التفتيش، ولكنهم يأتون ليشاهدوا تلك الآثار الحضارية التي تركها الملوك المسلمون المهزومون في طليطلة وفي إشبيلية وفي غرناطة. ولا ريب عندي أبدا ـ وأرجوا ألا أكون مخطئاً ـ في أن مقدار الدخل القومي في اسپانية من مشاهدة الزائرين للآثار الإسلامية أعظم كثيرا من مقدار الدخل القومي الإسپاني من حاصلات الأرض الإسپانية.

ثم لا يجوز أن ننسى أن الحركة الفكرية التي ازدهرت في الأندلس ـ وفي أيام المرابطين والموحدين خاصة ـ لم تكن خيرا على المسلمين وعلى إسپانية فقط، ولكنها كانت خيراً على العالم كله أيضا.

من أجل ذلك كله أردت في هذا الحديث أن أمر مرا خفيفاً بهذين الوجهين من وجوه التاريخ : بالحضارة والثقافة، لنرى جانباً من قسط المغرب والأندلس في بناء العالم المتحضر، ثم انني واثق من أن نفرا كثيرين من أعضاء هذا المؤتمر ـ وخصوصاً أبناء هذا القطر العزيز ـ يعرفون من الموضوع الذي سأتكلم فيه أكثر مما أعرف أنا ـ وأنا المشرقي أتكلم على المغرب بين العلماء الجلة من أهل المغرب. غير أني أريد أن أجمع مشاهد من الحضارة الإسلامية الزاهية في نطاق واحد، كما يحاول الرسام أن يجمع أطرافاً من المناظر الطبيعية على قطعة واحدة من النسيج كي تستطيع العين أن ترى في هذه الصورة أكثر مما ترى العين عادة في ذلك المنظر الطبيعي نفسه.

وفيما يلي عدد من الأحداث التي جرت في الأندلس وفي المغرب ثم كان لها أثر بارز في التاريخ الإنساني.

ـ معركة بلاط الشهداء (رمضان 114 ـ مطلع الخريف 732م) :

هذه المعركـة بين الشرق والغرب، بين آسيـا وأوروبـا، بين الإسـلام والنصرانية كانت بدءاً للحروب الصليبيـة التي لم تنتـه بعـد، ويبـدو أنهـا لن تنتهي.

وهذه المعركة قليلة البروز في كتب التاريخ العربيـة لا نعلم منهـا إلا أنهـا كانت المرة الأخيرة التي قطـع فيهـا العرب جبـال البرانس إلى فرنســا، وهزموا ثم لم يحـاولـوا بعـدهـا اجتيـاز تلـك الجبـال إلى مـا وراءهـا. ولكن الكتب الفرنجية تعظم شأنها وجميع تلـك الكتب الفرنجيـة تخلع عليهـا معنى دينيا. لقد جمعت هذه المعركة جيوشاً من جميع أقطار أوروبـا، وانهزم عبـد الرحمن الغافقي فيها بعاملين :

أ) ان هـذه الغزوة كانت الطرف الأقصى للمـد العسكري الإسلامي في أوربا : إن عـدد الـذين قـامـوا بهـذه الغزوة من العرب كانوا قليلين جـداً، وخصوصـاً بـالإضـافـة إلى الحشـود العظيمـة من الأوربيين الـذين حضروهـا. هؤلاء الأوربيون لم يكـونـوا فرنجـة فقط من أتباع قار له ـ حـاجب القصر في الـدولـة الميروفيـة من جنـوبي فرنسـا ـ، بـل كـانـوا من أقطـار مختلفـة ومن القبـائـل الجرمانيـة خـاصـة، تلـك القبـائل التي كان بعضهـا قـد دخل في النصرانية، كما كان بعضهـا لم يـدخـل في النصرانيـة بعـد. ولم يكن حشد هذه الجموع من القبائل الجرمانية في تلـك البقعـة المتطرفـة

في قارة أوروبا والبعيدة عن مساكن البرابرة الجرمان سهلا على قار له. ولا شك في أن البابوية هي التي فعلت ذلك. ان البابا غريغوريوس الثاني (715 ـ 731م) الذي جاء عقب الفتح الإسلامي للأندلس ثم غريغوريوس الثالث (731 ـ 741م) الذي جاء بعد غريغوريوس الثاني وكانت معركة بلاط الشهداء في أيامه، كانا يعملان على تنصير القبائل الجرمانية فكانا أقدر على جمع تلك الحشود في تلك المعركة من قار له بن بيبين.

ب) ان الخطة العسكرية التي واجهها عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء كانت جديدة على الجندي العربي : قام الجنود الذين كانوا بأمرة قار له مربعات متراصة، بينما كان جنود عبد الرحمن فرسانا في الأكثر، ولم يبال قار له بالخسائر البشرية، فكان كلما فني صف من صفوفه قدم صفا آخر ليحل محل الصف الأول، وكلما فني مربع ملأ مكانه بمربع جديد.

أما القيمة العامة لهذه المعركة ـ من وجهة النظر الأوروبية ـ فتظهر في أقوال المؤرخين الأفرنج، وسأكتفي بطرفين من هذه الأقوال.

فعلى الطرف الأسمى من التاريخ الأوروبي نجد المؤرخ الإنكليزي الرصين ادورد غيبون يقول : «وسرعان ما انتشرت البشائر (بعد معركة بلاط الشهداء) في العالم الكاثوليكي ثم أخذ الرهبان في إيطالية يجزمون بأن ثلاثمائة وخمسين ألفاً من المسلمين... قد رضخت رؤوسهم تحت مطرقة شارل مارتل (قار له بن بيبين)، ثم يأسف فيبون لأن رجال الدين المسيحي لم يطوبوا شارل (لم يجعلوه قديساً) بعد أن أنقذ النصرانية وبعد أن أصبحوا هم أنفسهم مدينين لسيفه بالحياة التي يتمتعون بها اليوم.

أما على الطرف الثاني من التاريخ الحاسي فنجد كتابا مدرسيا فيه بما يلي : «...فماذا كانت حال العالم، إذن، لو أن العرب انتصروا علينا ؟ إذن، لكنا نحن (يقصد الفرنسيين) اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين».

ـ أُغنية رولان :

هذه الأُغنية ـ وهي في الحقيقة قصيدة طويلة ـ تعد في الأدب الفرنسي أجمل روائعه وأقدمها أيضا، في ذلك الحين لم تكن اللغة الفرنسية قد أصبحت فرنسية بالمعنى الذي نعرفه الآن.

هذه الملحمة ـ كما يجوز أن تسمى ـ وضعت في القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس للهجرة) لتقص تاريخ معركة جرت في شمالي الأندلس، سنة 161 للهجرة (778م).

أراد شارلمان أن يقتحم الأندلس، فتصدى له عبد الرحمن الداخلي ـ أو الأُمراء المتوارثين في الأندلس وهزمه، ولما أراد جيش شارلمان الانسحاب عبر مضيق رونس (رونسفال) غدر به البشكنس وقضوا على معظم ذلك الجيش. من هذه الهزيمة نشأت «ملحمة رونسفال» أو أُغنية رولان. ومع أن الأحداث والأسماء في هذه الملحمة أقرب إلى عالم الخرافة منها إلى ظلال الحقيقة، فإن هذه الأُغنية قد احتلت المكان الأول في صدر الأدب الفرنسي وفي صدر اللغة الفرنسية أيضا.

سفارة الشاعر يحي بن حكم الغزال :

كان يحي بن حكم المعروف بالغزال (تـ 250 هـ = 864م) شاعراً محسناً ومحدثاً بارعاً وعارفاً بمداراة الناس واستئلافهم، وقد أرسله الأمير عبد

الرحمن الأوسط (206 ـ 238 هـ) رابع الأُمراء المتوارثين في الأندلس في سفـــارتين على الأقـل إحـــداهمـــا إلى القسطنطينيـــة (نفـح الطيب 1 : 346 ـ 347).

وقـــد رحـل يحيى بن حكم إلى العراق، بعـــد مـوت أبي نـواس (تـ 199 هـ = 814م) بمدة يسيرة، «وأقام في رحلته تلك مـدة يتجول في ديار المشرق» (المطرب 149). ويبـدو أن سفـارتـه إلى القسطنطينيـة كانت بعد ذلك، في أيام ملك الروم ثيوفيلوس (829 ـ 842م).

أمـا سفـارة يحيى بن حكم الغزال التي أكثر هو من ذكرهـا والتي فصل المؤرخون أخبارها فهي سفـارتـه إلى شمالي أوروبـا : إلى الـدنمـارك أو إلى جـزيرة إرلنـدة إحـدى الجـزر البريطـانيـة، حيثمـا كانت إرلنـــدة في حكم الفـايكنـغ أو الملوك القراصنــة من بـلاد الشمال الأوروبي (شبـه جـزيرة اسكندناڤية والدنمارك).

ويرى المستشرق الفرنسي ليڤي بروفنصـــال (تـ 1956م) أن ليحيى الغزال سفارة إلى القسطنطينية، وليس له سفـارة إلى شمالي أوروبـا، غير أن يحيى الغزال نفسه يذكر هذه السفارة إلى شمالي أوروبا (إلى الدانمارك) أو إلى جـزيرة إرلنـدة (في الغرب الشمالي من قـارة أوروبـا). يقـول يحيى الغـزال (المطرب 144).

إني تعلقت مجـــــوسيـــــــة ... تـــأبى لشمس الحسن أن تغربـــا
أقصى بـــلاد اللـــــه لي حيث لا ... يلفي إليهـــا ذاهب مـــذهبـــا
يـــاذود، يـــا رود الشبـــاب التي ... تطلـع من أزرارهـــا الكـوكبـــا

وجاء في المطرب (ص 138 وما بعدها) :

«ولما وفد على السلطان عبد الرحمن[1] رسل ملك المجوس تطلب الصلح، بعد خروجهم من اشبيلية[2]، وإيقاعهم ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول فيها، رأى (عبد الرحمن أن يراجعهم بقبول ذلك، فأمر (يحيى بن حكم) الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأي وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب. وصحبه يحيى بن حبيب[3]. فنهض إلى مدينة شلب[4] وقد أنشيء لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفيء على هديته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال. فلما حادوا الطرف الأعظم[5] الداخل في البحر والذي هو في آخر الغرب ـ وهو الجبل المعروف بألوية ـ وعصفت بهم ريح شديدة ـ (قال يحيى الغزال)....

ثم ان الغزال سلم من هول تلك البحار وركوب الأخطار، ووصل إلى أول بلاد المجوس ، إلى جزيرة من جزائرها. فأقاموا فيها أياما وأصلحوا مراكبهم وأجموا أنفسهم[6].

---

1) هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) بن الحكم، رابع الأمراء المتوارثين في الأندلس من 206 إلى 238 للهجرة (822 ـ 852م).

2) في البيان المغرب (2 ، 88) : «وكان احتلالهم (نزول المجوس) باشبيلية، يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم، سنة 230 وكان بين دخولهم إلى اشبيلية وخروج من بقي منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما».

3) يحيى بن حبيب....

4) شلب مرفأ في الجنوب الغربي من الأندلس (في البرتغال اليوم).

5) الطرف : الرأس قطعة من جبل داخلة في البحر ؟).

6) أجموا أنفسهم : أراحوا أنفسهم، استراحوا.

وتقـدم مركب المجوس إلى ملكهم فـأعلمـه بلحـاق الرسـل معهم. فسر بذلك ووجه فيهم[7]. فمشوا إليه إلى مستقر ملكـه ـ وهي جزيرة عظيـة في البحر المحيط، فيها مياه مطرده وجنـات. وبينهـا وبين البر ثلاث مجـار[8] ـ وهي ثلاثمائة ميل ـ وفيها من المجوس مـالا يحصى عـددهم. وتقرب من تلـك الجزيرة جزائر كثيرة، منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، ومـا يليهم من البر أيضـا لهم مسيرة أيـام. وهم مجوس. وهم اليـوم على دين النصرانيـة وقـد تركوا عبادة النار ودينهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصـارى إلا أهل جزائر منقطعــة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبـــادة النـــار ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار[9] وهؤلاء يقتلونهم ويسبونهم.

فــأمر لهم الملــك بمنزل حسن من منـــازلهم وأخرج إليهم من يلقـــاهم واحتفــل المجـوس لرؤيتهم. فرأوا الـذي رأى العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم...

وقام (يحيى بن حكم الغزال) مـاثلا بين يـدي (الملـك) فقـال : السلام عليك، أيها الملك، وعلى من ضمه مشهدك، والتحيـة الكريمـة لـك. ولا زلت تمتع بالعزة والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة والمتصلـة بـالـدوام في جـوار الحي القيـوم الـذي «كل شيء هـالـك إلا وجهـه، لـه الحكم وإليـه المرجع[10].

---

7) لعلها فوجهه بهم (أرسلهم) وجه فيهم (في بحارة المركب الذين وفدوا على ملك المجوس بخير رسل عبد الرحمن) جماعة لاستقبال يحيى بن حكم الغزال ورفيقه يحيى ابن حبيب.

8) مجار (؟). بعد هذه الكلمة جملة تدل على أن المجرى مائة ميل.

9) الشنار : العيب أو العيب الذي يصحبه عار. ولعلها الشغار (بـالكسر) : تزوج امرأة بلا مهر أو تبادل الزوجات.

10) في القرآن الكريم (28 : 88، سورة القصص) : **﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر، لا إله إلا هو : له الحكم وإليه ترجعون﴾.**

ففسر الترجمان ما قاله (الغزال)، فأعظم الملك الكلام وقال : هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم...

ثم دفع (يحي بن حكم الغزال) إلى (ملك المجوس) كتاب السلطان عبد الرحمن وقرىء عليه الكتاب وفسر له، فاستحسنه...

فلما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه[11] لتراه. ثم شخص فيها طويلا ينظرها نظر المتعجب. فقالت : لترجمانها : سله عن ادمان نظره :... الفرط استحسان أم لضد ذلك ؟ فقال : ما هو إلا اني لم أتوهم أن في العالم منظرا مثل هذا. وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم فلم أر فيهن حسنا يشبه هذا فقالت لترجمانها : سله : أجد هو أم هازل ؟ فقال : لا، بل مجد...

وكان المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال قد أنكر أن تكون للغزال رحلة إلى شمالي أوروبا وقال أن تلك الرحلة كانت إلى القسطنطينية فقط.

ومع أني أحمل للمستشرق المذكور احتراما، فقد سمعت منه في السوربون في باريس (عام 1936م) ما استفدت منه كثيرا في التاريخ وفي قراءة الكتابة المنقورة على الخشب (بليوغرافي) وفي غير ذلك من تنظيم الفكر والبحث، فإني أرى أن شعر يحي بن حكم الغزال وأن الوصف المفصل لرحلته يدلان على أن الرحلة المذكورة كانت إلى شمالي أوروبا :

- ان أهل القسطنطينية روم نصارى، وليسوا مجوسا يعبدون النار.
- ان أهل القسطنطينية لا يسكنون في جزيرة من جزر المحيط.

11) وجهت فيه : أرسلت في طلبه، أرسلت تطلبه.

- ان مركب الغزال أبحر من شلب في غربي الأندلس على الجانب الجنوبي من البحر الأخضر (بحر الظلمات : المحيط الأطلسي أو الأطلنطيكي). ولو كانت هذه الرحلة إلى القسطنطينية لأبحر الغزال من مرفأ في شرقي الأندلس أو في جنوبي الأندلس على بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط).

- ويقول النص أنه كان حول الجزيرة الكبيرة التي كان يسكنها ملك المجوس جزائر كثيرة كبار وصغار وكان أهل تلك الجزائر لا

يزالون على المجوسية يعبدون النار. وهذا وصف لا ينطبق على بلاد الروم لا من الناحية الطبيعية الجغرافية ولا من الناحية الاجتماعية الدينية.

ولنا هنا من تاريخ الحضارة جوانب بارزة.

- مكانة ملوك الأندلس في العالم الوسيط.

- محاولة أهل اسكندينافية (الدانمارك وما وراءها شمالا أن يهاجروا جنوبا إلى بلاد دافئة. من أجل ذلك كانت هجمتهم على مدينة اشبيلية، في أول شهور سنة 230 للهجرة (البيان المغرب 2 : 87 ـ 88)، في قلب الخريف من عام 844 للميلاد.

- اتساع نطاق اللغة العربية ووجود تراجمة يعرفون اللغة الاسكندناڤية واللغة العربية في بلاط الأندلس وفي بلاط ملك المجوس. وفي النص جملة تلفت النظر ـ ولا أدري حال مجيئها على قلم أبي الخطاب عمر بن حسن بن دحية (تـ 633 هـ = 1236 م)،

هي : «فقالت (امرأة ملك المجوس) لترجمانها» المطرب 142 : مرتان لترجمانها، ومرتان للترجمان)...

- وسواء علينا أكان الترجمان عربيا يعرف اللغة الشمالية أو كان شماليا يعرف اللغة العربية أو كان غير مسلم يعرف اللغتين، فإن معنى هذا أن اللغة العربية كانت ـ منذ ذلك الحين ـ لغة عالمية، في ذلك الجزء من أوروبا، أما في المشرق فإن اللغة العربية كانت قد أصبحت لغة عالمية منذ مطلع الخلافة الأموية في أواسط القرن الأول للهجرة (أواسط القرن السابع للميلاد).

عبد الرحمن الناصر، من 300 للهجرة (912م) إلى 350 للهجرة (961م) : في أيام الأمير عبد الله (275 ـ 300 هـ) سابع الأمراء المتوارثين في الأندلس كانت الأمور مضطربة والفتن قائمة وأعداء الإسلام يكيدون للإسلام بكل سبيل. ولم يكن أبناء الأمير عبد الله أرأف بالأندلس من أعداء الأندلس، وقد قتل محمد بن عبد الله أخاه مطرفا ثم قتل عبد الله ابنه مطرفا قصاصا له على قتله أخاه. وقيل أن الأمير عبد الله قد قتل ابنيه لأنهما كليهما كانا يكيدان له ويصلان أيديهما بيد ابن حفصون.

ويبدو أن الأمير عبد الله كأنما استيقظ من غفلة فرأى أن يحرم أبناءه الباقين من الإمارة وأن يعهد بالإمارة إلى حفيدة عبد الرحمن بن محمد المقتول، بعد أن أعد حول عبد الرحمن هذا نخبة من رجاله الذين يعتقد فيهم الإخلاص.

وجاء الأمير عبد الله بن محمد المقتول إلى عرش الأندلس ابن اثنتين وعشرين سنة، فاستطاع بمساعدة من كان حوله ثم بما كان في نفسه من الإخلاص والقدرة أن يداوي جراح الأندلس.

كان أول ما فعله عبد الرحمن بن محمد القضاء على فتنة عمر بن حفصون. ان عمر بن حفصون هذا لم يكن مسلما، وقد ربي في بيئة تكيد للإسلام ـ وكان اسمه «عمر» وجها من وجوه هذه المكيدة. ولم يكن التغلب على ابن حفصون يسيرا، فقد كان معتصما في حصن ببشتر من كورة رية في جنوبي الأندلس، وكان حصن ببشتر في مكان منيع من تلك المنطقة.

بدأ عمر بن حفصون فتنته، سنة 277 هـ (890م) بعد أن جمع حوله جموعا مختلفة الأهواء من المسلمين الذين خدعوا باسمه الإسلامي ومن نصارى الأندلس الذين كانوا يعرفون حقيقة أمره. ولقد عجز الأمراء محمد بن عبد الرحمن (238 ـ 273 هـ) والمنذر بن محمد (273 ـ 275 هـ) وأخوه عبد الله بن محمد (275 ـ 300 هـ) عن التغلب على ابن حفصون.

وأدرك الأمير عبد الرحمن بن محمد أن ابن حفصون يتلقى العون من النصارى في الأندلس ومن النصارى في خارج الأندلس (من الفرنجة ومن البابوية أيضا). ثم أدرك الأمير عبد الرحمن أن أسلافه خابوا في القضاء على فتنة عمر بن حفصون لأنهم كانوا يحاربونه مباشرة، وقد كان ابن حفصون كلما خسر جماعة من أتباعه أو سلاحا من سلاحه أو جانبا من ذخائره واعتدته أمدته الفرنجة والبابوية بأكثر مما فقد. فخطر لعبد الرحمن أن يقطع أوصال ابن حفصون التي تربطه بالداخل وبالخارج قبل أن يصمد (أو يقصد أو يتجه) له مباشرة، فبذلك استطاع الأمير عبد الرحمن أن يقضي على تلك الفتنة التي طالت ثماني وعشرين سنة.

ولما قتل عمر بن حفصون ودخلت جيوش الإمارة إلى حصن بيشتر وأرادوا إزالة معالم تلك الفتنة ووصلوا إلى قبر ابن حفصون وجدوه مدفونا على الطريقة النصرانية[12].

ثم استطاع عبد الرحمن أن يخمد جميع الفتن.

بعدئذ التفت عبد الرحمن إلى ما حوله :

كانت الخلافة العباسية في حال شديدة من الضعف : كان الخليفة المقتدر يعزل ويولي مكانه عبد الله بن المعتز يوما واحد. ثم يخلع ابن المعتز ويقتل ويولي مكانه محمد القاهر - اسما على غير مسمى، فإنه لم يصل إلى أن يكون له من الخلافة اسم ولا رسم (فعل).

ثم انه لم يبق في هذه الخلافة الاسمية إلا يومين. ومع ذلك كله فقد بقي المقتدر على عرش العباسيين في بغداد خمسا وعشرين سنة (295 - 320 هـ) لم يكن له في أثنائها من الأمر شيء، برغم أن لقبه على العرش كان «المقتدر».

- وبايع الفاطميون بالإمامة، في القيروان (من القطر التونسي)، لعبيد الله ابن محمد، سنة 297 للهجرة (910م) فتلقب باسم «المهدي» وأقام دولة تناصب الدولة العباسية في بغداد والدولة المروانية في قرطبة عداء شديداً باسم الدين.

---

12) يدفن الميت (بفتح فكون) في الإسلام ملفوفا بكفن (ملحفة من نسيج أبيض) ويوضع رأسه إلى الغرب مع إدارة وجهه نحو القبلة. أما في النصرانية فإن الميت يدفن في ثياب عادية ويكون معه عدد من حاجاته في الدنيا (ساعة، خاتم، إلخ...). ثم يجعل نحو الشرق.

- وكذلك كان الملوك الذين كانوا ينبعون في شبه جزيرة ابارية (اسپانية والبرتغال) ـ في أيام ضعف الدولة المروانية في الأندلس ـ يحكمون أتباعهم باسم الدين. في البيان المغرب (2 : 187) : «فجمع العلج شانجه كفرته واستمد بنصرانيته من كل مكان... حتى توافى له جمع رجا أن يكافح المسلمين به».

وكذلك كانت البابوية تفرض سلطتها على العالم المسيحي في أوروبا الكاثوليكية باسم الدين ثم تشن على المسلمين وعلى الإسلام باسم الدين أيضا حربا شعواء تهب بها من كل مكان.

فلم يكن من المنطق في حكم الشعوب أن يظل عبد الرحمن في الأندلس بعيدا عن تلك الهيبة التي يوحي بها الدين إلى النفوس، فنادى بنفسه خليفة، سنة 305 للهجرة (912م)، وسمى نفسه «عبد الرحمن الناصر لدين الله»، ولقد كان عبد الرحمن يومذاك أحق المالكين بلقب خليفة في المشرق وفي المغرب وفي العالم الإسلامي وفي العالم المسيحي أيضا.

وسرعان ما علت مكانة الأندلس بعلو مكانة عبد الرحمن الناصر فجاءت إلى بلاطه في عاصمته الجديدة ـ في مدينة الزهراء ـ رسل الملوك من الروم ومن الصقالبة، كما كان يأتي إليه ملوك الإسپان النصارى يحتكمون بين يديه.

ونحن نشكر ابن عذاري على تاريخه الكوكب الزباني (الكوكب المذنب) إذ قال (2 : 210).

وفي سنة 330، في المحرم من هذه السنة (عام 941م) طلع كوكب الزباني في الأفق الغربي بقرطبة... وكان أول ليلة لاح فيها للأبصار ليلة

السبت لثلاث بقين من المحرم منهـا (330 هـ)، وفي ليلـة سنـة عشرة من أكتـوبر (تشرين الأول). وتمـادى طلـوعـه (طـال وجـوده مرئيـا في السماء) مستعليا مكبرا في السماء حتى توارى[13].

ان هـذا المـذنب الـذي ظهر في سماء قرطبـة سنـة 330 للهجرة (عـام 941م) هو على القطع مذنب هـالي الـذي ظهر عـام 1682 للميلاد، في أيـام الفلكي البريطاني أدمونـد هـالي (تـ 1742م) فرصـده هـالي وحسب مـداره وسرعته ثم تنبـأ بـأنـه سيعود إلى سماء أرضنـا في أوخر أواخر عـام 1758 أو أوائل عام 1759. فعاد المذنب في الزمن الذي كان هالي قـد عينـه. بعـدئـذ ظهر هذا المذنب عام 1910 للميلاد. ولقـد صح الحسـاب الـذي أجراه هـالي فقال ان دورة هذا المذنب في فلكه نحو ستة وسبعين عاماً.

ـ الحكم المستنصر من سنة 350 للهجرة (961م) إلى سنـة 366 للهجرة (976م) : الحكم المستنصر هـو ابن عبـد الرحمن النـاصر وخليفتـه على عرش الأندلس. ورغم المديح الذي كالـه ليفي بروفنصـال في كتـابـه القيم «تـاريخ اسپـانيـة الإسـلاميـة» (2 : 166 ـ 167) للحكم المستنصر، فـإن الحكم المستنصر كان كما يقـول ليفي بروفنصـال نفسـه، يعيش على الشهرة التي حـازهـا أبوه وفي الأمن الـذي أقره أبوه في البلاد. ثم ان الحكم المستنصر كان يشجع الفكر ويهتم بالنتاج الفكري. واتسعت في أيامه حركة العلم والفلسفة والعناية بالكتب. وبالغوا في شأن جمع الكتب في أيام الحكم المستنصر فقـالوا كان في مكتبـة الحكم المستنصر أربعمائـة ألف كتـاب. وزاد آنخل جنثـالث

13) مستعليا : مرتفعا فوق الأفق (؟)، مكبرا (بفتح الباء المشددة : يبدو في كل ليلة أكبر مما كان في التي قبلها ؟. توارى : اختفى (لأنه يستمر في الابتعاد عن الأرض).

بالنثيا في المبالغة فقال (تاريخ الفكر الأندلسي، ص 10) ان الحكم قد قرأ هذه الكتب كلها وعلق على معظمها. ويبدو أن جنثالث بالنثيا لم يحسب حساب صفحات هذه الكتب.

ان الصفحة العادية من الكتاب العادي تقرأ في العادة في أربع دقائق (وربما وقف القاريء الباحث على الصفحة الواحدة، أو على الجملة الواحدة، أو الكلمة الواحدة أحيانا ساعات). فإذا فرضنا أن قارئا مجتهدا لم يكن له عمل البتة، وكان يقرأ في كل يوم ثماني ساعات، فإنه يستطيع أن يقرأ في خمسين سنة نحو مليوني صفحة. أما الكتب التي قيل أن مكتبة الحكم المستنصر قد اشتملت عليها فكانت، كما قالوا، أربعمائة ألف كتاب فلو فرضنا أن كل كتاب كان (على التعديل) مائة وخمسين صفحة (وهذا تقدير متواضع جدا). فإن صفحات هذه الكتب تبلغ حينئذ ستين مليون صفحة. فمتى كان الحكم المستنصر يعلق على معظم هذه الكتب ؟

غير «أنني لا أنكر فضل الحكم المستنصر على تاريخ الحضارة الإنسانية». ان اتساع الأفق الذي كان للحكم المستنصر قد ساعد على ازدهار الفكر العربي ثم على انتشار هذا الفكر العربي من طريق الاحتكاك الشخصي ومن طريق نقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية خاصة - في أوروبا، في العصور الوسطى - فإن معظم الأثر الحضاري ومعظم الأثر الثقافي (سواء أكان من نتاج المشرق أو من نتاج المغرب) قد سلكا طريقهما إلى أوروبا المسيحية من الأندلس عبر جبال البرانس. غير أن ذلك الاتساع في الأفق الفكري قد شجع نفرا من ذوي الآراء المنحرفة، من أمثال ابن مسرة (تـ 319 هـ)، على نشر آرائهم المشوهة.

ـ المنصور بن أبي عامر (تـ 392 هـ = 1002م) :

وهنا، في هـذا السرد، يـأتي الحـاجب (رئيس الوزارة) المنصور بن أبي عـــامر. يقـول ابن خلـــدون (المقـــدمـــة، بيروت 1900م، ص 32) : «.....الوزراء الـذين عظمت آثـارهم وعفت على الملـوك أخبـارهم كالحجـاج (ابن يـوسف) وبني المهلب والبرامكـــة وبني سهـل بن نـوبخت وكافـور الأخشيـدي و (المنصور) بن أبي عـامر وأمثـالهم، فغير نكير الألمـاع بـآبـائهم والإشارة إلى أحوالهم لانتظامهم في عداد الملوك».

ولا شك في أن المنصور بن أبي عـامر كان لـه بحسن إداراتـه للـدولـة وبانتصاره في المعارك أثر بعيد في تاريخ الأندلس وتاريخ ما حولها أيضـا. جـاء في «تـاريخ العرب» للـدكتور فيليب حتي (الطبعـة العربيـة ـ بيروت 1951م، 3 : 635) : «أما المؤرخ الراهب الذي دون هذه الحـادثـة (موت المنصور بن أبي عـامر)، فقـد علـق عليهـا بإيجـاز معبرا عن شعـور نصـارى اسپانية تجـاههـا فكتب : في سنـة 1002 (للميلاد) مـات المنصور فـدفن في جهنم».

ان المنصور بن أبي عامر يـأتي في حفـظ وحـدة الأنـدلس وطول عمر الإسلام فيها في المرتبة الثانية بعد عبد الرحمن الناصر.

ـ ملوك الطوائف :

امتد عصر ملوك الطوائف على الحصر، منذ سقوط الدولة المروانيـة في قرطبة سنـة 422 للهجرة (1031م) إلى استيلاء المرابطين على الأنـدلس سنـة 484 للهجرة (1091) ستين سنة كانت الأندلس في أثنائها مضطربـة بـالنزاع بين أولئـك الملـوك الصغـار ومروعـة بهجوم الاسپـان على مـدنهـا ومـذللـة

باستيلاء الإسبان على تلك المدن وبطرد أهلها المسلمين منها أو بقتلهم إذا هم استحبوا البقاء في الوطن على الجلاء عنه.

ولم يفرح بتلك الدويلات سوى أولئك الشعراء الذين كانوا يدورون من بلاط إلى بلاط ويمدحون أصحابها ثم ينالون على ذلك المديح جوائز تقل أو تكثر قليلا بحسب ثروة هذه البلاطات. ولم يكن في أراضي تلك الدويلات ولا في مرافقها الاقتصادية ما يمكن أن تبنى عليه «ميزانية دولة»، فكان أصحاب هذه الدويلات يصادرون الأموال حيث يجدون تلك الأموال ويقهرون السكان بتسليط الجباة عليهم.

والمسوغ الوحيد لذكر هذه العصر في سلك التاريخ أن الموشحات(14) كانت نتاج هذا العصر، ولا شك في أن الموشح الذي نشأ في الأندلس في تلك الحقبة من الزمن قد زاد في بهاء الحكم الإسلامي في الأندلس وقد وهب اللغات الأجنبية أدبا لم يكن لها. ولولا الموشحات الأندلسية لتأخر نشوء الآداب الافرنجية قرونا كثيرة.

- يوسف بن تاشفين :

قلت في إحدى دراساتي القصار(15).

«... من أجل ذلك أحسن يوسف بن تاشفين صنعا حينما عمد بعد معركة الزلاقة (479 هـ = 1086م) إلى الاستبداد بأمر الأندلس دون

14) الموشحات نوع من الشعر العربي يبنى على أوزان مختلفة وقواف تتبع أشكالا من النسق (الترتيب) وقد كان لهذه الموشحات أثر بالغ في نشأة الآداب الأوروبية الحديثة راجع تاريخ الأدب العربي «للمؤلف» (4 : 410 - 447).

15) ابن طفيل وقصة حي بن يقظان، راجع الطبعة الثانية (بيروت 1335 هـ = 1946م) ص 14.

رؤساء الطوائف، إذ استطاع أن يحفظ سلطان العرب في الأندلس إلى حين...»

عاتبني على هذا القول صديق لي من المستشرقين المنصفين، هو عبد الرحمن نيكل[16]، ذلك لأن أكثر اهتمام صديقي المستشرق كان بالأدب وبتلك البلاطات التي كانت في رأيه ـ وفي ذلك شيء من الصواب ـ حدائق غناء من رياض الأدب. ولعل نفرا كثيرين من الافرنج ومن العرب أيضا يذهبون في ذلك مذهب صديقي المستشرق. أما أنا فقد كنت، ولا أزال أرى أن الأدب ـ والشعر منه خاصة ـ أقل ما في عبقرية الأمة العربية قيمة، وأن فضل الأمة الإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية إنما هو، في المكان الأول، في تلك الثقافة التي حملها الإسلام إلى العالم أجمع في الرياضيات والطبيعيات وفي الفكر ونظام الفقه وفي علم الاجتماع وفي التاريخ وفي وجوه كثيرة غير هذه. وسأمر بهذه في آخر هذا البحث.

ونأتي إلى يوسف بن تاشفين :

أدرك ملوك الطوائف عجزهم عن مقاومة الإسبان ـ والفرنجية والبابوية من وراء الإسبان ـ ولم يكن في العالم الإسلامي يومذاك أقدر على رد هذا السوء من يوسف بن تاشفين، فاستنجدوا به، وهم على مضض بأسباب كثيرة ليست هذه الصفحات مكانا لتفصيلها. ولم يسرع يوسف ابن تاشفين في الاستجابة لمطلب ملك الطوائف، بل تريث حتى عرف هذا المطلب من جميع جهاته ثم أعد له العدة الوافية. ان يوسف بن تاشفين لم

16) الدكتور أ.ر. نيكل ولد في بوهيميا (تشيوكوسلوفاكيا اليوم) عام 1885م. وكانت وفاته منذ بضع عشرة عام. مستشرق بارع في معرفة اللغات (يكتب بعشرين لغة منها اليابانية). وهو من الذين يمثلون النظرية العربية (تأثر الآداب الأوروبية الحديثة بالموشحات الأندلسية).

يرد أن ينتصر ملوك الطوائف أو أن يدافع عن الأندلس وأهل الأندلس بالألفاظ التي لا تعني شيئا، بل أراد أن يحسم الداء حسما.

وأخيرا جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وخاض معركة الزلاقة ـ وكان عبقريا في ترتيبها ـ وليست هذه الأسطر هنا أيضا محلا للتبسط في سير تلك المعركة. ولقد كان لمعركة الزلاقة نتائج كثيرة منها هذه النتيجة التي لم أر مؤرخا ذكرها. ان البابوية كانت تقوم بحملات صليبية على المسلمين منذ معركة بلاط الشهداء، وكانت قد وجهت جهودها في ذلك إلى الجانب الغربي من بلاد الاسلام ـ إلى بلاد الأندلس ـ وفي ذلك منطق صحيح، فإن الأندلس قريبة من مراكز تموين البابوية بالرجال والعتاد. ولكن البابوية أدركت، بعد معركة الزلاقة أنها لن تقوى على استمرار في حملاتها الصليبية على الغرب الإسلامي ما دام يوسف بن تاشفين ملكا في الغرب الإسلامي، عندئذ فكرت البابوية في نقل ميدان قتالها إلى المشرق الذي كان، في ذلك الحين، في حال شديدة من الضعف. كانت معركة الزلاقة في عام 1086 للميلاد، وبعد عشر سنوات، في عام 1096 للميلاد، قامت البابوية بالحملة الصليبية على المشرق. والمؤرخون العرب يخطئون حينما يعتدمون العام الميلادي 1096 بدءاً للحروب الصليبية ثم العام الميلادي 1291 نهاية لتلك الحروب، ان تلك الحقبة كانت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية. ولكن هذه الحرب نفسها بدأت منذ احتك الإسلام بالنصرانية الكاثوليكية، وهي لا تزال مستمرة.

وكان يوسف بن تاشفين نبيلا، فإنه بعد معركة الزلاقة رأى أن يترك الأندلس لملوك الأندلس يتولون أمور أنفسهم بأنفسهم ـ بعد أن رد هو عنهم

عادية القوى النصرانية ـ ثم ترك لهم جميع الغنائم التي كان قد غنمها في تلك المعركة الظافرة وترك في الأندلس أيضا أربعة آلاف جندي لمساعدة ملوك الأندلس على الدفاع عن أنفسهم وعن بلادهم.

ولكن سرعان ما عاد ملوك الطوائف إلى التنازع وإلى تضييع البلاد، فجاز يوسف مرة ثانية إلى الأندلس للحفاظ على البلاد وعلى الإسلام في تلك البلاد. غير أنه وجد ملوك الطوائف أشد عداء فيا بينهم وأقل اهتماما بمستقبلهم ومستقبل أبنائهم، وعرف أيضا أنه إذا أصر على إنقاذ البلاد من أذى نصارى أوروبا فإن ملوك الطوائف هؤلاء سيقاومونه. وكانوا قد بدأوا يتآمرون عليه. من أجل ذلك عاد إلى المغرب بعد هذا الجواز الثاني ولم يقم بعمل. ولكنه كان قد أضمر في نفسه أمرا. وفي سنة 484 للهجرة جاز يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة إلى الأندلس لا ليقاتل الإسبان، بل ليزيل ملوك الطوائف عن عروشهم فيحفظ الإسلام والمسلمين في الأندلس. ولقد مد عمله هذا عمر الحكم الإسلامي في الأندلس قرنا كاملا. من أجل ذلك قلت في مطلع هذا الفصل : «لقد أحسن يوسف بن تاشفين صنعا....».

ولم يكن يوسف بن تاشفين سياسيا إقليميا، بل كان واسع الأفق يدرك ما يجري في هذا العالم الفسيح، فلما بايعه ملوك الطوائف بعد انتصاره في معركة الزلاقة وأراد أن يتخذ لقبا خليقا بتلك المبايعة تلقب «أمير المسلمين»، ولم يتاد بنفسه «أمير المومنين»، لأن هذا اللقب كان خاصا ـ في رأيه ـ بالخلفاء العباسيين. هذا، مع أن يوسف بن تاشفين كان في ذلك الحين حاكما على الحقيقة وكان أحق باللقب الجامع من الخلفاء العباسيين الستة الذي توالوا في أيامه هو (450 ـ 500 هـ) على عرش بغداد.

وسك يوسف بن تاشفين دينارا كتب على وجهه «أمير المسلمين» وعلى الوجه الآخر ذكر أمير المؤمنين العباسي (باللغة العربية طبعا) وقد قلده في ذلك ألفونسو الثامن ملك ليومنة وقشطالة (تـ 1214م = 611 هـ)، بعده بأكثر من قرن من الزمن فسك دينارا كتب على وجه ـ باللغة العربية ـ «أمير الكاثوليكين» وذكر على الوجه الآخر بابا رومة وسماه «إمام البيعة (الكنيسة) المسيحية».

ان هذا يدل على أن أثر يوسف بن تاشفين في التاريخ الإنساني كان بالغا. ومن أمثلة ذلك أيضا أن بطره الأول ملك أرغونة (تـ 1104م = 499 هـ) كان لا يعرف الكتابة إلا باللغة العربية، أما المستعربون ـ نصارى الأندلس الذين تعلموا اللغة العربية ـ فكانوا يكتبون لغتهم العجمية (المتخلفة بينهم عن اللغة اللاتينية) بالأحرف العربية. ولغة المستعربين هذه هي أم اللغة الإسپانية الحالية.

ومن المعاصرين ليوسف بن تاشفين من نصارى الإسپان رودريغو دياز دى بيبار (ت 1099م = 493 هـ)، وهو المعروف بلقب سيد (بكسر السين وتخفيف الياء : تشويه كلمة «سيد» بتشديد الياء)، كان يلقب بالسيد المبارز (أل سيد كومبيادور = كومبيتور). كان رودوريغو هذا فارساً محارباً مرتزقاً في خدمة الملوك النصارى، ثم انقلب في أواخر حياته مرتزقاً حراً يحارب تحت راية الملوك النصارى ويحارب في صفوف المسلمين لقد بدلت الوجاهة السياسية التي أصبحت للمسلمين في الأندلس بعد معركة الزلاقة كثيراً من سلوك الإسپان وغير الإسپان من نصارى القارة الأوربية، ان هذا الأثر لم يقتصر على هذا «السيد في اسپانيا، بل تجاوزه إلى الأدب الفرنسي» أيضاً.

إن سيرة رودريغو هذا قد أوحت ـ من جانبها التاريخي ومن جانبها الخرافي ـ بعدد من الآثار الأدبية في الشعر والنثر إلى نفر كثيرين أكبرهم وأشهرهم الروائي الفرنسي كورناي الذي وضع «المأساة ـ الملهاة بعنوان «السيد».

وفي عصر المرابطين كان الفيلسوف ابن باجه (ت 533 هـ ـ 1138م) الذي افتتح عهداً جديداً في الفلسفة لما بنى التفكير الفلسفي على الرياضيات والطبيعيات، ثم فصل البحث في الدين عن البحث في الفلسفة، وكان لابن باجه أثر كبير في الفكر الأوروبي بعد نقل كتابه (تدبير المتوحد) إلى اللغة العبرية واللاتينية ؟. (وكان) لهذا الكتاب أثر بالغ في ألبرت الكبير وفي التفكير الأوروبي من خلال فلسفة ألبرت الكبير. فابن باجه رأس الفلاسفة العقليين في العصور الوسطى.

ـ المنصور الموحدي :

كان يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن المعروف بالمنصور الموحدي (تـ 595 هـ = 1199م) يقرب رجال العلم من الفقهاء ومن الفلاسفة خاصة. ومن حسنات أيامه أن عاش في أيامه وفي بلاطه اثنان من أكابر المفكرين في تاريخ الفسلفة : ابن طفيل (تـ 581 هـ) وابن رشد (تـ 595 هـ).

وكذلك كان المنصور الموحدي يرى وحدة الفقه الإسلامي بأن يقوم هذا الفقه على القرآن الكريم والحديث الشريف، أما أقوال الرجال فاجتهد من أولئك الرجال أنفسهم، وكان يكره تشتيت آراء عوام المسلمين باختلاف آراء الفقهاء اختلافا يقوم على الجدل اللفظي في أكثر الأحيان. وقد كان الموحدون عامة يرون ذلك، جاء في «المعجب» لعبد الواحد المراكشي (ص 203) :

«وكان قصده (قصد أبي يوسف يعقوب الموحدي) في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث. وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه (يوسف) وجده (عبد المؤمن)، الا أنهما لم يظهراه، وأظهره يعقوب (المنصور) هذا ـ يشهد لذلك أن... أبا بكر الجد[17] قال :

«دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب...[18] فوجدت بين يديه كتاب ابن يونس[19] فقال لي : يا أبا بكر، أنا انظر في هذه الآراء : المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة (الواحدة) فيها أربعة أقوال أو خمسة أو أكثر من هذا ؟ أي هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟

(قال أبو بكر بن الجد) فافتتحت[20] أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي ـ وقطع كلامي ـ يا أبا بكر، ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى سنن أبي داوود وكان عن يمينه أو السيف[21]

---

17) أبو بكر بن الجد....

18) لعل المقصود يعقوب المنصور الموحدي.

19) ... ؟؟؟؟؟؟؟

20) افتتحت : بدأت.

21) المصحف هو الصحف التي يكتب فيها أو يطبع عليها سور القرآن الكريم. وهنالك كثيرون من المسلمين أنفسهم يخطئون في التعبير فيقولون مثلا عندنا في البيت القرآن أو ثلاثة قرائين. أو يقول أحدهم «استوهبت قرآناً» أو أهديت قرآناً إلى فلان والصواب أن يقال : عندي مصحف أو ثلاثة مصاحف واستوهبت مصحفا وأهديت إلى فلان مصحفا. و «سنن أبي داوود» مجموع في الحديث (أحاديث رسول الله) لأبي داوود سليمان ابن الأشعث السجستاني (ت 275 هـ = 889م). السيف : القتل. كان المنصور الموحدي يرى أن أن تفريق آراء المسلمين بالجدال في أقوال الرجال ـ إذا كانت تلك الأقوال في سبيل الجدال فقط ـ شر على المسلمين يستحق صاحبه عقاباً قاسياً قد يصل إلى وجوب قتله.

ان الفقهاء المسلمين قد اجتهدوا في أبواب الحياة فجاءوا بآراء كثيرة صالحة صحيحة ولكن هذه الآراء تبقى دائما وجوها من الاجتهاد الشخصي نأخذ بها إذا غمض علينا آية من كتاب الله أو إذا جهلنا السبب الذي قيل فيه حديث من أحاديث رسول الله وليس هنالك ما يسوغ في الإسلام أن يكون مسلم على مذهب مالك مثلا فيعادي أقوال سائر الأئمة، أو يكون على مذهب الشافعي فيعادي مالكاً أو أبا حنيفة.

إن المذاهب الخمسة في الإسلام ـ أقصد المذاهب المعمول بها اليوم عند جمهور المسلمين[22] ـ أبواب اجتهاد يجوز للمسلم أن يأخذ منها ما وجده منطبقا على حال تعرض له. وما دام المسلم وهو المنتسب إلى الإسلام والذي يعمل بما جاء به الإسلام، فليس له أن يسمي نفسه ماليكا أو شافعيا أو حنفيا أو سوى ذلك من الأسماء التي تبعد به عن إخوته المسلمين.

ونرجع إلى ابن طفيل.

---

22) ظهر في الإسلام مذاهب كثيرة (وهذه المذاهب ـ كما قلت ـ أبواب اجتهاد تعين على فهم ما كان قليل الوضوح عند عامة الناس أو تفصل للمسلمين عامة ما جاء موجزاً في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف. ومن هذه المذاهب مذاهب بادت (أي بطل العمل بها كالمذهب الظاهري لابن حزم الأندلسي (تـ 456 هـ)، ومنها ما لا يزال معمولاً به وهي خمسة أربعة لأهل السنة والجماعة وهي المذهب المالكي والمذهب الحنفي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي ثم هنالك المذهب الجعفري الذي يعمل عليه الشيعة وقد كنت أنا قد عددت هذا المذهب الجعفري مذهبا خامسا في الإسلام منذ سنة 1370 هـ (1951م)، وقد أصبحت هذه التسمية اليوم مألوفة، ويحسن أن نؤكد هنا أن المذهب ليس «فرقة». ان المذهب ينشأ من اختلاف في تفسير فرع من فروع الدين، أما الفرقة فتنشأ من اختلاف في أصل من أصول الدين.

إن الإختلاف في عدد ركعات السنة في صلاة العشاء، مثلا راجع إلى المذاهب، أما الخوض في «خلق القرآن وقدمه» بالجدل اللفظي أو الفلسفي (كما فعل المعتزلة) فيخرج بالمسلم من المذهب المقبول إلى الفرقة الممقوتة.

كان ابن طفيل من جبابرة الفكر في العصور الوسطى (في الشرق وفي الغرب، وفي الإسلام وفي النصرانية). وقد ترك الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا منه ـ وهو قصة حي بن يقظان ـ أثرا بالغاً في الفكر الإسلامي وفي الفكر المسيحي انه القصة الفلسفية الأولى (أعني الفلسفة التي عولجت في قصة من طريق الرمز، لأن التصريح بعدد من الحقائق الفلسفية ـ في رأي ابن طفيل، وفي رأي ابن خلدون وفي رأينا أيضا ـ يتلف الوازع الاجتماعي ويبطل عمل الإصلاح حيث تكون الحاجة إلى الإصلاح) ـ. لقد نقلت «قصة حي بن يقظان» على أنها قصة بارعة إلى عدد من اللغات ثم قلدها نفر من مشاهير رجال العلم والأدب. وتحسن الإشارة في ذلك هنا إلى كتاب «إميل» للكاتب الفرنسي جان جاك روسو» وإلى قصة «روبنصن كروزو للكاتب الإنكليزي دانيال ديفو. هذه القصة قد حملت كثيرين من اليهود والنصارى على أن يلجأوا في الدين إلى ما سموه «التوفيق» : أرادوا أن يحتالوا للقول بأن الفلسفة لا تخالف ما جاء في التوراة أو في الأناجيل. و «التوفيق» بهذا المعنى ليس معروفا في الإسلام، ولقد أشار ابن رشد إلى الجمع بين الحكمة والشريعة على ما نرى في المقطع التالي :

وننتقل إلى ابن رشد :

ليس في تاريخ الفكر الإنساني مفكر ترك على التفكير الغربي (الأوروبي) أثرا مثل أثر ابن رشد، ولا استثني أرسطو، فإن فلسفة أرسطو نفسها لم تكن تفهم في مطلع العصور الحديثة إلا من خلال شروح ابن رشد عليها. وحسبك أن تعرف أن الفكر الأوروبي قد خضع لأثر فلسفة ابن رشد أربعة قرون كاملة متوالية : كان الفكر الأوروبي قرنين كاملين يذهب مذهب ابن رشد ثم جاء قرنان كاملان أيضاً نصبت الكنيسة

الكاثوليكية، في أثنائها لابن رشد عداء شديدا، ومع ذلك فإننا نتبين في الفكر الأوروبي إلى اليوم ملامح من فلسفة ابن رشد، وإن كان هؤلاء المفكرون لا يقولون انهم أخذوا من ابن رشد.

كان ابن رشد يرى أن الفلسفة شيء وأن الدين شيء آخر. ولو كان الدين هو الفلسفة لما كان لهما اسمان ولكان لهم اسم واحد، غير أن ابن رشد قال ان المرء محتاج إلى الدين (وهو السلوك العملي في الحياة الدنيا ليعيش الفرد والمجتمع سعيدين نافعين) ثم هو محتاج أيضا إلى الفلسفة (وهي التفكير النظري في المدارك العامة). وبينما نجد الدين ـ كما يقول ابن رشد أيضا ـ فرضا على جميع الناس، نجد الفلسفة خاصة بطبقة من الناس بلغ أفرادها من الاستعداد العقلي مبلغا يمكنهم من البحث النظري من غير أن يضر بحياتهم العملية. هذا الأخذ الكامل بما يوحيه الدين إلى جانب الأخذ المتفاوت من الفلسفة (بالمقدار الذي يحتاج إليه كل فرد بحسب استعداده العقلي) قد سماه ابن رشد «الجمع بين الحكمة» (الفلسفة) والشريعة (الدين). ثم جاء نفر من الغربيين ومن العرب أيضا فسموا هذا «الجمع» توفيقا، تسمية خاطئة.

ولقد كان للمغرب ـ ولحكم الموحدين في المغرب ـ أثر في هذه الحركة الفكرية التي عمت العالم أكبر من الأثر الذي كان للأندلس نفسها. ومع أن ابن باجه وابن طفيل وابن رشد أندلسيين من حيث المولد، فإنهم كانوا «مغاربة» من حيث الجو الذي نشأت فيه آراؤهم ثم تطورت ثم تركت آثارها الواضحة على الفكر الأوروبي خاصة. ويحسن أن نشير إلى أن فلسفة هؤلاء لم تترك على الفكر العربي إلا أثرا ضئيلا جدا.

ـ **ابن خلدون** (تـ 808 هـ = 1405م) :

وكـذلـك كان أثر ابن خلـدون في الغربيين أكثر من أثره في العرب. وأكاد أقول إن العرب إلى اليوم لم يقدروا ابن خلدون حق قـدره بعـد. ومن أغرب الأُمـور في التـاريـخ أن العرب يـأُخـذون من الغربيين أشيـاء كان الغربيون قد أخذوها عن ابن خلدون. ثم ان أعداءنـا يطبقون علينـا أحكام ابن خلـدون ويـستعمروننـا بهـا، ونحن غـافلون عنهـا. وحينمـا يتكلم العرب اليوم على الاشتراكية والشيوعية واليمين واليسار فإنما يتكلمون كلاما غامضا. ولو درس هؤلاء مقدمة ابن خلدون لوجدوا فيها خيرا مما يـدعون من العلم الجديد في المذاهب السياسية المستوردة ومن المذاهب الاقتصادية أيضا.

لنرجع إلى ابن خلدون نفسه.

ان ابن خلـدون قـد سبـق إلى عـدد من الآراء والمنـاهـج في الفكر الإنساني، ثم هو منظم علم التاريخ وموجد علم الإجتماع.

غير أن الكلام على هذين الموضوعين : الإجتماع والتاريخ ـ عنـد ابن خلدون ـ يحتاجان إلى كتاب ضخم. من أجل ذلك سـأكتفي بـالإشـارة إلى نقطتين في فهم التـاريخ عنـد ابن خلـدون وعنـد علمين ضخمين في تـاريخ الفكر الحديث.

أول هذين العلمين هيغل الألماني المتوفى، عام 1831م، بعد ابن خلدون بأربعة قرون وربع قرن.

يرى هيغل أن التاريخ قد تقلب (والكلام هنا يجري في الفعل الماضي ـ وسترى سبب ذلك في ختام هذا المقطع) في أربعة أدوار :

● جاء الدور الأول (الدور الشرقي) وكان فيه حر واحد يحكمه هو المستبد.

● ثم جاء الدور الثاني (الدور اليوناني)، وكان فيه عدد من المستبدين.

■ ثم جاء الدور الثالث (الدور الروماني)، وكان فيه نظام سائد يعيش الناس في ظله.

● وأخيرا جاء الدور الرابع (الدور الجرماني)، فكان فيه الرجل الذي يملك الحرية ويخط تاريخ العالم. هذا الدور الجرماني (عند هيغل الألماني) هو أرقى الأدوار كلها وخاتمتها. من أجل ذلك، كلما انتهى هذا الدور زمنيا عاد في نفسه من جديد، فهو، إذن، يتكرر أبدا ولا ينتهي ولا يعقبه دور آخر : إذ يقف تقلب التاريخ في الأدوار إذا تولى الجرمان حكم العالم.

أرأيت الآن لماذا أجرى هيغل آراءه في التاريخ في الفعل الماضي ؟ ذلك لأن كل دور من أدوار التاريخ قد مر في رأي هيغل في الحياة الإنسانية مرة واحدة. غير أن هذا الرأي الخاطئ في التاريخ - والمتمثل في العنفوان القومي - لم يثبت طرفة عين. فبينما كان كتاب «الظواهر» لهيغل في المطبعة، أو كان قد خرج من المطبعة قبل أيام أو أسابيع، سقط نابليون على الألمانية وهزم الإمبراطور فريدريك غليوم الثالث في معركة يانا (2 / 12 / 1806م). ونظرية هيغل في التاريخ قد فقدت قيمتها لأنها كانت يوم وضعها هيغل مستمدة من عالم خياله.

أما ابن خلدون فيرى أن عوامل التاريخ لا يبطل فعلها في الاجتماع الإنساني، فالشعوب تنتقل باستمرار من طور حضاري إلى طور أرقى منه

حتى تنشأ الدولة، ثم إذا بلغت الحضارة، بالترف ذورتها مالت الدولة إلى الانحدار فإلى الانقراض. وعلى هذا تظل الدول ناشئة ومنقرضة على هذه الأرض حتى يأذن الله بزوال الأرض ومن عليها. هذا القانون (قانون نشوء الدول وانقراضها بالعوامل الاجتماعية عند ابن خلدون) يصدق على الأسر الحاكمة وعلى البيوتات الوجيهة وعلى الثروات المجموعة. وليس في الأرض ـ عند ابن خلدون وعندنا أيضا ـ دولة عاشت إلى الأبد. ولأعمار الدول حدود ليس البحث فيها من نطاق هذا المقال.

أما انقراض الدول ـ عند ابن خلدون ـ فيكون أولا بعامل أساسي هو أن لكل دولة عمرا طبيعيا لاتتعداه في الغالب (نحو مائة وعشرين سنة تزيد قليلا أو تنقص قليلا)، إلا إذا برز في الاجتماع الإنساني عوامل طارئة من موتان أو من عدو قوي قاهر. ثم هنالك عاملان مساعدان : ضعف العصبية (القوة المادية في الشعوب) بالتنازع بين أقسامها ثم ازدياد الترف حتى يتخلى أهل الدولة عن النظر في أمور دولتهم لينصرفوا إلى تحصيل ثمرات الملك بالانغماس في الملاذ وبالاستبداد بالرعية فيثب عليهم من أصبح أقوى منهم ويأخذ مكانهم.

وأما الاسم الثاني الذي اختار أن أتكلم عليه فهو كارل مراكس المتوفى، عام 1883م، بعد ابن خلدون بأربعة قرون وثلاثة أرباع القرن.

لست هنا الآن في سبيل الحركة الاشتراكية منذ أيام فيثاغورس (تـ 503 ق.م.)، ولا في سبيل النظر إلى الخبر الإسلامي : الناس شركاء في ثلاثة : الماء والكلأ (العشب) والنار. إنني أريد أن أرى التاريخ في رأي كارل ماركس، ورأيه يقوم على أن التاريخ يجري بالتنازع بين الطبقات

يستغل بعضها بعضا، فهنالك في هذا النظام قلة مستغلون (بكسر الغين) وكثرة من الكادحين المستغلين (بفتح الغين).

ولكن الذي نراه في الاجتماع الإنساني ـ وفي يومنا الحاضر ـ خلاف ذلك، ان القتال في كورية لم يكن بين العمال وحكومتهم، ولا كان بين أنصار الأميركيين والحكومة الأميركية التي تستغل هؤلاء الأنصار، ولا بين أنصار الاتحاد السوفياتي وحكومة الاتحاد السوفياتي. ان ذلك القتال كان بين الكادحين من أنصار المعسكرين في سبيل أرباب المعسكرين، ولما تعب الكادحون من الفريقين من القتال ثبتت أقدام الحكومة الأميركية حيث استطاع أنصارها أن يقفوا (في جنوبي البلاد) وثبتت أقدام الاتحاد السوفياتي حيث استطاع أنصاره أن يقوموا.

وأنا الآن أقول ذلك وأنظر إلى بلادي ولا أسأل لماذ يجري الاقتتال فيها منذ بضعة أعوام، ذلك لأن الجواب لا يحتاج إلى سؤال. من الأحداث المؤلمة أن والدا في لبنان كان له أربعة أبناء اتفق أن انضم كل اثنين منهما إلى حزب معاد للحزب الآخر. وفي إحدى المعارك في الشوارع الجنوبية من بيروت سقط الأبناء الأربعة صرعى. فكان الوالد المحزون يبكي في الشارع ويقول : إن أبنائي قتل بعضهم بعضا.

ونأتي إلى الجانب الاقتصادي عند ماركس، فهو يرى أن ثمن السلعة يتقرر بالعمل الذي يوضع في إنجازها وبالزمن الذي يقتضيه ذلك الإنجاز، نحن لا ننكر ذلك، ولكننا لا نحتاج إلى كارل ماركس وإلى جدله المادي حتى نعرف ذلك، ما دام ابن خلدون قد قال بهذه القاعدة قبل كارل ماركس بأربعة قرون وثلاثة أرباع القرن. ولا بأس هنا من إيراد رأي ابن خلدون في «قيمة العمل الإنساني» بشيء من التفصيل.

قال ابن خلدون (المقدمة، ص 381 وما بعد) :

«... فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع فيه انتفاع... وأعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات، إن كان من الصنائع فالمفاد والمقتني منه قيمة عمله، وهو القصد بالقنية، إذ ليس هناك إلا العمل، وليس بمقصود بنفسه للقنية. وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرها، مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكثر، وإن كان من غير الصنائع، فلا بد من قيمة ذلك المفاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت (تلك السلعة به)، إذ لولا العمل لم تحصل قنيتها، وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها. فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل، كما في أسعار الأقوات بين الناس، فإن اعتبار الأعمال والنفقات ملاحظ في أسعار الحبوب كما قدمناه، ولكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح، فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية...»

في هذا النص عدد من الحقائق :

● في كل عرض (بفتح ففتح : شيء معد للبيع والشراء) : تجاري شيء قليل أو كثير من العمل الإنساني.

● في عدد من عروض التجارة يكون العمل الإنساني قليل البروز (كالقمح أو الجزر أو التفاح، فقلما يفطن الرجل العادي إلى ما فيها من

العمل الإنساني كالفلاحة والسقي والجني من الأرض أو من أغصان الشجر). وفي عدد آخر من عروض التجارة يكون العمل الإنساني بارزا جدا (كالصندوق المصنوع من الخشب أو الثوب المخيط أو الآنية المزخرفة أو القصر المبني، فإن كل إنسان يدرك حالا أن هنالك جهدا إنسانيا كبيرا قد بذل في صنع الصندوق المتقن وفي زخرفة الثوب الجميل).

● إن ثمن كل عرض من عروض التجارة يكثر أو يقل على نسبة ما فيه من العمل الإنساني.

إن الثوب المتقن الصنع أغلى ثمنا من الثوب العادي.

وهنالك في أثمان الأشياء عوامل أخرى من العرض (كثرة وجود الأشياء في مكان ما، وزمانما) والطلب (رغبة الناس في الحصول على تلك العروض أو حاجتهم إليها حاجة ملحة أو غير ملحة) ومن التفاخر في الحصول على نوع معين من البضاعة (كرغبة الأغنياء من سكان المدن في الحصول على الأشياء النادرة المتقنة الصنع الجميلة المنظر، وإن لم يكن لهذه الأشياء قيمة في نفسها، كالآنية المزخرفة التي توضع في جوانب قاعات الاستقبال في القصور أو كالأسلحة القديمة التي تعلق على الجدران). ان ابن خلدون قد تكلم على جميع هذه الأمور، ولكن هذه الأمور لم ترد في النص المستشهد به هنا.

ثم أن هنالك وجوها كثيرة من الحضارة الإنسانية والثقافية الإنسانية كان أثر الإسلام فيها بارزاً جداً. هذا الأثر الذي كان من نتاج المشرق ومن نتاج المغرب، إنما انتقل إلى التاريخ الإنساني العام من طريق الأندلس - من طريق الغرب الإسلامي. أنا لا أستطيع في هذا البحث أن أتكلم عليها

بتفصل أو بإيجاز. ولكني سأذكر عددا منها على سبيل المثال ثم أذكر بشيء من بسط القول وجها واحداً من وجوه الثقافة الإسلامية التي طبعت العقل الإنساني بطابع العلم والتنظيم. من هذه الوجوه عموما :

1) في البناء : مئذنة الكتبية في مراكش والخيرالدا في اشبيلية وأثرهما في قباب الكنائس. وفي هذا النطاق يأتي فن البناء القوطي وهو فن إسلامي هاجر من الأندلس إلى الأقطار الأوروبية وظهر أثره في الكنائس خاصة.

2) الإصلاح الديني في أوروبة والحركة البروتستانتية ـ وقد بسطت الكلام على هذه الحركة في كتابي «تجديد التاريخ».

3) الفلسفة.

4) العلم ـ وسأتوفر بعد بضعة أسطر على نشأة علم الجبر وانتقاله إلى الغرب المسيحي من طريق الأندلس.

5) أثر الزخرف العربي في أوروبة ـ واسمه عندهم «آرابسك» شاهد على أصله. هذا الزخرف يتألف من خطوط وأشكال هندسية وأوراق أشجار تتشابك على طرائق لا تحصى من الترتيب. وانك لا تجد قطعة من النقد في بلد من بلاد العالم يخلو كثيرا أو قليلا من هذا النوع من الزخرف لأن تزييفه صعب صعوبة تقرب من المستحيل.

6) أثر اللغة العربية في اللغات الأجنبية من حيث الألفاظ ومن حيث التركيب أحيانا ومن حيث وجوه البلاغة. ومع أن اللغات

تتجاور وتتزاور ويأخذ بعضها من بعض، فإن فضل اللغة العربية على غيرها أعظم من فضل غيرها عليها.

7) أثر الأدب العربي في نشأة الشعر في الفرنسية والإيطالية والألمانية خاصة ثم انتقال هذا الأثر من هذه اللغات إلى سائر اللغات الأوروبية. من ذلك مثلا : أثر ألف ليلة وليلة في القصص الأوروبي للكبار وللصغار - أثر أبي العلاء المعري ومحي الدين ابن عربي خاصة في «الملهاة الإلهية» للشاعر الإيطالي دانتي ثم أثر الموشح في نشأة الشعر الأوروبي.

8) أثر ابن طفيل في القصص الفلسفي وأثر ابن خلدون في نشأة علم الاجتماع وتطور علم التاريخ، وقد مر الكلام على هذين موجزا في ثنايا هذا المقال.
وهنا أريد أن أتكلم على انتقال علم الجبر إلى العالم الأوروبي.

1) أقدم ما نعرفه من استخراج العدد المجهول (من العدد المعلوم) بالحسبان طريقة العالم المصري القديم أحمسو. فإذا نحن وضعنا معادلة أحمسو هذا في الشكل المألوف عندنا ظهرت كما يلي :

$$س^2 + ص^2 = 100 \text{ أو } 10^2$$

وقد حاول أحمسو حل معادلته هذه بأن جعل ص تساوي $\frac{3}{4}$ س، فكانت قيمتا المجهولين عنده : س = 8، ص = 6.

نحن لا نستطيع أن نقول أن هذه الطريقة في حل المسائل طريقة من علم الجبر كما فهمه الخوارزمي أو كما نفهمه نحن الآن :

● لا شك في أن هذه المعادلة معادلة من الدرجة الثانية.

● ولكن الصورة التي فرضها أحمسو ليست الصورة الوحيدة :، ان صور هذه المعادلة غير متناهية :

$3^2 + 4^2 = 5^2$ ،

$6^2 + 4^2 = 10^2$ ،

$12^2 + 16^2 = 20^2$ ،

$24^2 + 32^2 = 40$ إلخ.

● لماذا تكون قيمة س في معادلة أحمسو مساوية ثمانية وص مساوية ستة (ولا نقول : ص = 8، س = 6).

■ ثم ان هذه المعادلة (وهي من الدرجة الثانية، بلا ريب) تصدق في الجبر وفي الهندسة معا، وهي المعادلة التي تعرف بمعادلة فيثاغوري (ت 5.3.ق.م.) :

أ^2 + ب^2 = جـ^2 ،

أو هي تمثل نسبة بعض أضلاع المثلث القائم الزاوية إلى بعض. وإذا نحن جعلنا رموز هذه المعادلة أعدادا عادت إلى معادلة أحمسو :

$3^2 + 4^2 = 5^2$ ،

أو $8^2 + 6^2 = 10^2$ ،

أي $س^2 + ص^2 = 100$ (أي 10^2) [23].

●) ولقد قام علم الجبر على أسس منها «فصل الجبر عن الحساب وعن الهندسة» وجعل الجبر علما مستقلا قائماً بذاته وقابلاً للتعليم. وهذه المعادلة عند أحسو ما زالت تأخذ من العلمين معا.

2) وجاء بعد أمد طويل جدا ذيوفانطوس اليوناني (في النصف الثاني من القرن الثالث بعد الميلاد) ـ بعد ثلاثة وعشرين قرنا ـ فخطا خطوة جديدة في طريق تطور الجبر. يقول قدري حافظ طوقان (تـ 1391 هـ = 1971م) :

«وتناولت بحوث ديوفانطس المعادلات ذات الدرجة الأولى والثانية والمعادلات غير المعينة أو (المعادلات) السيالة[24]. وكانت بحوثه في (هذه) الأخيرة مبتكرة ذات قيمة رياضية. ولقد أتى على المعادلة السيالة الآتية :

$$أ.س^2 + ب.س + جـ = ص^2$$

وأوجد بعض حلول خاصة[24] لأمثال هذه المعادلة. ومع أن الموضوعات التي تناولها كتابه هذا[25] هامة، إلا أن هناك ما يقلل من

---

23) قال قدري طوقان (تراث العرب العلمي القاهرة 1382 هـ = 1963م) : «وعني العرب في المعادلات (بالمعادلات) غير المعينة، وقد أخذوها عن ديوفانطس الذي كان أول من درسها وبحث فيها. وقد توسع العرب في هذه البحوث وحلوا كثيرا من المسائل التي تؤدي إلى معادلات غير معينة من الدرجتين الأولى والثانية، وأطلقوا عليه «المسائل السيالة» لأنها تخرج بصوابات كثيرة» (يكون لها أكثر من جواب واحد صحيح ؟)، ص 15، 79.

24) الحل الخاص الذي ينطبق على حال واحدة أو يتفق انطباقه على عدد من الأحوال من غير أن يصبح قاعدة عامة.

25) في «تراث العرب العلمي» لقد رأى طوقان ذكر لكتابين لديوفانطس : المسائل العددية (ص 209) وكتاب في الجبر (ص 233).

أهميتها الرياضية، فقد كان يستعمل طريقة خاصة لكل مسألة. ولم يأت على حل عام أو طريقة عامة يمكن اتباعها في حل بعض المسائل، كا كان يكتفي بحل واحد[26] بينما نجد أن المعادلات التي عالجها تقبل حلول عديدة».

لقد ظل «الجبر» إلى أيام ذيوفانطوس فنا يحسنه نفر من الذي وهبوا ذكاء كبيرا. ولعلي لا أخطئ إذا أنا قلت ان «استخراج العدد المجهول من المعادلات التي كان ديوفانطوس يمليها» كان من باب الأحاجي، مادام ذيوفانطوس :

- يعالج معادلات يمكن أن يكون لكل معادلة منها عدد من الأجوبة الصحيحة.
- يقبل جوابا واحدا من هذه الأجوبة الصحيحة.
- لم يضع قاعدة تمكن الآخرين (من التلاميذ المتعلمين، مثلا) من فهم معادلات وحلها حلا يقوم على قاعدة عامة تنطبق على جميع المعادلات التي هي من باب واحد.

ان هذه المهمة (جعل الجبر علماً قائماً بداته وقابلاً للتعليم) قد انتظرت العالم المسلم محمد بن موسى الخوارزمي ووجدت تحقيقها عنده.

3) محمد بن موسى الخوارزمي وبناء المعادلة التربيعية (والتي هي من الدرجة الثانية).

---

26) راجع الحاشية التي قبل السابقة (كان ديوفانطس يختار للمعادلة حلا واحداً، ثم يهمل سائر الحلول مع أنها تكون صحيحة.

من سوء حظ العلم ـ ومن سيئات التاريخ ـ أننا لا نعرف من حياة هذه العالم العظيم إلا أن اسمه كان أبا عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي وأنه عاش في بغداد في أيام الخليفة المأمون وأن وفاته يجب أن تكون قد وقعت نحو سنة 232 للهجرة (846م). ولكن الذي ثبت في تاريخ الثقافة ـ أو في الجانب الثقافي من التاريخ، على الأصح ـ أن أبا عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي هو موجد علم الجبر : فصله من علم الهندسة وجعله علماً قائماً بذاته وقابلا للتعليم.

ويقوم علم الجبر على بناء المعادلة التربيعية (والتي هي من الدرجة الثانية) لأن المعادلة التربيعية هي أم المعادلات، فإن كل معادلة (مكعبة فما فوقها يمكن أن تنحل فتصبح معادلة تربيعية. ولقد أدرك العلماء المنصفون ذلك فسموا هذه المعادلة التي هي من الدرجة الثانية والتي هي ـ كما رأينا قبل قليل ـ أم المعادلات : «معادلة الخوارزمي».

كيف بنى الخوارزمي هذه المعادلة التربيعية ؟

أ ـ لما جاء الخوارزمي لم يكن في العالم رموز خاصة بالأعداد أي الأرقام كما كان هنالك رموز خاصة بالكلمات (أي الحروف). فلم يكن بد من إيجاد رموز للأعداد (لأن الأعداد مقادير معلومة والمعادلة في بنائها تحتاج إلى رموز للأعداد تمثل المقادير المعلومة وإلى رموز للحروف التي تمثل في المعادلة مقادير مجهولة.

ووجد الخوارزمي عند الهنود رموزا خاصة بالأرقام، ولكن الهنود لم يكونوا يستخدمونها في وجوهها الصحيحة، بل كانت عندهم للزخرف والزينة (ولم يستخدم الهنود رموزهم هذه إلا بعد بضع سنين من استخدام

العرب لها). فأخذ الخوارزمي هذه الأرقام - وفيها الصفر أيضا - واستعان بها على بناء المعادلة.

ومع ذلك فإن الخوارزمي لم يستخدم الرموز التي هي الأحرف للمقادير المجهولة في معادلته، ولا الرموز التي هي الأرقام للمقادير المعلومة، بل كان حل المسائل الجبرية عنده حلال لفظيا بالكلمات، كما سنرى حينما نضرب على معادلة الخوارزمي مثلا.

س، 4 س، $\frac{س}{3}$،

ولا بد في كل علم من مصطلحات ومن قواعد.

ووضع الخوارزمي المصطلحات التالية :

- الجذر وهو كل مقدار مضروب بواحد فما فوق أو فما دون، وقد سماه الشيء وهو مجهول. ونحن نرمز إليه اليوم كما يلي :
  $\frac{5\ س}{3}$، إلخ،
- المال وهو الجذر المضروب بنفسه، ونحن نرمز إليه اليوم كما يلي :
  س^2 ، 3 س^2 ، 3 س^2 ، $\frac{4\ س^2}{3}$ ، إلخ.
  وهو أيضا مقدار مجهول.
- العدد المفرد، وهو كل مقدار مجرد من الجذر ومن المال، نحو 1،4،17،23،108 إلخ، وهو مقدار معلوم.
- الجبر والمقابلة وفي تعريفهما شيء من الخلاف. ولكن يحسن أن نفهمهما على الوجه التالي :

الجبر حط المقادير إلى أقل ما يمكن مع التخلص من المقادير الناقصة فيها ومن الكسر.
والمقابلة هي نقل الحدود من جانب إلى آخر حتى تتجمع المقادير المجهولة في جانب والمقادير المعلومة في الجانب الآخر، ما أمكن.
وكذلك وضع الخوارزمي القواعد الآتية :

- إذا ضرب المقدار الإيجابي بالمقدار الإيجابي فالحاصل من ضربها إيجابي (مقدار زائد) وإذا ضرب المقدار السلبي بالمقدار السلبي فالحاصل من ضربها أيضا إيجابي. أما إذا ضرب المقدار الإيجابي بمقدار سلبي فالحاصل من ضربها يكون سلبيا (مقدارا ناقصا) :

$+2 \times +3 = +6$،

$-2 \times -3 = +6$،

$+2 \times -3 = -6$،

- ان نقل الحد من جانب إلى جانب في المعادلة يقتضي تبديل علامته :

3 س − 6 = س + 8،

3 س − س = 8 + 6،

إذن، 2 س = 14، س = 7،

هذه القواعد تبدو اليوم بدائية، ولكنها كانت في أيام الخوارزمي، منذ أحد عشر قرنا، في ذروة العبقرية، وخصوصا إذا علمنا أن اليونان كانوا ينكرون وجود الأعداد السلبية. من أجل

هذا (ومن أجل فقدان الرموز الدالة على الأرقام عند الونانيين) تخلف اليونانيون في علم الحساب وعلم الجبر وبرعوا في علوم الهندسة (لأن الهندسة تقوم على الخطوط).

ولما وضع الخوارزمي هذه المصطلحات وهذه القواعد استطاع أن يبني المعادلة من الدرجة الثانية. فلنجر هذه المعادلة بأسلوبنا الحديث حبا بالإيجاز والوضوح.

- بدأ الخوارزمي المعادلة بذكر «المال» (المجهول المضروب بنفسه : $س^2$، ذلك لأن للمجهول في المعادلة التربيعية ـ أي التي هي من الدرجة الثانية ـ قيمتين. فالرمز الأساسي «س» يدل على المقدار المجهول في المعادلة، والاس «2» الدال على تربيع المجهول يمثل القيمتين اللتين لذلك المجهول).
- ووجد الخوارزمي أن المال (المقدار المضروب بنفسه) يكون دائما أكبر من ضرب أحد أفراده، بأحد أفراده الآخر ،

5 × 5 أكبر من 1 × 4 ومن 4 × 4، إلخ.

10 × 10 أكبر من 4 × 6 ومن 7 × 8 ومن 9 ■ ■ أيضا ولنضع ذلك في الرموز :

$$س^2 \text{ أو } س \times س \text{ أكبر من } \frac{7}{س} \times \frac{5}{س}$$

إذن، $س^2 = 10 س + ب$.

وكي نعرف قيمة ب يحسن أن ننظر في قاعدة ثانية تبدت للخوارزمي، هي :

كل مال (مقدار مضروب بنفسه : س^2) يساوي عشرة أضعاف جذره «س» :

$س^2 = 10$ س، أي $3^2 = 3$ س، $5^2 = 5$ س، $10^2 = 10$ س.

وقد قال الخوارزمي : كل مال يساوي عشرة أجذاره لأنه هو اختار العدد «عشرة» لبناء معادلته التربيعية.

وكل جذر يساوي عشرة أمثاله منقوص من ماله حاصل ضرب ذلك الجذر بالعدد الذي يتم العشرة :

$س^2 = 10$ س – س (10 – س).

أو بترتيب آخر :

$س^2$ + س × (10 – س) = 10 س.

أو، مثلا :

$7^2 + 7 \times (10 - 7) = 10 \times 7$.

هذه المعادلة يدخلها الأعداد الموجبة من صفر إلى تسعة. أما المعادلة :

$س^2 + 10$ س = 39.

فهي مثل لسلسلة غير متناهية من طرفيها، ويكون للمجهول فيها قيمتان الكبرى منها موجبة والصغرى سالبة، وتستمر هذه السلسلة من ـ لا (ناقص لا نهاية) إلى + لا (زائد لا نهاية). ويجدر هنا أن نقول إن معادلة الخوارزمي في شكلها الموجب أو الإيجابي.

$س^2 + 21 = 10$ س.

أو في شكلها السالب أو السلبي :

$س^2 + 10$ س = 39.

يمكن أن يكون الحد المعلوم فيها (21 أو 39 مثلا، كما تجد في المعادلتين السابقتين) حاصل ضرب كل عددين مجموعها عشرة، ففي المعادلة الأولى نجد العدد «21»، وهو حاصل ضرب ثلاثة في سبعة (ومجموعها عشرة). وأما في المعادلة الثانية السلبية فإننا نجد العدد «39»، وهو حاصل ضرب ـ 3 في + 13 (ومجموعها + 10).

ومع أن الخوارزمي قد جعل الجبر علما مستقلا في قواعده وطريقة حل مسائله وقائما بذاته مفصولا من الحساب ومن الهندسة، فإنه قد حل مسائل الجبر بالهندسة وحل مسائل الهندسة بالجبر.

ـ استخراج قيمتي الجذر في المعادلة الأولى :

$س^2 + 21 = 10$ س.

لقد كان الخوارزمي موفقا في اختيار «العشرة» أساساً لمعادلته. من أجل ذلك بدأ في استخراج قيمتي الجذر في هذه المعادلة من «العشرة» كما يلي :

10 ÷ 2 = 5.

5 × 5 = 25.

25 − 21 = 4.

جذر 4 = 2.

5 + 2 = 7 (القيمة الأُولى للجذر).

5 - 2 = 3 (القيمة الثانية للجذر). 7 × 3 = 21.

ولو أن الخوارزمي اتخذ غير «العشرة» (وهي تمثل مجموع الجذرين أو القيمتين في هذه المعادلة - بينما العدد المعلوم : 21، 24، 25، أو 16، إلخ يمثل حاصل ذينك الجذرين أو تينك القيمتين) لصحت معادلته أيضاً، ولكن العشرة كانت أهون عليه في حل تلك المعادلة.

ولمعادلة الخوارزمي حل هندسي أيضاً. وقد أجراه الخوارزمي في شكلين اثنين. ولا أرى أن آتي بهذين الشكلين أو الحلين الهندسيين هنا لضيق المجال راجع هذين الشكلين في كتاب الخوارزمي وفي كتابي «تاريخ العلوم عند العرب».

4) مكانة الغرب الإسلامي في هذه الحركة الحضارية.

لاشك في أن الشرق الإسلامي قد قام بدوره في إنشاء الحضارة الإنسانية والثقافة الإنسانية، غير أن هذه الثقافة وتلك الحضارة قد انتقلتا من طريق الأندلس في الأكثر ومن طريق صقلية وجنوبي إيطاليا - يوم كانت صقلية وجنوبي إيطاليا تنعمان بالحكم الإسلامي - أي من الغرب الإسلامي إلى أوروبا.

وبما أنني لا أستطيع أن آتي في هذا البحث الوجيز بأمثلة خاصة بكل وجه من وجوه تلك الثقافة الإسلامية البراقة في أثرها البالغ في التاريخ الإنساني، فإنني سأتناول الكلام، بإيجاز أيضاً، على انتقال علم الجبر إلى الغرب المسيحي.

كان الأوروبيون يأتون إلى جامعات المسلمين في المغرب (القرويين) والأندلس (قرطبة) لتلقي العلم[27]، كما يذهب أولادنا اليوم إلى الغرب المسيحي لمتابعة دروسهم وللاختصاص في فروع العلم المختلفة.

من هؤلاء الذين أموا الأندلس لهذه الغاية الراهب روبرت الشستري[28] وقد نقل كتاب الجبر والمقابلة (للخوارزمي) من اللغة العربية إلى اللغة اللتينية.

(أ) لا شك في أن الغربيين قد عرفوا الأرقام (وقد كان الخوارزمي أول الذين استخدموها) من طريق الأندلس[29]. وكما أننا نحن نسمي هذه الأرقام «الأرقام الهندية»، لأننا تناولناها من الهنود

---

27) من أشهر النصارى الذين تلقوا العلم في جامعة (جامع) قرطبة غربرت الفرنسي (398 ـ 1003م) اشتهر بالبحث العلمي وبرع في العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية وكتب رسالة في الهندسة (ولم يشتهر بالفلسفة ولا باللاهوت). وهو الذي أدخل الأرقام العربية وكان أول بشائر الفكر العربي في أوروبة المسيحية مع أنه لم يعرف العربية معرفة جيدة ؟). ولما أصبح بابا (عام 999م = 390 هـ) باسم سلفستر الثاني، شغل نفسه بإصلاح الرهبنات وبمقاومة السيمونية أو المتجارة بالقدسيات (راجع المنجد، تحت «السيمونية»، أي بيع الأشياء الروحية (بيع المناصب الكهنوتية والذخائر المنسوبة إلى نفر من رجال الدين، كما طلب من بطرس أن يكون له قدرة على منح نعمة الإيمان إلى الآخرين). وكانت تلك الحركة من أسباب الفساد التي حلت بالكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى وكذلك شغل سلفستر الثاني نفسه بالتدخل في مكائد العرش الفرنسي.

28) روبرت الذي من منتشيستر راهب إنكليزي سكن في الأندلس مدة (1141 ـ 1147م) (536 ـ 552 هـ)، نقل عددا من كتب العلم العربية إلى اللغة اللاتينية وكذلك نقل، بالاشتراك مع هرمانوس الذي من دالماتا القرآن الكريم.

29) من الملاحظ أن شكل الأرقام المستعملة إلى اليوم في المغرب وفي اللغات الأجنبية واحد، (هي الأرقام التي تسمى اليوم افرنجية)، بينما الأرقام المستعملة في المشرق مختلفة قليلا (وإن كان أصل النظامين واحدا).

الـذين لم يكونوا يستخـدمونهـا في الوجوه العلميـة التي تـستخـدم تلـك الأرقـام فيهـا الآن، فـإن الغربيين قـد سموا هـذه الأرقـام «الأرقام العربية» لأنهم تعلموا استخدامها من العالم العربي.

(ب) وأراد روبرت الشستري أن يطلق إسماً على هذا العلم الجديـد فلم يجـد إسماً لـه غير ذلـك الإسم الـذي أطلقـه الخـوارزمي عليـه «الجبر».

(جـ) في الجبر اليوم، وفي جميـع اللغـات، هـذا الحرف الأفرنجي (x) (س) للدلالة على الحد المجهول في المعـادلـة. فمن أين جـاء هـذا الحرف إلى اللغات الأجنبية ؟

إن الخوارزمي يسمي هـذا الحـد «المجهول» جـذراً ويرمـز إليه بقوله «شيء». فأخذ روربت الشـتري هـذه الكلمـة «شيء» للدلالة على ما كانت تدل عليه في كتاب الخوارزمي.

ولكن روربت الشستري كان قـد علم ـ على القطـع : بكل تـأكيـد ـ أن العرب كانوا قـد بـدأوا يستخـدمون الرموز في المعـادلات حبـا بـالإيجـاز وبسهولة التعبير وسهولـة حل المسـائل الريـاضيـة، فقطعوا الحرف «ش» من كلمـة شيء للـدلالـة على الحـد المجهـول في المعـادلـة. ومـع أن العرب كانـوا يختارون أن يستخدموا الحروف غير منقوطة المعادلات الرياضية، فقـد كانوا يدونون في المعادلة س ثم يلفظونها ش.

وبمـا أن روربت الشستري قـد قـام بنقل «كتـاب الجبر والمقـابلـة» في الأنـدلس، والمستعربون في الأنـدلس (النصـارى الـذين كانوا يتكلمون اللغـة العربيـة) كانوا يكتبون الشين x ، فهم يكتبون اسم المـدينـة شـاطبـة :

xativa» ، فقد جعل روبرت الشستري هذا الحرف الفرنجي x للدلالة على ما تدل عليه س (ش) في المعادلة العربية.

ومن القرائن المهمة في تاريخ الثقافة الإنسانية ترتيب الحدود في المعادلة الجبرية. حينما يريد الخوارزمي سرد معادلة، فهو يقول مثلا : عشرة إلا شيئاً...

وذلك في الرمز : 10 – س.

ويبدو أن روبرت الشستري قد خاف من تبديل مواقع الحدود (كما تظهر في المعادلة العربية : 10 – س (من اليمين إلى اليسار) فترك ترتيبها كما وردت في اللغة العربية.

10 – س

10 – x

(مع أن اللغة اللاتينية تكتب من اليسار إلى اليمين)، وكان من المنتظر أن يدون روبرت الشستري هذين الحدين : x – 10

بتقديم الحد المعلوم «10» على الحد المجهول «س». ولكنه فضل «أ» أن يبدأ تدوين الحدين على الطريقة العربية (من اليمين إلى اليسار) كما فعل الخوارزمي في اللغة العربية.

لعل نفرا من الذين وصلوا في القراءة إلى هنا سيقولون : ما صلة هذا الكلام الطويل في الرياضيات بتاريخ الغرب المسلم أو بالتاريخ جملة ؟

إن هؤلاء النفر لا يقرون ابن خلدون، فيا يبدو، على قوله : إن التاريخ علم من علوم الفلسفة، إذ هو «في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات (الأحداث) ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير أن يعد في علومها وخليق» (المقدمة 4).

وقد بسط ابن خلدون القول في تعريف التاريخ فقال (المقدمة 35) :

... حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران من الأحوال.

ولكن الذين اشتغلوا بتدوين التاريخ شغلوا أنفسهم في الغالب بتدوين الجانب السياسي أو الجانب القصصي الذي يستهوي الأمم المتخلفة ويروج عند عوام الناس ويسر المتسلطين على الحكم، وأنا لا أنكر أن التاريخ السياسي أو القصة جانب من جوانب التاريخ ولكن لا يجوز لنا أن ننسى أن العلم والفن والأدب والفلسفة جوانب من التاريخ تستحق أن تدون. ثم أن هذا الجانب الاجتماعي والحضاري والثقافي من حياة الأمم أحق بالدرس من الجانب السياسي البحث.

مددت يدي إلى أحد جوانب مكتبتي حيث تجتمع كتب في التاريخ فوقعت يدي على كتاب عنوانه «دروس تاريخ المغرب» (الطبعة الثانية، الدار البيضاء، مطبعة الأطلس، 1377 هـ ـ 1953م) فتحت هذا الكتاب عفوا فظهرت لي الصفحة الواحدة والخمسون بعد المائة فكان فيها المقطع التالي :

«كان أبو عبد الله محمد الشيخ والياً على سوس من قبل أبيه حينما كان أبوه مع أخيه أبي العباس الأعرج في حاحة. ولما توفي والده وخلفه في الملك أخوه أبو العباس الأعرج ظل واليا لأخيه على سوس، فكان صاحب الأمر والنهي هناك، وكان بطبيعة مركزه وقوة شخصيته يتمتع بنفوذ ومكانة لم يحظ بها أخوه الذي كان بعيدا عن تلك الجهات. وإثر سوء تفاهم ودسائس دسها بينهما المغرضون فسد ما بين الأخوين وتبادلا العداء وتجاهرا بالمقاومة لبعضها، فغلب أبو عبد الله الشيخ على الملك واستقل بالأمر».

إنتهى المقطع.

ما فائدة هذا المقطع للقاريء ؟ ما قيمة هذا المقطع للقاريء المغربي نفسه ؟ أما بالإضافة إلى القاريء العربي أيضا، فإن هذا الخبر لا قيمة له أبدا. وأما إذا وصلنا إلى القاريء الفرنسي والقاريء الصيني والقاريء الأميريكي فإن هذا المقطع يصبح لا يليق بالسرد.

أما علم الجبر الذي أوجده الخوارزمي فإنه قد بدل حضارات الشعوب وزاد في ثقافتها ثم أن لهذا العلم فائدة صحيحة للعربي ولغير العربي، وللكبير وللصغير، يتعلمه كل تلميذ بكل لغة من لغات العالم، ويستخدمه كل عالم ثم يعمل به كل تاجر من غير أن يدرك أنه يقوم في تقويم تجارته عند البيع والشراء بعدد من قواعد هذا العلم.

هب الآن أن المقطع السابق الذكر قد فقد من ذلك الكتاب ومن جميع كتب التاريخ، فماذا يفقد العالم ؟ وماذا الذي يفقده القارىء المغربي نفسه ؟ ولكن تخيل الآن أن الخوارزمي لم يوجد علم الجبر ولا استطاع أحد غيره أن يوجد ذلك العلم، فإن العالم كله يكون قد خسر أشياء كثيرة نظرية وعملية، لو حدث ذلك لكانت الحضارة الإنسانية أدنى مما هي اليوم بمراحل.

أنا لا أدعو إلى إهمال الجانب السياسي عند تدوين التاريخ، ولكني أدعو إلى أن يعطى ذلك الجانب السياسي حقه الصحيح في صورة الحضارة الإنسانية، كما أدعو إلى إعطاء الجوانب الأخرى من التاريخ حقها : العلم والفن والأدب والاقتصاد والاجتماع، ذلك لأن التاريخ - كما يقول ابن خلدون المغربي - هو وصف الاجتماع الإنساني بكل ما فيه. والتاريخ عند ابن خلدون هو وصف عمران العالم. وعمران العالم يضم وجوهاً كثيرة من الحياة الإنسانية، وأقل هذه الوجوه في هذه الحياة الإنسانية قيمة تلك القصة التي يسميها نفر من المؤرخين «الحياة السياسية» !

الدكتور عمر فروخ

الأندلس والمغرب
وحدة أم تكامل؟

عبد العزيز بن عبد الله
عضو الأكاديمية الملكية المغربية

عاش المغرب في الأندلس ثمانية قرون من أواخر القرن الأول الهجري إلى بداية القرن التاسع أي نهاية المملكة النصرية في غرناطة وقد كان للعدوتين طوال هذه الحقبة المترامية تجاوب وتجاذب سبقته هجرة الوندال (Vandales) (وأنداليس) في القرن الخامس الميلادي هي التي انطلق منها اسم الأندلس حسب تخمين مؤرخين في مرحلة وسطى دعوا خلالها منطقة بيتيك Bètique الرومانية بواندلوسية (Vandalicia)[1] ومع تقلص الامبراطورية الإسلامية في الجزيرة الإيبيرية إلى الآن أصبحت كلمة أندلس مقصورة على أقاليم جنوبية تمر بإشبيلية وقرطبة وغرناطة لتشع في وقت مبكر على جهات أخرى من العدوة الجنوبية ثم تتسع غب هجرة الأندلسيين

---

1) راجع دوزي ـ أبحاث حول تاريخ وأدب عرب اسبانيا خلال العصور الوسطى ـ الطبعة الفرنسية الثالثة ـ ليد 1881 (ج 1 ص 301).

إلى المغرب الكبير وخاصة المغرب الأقصى بعد النفي العام وحركة الغزو الإيبيري (Reconquista).

ولعل نوعاً من التلاحم قد تحقق في أرض الأندلس بتمازج فلول شرقية بعناصر من إفريقية والمغرب تزاوجت في كيان مشترك تمخض عبر القرون عما سماه الغربيون بالغرب الإسلامي تبلورت فيه ألوان متكاملة شملت أدق مجالي الحياة حتى ما عرف منها بالفن الإسباني الموريسكي، وقد انصهرت مؤثرات أموية غربية عريقة خاصة خلال القرن الرابع الهجري في مؤثرات صنهاجية مصمودية تحت تأثير المرابطين والموحدين ومن هناك انطبع تراث الأندلس بعطاءات مغربية إفريقية عربية انبثقت عنها حضارة فذة خلقت عالما ثالثا بين الشرق والغرب كاد يرتكز بين المحيط والمتوسط في المغرب وصحرائه كصلة بين ثلاث قارات وثلاث حضارات، وكان السبق في كل ذلك منذ الانطلاقة الأولى للفوج الإفريقي المغربي الذي غزا الأندلس[2].

وقد بدأ احتلال الأندلس بحراً عام 27 هـ على يد عبد الله بن نافع وعبد الله بن الحصين (ابن عذاري عن الطبري في البيان ج 2 ص 5).

وقد ظلت الأندلس خلال ثمانية قرون متأرجحة بين التبعية والانفصال عن المغرب واستوثق هذا الرباط طوال ثلاثة قرون من عهد المرابطين إلى عهد المرينيين.

---

2) بلغ جيش طارق الذي حارب رودريك في معركة وادي بكة Rio Barbat إثني عشر ألفا كلهم أفارقة انضم إليهم بإمرة موسى بن نصير عام 93 هـ / 712م عشرة آلاف عربي فيهم القيسية واليمنيون.

وفي غضون ذلك كله طرأت على الأندلس أحداث كيفت بنيتها وأسيستها تدريجيا عبر العصور.

ففي عام 123 هـ / 741م وقعت أول انتفاضة بربرية عامة في الأرض الإسبانية كانت امتدادا لانتصارات البربر في وقعة طنجة بقيادة ميسرة الخفير قبل ذلك بسنة وقد عقبتها ثورة أخرى عام 124 هـ تسلسلت طوال عقد من السنين أدت بعد استيلاء عبد الرحمن الداخل على الحكم إلى عودة الكثير من البربر إلى المغارب عام 136 هـ / 753م إثر مجاعة عارمة ولكن الأمير عبد الرحمن ما لبث أن استدعى البرابرة الأفارقة لتضخيم فيالقه وقد حفلت الأندلس منذ ذاك بعرب عدنانيين قرشيين وأمويين بالإضافة إلى فصائل يمنية قحطانية تركزت في شرق الأندلس وغربها وتفتقت عن الأسر المالكة في قرطبة وإشبيلية وعن حضارمة اليمن بغرناطة وبذلك تجمعت اليمنية في جبال وأرباض الحواضر الكبرى التي تتكون منها الأندلس ولعل لذلك صلة خفية بينهم وبين صنهاجة ومصمودة في عهد المرابطين والموحدين وهم أيضا من محتد يمني ولا تزال إلى الآن بقايا جزولة بين غرناطة والمحيط على مسافة غير بعيدة من الجزيرة الخضراء في جبال تعرف بجبال جزولة Sierra de las Gazules[3].

وبتوارد مهاجرين أفارقة جدد إلى قرطبة بدعوة من المنصور بن أبي عامر تضخمت أفواج القرطبيين البرابرة الذين عزز الناصر الأموي بهم قياداته العسكرية وخططه الإدارية والقضائية وهؤلاء هم الذين أفردهم ابن

---

3) اسپانيا الإسلامية في القرن العاشر - ليفي بروفنصال لاروز - باريس 1932 (ص 27).

حزم بكتاب الأنساب مدرجا بينهم الأصناف الثلاثة المذكورة من صنهاجيين ومصامدة وكتاميين[4].

إن من الصعب أن نرسم لأنفسنا صورة واضحة صحيحة عن مسرى التطورات الحضارية خلال القرون الثلاثة الأول من تاريخ الأندلس أو المغرب[5] قبل المرابطين وربما قبل الموحدين مثلما أمكننا ذلك في نفس الفترة في الشرق العربي، وقد بدأت هذه النظرة تتضح مع المقريزي (المتوفى عام 845 هـ / 1442م) والقلقشندي صاحب (صبح الأعشى) (المتوفى عام 821 هـ / 1418م) وابن فضل الله العمري (748 هـ / 1348م).

وهكذا ظللنا في حاجة ماسة إلى أن نتحسس ونتلمس من خلال الشذرات المنتثرة مظاهر ومجالي تبرز نتفا من الإبداعات التي حققها الأمويون وكان لها ـ أخذا أو عطاء ـ صلة مع الأوضاع الغامضة التي رسم لنا بعض خطوطها دون عمق في خصوص العدوة الجنوبية مؤرخون أمثال ابن خلدون وابن أبي زرع وعبد الواحد المراكشي والزركشي صاحب (تاريخ الدولتين) وابن بسام (في الذخيرة) والمقري في (نفح الطيب) كل ذلك نقلا عن كتب ظلت مغمورة بين ثنايا المخطوطات الغميسة من أهمها المقتبس لابن حيان الذي لم نتعرف عن أهميته إلا من خلال ما نقله عنه (ابن بسام)، وقد برزت أكثر فأكثر قيمة هذا الكتاب بعد ما صدرت منه أقسام أثرت معلوماتنا بفيض من النقول المباشرة عن مخطوطات ضاع

---

4) راجع نقول ابن عبد الحليم عن هذا الكتاب في (كتاب مفاخر البربر) (مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط).

5) راجع العصور الغامضة في تاريخ المغرب ـ كوتي.

بعضها، فقد نشر ابن حيان[6] فصولا بكاملها اقتبسها من تاريخ أحمد بن محمد الرازي[7] وتاريخ الأندلس لابن الفرضي و (نقط العروس في نوادر الأخبار) لابن حزم وعريب بن سعيد والحسن بن محمد بن مفرج القبشي صاحب (كتاب الخلفاء) وإسحاق بن سلمة في (تفضيل الأندلس) ومحمد بن مسعود في كتابه (الأنيق) مدليا أحيانا بآرائه المخالفة لما ينقل عن الرازي ومفصلا بشروح واسعة ما أجمله (عريب بن سعيد) ويستخلص ابن حيان من كل هذه المصادر نظرات دقيقة عن عصر عبد الرحمن الناصر مستعرضا الكثير من مظاهر العمران والحضارة في بلاط قرطبة أو كبريات الحواضر، وقد استمد ابن حيان بعض معلوماته مباشرة من خطوط علماء أندلسيين مثل (صاعد بن صاعد) قاضي قرطبة أو رسائل (موسى بن أبي العافية) القائم بدعوة الناصر لدين الله بالمغرب أو ولده أبي منقذ بن موسى (عظيم أهل الولاية بالمغرب)، وآخر مالدينا من (المقتبس) جزءه الخامس الذي صدر عام 1979 وتبلورت فيه كل المصادر المذكورة في مجال زمني يبتدئ عام 300 هـ وينتهي عام 329 هـ وبقيت ملازم اخرى مجهولة وهكذا أشار ابن حيان[8] إلى كتاب الخليفة الناصر لدين الله الذي ندد فيه بمذهب ابن مسرة وأتباعه وقرئ في الأمصار ناقلا عن تاريخ الرازي وتاريخ الأندلس لابن الفرضي الذي أكد[9] أن والد محمد بن مسرة هو عبد الله مولى رجل من برابرة أهل فاس.

---

6) راجع الجزء الخامس.

7) ينقل أحيانا عن ولده عيسى بن أحمد الرازي.

8) المقتبس ج 5 ص 25 ـ طبعة المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد (كليةالآداب بالرباط 1979.

9) طبعة كوديرا رقم 650 وطبعة القاهرة رقم 652.

كما أكـد لنـا ابن حيـان (حسب نقل ابن الأبـار في الحلـة السـيراء ص 33) أن عبد الرحمن الناصر كان أول من تسمى بـالخليفـة وتلقب بـأمير المؤمنين في حين يـلاحـظ مـؤرخـو المرابطين أنهم إنما انتحلـوا لقب إمـارة المسلمين تـاركين لـدار السلام ببغـداد شمولية الإشراف على العـالم الإسلامي بأكمله.

نعم كانت المعالم غامضة لم تسمح لنا بتوضيح قتامة بعض الخلفيـات في رسومات المقارنة رغم مـا بذلـه مؤرخون أجـانب أمثـال (جوزيف أشبـاخ) الألماني في كتابه عن المرابطين والموحدين[10] والمستشرق الهولندي (رينهارت دوزي) في (تاريخ المسلمين في الأندلس[11] والأستاذ (ليفي بروفنصال) الـذي لم يتعد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي أي آخر العهد الأموي[12]) غير أنهم استطاعوا تحقيق بعض التقدم في دراساتهم بسبب ما أمكن الكشف عنه من مخطـوطـات نميسة مثـل كتـاب (اعـزمـا يطلب) لمحمـد المهـدي بن تـومرت[13] و (أخبـار المهـدي بن تـومرت) لأبي بكر الصنهـاجي الملقب بالبيذق و (مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتـاب الـدولـة المومنيـة[14] ثم بعـد نحـو عقـدين من السنين. ظهرت أبحـاث أخرى كشفت عن جـوانب جديـدة مثل كتـاب (قيـام دولـة المرابطين) للـدكتور حسن أحمـد محمود[15]

---

10) ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد عبد الله عنان.

11) أنجز منه ثلاثة أجزاء وقف عند فتح المرابطين للأندلس.

12) في كتابه (اسبانيا المسلمة في القرن العاشر) طبعة باريس.

13) نشره (لوشياني) عام 1903 بالجزائر بتقديم المستشرق جولد زيهر.

14) نشرها مع مجموعة أخرى ليفي بروفنصال في باريس 1938 أعقبها حسين مؤنس بمجموعات من رسائل الدولة المرابطية.

15) نشر بالقاهرة عام 1957.

والمرابطون[16] للدكتور (خاثينثو بوسك فيلا) والقسم الثاني من كتاب (المن بالإمامة) لإبن صاحب الصلاة[17] أصدره الأستاذ (امبروسيو أويثي ميراندا) ثم أعقبه (البيان المغرب) لابن عذاري في طبعتين بتطوان[18] مما أتاح له فرصة توليف أوسع في كتابه (التاريخ السياسي لدولة الموحدين) طعمه بمعلومات دقيقة من مصنف جديد هو كتاب (نظم الجمان) لابن القطان الكتامي[19] الذي حققه الدكتور محمود علي مكي[20] والذي ظل مرجعاً لكثير من المؤرخين أمثال ابن عذاري وصاحب (الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية) وابن الخطيب السلماني ويقال إن ابن القطان هذا هو أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي المتوفى عام 628 هـ / 1230م[21].

ولعل بعض المجالي الحضارية الأندلسية قد تسربت إلى المغرب منذ القرون الثلاثة الأولى لا سيا بعد نزوح أربعمائة عائلة إلى فاس غبّ (وقعة الربض).

---

16) نشر بالإسبانية في تطوان عام 1956.

17) نشر الدكتور عبد الهادي التازي المخطوطة الوحيدة الموجودة في مكتبة (البودليانا) في اكسفورد.

18) عامي 1956 و 1961 ثم طبعة جديدة بتحقيق الأستاذين محمد ابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت.

19) كان أعاره إياه (ليفي بروفنصال) بعد أن نشر جزءا منه دون أن يعرف أنه لابن القطان الكتامي ولكن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد تملك من بين تركة بروفنصال بعد وفاته القطعة غير المنشورة من (نظم الجمان) وهي فريدة في العالم.

20) بإشراف معهد مولاي الحسن بتطوان (المطبعة المحمدية).

21) وإن كان الدكتور محمود علي يرى عن حق أنه ربما كان ابنا له أو أحد أقاربه لأن الكتاب يشير إلى خلافة المرتضى الذي وليها بين عامي 646 و 665 أي بعد وفاة ابن القطان بقريب من عشرين سنة.

ذلك أن نظام البلاط في العهد الأموي ـ وان كان قد تأثر بما عرفه العباسيون والفاطميون ـ فإن له ميزات اتسمت بمعطيات جهوية رغم وحدة الهيكل البنيوي فالصقالبة قد شكلوا معظم حشم القصر الخليفي أو أطره كالفتيان وأصحاب المطبخ والبنيان والخيل والبرود (الرقاص المحلف) والطراز والصباغة والبيزرة (صيد الغرانيق) والسيف وخزانة السلاح بالإضافة إلى القهارمة وخاصة الخليفة وقد استعملت نفس المصطلحات بالمغرب الأقصى في مجالات أخرى كالبيعة وولاية العهد والسدة العالية وعبيد القصر والحجابة والخطط الإدارية والقضائية (كقضاء الجماعة وقاضي القضاة وقاضي العسكر) والمحتسب وصاحب السوق والمشاورة وعمال الولايات ويعين أصحابها بصكوك بدل ظهائر ووظائف أخرى تدخل في إطار «خدمة الخلافة» ككتاب الزمام والرسائل والأسجال الخراجية والكتابة الخاصة والتوقيعات وتنجيزها والأوقاف وبيت المال (أو خزانة المال التي كانت تحوي الصدقات والأعشار والخراجات والجوالي والجبايات والضمانات والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة ورسوم بيوع الأسواق والمواريث الحشرية زد على ذلك الرسوم غير المنظمة مثل المغارم أو الوظائف أو القبالات والمكوس وجباتها المترفين أو الأمناء وربما امراء الجبايات) أما موارد الخليفة فكانت تندرج في المستخلصات (وهي مما يسمى بخاصيات بيت المال) فيها غلات الضياع الشبيهة بالعزائب السلطانية في المغرب.

ورغم التطعيمات المغربية والصحراوية المختلفة لحضارة الأندلس فإن روح الاستماتة والجهاد كانت هي العامل الأساسي الذي مكن الأندلس من أن ترفع راية الحضارة الإسلامية طوال ثمانية قرون وكانت الصليبية قد

بـدأت تتحرك من الأنـدلس لـلإيقـاع بـالإسـلام فـانبرى القـائـد المرابطي (479 هـ / 1086م) أي قبل الحرب الصليبية الأولى بعشر سنوات (1096م) لتحرير إمـارات ملوك الطـوائف من ضغـط الإسبـان فـأحرز في معركـة الـزلاقـة (عـام 1086)[22] ضـد (ألفـونس السـادس) ملـك قشتـالـة (عـام 1065 ـ 1109) نصرا تردد صـداه في الشرق والغرب وذاع صيت القـائـد الظافر الذي لقب منذ ذلـك اليوم «بأمير المسلمين» مع استرار دعوتـه لـدار الخلافة العباسية تركيزا للوحـدة الكبرى وتكونت امبراطوريـة واسـعـة ضمت الصحراء والمغارب الأربعة (ليبيـا وتونس والجزائر والمغرب) والأنـدلس تحت الحكم المرابطي ثلاثـة أربـاع قرن (إلى 537 هـ) برز خلالها ملوك طـوائف جدد بالأندلس وزحف صليبي عارم في إفريقية (أي تونس) وكان المهدي بن تومرت قد بـدأ جولتـه في الشرق منـذ أوائل القرن السـادس فـانبرى يجـدد معالم الدين ويركز العقيـدة السلفية ويجمع من جـديـد تحت ظل الإسلام المملكة المرابطية الشاسعة التي بدأت تنهار، وقد استطاع خليفته عبد المؤمن الموحـدي في سنـة الأخمـاس (555 هـ) تخليص إفريقيـة من الغزو النرمنـدي وتحصين جبل الفتح (جبل طارق) بالأنـدلس بفضل أسطولـه العتيـد الـذي أصبح أول أسطول في البحر الأبيض المتوسط[23] والضرب على أيـدي العرب الهلاليين والسلميين الذين نشرو الرعب والدمار بإفريقية فـازدهرت بـذلـك حضارة جديـدة أسهمت الأنـدلس في طبعهـا بميسم خـاص بزعـامـة يعقوب

---

22) وقعت معركة (حطين) التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين بعد قرن كامل (عام 1187م) فكأنها كانت ذكرى مئوية لانتصار (الزلاقة).

23) أندري جوليان ـ تاريخ إفريقيا الشمالية عام 1931 ص 412.

الملقب بـالمنصـور منـذ ظفره على الصليبيـة المتكتلـة في وقعـة الأرك (591 هـ ـ 1195م) أي بعـد وقعة (حطين) بنحو عقـدين من السـنين وشعر (البابا أنيوسان الثالث Innocent III) (عام 1198 ـ 1217م) بـالخطر الـداهم فتكاتفت البابوية بموجب تصميماتها المتمادة مع ملك قشتالة (ألفونس الثامن) (1158 ـ 1214م) وأسقف طليطلة (رودريك جيمنيز) للكر من جديـد على الإسلام المتوثب في (وقعة العقاب) (609 هـ / 1212م) التي كانت هـزيمة شنعاء ضعضعت مقومات الامبراطورية الموحدية في الغرب في نفس الوقت الـذي بدأ المسيحيون ينـدحرون في مصر خلال الحرب الصليبيـة الخامسـة (1219م) حيث طردوا نهائيا من الأمـاكن المقدسة بعـد معركـة غزة (عام 1244م) واتجـه المرينيون فيما بعـد يلمون الشمل معيـدين للبلاد وحـدتها في حدودها الإفريقية بينما هب (ألفونس العاشر) لتضييق الخنـاق على المملكـة النصريـة (أي دولـة بني الأحمر) التي لم تفـد من إجـازات المرينيين المتواليـة للأنـدلس سوى خضـد مؤقت لشوكـة المسيحيـة والواقـع أن الإمبراطـوريـة المرينيــة كانت منهـارة من أسـاسهــا رغم ذيــوع صيت أبي الحسن أعظم ملوكهـا الـذي مني بـآخر هـزيمـة في وقعـة طريف (741 هـ / 1340م) (Reo de Salado) قطعت الأمـل في إنقـاذ الأنـدلس حيث واجهت مملكـة غرناطة مصيرها وحدها.

غير أننـا لن نـدرك مـدى التلاحم بين حضـارة العـدوتين إلا إذا استعرضنـا نماذج تبرز التكامـل إذ لم نقـل وحـدة البنيـة في شتى مجـالات الحضارة ومرافق المعرفة فلنضرب أمثلة لهـذا التزاوج الفكري بين شقي البحر الأبيض المتوسـط في مختلف حقول العلم والفن خـاصـة في الطب والصيـدلـة والرياضيات والعلوم الإسلامية والمعماريات.

الطب والصيدلة :

أما في الأندلس فقد ذكر لوكلير (ج 2 ص 350) أن القرن العاشر (الرابع الهجري) يعد من أنصع القرون في اسبانيا العربية سواء من حيث دراسة الفنون أم من حيث المؤسسات والمخترعات العلمية.

فإذا كان هذا القرن هو أدون من حيث علماؤه من القرنين الحادي عشر والثاني عشر (الخامس والسادس الهجريين) فإن علماء هذين القرنين إنما فاقوهم بفضل ما ابتدعوه من مؤسسات ومكاتب ومدارس فأولئك بذروا وهؤلاء حصدوا وفي هذا العصر كان ذلك الحماس العلمي يسود حول (مسلمة المجريطي) الذي عاش بقرطبة.

وفي هذا الإبان كذلك برز (ابن جلجل) كأعظم طبيب طبائعي في عصره حيث عرب (مفردات ديسقوريدس) وزاد عليها الأدوية المعروفة عند العرب والتي جهلها ديسقوريدس[24] وقد كتب ابن جلجل أيضا (تاريخا للأطباء والحكماء) الذين ظهروا قبله في الأندلس.

والوليد المدحجي الطبيب قد دخل الأندلس مع عبد الرحمن بن معاوية وكان طبيبه أخذ عنه ابنه ابراهيم.

وقد ألف عبد الملك بن حبيب السلمي المرداسي القرطبي المتوفى عام 238 هـ (مختصرا في الطب) توجد منه نسخة مخطوطة في المكتبة الوطنية بالرباط.

---

24) توجد في اسطامبول نسختان من كتاب الحشائش لدسقوريدس رسمت في أولها صورة المؤلف اليوناني وقد أشار بوشتال وكورز إلى نسخة من هذا القبيل انتسخت في بغداد عام 637 هـ ميلانج (مختلط) لوي ماسينيون ج 2 ص 93.

ومما يـدل على أهميـة أطبـاء الأنـدلس في القرن الرابع أن محمـدا بن عبدون القرطبي دخل مصر والبصرة وعني بعلم الطب ودبر مارستان مصر ثم رجع إلى الأندلس سنة 360م وقد ذكر (صاعد) «أنه تمهر في الطب ونبغ فيه وأحكم كثيرا من أصوله ولم يكن يلحقه أحد بقرطبـة في صنـاعـة الطب ولا يجـاريـه في ضبطهـا وحسن دربـه فيهـا وإحكامـه لغوامضهـا» (النفح ج 1 ص 444).

وأبرز طبيب عربي ظهر في الأنـدلس في القرن الرابع هو (أبـو القـاسم خلف بن عباس الزهراوي) صاحب كتاب «التعريف لمن عجز عن التأليف» وقد قال فيـه أحـد الجراحين الغربيين : «لاشك أن الزهراوي أعظم طبيب في الجراحة العربية وقد اعتمـده واستنـد إلى بحوثـه جميع مؤلفي الجراحـة في القرون الوسطى» وكتابه هو اللبنـة الأولى في هـذا الفن وهو أول من ربـط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثـانـة واستخرجهـا بعمليـة جراحيـة وعالج الشلل وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية.

وذكر (لوكلير) من جهتـه أن (الـزهراوي) أعظم ممثـل لعلم الجراحـة في المدرسة العربية (ج 1 ص 334).

والظـاهرة الطـريفـة التي امتـاز بها كتـاب التعريف للـزهراوي هـو إدراجه بإزاء النصوص لصور الآلات وإلا فإن كتابـه في التشريح مقتبس ـ حسب الـدكتور لوكلير ـ من الكتـاب الســادس لبـولس دوجين ولكنـه كان مع ذلك جراحاً ممتـازاً ووضع في أول كتـابـه (معرفـة علم التشريح كأسـاس للجراحة) (ج 1 ص 445) فكتـابـه هو أول تعبير للجراحـة كعلم (ص 456)

وقد طبع كتاب الزهراوي في الهند بصوره[25] وكثير من كتب الطب تحتوي على صور حيث يوجد مجموع في العين بالخزانة التيمورية كتب عام 592 هـ من محتوياته (تذكرة الكحالين) لعلي ابن عيسى الموصلي بها دوائر ورسوم للعين وكتاب في (علل العيون وعلاجها) لحنين بن إسحاق به صور للعين ملونة وقد ترجم هذا الكتاب للألمانية الأستاذ : (مايرهوف) الكحال الشهير.

والحمامات توافرت كذلك في الأندلس والمغرب وهي تشتمل في المغرب على ثلاث قاعات بينما الحمامات الأندلسية تحتوي على قاعة أولى ثم ثانية وبرمها (جمع برمة) تتعدد في نفس الغرفة وهي من مرمر تتصل بأنابيب مغروسة في الجدار تصدر عن البرمة المركزية وتشيع درجة كبيرة من الحرارة (تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي ج 1 ص 58).

أما في المغرب الأقصى فمن الصعب تأكيد ابان ابتداء الازدهار إلا أن (الدكتور لوكلير) أكد أن الطب ازدهر في هذه الربوع خلال القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ازدهارا عابرا مع الأسف (ج 1 ص 334).

ثم تحدث في موضع آخر عن أطباء المغرب فلاحظ أن المغرب هو أشد أقطار الإسلام عمقا من الناحية العلمية (ج 1 ص 407).

---

25) يوجد بالمكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد 1427 د بعد المقالة الثامنة من كتاب التصريف للزهراوي مقالة تحتوي على 28 صورة لحدائد الكي وآلات العمل وهذه المكاوي الدقيقة الصنع تختلف حسب العضو المريض من الرأس إلى الأذن والفك والعين داخلا وباطنا والأضراس والمعدة والمقعدة والكبد والطحال والقدم والساق والتآليل والرحم والمثانة إلخ...

ومع ذلك فقد كان في المغارب الثلاثة أطباء مهرة في هذا العصر يدل على ذلك ما رواه (القفطي) من أن المعز الفاطمي قد رافقه إلى مصر أطباء من أرض المغرب (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص 75).

وقد اشتهر (قسطنطين التونسي) في القرن الرابع كطبيب ترجم عشرات الكتب إلى اللاتينية.

ونقل الكانوني في «شهيرات المغرب» (مخطوط) عن كتاب «فن الأسنان بالمغرب الأقصى» انه كان بفاس في القرن الرابع الهجري مدرسة طبية وذلك أيام كان المغرب تحت نفوذ الأمويين.

وكان القرنان الخامس والسادس الهجريان أبرز العصور العلمية في الأندلس المسلمة رغم الاضطراب الذي تمخض عن تدخل المرابطين ثم الموحدين وذلك بفضل العناية التي أولاها هؤلاء الخلفاء للعلم والعلماء إذ يمكن القول - والدكتور لوكلير يؤكد هذا (ج 2 ص 72) - بأن الفكر لم يسبق له أن تحرر كما وقع في هذا العصر وشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد (الذي هو أعظم فيلسوف أنجبته الأندلس) وبني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون وأعظمهم هو أبو مروان عبد الملك الذي يعتبره بعض المؤرخين أكبر طبيب تخرج من المدرسة العربية يضاف إلى هؤلاء الغافقي وأبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني اللذان ألفا في (تاريخ الطب الطبيعي) والغافقي هذا هو أبو جعفر أحمد بن محمد وهو غير محمد بن قسوم الغافقي صاحب المرشد في طب العيون ويوجد (كتاب الأعشاب) للغافقي في دار الآثار العربية وهو يحتوي على 380 رسما ملونا لنباتات وعقاقير وحيوانات متقنة الرسم.

ومن نبغ أيضا بالأندلس في هذا العصر (ابن العوام) مؤلف «كتاب الفلاحة» الذي لايوجد له نظير في الأدب العربي لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية ووثائق قديمة ثمينة (لوكليرج 2 ص 1) بل هو أعظم ما أنتجه العرب وحدهم بل حق العصور القديمة (ص 110).

وابن العوام هذا هو أبو زكرياء يحي بن محمد الذي لانعرفه إلا من خلال مصنفاته ويزعم (كازيري) أنه عاش في القرن السادس الهجري.

زد على هؤلاء (الشريف الإدريسي السبتي) وقد جاء في (رسائل البشرى) أنه اشتهر في فنون الهيئة والجغرافية والفلسفة والطب والنجوم وقرض الشعر وطاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية والأندلس وفرنسا وأنجلترا ووصف نباتات كل قطر (الإعلام ج 3 ص 34).

وأصبحت هذه المصنفات أساساً دراسيا لرجال القرن التالي أمثال ابن البيطار[26] المالقي وأستاذه (أبي العباس النبطي) وهما أعظم العلماء النباتيين العرب الذين وصلتنا مؤلفاتهم ولم ينجب الشرق في هذه الأثناء من أعاظم الرجال سوى (فخر الدين الرازي) فاستطاع الأندلس بفضل شبكة علمائه أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي (لوكليرج 2 ص 72).

على أن أبا عبيد البكري صاحب (المسالك) قد خلف كتابا حول (أعشاب الأندلس وأشجارها) ينقل عنه ابن البيطار وقد وصف في مسالكه

---

26) ابن البيطار توفي عام 646 هـ أكل عقارا قاتلا فمات من ساعته (نفح الطيب ج 2 ص 874).

بعض الظواهر الغريبة من تاريخ علم الطبيعة كالأعشاب المسهلة وأشجار (أركان) التي أشار إلى وجودها في طريق أغمات إلى فاس.

وبفضل الانبعاث العربي في الأندلس صارت أوربا تنفض عنها أردية الركود وأصبح المسيحيون يتوافدون على (طليطلة) للارتشاف من معين العلم وقد استنجد (ريموند) أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر اللاتيني وإذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية ثم ورد (جيرار دوكريمون) على طليطلة حيث استقر نحواً من نصف قرن نقل خلالها من العربية إلى اللاتينية ستة وسبعين كتابا عربياً أو إغريقيا معرباً.

وقد بدأت حركة الترجمة في إفريقيا منذ القرن الرابع فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس مدرسة (سالرنة) وهي أول مدرسة من نوعها في أوربا وكانت مبعث أنوار الطب الحديث في العالم الغربي ولد حوالي عام 400 هـ بتونس وحمل مخطوطات طبية إلى (سالرنة) بقيت غذاء أوربا عدة قرون وترجم إلى اللاتينية أهم كتب الطب العربي منها (زاد المسافر) لابن الجزار وكتب للرازي وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي وألف نحواً من 24 كتاباً في الطب منها (قانون الطب) في 12 مجلدا (وفياتيكوم في الطب العام) في سبعة أجزاء ومات عام 475 هـ. ولكن لم يكد يمضي العقد الأول من القرن السابع (أي بعد غزوة العقاب التي انهزم فيها الموحدون عام 609 هـ «وكانت السبب في هلاك الأندلس» كما يقول ابن عذاري (ج 4 ص 240) حتى بدأ صرح العلم ينهار وطمست الاضطرابات ذلك الرواء الذي تألق نجمه منذ عهد الناصر الأموي طوال ثلاثة قرون.

نعم في العهد الذي كانت الأندلس خاضعة لسلطان مراكش تكونت - كما يقول لوكلير (ج 2 ص 240) - جماعة من الأطباء التفت حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك إلى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب - فأفاد المغرب كثيرا من نكبة الأندلس.

وقد أكد (الدكتور رينو) أن المغرب لم يقم على وجه العموم بدور يذكر في العصر الذي كان الطب وبقية العلوم يتألق نورها في سوريا والعراق ومصر وحتى في اسبانيا المجاورة ولكن منذ أواخر القرن الحادي عشر وخاصة الثاني عشر أبرز عصور اسبانيا المسلمة امتزج تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين ثم يقول (رينو) :

«فكيف إذن يمكن أن نفصل بين دراسة الطب بالمغرب ودراسة حياة العلماء الذين أنجبتهم الأندلس أو الذين تكونوا في مدارسها ثم ساروا في أعقاب ملوك المغرب من إشبيلية أو بتبني ابن باجة وابن طفيل وابن رشد إلخ (الطب القديم بالمغرب نشرة معهد الدروس العليا عدد 1 ص 72).

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس وقد كان طبيباً خاصا ليوسف ابن تاشفين بعد أن كان طبيب (المعتمد بن عباد) بإشبيلية.

وقد تمخضت تجارب أبي العلاء في المغرب عن تأليفه لكتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان عام 1911 بباريس) وهو مجموعة من الملاحظات سجلها لولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش والأدوية المناسبة.

وبعدما توفي أبو العلاء أمر علي بن يوسف بجمع ملاحظات طبية أخرى كان أبو العلاء سجلها في أوراق وهي «المجربات» التي جمعت بمراكش عام 536 هـ والتي يوجد مخطوط منها في الأسكوريال (رقم 844).

وقد ترجم (جان دوكابو) التذكرة من العبرانية إلى اللاتينية (نسخة في مكتبة كلية الطب بباريس) ثم توالت التراجم عام 1280م والمطبوعات (عشر مرات بين 1490 و 1554م).

وهنالك (رسالة في أمراض الكلى) كتبها أبو العلاء لعلي بن يوسف ولا توجد سوى ترجمتها باللاتينية المنشورة عام 1497م كما يوجد مخطوط له حول (الخواص) بمكتبة باريس ومنه استقى ابن البيطار (خواص لحوم الحيوانات).

ولأبي العلاء مقالة في شرح رسالة يعقوب بن إسحاق الكندي حول (تركيب الأدوية). وتوجد نسخة من «جامع أسرار الطب» لأبي العلاء في المكتبة الوطنية بالرباط وهي تحتوي على 185 ورقة.

وولده هو أبو مروان عبد الملك بن زهر خدم المرابطين مثل أبيه وألف (كتاب الاقتصاد) لإبراهيم بن يوسف أخى علي (يوجد منه مخطوط بباريس رقم 2959) وكذلك نسخة في (الاسكوريال) حسب (رينو) محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية وفرغ من الكتاب عام 515 هـ.

وقد تحدث ابن زهر في هذا الكتاب عن أطباء عصره فذكر أنهم يختلفون في الاعتناء بالمرضى وأن الناس يجهلون الطب لأن الطبيب الذي يستشيره مريض من المرضى يبادر فيصف له دواء من الأدوية دون تمحيص للحالة في جميع خواصها ثم ذكر أنه استدعي يوما من الأيام لدى أمير

مرابطي فوجد جماعة من الأطباء شباباً وشيوخاً لم يسبق له أن تذاكر معهم ولكنه تـأثر بتجربتهم فجرت المذاكرة حول الـداء الـذي يشكو منـه الأمير فبادر الأطبـاء الحـاضرون ووصف كل منهم دواء فلم يوفق في نظر ابن زهر سوى واحد منهم ومع ذلك لم يستكنه سبب الداء ومما امتاز به وخالف فيه أطباء عصره الأقدمين أنه كان يستعمل الفصد للشيوخ من سبعين سنة فأقل وللأطفال كذلك حيث فصد ابنه من ثلاث سنوات فأدهش معاصريه وكان والـده أبو العلاء يوصي ببطيـخ فلسطين (أي الـدلاح) في عرف المغـاربـة في أمراض الكبد ويعالج بجس النبض والنظر إلى قوارير البول.

وقـد قرأ (أبـو الحكم ابن غلنـدو الإشبيلي) الشـاعر على أبي مروان ابن زهر عام 535 هـ كتـاب الاقتصـاد في سجن مراكش حيث مكث ابن زهر نحو العشر سنين.

وقد سبق لعبـد المومن أن اختصـه لنفسـه وعول عليـه في الطب ولـه ألف (التريـاق السبعيني) وأنبت كرمـة عنب كان يسقيهـا من مـاء مسهـل لكراهية عبد المومن لشرب المسهلات فصار يعطيه من ثمارهـا وقـد ألف لـه كذلك (كتاب الأغذية) (ابن أبي اصيبعة ج 2 ص 66).

و (كتـاب التيسير) قـد كتبـه أبـو مروان بن زهر بطلب ابن رشـد كتذييل لكتابه (الكليـات) وقـد ذكر ابن زهر في آخر كتـابـه أن الشخص الـذي كلف بمراقبتـه في التـأليف لم يرقـه الكتـاب لأنـه يخـالف التعليمـات الصادرة إليه ولأن فهمه يعسر على من ليس عنده مسكة من الطب لـذلـك ألحق ابن زهر «الجـامـع» بـآخر الكتـاب فهـل عبـد المومن هـو الـذي أمره

بتصنيفه ؟ ويظهر من تحليل لوكلير لكليات ابن رشد المترجمة إلى اللاتينية أن ابن رشد ينقل عن تيسير ابن زهر.

وقد أكد (ابن عبد المالك) في (الذيل والتكملة) أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره.

وتعرض (ابن سعيد) في الرسالة التي ذيل بها (رسالة ابن حزم) في فضل علماء الأندلس ـ لعبد المالك بن أبي العلاء بن زهر فذكر أن كتاب (التيسير) مشهور بأيدي الناس بالمغرب وقد سار أيضا في المشرق لنبله (النفح ج 2 ص 778).

وقد نهج ابن زهر في كتاب (التيسير) أسلوبا جديداً في (الحكمة القياسية) مستخدما التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج فهو طبيب التجربة والتمحيص العلمي وليس من صناع اليد كما يقول في «التيسير» أما في الميدان العملي فقد لاحظ ابن زهر أنه يأنف من إجراء العمليات الجراحية الكبرى بنفسه لأن رؤية الجروح تثير في نفسه ضعفا يوشك أن يسفر عن إغماء ولكنه لا يكره تحضير الأدوية غير مستعمل الخمر في تركيبها على سنن والده أبي العلاء (حتى ولو أوصى بذلك (جالينوس)) على خلاف (الرازي).

ولعل أبا مروان توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية إلى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله فقد اهتم بالأمراض الرئوية وأجريت له عملية القصبة المؤدية إلى الرئة وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في (مرض الذبحة) فعولج المريض.

وقد اختص ابن زهر في (أمراض الجهاز الهضمي) واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع واستعمل الحقن المغذية واكتشف (طفيلية الجرب) وسماها (صؤابة الجرب) كما بسط طرق العلاج القديمة وأوضح أن الطبيعة ـ إذا اعتبرناها قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري ـ تكفي وحدها في الغالب لمعالجة الأدواء (حضارة العرب جوستاف لوبون ص 530 من الطبعة الفرنسية).

وكان أبو مروان إذا عالج مريضا نسي نفسه واستهلك في مريضه وهذا هو سر عبقريته فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها واستمد من ذكرياته وتجاربه ومنطقه ولهذا كان نسيج وحده وانكب أطباء القرون الوسطى على دراسة كتابه (التيسير) الذي ترجم أولا عن العبرانية من طرف شخص مجهول (مخطوط بمكتبة ليد) ثم إلى الإيطالية عام 1260.

وقد تحدث ابن زهر في كتاب (التيسير) عن (يمين ابقراط) الذي كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضي منهم إلزام تلاميذهم بها وقد ذكر ابن زهر أن والده أبا العلاء تلقى اليمين منه عندما كان لا يزال طفلا لدى ابتدائه دراسة الطب.

أما (أبو بكر محمد بن يحيى ابن الصائغ) المعروف بابن باجة فهو شيخ ابن رشد المتوفى بفاس (ابن أبي اصيبعة ج 2 ص 63) وقد استوزره أبو بكر يحي بن تاشفين مدة عشرين سنة وكان يشارك الأطباء صناعتهم فحسدوه وقتلوه مسموما عام 533 هـ (القفطي ص 265).

ولم يصلنا شيء من المؤلفات الطبية المنسوبة لابن باجة ولا يعرف إلا عن طريق ابن البيطار الذي يقتبس منها في (جامع المفردات).

ومن تلامذة ابن باجة (أبو الحسن سفيان الأندلسي) المتوفى عام 537 هـ الذي كان أحد أطباء علي بن يوسف وتعاون مع شيخه ابن باجة في تأليف (كتاب التجربتين) (لوكلير «تاريخ الطب العربي» ج 2 ص 79).

وذكر ابن عذاري في البيان المغرب (ج 4 ص 49) أن الخليفة أبا يعقوب اعتل عام 573 هـ فوفدت عليه الأطباء من الأندلس للمعالجة إلى أن وجد الراحة.

وذكر أيضا أن أبا يعقوب لما جرح في الغزوة التي مات اثرها بالأندلس كان الأطباء الحاضرون لديه هم ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم (ج 4 ص 70).

وذكر صاحب (الأنيس المطرب) من أطباء يوسف بن عبد المومن الوزير أبا مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي زيادة على ابن طفيل وابن رشد وابن زهر (ج 2 ص 176).

وكان الطبيب (سعيد الغماري) بمراكش في عصر يوسف بن عبد المومن (الإعلام لعباس المراكشي ج 1 ص 343).

ومنهم أيضا (أبو الوليد بن رشد) الذي تميز في الطب وله (كتاب الكليات) الذي ترجم إلى اللاتينية وطبع ولما ألف كتابه هذا قصد من ابن زهر أن يؤلف كتاباً في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب وكان مكينا عند المنصور ثم الناصر.

ولابن رشد تلخيص (كتاب العلل والأعراض والتصرف والحميات والأدوية المفردة وحيلة البرء).

وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطبـاء اليوم وهو (تبـديل الهواء) في الأمراض الرئويـة وقـد أشار إلى جـزيرة العرب وبلاد النوبة كمراكز شتوية (حضارة العرب غوستاف لوبون ص 531 من الطبعـة الفرنسية).

وابن رشد هو أول[27] من أشار إلى الدورة الدموية وعللها في كتـابـه الكليات الذي استمد منه (ويليام هارفي) معظم نظرياته.

وهناك أطباء آخرون منهم :

(أبو الحجاج يوسف بن موراطير) طبيب المنصور والناصر (الذي رافقه إلى تونس) والمستنصر وقد مات بالنقرس في مراكش ومن تلامذته أحمد بن عبد الله الكتبناري الذي درس الطب على عبد العزيز بن مسلمة البـاجي وعندما ألف ابن أبي اصبيعة كتابه كان هو طبيبا في اشبيلية عند بني هود.

أبو مروان عبد الملك بن قبلال الغرناطي طبيب المنصور والناصر.

أبو إسحاق إبراهيم الداني (من بجايـة) كان أمين البيمـارسـتـان وطبيبـا بمراكش حيث توفي في أيام المستنصر.

أبو يحي بن قاسم الإشبيلي صاحب (خزانـة الأشربـة والمعـاجين) وكان والـده في خـدمـة يوسف وتوفي أبـو يحي بمراكش أيـام المستنصر وجعـل في موضعه في الخزانة ولده (طبقات الأطباء ص 79).

---

27) ابن النفيس المصري اكتشف الدورة الدمويـة الصغرى وهي الـدورة الرئويـة قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشرة المعهد المصري ج 26 عام 1934 ـ بحث بقلم (ماكس مـايرهوف ص 33) وقد أشار ابن النفيس إلى ذلك في «الكتاب الشامل في الطب» الـذي كان يحتوي على 300 مجلد وقد أهدى مؤلفه منه 80 مجلدا لمستشفى قلاوون.

أبو جعفر (أحمد بن حسان الغرناطي) طبيب المنصور وهو الذي رافق ابن جبير في رحلته ودفن بفاس وقد ألف للمنصور (كتاب تدبير الصحة) وكان ولده أبو العلاء طبيبا للمستنصر.

(أبو محمد الشذوني الإشبيلي) تلميذ عبد الملك بن زهر كان جيد العلاج وطبيب الناصر.

(أبو الحسين بن أسدون) الملقب بالمصدوم تلميذ عبد الملك بن زهر كان دينا شاعرا معتنيا بالطب يطلبه المنصور للعلاج (ص 79) وتلميذه عبد العزيز بن مسلمة الباجي المعروف بابن الحفيد كان شاعرا وطبيبا للمستنصر.

(أبو جعفر بن الغزال) طبيب المنصور الذي كان يعتمد عليه في تركيب الأدوية والمعاجين.

(أبو بكر بن القاضي بن الحسن الزهري) تلميذ ابن رشد وطبيب أبي علي بن عبد المومن صاحب إشبيلية وكان يطب الناس من دون أجرة.

(أبو إسحاق بن الحجر) كبير أطباء الرشيد الموحدي (الذيل والتكملة).

(أحمد بن مضا) اللخمي القرطبي لقي عياضا بسبتة ومهر في الطب (الديباج لابن فرحون ص 65).

(ابراهيم بن صواف الحجري الشاطبي) تعلم الطب وتصدى للعلاج بطنجة واستقر آخر عمره بفاس وتوفي في نحو 506 هـ (الجذوة ص 86).

الطبيب (أحمد بن عبد الله بن موسى القيسي الإشبيلي) سكن مدينة فاس وتوفي بها عام 571 (الجذوة ص 70) وهو تلميذ أبي بكر بن العربي.

(أبو الحسن علي بن أحمد الشلطيشي) الطبيب الشاعر استوطن مراكش وتوفي بها عام 565 أو 566 هـ (الذيل والتكملة).

(علي بن عتيق الخزرجي) نزيل فاس كان شاعرا ماهرا في الطب موفق العلاج (الذيل والتكملة) وقد حدث في بجاية وله تآليف توفي عام 598 هـ (الجذوة ص 306).

(أبو يحيى هانىء بن الحسن اللخمي الغرناطي) له مشاركة في الحديث والأصول والطب تتلمذ لابن فرتون بفاس وتوفي عام 614 هـ (الجذوة ص 335).

الطبيب الشاعر (محمد بن قاسم الأنصاري الجياني) سكن بسبتة وفاس وأخذ عن علمائها كأبي القاسم التجيبي (الجذوة ص 192).

وقد رحل إلى المشرق أطباء مغاربة منهم (علي بن يقظان السبتي) الطبيب الشاعر الأديب الذي توجه إلى مصر عام 544 هـ ثم إلى اليمن والعراق (القفطي ص 160) وكذلك (يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي أبو الحجاج) نزيل حلب ويعرف في سبتة بابن سمعون كان طبيبا من أهل فاس «وقرأ يوسف الحكمة ببلاده (أي سبتة) فساد فيها» (القفطي ص 256) وذكر لوكلير أنه كان طبيب (ميمون أمير حلب) وطبيب (الملك الظاهر) وصديقا للقفطي (ج 2 ص 193).

(أبو جعفر عمر بن علي القلعي المغربي) طبيب ماهر في الأدوية والأمراض وعلاجها كتب ملاحظات على كتب ابن سينا ولد بالمغرب وعاش في دمشق حيث كان له دكان للعيادة توفي عام 576 هـ (الوكلير ج 2 ص 40).

(موسى بن ميمون القرطبي الذي يعتقد اليهود أنه لم يظهر عندهم مثله منذ موسى عليه السلام قرأ على أحد تلامذة ابن باجه ولم يتصل لا بابن باجه ولا بابن رشد وقد أظهر الإسلام إلى أن بلغ الثلاثين وهو إبان دراسته وفي عام 1160م توجه مع عائلته إلى فاس وبعد خمس سنوات نزل في عكرة ثم مصر حيث استقر بالفسطاط وأصبح من أطباء البلاط أيام صلاح الدين وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أنه مهر في ممارسة الطب بينما أنكر ذلك القفطي وتبعه لوكلير (ج 2 ص 58).

أما المستشفيات فمما أنشأه أبو يوسف (دار الفرج) في شرقي الجامع المكرم وهو مارستان المرضى يدخل العليل فيه فيعاين ما أعد فيه من المنازل والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه (الاستبصار في عجائب الأمصار).

ووصف (عبد الواحد المراكشي) المستشفى الموحدي بمراكش فقال : «وبنى بمراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسط إحداها رخام أبيض ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت وأجرى برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من الأدوية وأقام

فيه الصيادلة[28] لعمل الأشربة والأدهان والاكحال وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء فإذا نقه المريض فإن كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنيا دفع له ماله... ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى... ولم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات (المعجب ص 177).

وذكر مي Millet (في كتابه الموحدون) المؤلف عام 1923 (ص 129) أن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس.

ولا بدع إذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لأوربا فقد قال (ولز) في مختصر التاريخ : «ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب على حين كان الأوربيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه إذ أن الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقى التي كان يبيعها رجال الدين» إلى أن قال : «وكان الأوربيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين».

28) ذكر البيروني المعروف عند الأوربيين بـ Maître Aliboron في مقدمة (كتاب الصيدلة) في الطب أن لفظة الصيدنة بالنون أكثر اشتهارا من الصيدلة باللام (ماكس مايرهوف ـ نشرة المعهد المصري ج 22 عام 1940.

وفي خصوص فاس ذكر (علي بن ميمون) في تأليف له استطرد فيه الكلام على فاس أنه ما رأى مثلها ومثل علمائها في حفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب والمنطق والتوحيد والبيان والطب وسائر العلوم العقلية... ما رأى مثلها ومثل علمائها فيا ذكر في المغرب وتلمسان وبجاية وتونس والشام والحجاز ومصر ورأى ذاك بالمشاهدة (سلوة الأنفاس ج 1 ص 74).

غير أن ابن خلدون أكد أنه لم يشاهد في المائة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم (نشر المثاني ج 2 ص 97).

ولكن حوالي 620 هـ أي بعد مرور بضع سنوات على ظهور المرينيين (عام 613 هـ) تحدث المراكشي صاحب (المعجب) عن فاس فذكر أنها حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة حيث رحل علماء المدينتين ونزل أكثرهم بفاس «وما زلت أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب» (ص 220)[29].

---

29) أكد ليڤي بروفنصال «أنه بفضل ملوك بني مرين لم تكن عاصمة فاس في القرن الرابع عشر الميلادي لتحسد العواصم الإسلامية الأخرى (هسبريس عام 1952 ص 2).
وقد اعتبرت فاس من طرف باديا ليبليش المعروف بعلي باي العباسي بمثابة أثينة إفريقيا ومعلوم أن (أثينة) هي عاصمة الفكر اليوناني كما وصف (دلفان) في كتابه عن القرويين جامعة فاس بأنها أول مدرسة في الدنيا (ص 12).
وذكر الدكتور رينو أن مدينة «فاس مهد الحضارة التي تجلب العلماء والطلبة من العالم - أجمع وهي كعاصمة أثينة بالنسبة للإسلام حيث كانت تدرس جميع العلوم والفنون والآداب» (الطب القديم بالمغرب ص 77) -.

وذكر لوكلير أنه منذ اندراس اعلام التـدريس في قرطبـة والقيروان لم يكن لفــاس ولا لبــاقي مــدن المغرب أي نظــام مقبـول في التعليم (ج 1 ص 575).

وقد ازدهر في هذا الابان بالشرق والأندلس خاصة علم النبـات وطب العيون وظهر أمثال النبطي وتلميذه ابن البيطـار وهمـا أنـدلسيـان ورشيـد الدين الصوري المتوفى عام 639 وهو أكبر نباتيي العرب طرافة وأصالة.

والنبطي هذا هو أبو العبـاس أحمـد بن محمد بن مفرج المعروف بـابن الروميـة[30]. ولــد في اشبيليـة عــام 561 هـ (وفي روايــة أخرى 567 هـ) ودرس الأعشاب شخصيا دون اعتاد على ديسقوريـدس وجـالينوس واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص وعلمه الواسع وقد رحل إلى الشرق عام

= وتحدث (دوكامبو) عن جامعة القرويين فلاحـظ «أنها كانت في العصور الوسطى ملتقى الأجـانب من مختلف الجنسيـات والأديـان» (المغرب المعـاصر مملكـة تنهـار - باريس 1886 ص 12).

وقد أشار (كابريال شارمس) في كتابه «سفـارة إلى المغرب» (ص 254) إلى عصر المجد الـذي كان المغرب فيه ملتقى جميع العلوم وجميع الفنون التي تنتشر من هنـالـك في أوروبـا، ثم ذكر مدينة فاس التي يرى معظم مسلمي إفريقيا أنها أعظم مدينة مقدسة بعد مكة نظرا لأصلها وللدور الذي قامت به في تاريخ الإسلام فقد كانت فـاس مركز القوة العربيـة عنـدمـا كان نورها يتـألق وحتى عنـدمـا أصبحت مراكش عـاصمة المغرب السيـاسيـة كانت فـاس بفضل معاهدها الشهيرة ومساجدها عاصمة الغرب الإسلامي فكريا وأدبيـا بل «إن مـدارسهـا كانت طوال مدة مديدة أولى مدارس العالم» (ص 297) وهنـا في هـذه المدينـة «انبثق مـا يسمى بالحضارة الغربية التي أشع نورها في اسبانيا فأضاء جوانب أوربا المتوحشة» (ص 298)...

30) ذكر ابن الخطيب في الإحاطة أن ابن الرومية ويقال له ابن العشاب كان إماما في الحديث حافظا ناقدا... قام على الصناعتين لوجود القـدر المشترك بينها وهمـا الحـديث والنبـات إذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول.

613 هـ (أو 614) بعدما درس أعشاب الأندلس ومر بالمغرب حيث أشار في كتابه إلى أعشاب ومدن مغربية ودعاه الملك الأفضل للاستيطان بالقاهرة فأبى وعند وصوله إلى مصر لم يكن قد مر على وفاة موسى بن ميمون إلا القليل.

وقد صنف كتابا حسنا كثير الفائدة، في الحشائش ورتب فيه أسماءها على حروف المعجم وفاق أهل زمانه في معرفة النبات وقعد في دكان لبيعه توفي باشبيلية عام 638 هـ (النفح ج 1 ص 635).

أما ابن البيطار فقد ذكر لوكلير (ج 2 ص 225) أنه أعظم نباتي العرب وأنه لا يضاهيه من أطباء العرب سوى الغافقي والشريف الإدريسي وأبي العباس النبطي ورشيد الدين الصوري الذين درسوا كلهم الطبيعة ووسعوا دائرة المعلومات البشرية وقد استفاد ابن البيطار مما كتبه الصوري وتنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الأعشاب وخلف لنا أعظم مجموعة في العلوم الطبيعية الطبية عند العرب. وقد رحل إلى الشرق عام 1216 أو 1217 م ومر بالمغرب وسجل ملاحظات شتى حول الأعشاب وبعض الأسماء البربرية التي اندرجت منذ ذاك في القاموس العربي.

وذكر المقري أن ابن البيطار حشر في كتابه ما سمع به وقرأه في تصانيف الأدوية المفردة، ككتاب الغافقي وكتاب الزهراوي وكتاب الشريف الإدريسي السبق وغيرها وضبطه على حروف المعجم كان أوحد زمانه في معرفة النباتات.

وكتابه (جامع المفردات) أكمل وأوسع ما صنفه العرب في الطب وقد ترجمه لوكلير إلى الفرنسية وهو يتضمن الفي وصفة من أوصاف العقاقير.

وكتاب الأدوية للشريف الإدريسي الذي أشار إليه ابن أبي أصيبعة والذي هو ملىء بالملاحظات الشخصية قد اقتبس منه ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب (لوكليرج 2 ص 8) واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص 68) وتحدث عن أعشاب المغرب وعرف أحيانا بأسمائها البربرية وهو مغربي صميم خلافا للحسن الوزان الذي يزعم أنه ولد في صقلية (لوكليرج ج 2 ص 65).

ولكن مرت فترة عصيبة بالشرق فتت في عضد الفنون والفلسفة والتعاليم بسبب غارات المغول الذين مالبثوا أن اعتنوا بالعلماء بعد إسلامهم بفضل جهود الطبيب قطب الدين الشيرازي تلميذ الفخر الرازي (لوكليرج ج 2 ص 121) وتخرج عند ذاك أمثال القزويني العالم في الطبيعة الذي يشبهه الغربيون بالعالم بلين وبالأندلس ورث بنو الأحمر حضارة العرب من أوربا المسلمة وأصبحت غرناطة التي ظلت تابعة لبني مرين فترة من الزمن ملجأ العلم والفن في أوربا المسلمة إلى سقوطها في يد الإسبان عام 886 هـ.

وقد تأزمت الحالة في المغرب كذلك بعد نكبة أبي الحسن في (إفريقيا) و(طريف) بالأندلس وتوالى الازمات الاقتصادية والأوبئة التي جرفت بالعالم أجمع في ذلك العصر وكابد المغاربة من جرائها المرائر فانتشر الفقر والمرض وانتكس العمران وهلك العلماء وكادت تندرس معالم العرفان.

وقد أدى هذا الاضطراب إلى سقوط المراكز المهمة في المغرب تدريجيا في قبضة البرتغال الذي استمر احتلاله لها أزيد من ثلاثة قرون فكان ذلك رد فعل لثلاثة القرون التي استمرت الأندلس خاضعة طوالها للمغرب.

وفي الشرق بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية التاسع على اثر السيول الجارفة التي حطمت في طريقها معالم المدنية تحت امرة جنكيزخان وتيمورلنك.

وقد لاحظ لوكلير أنه أمكن في هذه الفترة تسجيل نحو الأربعين عالما نصفهم من الأندلس لا يوجد من بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتأليف (ج 2 ص 258).

وقد ظهر في العصر المريني بالمغرب أطباء منهم : أبو العباس الشريشي السلوي الأصل أخذ الطب في المشرق عن ابن بنان توفي بالفيوم من مصر عام 641 هـ (الاعلام لعباس المراكشي ج 1 ص 351).

وأكد رينو في كتابه «الطب القديم بالمغرب» أنه بعد عصر بني مرين سادت في المغرب الفوضى فأفل نجم فاس إبان السعديين.

وقد تحدث ليفي بروفنصال في كتابه «مؤرخو الشرفاء» عن نهضة المغرب من الوجهة الأدبية فمن الغريب - كما يقول - أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم الطبية.

وممن نبغ من الأطباء في هذا العصر عبد الرحمن سقين القصري ثم الفاسي المحدث كان مشاركا في الأدب والتصوف والطب يقرىء الفية ابن سينا توفي عام 956 هـ (النيل ص 153) وكذلك أبو القاسم الوزير الغساني.

كانت له مهارة في الطب وكان من أطباء السلطان أحمد المنصور الذهبي وأحد خواصه ألف كتبا في الطب منها شرح نظم ابن عزرون في الحميات «وحديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار» واختصره في جزء صغير وقد ألفه للسلطان المذكور عام 994 هـ (النشر ج 2 ص 125).

وقد نشر الدكتور رينو في نشرة معهد الدروس المغربية العليا (ج 18 ص 195) دراسة حول حديقة الأزهار ذكر فيها أن هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع من الأصالة والطرافة وقلما يخلو الكتاب من الإشارة إلى منابت الأعشاب التي توجد بالقرب من فاس وبذلك يزودنا بمعلومات ثمينة حول معظم المواد الصيدلية بفاس فهي إذن محاولة مفيدة لترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية».

الرياضيات :

وقد أسهم الغرب الإسلامي أي المغرب الكبير والأندلس في بلورة هذا الاشعاع العلمي العربي فظهر ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة في اللوغريتم، واشتهر في الأندلس أبو عبيدة مسلم ابن أحمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة وأبو القاسم أصبغ بن السمح (له تآليف منها المدخل إلى الهندسة في تفسير أقليدس وكتاب كبير في الهندسة) وأبو القاسم بن الصفار وأبو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وأبو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين في العدد والهندسة) وأبو مسلم بن خلدون (وكان متصرفا في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه ابن برغوث (كان عالما بالعلوم الرياضية) وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيني (كان بصيرا بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن أحمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع في العدد والهندسة) وأبو حي القرطبي (بصير بالهندسة رحل إلى مصر عام 442 هـ) وأبو الوقشي الطليطلي (الهندسة) (النفح ج 2 ص 874).

ومن العلماء الذين برزوا في الهندسة والرياضيات بـالمغرب الأقصى في مختلف العصور.

علي بن خلف بن غـالب استوطن الأنـدلس ثم قصر كتـامـة أخـذ الحساب عن أبي العباس ابن عثمان الشلبي (الذيل والتكملة لابن عبد الملك).

صنع عبـد المومن بن علي مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع تسع أكثر من ألف رجل وكان تولى صنعتها رجل من أهل مالقة يقال له الحـاج يعيش... وقـد وضعت على حركات هنـدسيـة ترفـع بهـا لخروجـه وتنخفض لدخوله... فإذا قرب وقت الرواح إلى الجامع يوم الجمعة دارت الحركات بعـد رفع البسـط عن موضع المقصورة فتطلع الاضلاع في زمـان واحـد ولا يفوق بعضها بعضا بدقيقة وكان باب المنبر مسدودا فإذا قـام الخطيب ليطلع عليـه انفتح الباب وخرج المنبر في دفعة واحـدة بحركـة واحـدة لا يسمع لها حس ولا يرى تدبير (الحلل الموشية) وذكر المقرى في النفح أن آثار هـذه المقصورة كانت باقية عام 1010 هـ.

المهنـدس عبيـد اللـه بن يـونس الأنـدلسي الـذي استخرج الميـاه التي تسقى بها بساتين مراكش بصنعة هندسية (نزهـة المشتـاق للإدريسي ص 67 من الجزء المطبوع حول إفريقيا والأندلس).

وأبو جعفر بن الحسن بن أحمد بن حسان القضاعي كان عالما بالهندسة وسائر التعـاليم من الحسـاب وغيره أصلـه من بلنسيـة انتقل إلى فـاس حيث توفي في حدود ستمائة (الجذوة لابن القاضي ص 72).

عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين ولد بفاس أواسـط القرن السـادس وهـو بربري من بني حجـاج بقلعـة فنـدلاوة أخـذ العلوم

الرياضية عن شيخه محمد بن قاسم قال ابن الأبار في التكملة : «وله أرجوزة في الجبر قرئت عليه وسمعت منه باشبيلية في سنة 587 هـ» (ص 531) وكان أحد خدام المنصور وولده الناصر كما في (الذخيرة السنية) وقد وجد ذبيحا بمراكش سنة 600 أو أوائل 601 هـ وتوجد نسخ من أرجوزته في (الجبر والمقابلة) بخزائن باريز وبرلين واكسفورد والاسكوريال والقاهرة ومن شراح الأرجوزة حسب (بروكلمان) ابن الهائم المصدري المتوفى سنة 815 هـ (وهو مخطوط باكسفورد والقاهرة) والقلصادي وهو «تحفة الناسمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين» (مخطوط بخزانة مكتب الهند بلندن والخزانة العامة بالرباط) وسبط المارديني المتوفى سنة 900 ويسمى اللمعة الماردينية في شرح الياسمينية» (مخطوط ببرلين والقاهرة وسطمبول) وله أرجوزة في أعمال الجذور توجد بخزانة الاسكوريال (راجع بحث الأستاذ محمد الفاسي مجلة المغرب سنة 1942 السنة الأولى عدد 1) وممن شرح الأرجوزة سعيد العقباني التلمساني الملقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج ص 106).

أبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة من أهل المعرفة بالبناء والهندسة وهو صانع البيلة والخسة بصحن القرويين عام 599 هـ (الجذوة بين 37 و57).

وفي عهد المرينيين ظهر كثير من المهندسين ففي عام 674 هـ خرج يعقوب المريني إلى ضفة وادي فاس «ومعه أهل المعرفة بالهندسة والبناء» فوقف على المدينة البيضاء (فاس الجديد) حتى حدت وشرع في حفر أساسها (السلوة ج 3 ص 145).

محمد بن عبد الله المعروف بابن حجلة شيخ ابن البناء في الحساب (الجذوة ص 76).

يوسف بن أحمد بن حكم التجيبي قاضي الجماعة بفاس أخذ عنه ابن البنا الحساب والتعاليم (الجذوة ص 346).

محمد بن علي المعروف بالشريف (شهرة لا نسبا) قاضي الجماعة ذكر أبو حيان أنه كان يدرس بمراكش سيبويه والفقه والحديث ويميل إلى الاجتهاد وله مشاركة في الحساب ويغلب عليه البحث لا الحفظ وهو من تلاميذ أبي الحسن بن القطان مات بمراكش عام 682 هـ وذكر في (نيل الابتهاج) أن ابن البنا المراكشي من تلاميذه ذاكره مسائل من كتاب الأركان لا قليدس (الاعلام ج 3 ص 192).

أبو العباس بن البنا العددي المراكشي له (التلخيص في الحساب) ومقدمة في اقليدس واختصار في الفلاحة عام 721 هـ على قول ابن قنفذ (نيل الابتهاج ص 42) كان يقصد شيخه عبد الرحمن الهزميري فيما أشكل عليه من مسائل الهندسة (ص 137) وله أيضا جزء في المساحات (الجذوة ص 77).

ذكر ابن القاضي في (درة الحجال) (القسم الأول ص 5) أن له كتابا في (الجبر والمقابلة) سماه (الأصول) وكذلك (رفع الحجاب عن تلخيص أعمال الحساب) زيادة على (تلخيص أعمال الحساب) - وذكر عباس بن ابراهيم في الاعلام أن كتاب الجبر والمقابلة موجود في المكتبة الخديوية (ج 1 ص 379) وذكر القلوسي في هذا الكتاب أنه مستنسخ من كتاب القرشي والتلخيص مستخرج من كتاب في التعاليم لبعض الناس (ج 1 ص 380 نقلا عن صاحب الإفادات والإنشادات) وممن شرح تلخيص ابن أحمد بن رجب ابن طنبغا القاهري المتوفى عام 850 هـ المعروف بابن الجدي وممن اختصره

وسماه بالحاوي أبو الشهاب القرافي المعروف بابن الهائم المتوفى عام 815 ونظمه محمد بن غازي المكناسي وابن القاضي صاحب الجذوة (ص 384) وممن شرح التلخيص أبو العباس بن قنفذ في كتاب سماه «حط النقاب عن وجوه الحساب» ولابن قنفذ هذا (بغية الفارض من الحساب والفرائض) (الاعلام ج 2 ص 17).

ابن الشاط قاسم بن عبد الله كان عارفا بالأصلين والحساب له (غنية الرائض في علم الفرائض) توفي عام 723 هـ (الدرة لابن القاضي ص 437).

الحسن بن عثمان بن عطية التجاني المكناسي الونشريسي من أهل الحساب شاعر فرضي تلميذ أبي البركات البلفيقي ولد في حدود 724 هـ (السلوة ج 3 ص 260).

علي اليفرني المكناسي الشهير بالطنجي إمام في الفرائض والحساب في وقته توفي عام 734 هـ (الدرة ص 441) وهو ابن عبد الرحمن بن غيم (نيل الابتهاج لابن بابا السوداني ص 192).

أحمد بن عبد الله العطار المليلي الفاسي توفي عام 741 هـ (الجذوة ص 57).

عبد الله بن محمد بن أحمد التلمساني ولد سنة 748 هـ قرأ الهندسة بكتاب اقليدس على والده بفاس (نيل الابتهاج ص 127).

محمد بن علي السطي ختم كتاب الحوفي على أبي الحسن علي الطنجي اليفرني وله تقييدات عليه توفي غريقا في أسطول أبي الحسن عام 749 هـ (درة الحجال لابن القاضي ص 218).

أبو القاسم محمد ابن جزي صاحب (القوانين الفقهية) له باع مديد في الحساب توفي عام 757 هـ (السلوة ج 3 ص 224).

علي بن أحمد التلمساني موقت القرويين أيام أبي عنان المريني صنع المنجانة المقابلة للمدرسة العنانية عام 758 هـ (جذوة الاقتباس لابن القاضي ص 31).

عبد الرحمن اللجائي الفاسي تلميذ ابن البنا في العلوم التعليمية توفي عام 773 هـ حسب تلميذه ابن قنفذ (السلوة ج 1 ص 304).

ابن قنفذ القسنطيني له شرح على تلخيص ابن البنا سماه (حط النقاب عن وجوه الحساب) (درة الحجال ص 61).

أحمد الأوسي المراكشي المعروف بابن الشماع إمام في الحساب عارف بالمنطق والهندسة (من أهل القرن الثامن) (الاعلام ج 2 ص 10).

محمد الشريف التلمساني من علماء الحساب والهندسة والهيئة كان لسان الدين ابن الخطيب إذا ألف تأليفا بعثه إليه وطلب منه أن يكتب عليه بخطه (نيل الابتهاج ص 258).

جمال الدين الماريديني خليل بن يوسف المهندس المتوفى عام 806 هـ له (غاية الانتفاع بالبخش الذي في طرف قوس الانتفاع) طبع حجر فاس.

عمر الرجراجي خطيب جامع الأندلس إليه تنسب الشجرة التي تعمل في قول الحوفي في النزلات توفي عام 810 هـ (الدرة ص 416). (السلوة ج 3 ص 64).

سعيد العقباني التلمساني (ولد عام 720 هـ وتوفي عام 811 هـ) شارح تلخيص ابن البنا وقصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة يلقب برئيس العقلاء (نيل الابتهاج ص 106).

وله (بغية ذوي الرغبات في شرح عويص رسالة المارديني في الربع المجيب في الميقات) (طبعت في حجر فاس مرتين) وقد طبع كتابه (كشف الاسرار عن علم حروف الغبار) مرارا بحجر فاس.

علي بن عبد الله بن هيدور التادلي إمام الفرائض والحساب له (شرح على تلخيص ابن البنا) في الحساب و(تقييد على رفع الحجاب) توفي عام 816 هـ (الدرة ص 443).

محمد القوري حافظ فاس حيسوبي طبيب توفي عام 872 هـ (السلوة ج 2 ص 116).

أمير المومنين في الفرائض والحساب ابراهيم المصمودي توفي بفاس عام 912 هـ أو 913 هـ (درة الحجال ص 107) وسلوة الأنفاس (ج 2 ص 4) تلميذه ابراهيم الزواوي فقيه كنو من السودان (الدرة ص 111).

محمد بن غازي المكناسي شيخ الجماعة بفاس له (منية الحساب). ونظم في شرحها تلخيص ابن البنا فزاد عليه وله «إمتاع ذوي الاستحقاق ببعض مراد المرادي وفوائد أبي إسحاق» (الجامع المستوفي بجداول الحوفي) (درة الحجال ص 224 ونيل الابتهاج (ص 360) وقد توفي عام 917 هـ.

أحمد الغزاني من بيت بني غزانة بفاس كان أستاذا فرضيا حيسوبيا له معرفة بالفلك توفي عام 920 هـ (درة الحجال ص 91).

محمد بن هلال إمام التعاليم في سبتة وشارح الجسطي في الهيئة مات بالطاعون عام 949 (الاعلام ج 3 ص 263).

عبد الواحد بن أحمد الونشريسي نظم تلخيص ابن البنا في الحساب توفي قتيلا عام 955 هـ (الدرة ص 382).

عبد الحق بن أحمد المصمودي السكتاني العددي شيخ الجماعة في الفرائض والحساب بفاس أخذ عنه المنجور الحساب توفي عام 955 هـ (السلوة ج 3 ص 294).

علي بن حسين الورياجلي العددي أخذ الحساب عن عبد الحق المصمودي السكتاني بفاس وكان ناقدا فيه وعنه أخذ المنجور توفي عام 961 هـ (السلوة ج 3 ص 311).

عبد الله بن علي الهبطي كانت له معرفة بالرياضيات توفي عام 968 هـ (الدرة ص 345).

محمد بن يوسف المعروف بابن مشون من أساتذة المرية رحل إلى سبتة نظم رجزا في علم الجبر والمقابلة توفي عام 989 هـ (درة الحجال ص 176).

أبو راشد يعقوب بن يحي اليدري إمام الفرائض والحساب توفي عام 999 هـ (السلوة ج 3 ص 318) كان قاضيا بتامسنا (درة الحجال ص 109).

السلطان أحمد المنصور الذهبي له قدم راسخ في المنطق والحساب والهيئة والهندسة (نشر المثاني ج 1 ص 77) فهم كتاب أقليدس من غير شيخ لعزة وجوده بالمغرب فكان يفك شكلا في كل يوم (درة الحجال ص 51) وتضلع في الجبر والمقابلة (السلوة ج 3 ص 226).

أحمد بن قاسم معيوب كان له معرفة بالتعاليم من حساب وهيئة توفي بمراكش عام 1022 هـ (الاعلام ج 2 ص 82).

أحمد بن القاضي المكناسي المؤرخ لـه «غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض» (مفقودة) والمدخل في الهندسة ونظم تلخيص ابن البنا (النشر ج 1 ص 129) وظهرت في وقته الحرف المهمة التي لم تكن بالمغرب منها الحساب والهندسة والمساحات (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 46). توفي عام 1025 هـ.

الرحالة محمد بن القاسم ابن القاضي أوحد عصره في علم الحساب والتنجيم والجدول له (البرق الوامض في الحساب والفرائض) توفي قتيلا بفاس عام 1040 هـ (السلوة ج 3 ص 287).

محمد بن أحمد الجنان الأندلسي الفاسي أخذ عن المرغيثي وتوفي عام 1050 هـ (السلوة ج 3 ص 58).

أحمد القلصادي موقت القرويين كان يدرس كتاب القلصادي توفي عام 1063 (نشر المثاني للقادري ص 207).

أما علي بن محمد القلصادي (810 ـ 891 هـ) فاصله من بسطة، واستوطن غرناطة ومات بباجة بتونس له شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة وقانون الحساب وكشف الأسرار في الجبر (الاعلام للزركلي ج 5 ص 163) وله أيضا شرحان على تلخيص ابن البنا والحوفي والغنية في الفرائض أخذ بمصر عن ابن حجر كا في رحلته (النفح ج 2 ص 684).

وقد طبع كتابه (كشف الأسرار عن علم حروف الغبار) مرارا بحجر فاس.

محمد بن أحمد الصباغ البوعقيلي مهر في الحساب والهيئة له شرح على المنية لابن غازي وله (اليواقيت في الحساب والفرائض والمواقيت) توفي عام 1076 وهو تلميذ أبي العباس ابن القاضي (السلوة ج 1 ص 239).

يعقوب البستاني إمام الفرائض والحساب كان يقرئها في الهواء فإذا أراد عاملها أن يصورها في اللوح ضربه بالقضيب على يده (الجذوة ص 350).

أحمد التقليتي العارف بالحساب والتعديل والمساحات وبعض مبادىء الهندسة وهو شيخ جماعة الفنون المذكورة بمراكش وهو معاصر لمؤلف درة الحجال (الدرة ص 92).

محمد بن سعيد السوسي المرغيثي صاحب (المقنع) في التوقيت توفي عام 1089 هـ (نشر المثاني ج 2 ص 37).

محمد بن محمد بن سليمان الفاسي الروداني كان يتقن فنون الرياضة واقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي ويعرف أنواع الحساب والمقابلة والارتماطيقي والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره توفي عام 1094 هـ (الاعلام ج 4 ص 334 نقلا عن خلاصة الأثر).

وقد تنافس الناس في اقتناء الآلة التي اخترعها وكان يبيعها بثمن غال وقد ألف رسالة في وصفها وهي منشورة في الاعلام (ص 350) والآلة عبارة عن كرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوما ركبت عليها أخرى مجوفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف (نشر المثاني ص 87).

أحمد بن عبد العزيز الهلالي نزيل مدغرة بسجلماسة كان إماما في تحقيق علوم منها الهندسة (نشر المثاني ج 2 ص 273).

محمد بن الشيخ محمد بن محمد بن ناصر نادرة الزمان في علم الحساب والهندسة وتوفي عام 1126 هـ (الاعلام ج 5 ص 21).

عبد الرحمن الفاسي كان منفردا بتحقيق التعاليم ومنها الحساب فاق أهل وقته في ذلك (السلوة ج 1 ص 315) وتخرج عليه في التعاليم ولده محمد (فتحا) الذي أخذ الناس عنه الحساب (ص 320) وتوفي عام 1096 هـ.

أحمد بن سليمان الجزولي شيخ الإسلام صاحب النظم الذي أكمل به رجز أبي سالم بن قاسم السملالي في الحساب وشرحه بشرحين توفي عام 1133 (الاعلام ج 2 ص 168).

أبو العباس أحمد بن سليمان ذو التآليف العديدة في الحساب وغيره توفي بمراكش عام 1133 هـ (الاستقصا ج 4 ص 54).

محمد بناني الحوجب كان إليه المرجع بفاس في الفرائض والحساب وتوفي عام 1140 هـ (السلوة ج 1 ص 169).

أحمد بن الأمين الوداني اليعقوبي كان عارفا بالهندسة أقرأها بمراكش كان يتذاكر مع سيدي محمد بن مولاي عبد الرحمن الذي حل أشكالها وبرع فيها بقوة ذهنه من غير تعلم على شيخ وكان ينوب عن الوداني في إلقاء الدروس وقد ختم السلطان كتاب اقليدس في الهندسة بمراكش (الاعلام ج 2 ص 216).

محمد بن محمد التاودي بن سودة المري الفاسي كان عارفا بالتنجيم والحساب والهندسة وله اليد الطولى في الحساب توفي عام 1194 (سلوة الانفاس ج 2 ص 71).

محمد المسناوي مرينو الأندلسي المنجم الحيسوبي له مؤلفات منها «تقدير قرض النفقات» وضعه بعمل الرموز والأرقام مرتبا على أطوار حياة المنفق عليهم ويشارك في علم الفلك وغيره توفي عام 1207 (ج 1 ص 136 ـ الاغتباط).

سليمان الفشتالي الحكيم المتحقق بتعاليم القدماء شيخ سليمان الحوات في الحساب والطب توفي عام 1208 هـ (السلوة ج 3 ص 116).

الأستاذ المعطى مرينو الموقت الشهير له مؤلفات في التوثيق ومنها كتابا سماه (إرشاد الحائر) وآخر في (تعديل الكواكب السبعة) سماه (كنز الأسرار) وآخر في (أبعاد النيرات ورصده وابتكارات أخرى في علم المزاول الرخامية) وغير ذلك توفي عام 1223 (ج 2 ص 116 ـ الاغتباط).

محمد بن أحمد بنيس أخذ عنه الحساب السلطان مولاي سليمان توفي عام 1213 هـ (السلوة ج 1 ص 204).

أحمد بن الطاهر المراكشي له معرفة بالأحكام النجومية والازياج ويعلم الهندسة والجدول مات عام 1250 هـ (الاعلام ج 2 ص 214).

أحمد حدو الهنتيفي أستاذ في الحساب والرصد والأسماء وكان يحسن نحوا من ثمانية عشر علما توفي عام 1285 هـ (السلوة ج 3 ص 82).

محمد متجنوش أستاذ انفرد في علم الحساب والتنجيم توفي عام 1290 ـ وعمره 31 سنة (ج 1 ص 212).

عبد الرحمن لبريس المنطقي الفلكي الحيسوبي سافر إلى الحج عام 1307 وهو من مواليد القرن الثالث عشر (ج 2 ص 134 ـ الاغتباط).

الطاهر ضاكة كان رياضيا حيسوبيا (2 ص 82 ـ الاغتباط) توفي أواخر القرن الثالث عشر.

محمد بن الرئيس أبي الحسن علي التركي هو الرياضي الكبير الضليع في الهندسة والرياضة وغيرها، ومن أوضاعه في هذا مثال سماه «الشكل الكوري» وهو شكل عجيب شامل لسائر الزوايا والخطوط وأشكال الهندسة مما تشمله أصول أقليدس وتهذيب الطوسي، ولم يعثر على تاريخ حياته. (الاغتباط لأبي جندار ج 2 ص 192).

أحمد بن عبد الله التناني المعروف بالصويرى كان عارفا بالحساب والتنجيم وعلم الأحكام الفلكية وعلم الهيئة له مؤلفات وتعاليق في الحساب والجبر والمقابلة وفن اللوغاريتم وحل أشكالا هندسية ونقلها إلى الأعمال الحسابية وكان رئيس طلبة الحساب والمهندسين في الحضرة الحسنية أخذ عنه الحيسوبي محمد بن شقرون والطاهر الحمري صاحب (الدستور في أوقات المعمور) توفي عام 1320 جعله السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رئيس المهندسين وعينه مولاي الحسن رئيس قواد الطبجية (أي المدفعية في العامية المغربية) وخليفة وزير الحرب وأخذ عنه الهندسة المهندس محمد بن المكي المسفيوي ومحمد الجرجوري الذي هو من نجباء طلبة الهندسة (الاعلام ج 2 ص 267).

العلوم الإسلامية

لقد أدخل عمر بن الحسن الهوزني صحيح البخاري إلى الأندلس[31] وأدخل أبو بكر بن الأحمر محمد بن معاوية بن مروان المحدث الأندلسي

31) النفح ج 3 ص 385.

(المتوفى عام 365 هـ) النسائي[32] كما أدخل ابن الضابط أبو عمر وعثمان بن أبي بكر الصدفي صاحب الرحلة إلى الشرق كتاب «غريب الحديث» للخطابي[33] على أن صعصعة بن سلام الشامي هو في الحقيقة أول من أدخل الحديث عموما إلى الأندلس والمغرب وقد روى عن الأوزاعي[34] وقد أكب علماء المغرب كما قال ابن خلدون على صحيح مسلم خاصة واجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له من التراجم وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا سماه «المعلم بفوائد مسلم» ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه «اكمال المعلم» وتلاه محي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء وافيا[35] وقد دشن تدريس الحديث بمراكش يعقوب المنصور الموحدي في القرن السادس الهجري[36] ونفق سوقه أيام أبي سالم المريني[37] وعقد المنصور الموحدي مجلسا في حضرته لتدريس الحديث عين له شيخا هو ابن القطان الذي استبحر في علوم الحديث وبصر بطرقه وميز بين سقيمه وصحيحه ونقد رجاله فكان أول شخصية مغربية ركزت الدراسات الحديثية على الأساليب والمناهج المتبعة في الشرق مع نوع من الأصالة والجدة وقد

---

32) جذوة المقتبس ص 82 وبغية الملتمس 116.

33) رحلة التجاني ص 80.

34) «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي طبع مجريط 1890م ص 169.

35) ابن خلدون في باب علوم الحديث (م 1 ص 801).

36) الاستبصار (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 65) وذكر النعيمي المتوفى عام 927 هـ في «الدارس في تاريخ المدارس» (ج 1 ص 14) أنه كان من شروط الوقف في دمشق قراءة البخاري في ثلاثة أشهر.

37) سلوة الأنفاس ج 3 ص 168.

عقد الملوك العلويون مجالس قراءة الصحيح من عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله لقراء الحديث شطرا من السنة.

وحاول الملوك الموحدون الارتكاز على القرآن والحديث فأحرق يعقوب المنصور كتب المذهب المالكي بعد تحريرها من الحديث[38] وكان جده عبد المومن بن علي قد أمر عام 550 هـ بتحريق الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث وأصدر بذلك تعليماته إلى طلبة المغرب وعدوة الأندلس[39].

وقد تتلمذ للإمام مالك مباشرة في علم الحديث يحي بن يحي الليثي الطنجي البربري ومحمد بن سعيد القيسي قاضي المولى إدريس كما تتلمذ الحافظ ابن حجر إمام أهل الحديث شرقا وغربا لمحدثين مغاربة كأبي البركات الكمال المكناسي وتقي الدين الفاسي وابن شقرا محمد ابن بدر الدين السلاوي وكان إدريس العراقي الفاسي أحفظ من ابن حجر.

وقد حاول ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس[40] أن لا يذكر مؤلفا لمشرقي إلا ذكر ما يقابله لأندلسي مفضلا الثاني على الأول وهو فهرس جليل لمعارف الأندلسيين وعلمائهم ومؤلفاتهم وبالرغم عن كون تفسير محمد بن جرير الطبري قد بلغ ألف مجلدة ضخمة[41] فقد قطع ابن حزم بأن

38) المعجب للمراكشي ص 171.

39) الأنيس المطرب ج 2 ص 154.

40) أورد المقري هذه الرسالة في نفح الطيب ج 2 ص 125 ـ 128.

41) لواقح الأنوار القدسية للشعراني ج II ص 169 على هامش اللطائف.

بقي بن مخلد «لم يولف في الإسلام مثل تفسيره لا تفسير محمد ابن جرير الطبري ولا غيره» كما قال عن مسنده :

«مسند بقي روى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث»[42] وقد ضرب ابن حزم نفسه المثل الحي بنشاطه في دراسة الحديث وروايته مستوفيا أبواب هذا الفن[43].

والواقع أن كل مسجد أو جامع في المغرب كان دار الحديث حتى صغار القرى بالبادية ففي أغمات كان خلف بن عمر الباجي يدرس صحيح مسلم ويحضر درسه ابن الصيقل الشاطبي المتوفى بفاس بعد 500 هـ وكان علماء المغرب يميلون إلى الحديث في تأويل كثير من التفريعات فقد نقل الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» عن «سير النبلاء» للذهبي أن ابن رشيد السبتي كان على مذهب أهل الحديث في الصفات لا يتأولها وقد انتقل علم الحديث من الأندلس إلى حاضرة القيروان «فلما اضطرب أمر إفريقية بعيث العرب فيها وقرطبه آخر ملوك بني أمية رحل من هذه وهذه من كان فيها

---

42) المقري ج 1 ص 580.

43) له : (1) «شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله (الذيل - ياقوت).

(2) «الناسخ والمنسوخ» (الذيل) (يوجد بهذا الاسم منسوبا لابن حزم في مكتبة الكتاني ولعله لابن العربي المعافري).

(3) «الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد» (الذيل).

من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس[44].

ونضرب أمثلة نقتصر فيها خاصة على المخضرمين من المغاربة الأندلسيين فمنهم :

- ابن أبي قوة علي بن أحمد بن ابراهيم بن سلمة الأزدي الداني قاضي قصر كتامة المتوفى بمراكش سنة 608 هـ.

كان محدثا مكثرا ثقة ضابطا له رد على ابن غرسية في رسالته الشعوبية (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 149 مخطوط).

- ابن برجان (أو ابن أبي الرجال) أبو الحكم محمد بن عبد الرحمن اللخمي الاشبيلي المتوفى بمراكش بعد 530 هـ.

له «تفسير القرآن» على الأسلوب الصوفي لم يكمله.

(فوات الوفيات ج 1 ص 274 / لسان الميزان ج 4 ص 13 / تاريخ بروكلمان ج 1 ص 559 وملحقه ج 1 ص 775).

(يوجد مجلد ضخم من تفسيره أوله سورة الاعراف في مكتبة السيد عبد الحي الكتاني الملحقة بالمكتبة الوطنية بالرباط).

---

44) شجرة النور ص 450، وقد كان في سبتة محدثون حيث أجاز الحافظ تقي الدين بن تيمية صاحب سبتة بجملة من أسانيده في عشر ورقات وصدر عنه ذلك وهو معتقل في سجن الاسكندرية عام 709 هـ (فهرس الفهارس ج 1 ص 199).

- ابن بشكوال المتوفى في عام 578 هـ (تاريخ بروكلمان ج 1 ص 340).

له «الغوامض والمبهمات من الأسماء» (يعرف بغوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة) (كشف الظنون ج 2 ص 1213) يوجد في مكتبة ولي الدين 812 (1) (ف 744).

- عبد الواحد بن محمد بن بقي... أبو عمر الجذامي المالقي المتوفى بمراكش عام 637 هـ وهو مقرىء مجود محدث ماهر في علم العربية.

- ابن حركالش سالم بن ابراهيم بن عبد الرحمن الصدفي السرقسطي استوطن مدينة فاس محدث رحل إلى المشرق وتوفي بمصر.
(الذيل والتكملة س 4 ص 2).

- ابن حنين علي بن أحمد بن أبي بكر الكناني القرطبي درس بفاس ستا وستين سنة من عام 503 هـ إلى 569 هـ حيث توفي وتتلمذ قبل ذلك للغزالي (سلوة الأنفاس ج 1 ص 349) دخل مصر والحجاز والشام وسمع من الغزالي أكثر من الموطأ برواية ابن بكير (الذيل والتكملة ق 5 ص 151).

- ابن الخطيب السلماني (المتوفى في سنة 776 هـ) له «درة التنزيل وغرة التأويل» (تاريخ بروكلمان ج 2 ص 337 وملحقه ج 2 ص 372 / الدرر الكامنة ج 3 ص 465 / ابن خلدون ج 7 ص 341).

- ابن سنجون اللواتي الطنجي مروان بن عبد الملك الذي أقام في الشرق سبع عشرة سنة يقرر الحديث والذي كان يقول : «لم أدخل إلى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار العرب» وهو من كبار فصحاء طنجة (معجم البلدان ج 6 ص 62).

- ابن شقرا شمس الدين محمد بن بدر الدين محمد بن يحي بن عثمان بن رسلان البعلي السلاوي أخذ عنه ابن حجر توفي عام 779 هـ (الشذرات ج 6 ص 264).

- ابن عربي[45] محي الدين محمد بن عبد الله الحاتمي (668 هـ).
(النفح ج 1 ص 567 / عنوان الدراية ص 97 / بروكلمان ج 1 ص 793.
له : 1) «إيجاز البيان في الترجمة عن القرآن» يوجد بدار الكتب المصرية (324 تفسير) وطبع ببيروت تفسير صغير على طريق الإشارة في مجلدين ينسب إليه وقد وصل في التفسير الكبير إلى قول الله تعالى : ﴿**وعلمناه من لدنا علما**﴾.
2) الأحاديث القدسية.

- ابن عياش عبد الملك اليابري كاتب عبد المومن الموحدي من أهل الحديث والرواية (القرطاس ـ المعجب ـ الذيل والتكملة).

---

45) كان الحاتمي يعرف في المغرب بابن العربي بالألف واللام فاصطلح أهل المشرق على ذكره بغير ألف ولام فرقا بينه وبين القاضي أبي بكر ابن العربي (نفح الطيب ج 1 ص 410).

- ابن الفرس عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن فرج بن خلف الخزرجي المتوفى سنة 597 هـ تلا حرف نافع والسبع وتفقه في الحديث وناوله أبو الحسن بن النعمة تفسيره وأجازه ابن طاهر المحدث وابن العربي وعياض والمازري وعلي بن الحسن الطبري وابن القطان وابن قطرال واشترك بالرواية في السماع مع أعلام بقايا المائة السادسة كان يحضر مجالس المنصور الموحدي له مصنف «في أحكام القرآن» وهو أجل ما ألف في بابه (فرغ منه في المرية 553 هـ).

- ابن قطران علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصاري الفاسي القرطبي، عرض عن ظهر قلب صحيح البخاري حضر مجلس المحدث ابن القطان في مراكش واستقضي بشريش وجيان وقرطبة وسبتة وأغمات وريكة ثم تولى قضاء النساء بمراكش، ولد بفاس عام 562 هـ وتوفي بمراكش عام 651 هـ.

- ابن صاف أبو بكر محمد بن خلف اللخمي.
له «الأجوبة على مسائل أعلام طنجة في القرآن والنحو».
(بغية الوعاة ص 40).

- ابن العربي المعافري أبو بكر محمد بن عبد الله ولد باشبيلية عام 468 هـ وتوفي بفاس عام 543 هـ (ابن خلكان ج 2 ص 292 / النفح ج 1 ص 477 / بستان المحبين ص 123 / تذكرة الحفاظ ج 4 ص 86 / بروكلمان ج 1 ص 632).

له : 1) «قانون التأويل» في التفسير (مكتبة القاهرة 188 ر1).

2) «أنوار الفجر» وهو تفسير في ثمانين سفرا كل واحد في ألف ورقة ألفه في عشرين سنة ذكر في «الديباج» عن بعض الثقاة أنه رآه بخزانة أبي عنان المريني بمراكش 80 مجلدا لم ينقص منها شيء (سلوة الأنفاس ج 3 ص 200).

3) «أحكام القرآن» (المكتبة الملكية بالرباط ـ 7349 ـ مكتبة السيد عبد الحي الكتاني ـ مكتبة برلين 801 ـ مكتبة المتحف البريطاني 142 ـ مكتبة القاهرة 1,121.

4) «الناسخ والمنسوخ» في القرآن «مخطوط نادر وهو جزء متوسط مبتور بخزانة القرويين (ل 80 / 72) ويوجد في مكتبة الكتاني كتاب يحمل نفس الإسم لابن حزم).

5) كتاب «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» (مكتبة القرويين ج 25) ومكتبة الكلاوي وقد ألحقتا بالمكتبة العامة بالرباط.

6) «المسالك في شرح موطأ مالك» وهو شرح ثان للموطأ.

7) «عريضة الأحوذي في شرح الترمذي».

8) شرح حديث أم زرع.

ـ ابن الفخار أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد المراكشي (وقيل الاركشي كا في الديباج) المالقي الشريشي المتوفى عام 723 هـ.
الديباج ص 303 / الاعلام للمراكشي ج 3 ص 258.

1) «تحبير نظم الجمان في تفسير أم القرآن».

2) «انتفاع الطلبة النبهاء في اجتماع السبعة القراء».

3) «الأحاديث الأربعون فيما ينتفع به القارئون والسامعون».

4) «إرشاد السالك في بيان إسناد زياد عن مالك».
(أشار المراكشي ص 259 إلى الباقي من هذه الكتب).

- ابن الملجوم عيسى بن يوسف بن عيسى بن علي الأزدي الفاسي قاضي فاس ومكناسة (476 هـ / 543 هـ) محدث حافظ راوية.
الجذوة والاعلام للمراكشي (ج 7 ص 295 خ).

- أبو بكر بن أسود الغساني محمد بن إبراهيم بن أحمد قاضي مرسية المتوفى بمراكش عام 536 هـ. له «تفسير القرآن» راجع بغية الملتمس ص 46 / الصلة لابن بشكوال 526 / النفح ج 1 ص 352.
وهو غير ابن الأسود الغساني محمد بن علي بن عمر بن يحي بن عمر المتوفى عام 788 هـ كما في الجذوة.

- أبو بكر بن بقي يحي بن محمد بن عبد الرحمن السلوي (563 هـ).
أخذ القراءات والحديث والأدب عن مشيخة بلده وسكن مرسية عالم بالتفسير (الذيل والتكلمة ـ الاعلام للمراكشي ج 8 ص 239 خ).

- أحمد بن محمد المقري خطيب جامع القرويين وصاحب «نفح الطيب» تولى تدريس الحديث في دمشق ومصر توفي 1041 هـ (شجرة النور ص 300).

- خلف بن عمر الباجي كان يدرس صحيح الإمام مسلم في أغمات ويحضر درسه ابن الصيقل الشاطبي المتوفى بفاس سنة 500 هـ (التكملة والاعلام للمراكشي ج 7 ص 105 ـ مخطوط).

- أبو القاسم (أو أبو زيد) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي[46] الخثعمي المتوفى بمراكش سنة (581 هـ).

له : 1) «كتاب التعريف والاعلام لما أبهم من القرآن من أسماء الاعلام» (المكتبة العامة بالرباط 1202 = د / المكتبة الملكية بالرباط ست نسخ 1605 - 6245 إلخ / الخزانة السودية بفاس / وفي نسختين أيضا (6245 - 4664) يحمل الكتاب اسم «تنبيه الأنام» وعليه تعليقان هما :

- «التكميل والإتمام لكتاب التعريف والاعلام» لتلميذ السهيلي محمد بن علي بن خضر بن هارون بن عسكر الغساني المتوفى عام 636 هـ توجد نسخة منه بدار الكتب المصرية (762 = تفسير).
- «الاستدراك والإتمام للتعريف والإعلام» نسبه صاحب جذوة الاقتباس (ص 57) لأبي العباس أحمد بن يوسف بن أحمد بن فرتون السلمي المتوفى 1060 هـ (1661م).

2) «تفسير سورة يوسف» (المكتبة العامة 1427 = د) (و 691).

3) «الإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين».

4) الروض الأنف والمشروع الروي في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة واحتوى «الجزء الأول (بمكتبة المدينة 449 / مكتبة الآصفية بحيدر آباد بالهند 538 (سير).

- عبد الرحيم بن ابراهيم بن محمد بن الفرس الخزرجي الغرناطي الحافظ لأسانيد الحديث (قيل يلقب بالمهدي) لأنه دعا لنفسه

46) نسبة إلى السهيل وهي قرية بالقرب من مالقة بالأندلس (شذرات الذهب ج ■ ص 272).

ولقب بالخليفة وقتل بناحية مراكش عام 600 هـ على يد جيوش الناصر الموحدي (نيل الابتهاج / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 69 مخطوط).

- عبد الرحيم بن أحمد بن علي بن طلحة ابن عليم السبتي الشاطبي (المتوفى عام 655 هـ) كتب الحديث بمصر ودمشق (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 71 مخطوط).

- عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأموي المعروف بالأصيلي المتوفى سنة 392 هـ. من كبار أصحاب الحديث والفقه (هو من أهل أصيلا حسب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس طبعة مجريط 1890 ص 208) دخل القيروان ثم رحل منها مع دراس بن اسماعيل الفاسي إلى مصر (جذوة المقتبس للحميدي طبعة 1952 ص 239). له شرح على الموطأ سماه (الدليل) أشار فيه إلى الخلاف بين الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، قال الدارقطني لم أر مثله (الشذرات ج 3 ص 140).

- عبد الله ابن اسماعيل الإشبيلي قاضي أغمات ومراكش كان يميل في فقهه إلى النظر اتباع الحديث توفي عام 497 هـ) وقد طبق هذه الطريقة في كتابه «شرح المدونة» و «شرح مختصر ابن أبي زيد» (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 83 مخطوط).

- عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري المحدث الحافظ قاضي قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة ومؤدب أبناء المنصور الموحدي.

لـه «كتـاب في تسميـة شيـوخ البخـاري ومسلم وأبي داود والنسـائي والترمـذي» نـزع فيـه منزع أبي نصر الكـلا بـاذي لم يكملـه، تـوفي بغرنـاطـة 612 هـ (ودفن بمـالقـة) (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 93 مخطوط).

- عبد الله بن محمد بن علي... بن ذي النون الحجري المتوفى 591 هـ، قاضي سبتة خاتمة المسندين (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 87).

- عبـد المنعم بن يحي بن خلف بن النفيس الحميري الغرنـاطي سكن الجـزيرة الخضراء ثم مراكش تـوفي بعـد 584 هـ. كان عـارفـاً بالقراءات السبع له حظ صـالح من روايـة الحديث أكتب القرآن بمراكش مدة (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 134 خ).

- علي بن أحمـد بن الحسن الحرالي التجيبي (من حرالـة من أعمـال مرسيـة) ولـد ونشـأ بمراكش وتـوفي في حمـاة سنة 638 هـ (وقيـل 637 هـ).

(عنوان الدراية ص 85 / النفح ج 1 ص 417 / تكملة ابن الأبـار ص 687 / ميزان الاعتـدال ج 2 ص 218 / لسـان الميزان ج 4 ص 204 / تـاريـخ بروكلمـان ج 1 ص 527 وملحقـه ج 1 ص 735 / نيل الابتهـاج ص 187 / طبقـات المفسرين للسيوطي ص 22).

له : «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل» يوجد منه إلى قولـه تعالى : ﴿**كلما دخل عليها زكرياء المحراب**﴾ الآية، وقـد أقرأ الفاتحة في ستة أشهر حسب الغبريني.

(تفسير جعله كقوانين أُصول الفقه حسب الحافظ ابن حجر ملأه بنتائج فكره وكان فلسفي التصوف حمل عليه ابن تيمية قائلا : «ان تصوفه على طريق الفلاسفة».
وله تقدم في الحديث وعلو سند (الاعلام للمراكشي ج 7 ص 19 خ).

- علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي الجياني نزيل مراكش المتوفى سنة 663 هـ كان شرع في الجمع بين تفسيري الزمخشري وابن عطية فلخص منه ابن أبي الحباب وأبوي القاسم خلف بن سليمان ابن عمرون وأحمد بن أبان بن سيد وأبي محمد بن ابراهيم الأصيلي وأبي يحي زكرياء بن الأشج كان كاتب الرشيد الموحدي تولى خطة الإشراف على بلاد حاحة فتوفي بتامطريت (الاعلام للمراكشي ج 476 مخطوط).

- علي بن محمد الغرناطي المفسر المتوفى بمراكش 577 هـ.
صحب أبا بكر بن العربي المعافري فرآه مقتصرا على علم التفسير فقال : «ان هذا سيكون له شأن» وقد فسر القرآن للناس من أوله إلى آخره (الاعلام للمراكشي ج 7 ص 10 خ).

- علي بن محمد بن منصور بن شراجة الغافقي نزيل مراكش. كان مقرئاً مجودا محدثا (الإعلام للمراكشي ج 6 ص 59 خ).

- علي بن محمد بن يوسف بن عبد الله الفهري اليابري سكن مدينة سلا وتوفي بمراكش سنة 617 هـ أو 618 هـ.
كان يربي أولاد المنصور الموحدي عارفا بالقراءات السبع، ويؤثر

القراءة بحرف عاصم في صلاة التراويح مع المنصور (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 146 ـ مخطوط).

- علي بن مسعود الشاطبي أو الشطيبي قاضي الجماعة بمراكش (1002 هـ).
كان يدرس صحيح البخاري أمام المنصور السعدي وكان يحفظه من كثرة تكراره (راجع الصفوة والنشر والمطمح) وقد سماه عصريه ابن القاضي في «المنتقى المقصور» و «ودرة الحجال» أبا القاسم بن علي بن قاسم بن مسعود الشاطبي (الاعلام للمراكشي ج 7 ص 73 خ).

- عمر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر السلمي الأغماتي الفاسي المتوفى سنة 603 هـ.
كان راوية مسندا من رؤساء النحاة صديقا لابن خروف النحوي استقضي بفاس وهو ابن عشرين سنة ثم تلمسان وأغمات وريكة واشبيلية (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 109 ـ مخطوط).

- عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى السبتي اليحصبي المتوفى سنة 544 هـ (المقري ج 1 ص 338 / قلائد العقيان ص 255 / السلوة ج 1 ص 151 / الديباج ص 177 / الجذوة ص 277 / تذكرة الحفاظ ج 4 ص 96 / ابن بشكوال ص 242 / بستان المحبين ص129 / اتحاف النبلاء ص 329 / أزهار الرياض في أخبار عياض / بروكلمان ج 1 ص 369).

ورد في الوفيات أنه كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب.

له : 1) «الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» للسيوطي «مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا» (المكتبة الملكية 5276).

لعبد العزيز الزبيدي كتاب «تخريج أحاديث الشفا» (مكتبة المدينة).

2) «مشارق الأنوار على صحيح الآثار» (نشر بفاس عام 1382 هـ) ثلاثة مجلدات (أزيد من سبعمائة صحيفة) نسختان (بالمكتبة العامة 1972.181) وأربع نسخ في (المكتبة الملكية 4037 إلى 8198) وهي في تفسير (غريب الحديث المختصر بالموطأ والبخاري ومسلم) طبع على الحروف في جزئين بفاس عام 1328 هـ.

3) «اكمال المعلم شرح صحيح مسلم» (يوجد في المكتبة العامة 2073 = د).

«المعلم لفوائد كتاب مسلم» لمحمد بن علي المازني ومعه الإكمال لعياض «واكمال الاكمال» لمحمد بن خليفة الأبي[47] (ومكمل اكمال الاكمال) لمحمد بن يوسف السنوسي (جزء أول فيه 549 ص) (والجزء الثاني فيه 457 ص).

وتوجد نسختان في المكتبة العامة 2275 (658 ص).

---

47) ورد في الاعلام للمراكشي أن محمدا بن ابراهيم بن محمد الليثي البقوري الأندلسي المتوفى بمراكش عام 707 هـ له أيضا «اكمال الاكمال» للقاضي عياض (الاعلام ج 3 ص 243).

4) فهرسة اسمها «الالماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع» (الأسكوريال 1572 وهي غير فهرسته المسماة :

5) «الغنية في اصطلاح أخذ الحديث وسماعه من الأشياخ (مكتبة مدريد 307).

6) «بغية الرائد في معرفة ما في حديث أم زرع من الفوائد».

7) «مناهج العوارف إلى روح المعارف» (في شرح مشكل الحديث) (مكتبة القاهرة 153 ر I).

- محمد بن ابراهيم بن محمد الليثي الأندلسي المتوفى بمراكش سنة 707 هـ.

لـه : 1) - «اكمال الاكمال» للقاضي عياض (الاعلام للمراكشي ج 3 ص 243) (النفح ج 1 ص 353).

- محمد بن أحمد بن جراح الجياني البغدادي المتوفى بفاس سنة 546 هـ (السلوة ج 3 ص 267).
روى عن علي الطبري وجلب من تواليفه إلى المغرب «أحكام القرآن» والرد على أحمد بن حنبل.

- محمد بن سعيد بن أحمد بن زرقون الشريشي المتوفى باشبيلية عام 586 هـ مسند الأندلس ولي قضاء شلب وسبتة (فهرسة ابن خير ص 86 / تكملة ابن الأبار ص 256).

له : 1) «الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار».
في شرح الموطأ للباجي وابن عبد البر (يوجد المجلد الرابع بخزانة جامعة القرويين 145) ولمحمد بن عبد الحق بن سليمان الكومي

المتوفى عام 625 «المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار» في عشرين سفرا و 3000 ورقة) (الاعلام للمراكشي ج 3 ص 98).

2) كتاب في الجمع بين الترمذي وأبي داود (الاعلام للمراكشي ج 3 ص 98).

- محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري المتوفى سنة 834 هـ.
- «شرح الدرر اللوامع» لابن بري (جزء متوسط حبسه المنصور السعدي على مكتبة القرويين عام 1011 هـ وعليه خطه) (ل 40 / 231).

- محمد بن علي بن العابد الأنصاري الشاعر أصله من فاس سكن غرناطة ومات بها سنة 762 هـ (الإحاطة ج 2 ص 211).
اختصر تفسير الزمخشري (أزال عنه الاعتزال).
وقد ألف عمر بن محمد خليل السكوني الإشبيلي نزيل تونس المتوفى عام 717 هـ «التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز» (النيل ص 195 / كشف الظنون ج 2 ص 1482 / النفح ج 2 ص 1150) (المكتبة الملكية 8780) (ومكتبة القرويين).

- محمد بن عمر الشواشي الشلبي المقرىء المتوفى بمراكش عام 569 هـ وهو صاحب ثورة المريدين (الاعلام للمراكشي ج 3 ص 24).

- محمد بن قاسم بن محمد بن علي القيسي القصار الأندلسي الفاسي محدث المغرب (1012 هـ) أستاذ سيدي عبد الرحمن الفاسي (مرآة المحاسن ص 148 / النزهة ص 192 / الصفوة ص 16 / النشر ج 1

ص 62 / السلـوة ج 2 ص 62 / خـلاصـــــة الأثر للمحبي ج 4 ص 121).

له : فهرست جمع فيها روايتـه في الفقـه والحـديث (فهرس الفهـارس ج 2 ص 317) وأخرى أصغر منها توجد بالمكتبة الأحمدية السودية بفاس) (الاعلام للمراكشي ج 4 ص 227).

وقد نفق سوق الحديث في عصره وكان المغرب يعتني خاصـة بـالنحو والفقه والقرآن.

- يحي بن يحي بن أبي عيسى الليثي الطنجي كثير بن وســلاس المصمودي عـالم المغرب والأنـدلس في عصره سمع الموطـأ من مـالـك وسفيـان بن عيينـة ونشر مـذهبـه في الأنـدلس حيث كان لا يولى قاض إلا بمشورته توفي عام 234 هـ (ولد عام 152).

وصفه مالك بعاقل الأندلس.

(التهـذيب ج 11 ص 300 / النفـح ج 1 ص 332 / ابن خلكان ج 2 ص 216 / جذوة المقتبس ط 1952 ص 359 / المغرب ج 1 ص 163 / ابن الفرضي ص 44 / الديباج ص 350).

- اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله الغـافقي الجيـاني (توفي بمصر 579 هـ) المحدث الحافظ المقرىء خرج من مراكش عام 543 هـ. روى صحيحي البخــاري ومسلم والسنن عن علمــاء في المشرق والمغرب (الاعلام للمراكشي ج 8 ص 329 خ).

- يعيش بن علي بن مسعود بن القـديم الأنصـاري أبـو البقـاء المتـوفى سنة 626 هـ رحل من شلب إلى مراكش ثم فاس.

له : «الشمس المنيرة في القراءات السبع الشهيرة».
(جذوة الاقتباس ص 355) وهو أستاذ ابن القطان في الحديث
(الاعلام للمراكشي ج 8 ص 327 خ).

الفن المعماري

اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لا سيا في فاس كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون الأصلية مع الاقتباس في آن واحد من الأندلس. وأول ما تجلى هذا الاقتباس في فاس حيث استقدم يوسف بن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقاياتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم علي بن يوسف المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة (تانسيفت).

ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي لا سيا في عهد يوسف الذي عاش في اشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في اشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها (خيرالدا وحسان والكتبية) وأصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما اشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة.

ويمكن أن تعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق في البلاد المغربية وأصبح بعد ذلك - حسب كوتيي Gautier - مظهر إعجاز في ميدان التكيف بالطابع الشرقي ذلك أن الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر

الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغرب العربي بفضل مرونة حساسية العرب ومداركهم الإبداعية. فهناك عوامل حدت العرب في الأندلس والمغرب وكذلك بمصر إلى الاستيحاء في زخارفهم من معطيات الهندسة وهذه العوامل هي إهمالهم للأشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعمقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم وأذواقهم.

وكان لفاس أثرها القوي حتى في إفريقيا وبذلك أمسى علماء الإسلام بإفريقيا تابعين لمدرسة برابرة الغرب الإسلامي[48] ويرجع فضل هذه النهضة إلى المولى إدريس الثاني الذي أمد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها.

وقد أكد المؤرخ الفرنسي طيراس[49] لدى حديثه عن الفن المرابطي أن عليا بن تاشفين فاق والده بكثير في المؤسسات المعمارية مع أن يوسف نفسه كان من كبار البناة والمؤسسين وقد اندثرت معالم جميع ما أقامه من قصور ومساجد في مراكش باستثناء قبة البردعيين (قرب جامع بن يوسف) ومسجد تلمسان (عدا منارته) ومعظم أروقة جامعة القرويين الزاخر بروائع الفن المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة زخرف ومع ذلك فإن إسهام المرابطين في الفن كان مهما لا يخلو من تجديد فالفنان لايمكن أن يستسيغ ويقتبس إلا ما تمكن تقريبا من الكشف عنه[50] ولنا على ذلك دليل قوي

---

48) (الفن الإسلامي) ـ جورج مارسي ج 2 ص 469.

49) تاريخ المغرب ـ ص 252.

50) مقدمة كتاب الفن الإسلامي لمارسي.

في النفوذ الشامخ الذي بسطه المرابطون في الأندلس وإفريقية وذلك في العمل البناء الذي حققوه في هذا الجزء من المغرب الإسلامي وقد لاحظ (كودار)[51] عن حق أن إقامة المرابطين لصروح أكبر امبراطورية أسست في العالم (حيث امتدت من الأندلس إلى (جزر الباليار) إلى (نهر النيل) (Niger) لتنم لدى الفاتح المرابطي عن تفتح مدارك قوية.

إن قادة الموحدين الذين ركزوا للمرة الأولى وحدة الإسلام السياسية من حدود (قشتالة) إلى (ليبيا) قد ساهموا في تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الإسلامي في المغرب[52].

وقد استمر نفوذ الموحدين أزيد من قرن، كان لهم في غضونه أعمق الأثر في عدوة الأندلس المترامية الأطراف، فانتصار يعقوب المنصور في الأندلس قد أضفى على الفن طابعا خاصا وحقق بتساوق مع مدرسة القيروان التجانس الفني بين الشرق والغرب.

وقد تجلى ذلك في جامع القرويين فعندما دعت زناتة لعبد الرحمن الناصر ملك الأندلس وبايعه أهل فاس قام العامل (أحمد ابن أبي بكر الزناتي) بتوسيع المسجد منفقا عليه «من أخماس غنائم الروم» فزاد أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف.

وفي عهد علي بن يوسف اشتريت دور كان أكثرها في ملك اليهود وزيدت في المسجد عشرة بلاطات من الصحن إلى القبلة[53] والقبة بأعلى

51) في كتابه (وصف وتاريخ المغرب) ص 314.

52) مارسي (الفن الإسلامي ص 305).

53) يوجد بجامع القرويين 19 بلاطا موازيا للقبلة وقد لاحظ (جورج مارسي) ان هذا الأسلوب يرجع عهده إلى صدر الإسلام ونجده في مصر (جامع عمرو وجامع ابن طولون) وظل هو الغالب في مساجد فاس (فن الإسلام ص 95).

المحراب «بالجص المقربص الفاخر الصنعة» ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة[54] وركب في الشماسات التي بجوانب القبلة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه، ثم غشيت أبواب الجامع» بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن، (كل ذلك عام 533 هـ) وقد لاحظ (ابن أبي زرع) أن هذا الفن كان يبهت الناظرين، فلما دخل (عبد الرحمن بن علي) عام 540 هـ) خاف الفقهاء والأشياخ أن ينتقد ذلك النقش والزخرف لأن الموحدين نهجوا سياسة التقشف فغطى البناؤون النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغد ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض[55].

وقد علق(جورج مارسي) على هذا الحدث فزعم أنه قصة لتبرير البياض والفراغ الملحوظين في قبة المحراب[56] إلا أن الحفريات التي قامت بها (مصلحة الفنون الجميلة) منذ عام 1952 أكدت حكاية المؤرخ العربي، فقد كشف عن نقوش رائعة غير أنها لاتحتوي على أي توريق ذهبي، وقد لوحظ أن أصناف الأصبغة المشار إليها من طرف صاحب (القرطاس) هي الأزرق والأحمر والمغرة الصفراء، وما زالت الألوان متماسكة وفي رائق غضاضتها، ويظهر أن مزيج الأصباغ كان يحتوي على مح البيض الذهبي

(54) (الأنيس المطرب ج 1 ص 87).

(55) (الأنيس ج 1 ص 88).

(56) كتاب الفن الإسلامي طبعة 1926 ج ص 302 وقد أكد (مارسي) هذا الزعم في الكتاب الذي صنفه عام 1954 وهو «الهندسة المعمارية الإسلامية في الغرب» (ص 188) إلا أن الأستاذ (طيراس) أيد مقالة ابن أبي زرع.

اللون وأن الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق أشعة النور المنعكس من النوافذ.

وقد احتل الموحدون في تاريخ الفن الإسلامي مكانة مرموقة تفوق ماكان للمرابطين في هذا الحقل، وذلك بالرغم عن معارضة المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش.

وكان ابن يوسف هذا يقطن في (اشبيلية) التي زخرف معارها بأبهى وأروع مما زين به حاضرة مراكش، أما ولده (يعقوب المنصور) فإن بدائعه الفنية تشهد بأنه أروع بناء في العصر الموحدي[57] مثال ذلك المؤسسات المقامة في اشبيلية والرباط ومراكش.

وبفضل الموحدين تجلى القرن السادس لبعض علماء الآثار كعصر بلغ فيه الفن الأوج في القسم الغربي من العالم الإسلامي[58].

وتبدو الهندسة المعارية الموحدية في أجلى وأجل معالمها في مساجد مراكش وحسان (بالرباط) ومرصد الخالدة باشبيلية[59].

وقد أكد كل من (طيراس) و (باسي) أن (الكتبية) أجل معبد أقامته الخلافة الإسلامية في المغرب، وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع (الجامع

---

57) ماربي ـ الفن الإسلامي ج 1 ص 303.

58) الهندسة المعارية الإسلامية في الغرب ص 200.

59) يوسف هو الذي شرع عام 567 هـ في بناء المسجد الأعظم باشبيلية (القرطاس) لابن أبي زرع).

الكبير بقرطبة)، فجامع قرطبة رغم سعته لايتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق ومع ذلك فإن عددا كبيرا من رؤوس الأساطين في (الكتبية) هو من أصل أندلسي، فالأعمدة الأربعة التي تساند (قوس المحراب) من مخلفات (الفن الأموي) (وتوجد أيضا في المسجد الموحدي بقصبة مراكش أعمدة أموية من الصعب وجودها ملتئمة في قرطبة نفسها).

ويرى كل من (طيراس وباسي) أن هذا المنبر هو أجمل منبر في الغرب الإسلامي بل أبهى وأروع منبر في العالم الإسلامي أجمع وما زال قائم الذات إلى عصرنا هذا في (الكتبية) إلا أن بعض أجزائه تميل إلى التداعي.

وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك إفريقيا الشمالية[60] إذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فإن هؤلاء الرجال استطاعوا بفضل اتصالهم المزدوج بـ (بني نصر) ورثة الحضارة الأندلسية وبالموحدين التكيف والانسياق في مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الإسلامي والمجالي الطريفة في التجديد، وقد تبلور اتجاههم في إقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الأضرحة والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء.

تلك هي المظاهر الجوهرية التي يمكن أن نستخلص منها صورة عن الفن المريني الذي بدأت تتبلور فيه مجالي الازدواج بين الطابعين الأندلسي والمغربي في شكل جديد سمي بالفن الإسپاني الموريسكي.

60) راجع تاريخ إفريقيا الشمالية لأندري جوليان.

وبالرغم عن التأثيرات الأندلسية التي وسمت هذا الفن فإنه اصطبغ بسمة خاصة إذ عوضا عما كان يذكي المهندس الأندلسي من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في المعالم المعمارية هدف المهندس المغربي إلى ضمان متانة الهيكل بالإضافة إلى ما كان يشعر به من حاجة إلى مزيد من الزخرفة والتنسيق وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع الفن الإسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري الذي بلغ في العصر المريني أوج عنفوانه من إيغال في التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الأجزاء وعدم جودة المواد فإن المجموع ظل ـ كما يصفه المؤرخ أندري جوليان ـ واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الحيز الذي يملأه وهذا بالإضافة إلى ما انطوت عليه الألوان من دقة وجناس كاملين[61] وقد أشع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التي لا تضاهى وروعته الطريفة الأصيلة فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره في (العدوتين).

وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه إلى نشاط المهندس الأندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا في مجموع المآثر المعمارية[62].

وإذا كان الفن قد استطاع الصمود في نهاية العهد المريني فما ذلك إلا بفضل العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب، بحيث أصبح المغاربة منذ

---

61) تاريخ إفريقيا الشمالية (ص 456).

62) كان ذلك منذ المرابطين وقد لاحظ (الناصري) نقلا عن صاحب (الجذوة) أن المهندس الإشبيلي محمد بن علي هو الذي رسم تصميم (دار الصناعة البحرية بسلا) واستعمل الأساليب المعروفة بالأندلس (الاستقصا ج 2 ص 11) كما أن نقل مياه (وادي فاس) لتزويد قصر يوسف بن يعقوب كان على يد مهندس اشبيلي اختصاصي في علم الحيل هو (محمد بن الحاج).

عهد الوطاسيين عالة في كثير من الفنون والحرف على الأندلس[63] ومع ذلك فإن الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته النادرة رغما عن انعدام الفخامة في مجاليه، ذلك أن وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت في إطار من الوضوح والدقة لاغبار عليه.

وقد لاحظ طيراس[64] أنه بالرغم عن الجهود التي بذلها كبار الأمراء السعديين فإنهم لم يسهموا في انبعاث الحضارة الإسلامية بالمغرب، غير أن صلات عابرة وغير مباشرة بالفنون الإسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعديين من علاقة بالأتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى في فن الطرز والنسيج والتجليد والتذهيب.

وعندما استتب الأمر للعلويين في عهد (مولاي الرشيد) بدأ هذا الأمير يهتم بتجديد معالم الفن المريني والسعدي بتعزيز الأجهزة العسكرية ومتابعة بناء المعاهد والمدارس والمساجد.

وكانت الزخرفة بسيطة فالسواري مجردة من التيجان كما أن الأقواس عارية من كل نقش ولا يوجد الخشب المنحوت إلا في الباب الشارع من جدار القبلة.

وقد قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ بأمر من جلالة الحسن الثاني أيده الله ـ بتجديد هيكل جامع السنة فنقلت عام (1969م) منارته من الطرف الشمالي إلى الطرف الجنوبي للمسجد، وكان ذلك عنوانا

---

63) كودار ج 2 ص 461.

64) تاريخ المغرب (ج 2 ص 234).

ناصعا على امتداد روعة الفن المغربي الأندلسي بطابعه الخاص الذي اندرست معالمه في الوطن العربي كما تجددت سقوف الصحون والبلاطات وازدانت مختلف الأروقة بنقوش خلابة وبرزت براعة الصانع المغربي في النحت على النحاس الأصفر اللماع الذي لبست به أبواب الواجهة بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ الفن بالمغرب فكانت هذه المظاهر وكثير من أشباهها في أجزاء هذا التجديد صورا حية لعمق المكاسب الأندلسية والشرقية الإسلامية في حضارتنا الحديثة التي تضم إلى رواء الجمال العصري جلال الفن التقليدي، وقد أصبحت الصومعة الجديدة شامخة في هيكلها الضخم يراها الناظر وقد أطلت في سمت هندسي محكم على أكبر شارع هو شارع محمد الخامس رمز النهضة المغربية الحديثة ورائد الفكر الحضاري والإسلامي الجديد في المغرب العربي.

أما (جامع أهل فاس) فهو (جامع المشور) الذي أكد (الضعيف) أنه من مآثر السلطان الأمجد المولى محمد بن عبد الله، إلا أن بعده عن المدينة جعله كجامع السنة قليل الرواد إلى أن جاء السلطان الأكرم محمد الثالث (محمد بن عبد الرحمن) فجدد بناءه وموه سقوفه بالذهب والبرقشة ثم توالت التعديلات عليه وخاصة في عهد جلالة المرحوم محمد الخامس طيب الله ثراه الذي أفرغ فيه أروع مجالي الفن المعماري.

وقد أفرغ جلالة الملك الحسن الثاني حضارة الفن المغربي (في توليف شامل لمعطياته التاريخية منذ أزيد من ألف عام) ـ في التحفة لرائعة التي

تضم إلى جانب ضريح جلالة المرحوم محمد الخامس قرب جامع حسان[65] مسجدا صبت فيه كل قوالب الصناعة المعمارية الوطنية في طفرتها نحو الطرافة والتجديد ضمن الأصالة والتقليد.

تلك نماذج من الفن المعماري المغربي تبرز المجهود الذي بذلته البلاد عبر العصور لبلورة معطيات الهندسة المعمارية وضمان استمرار معالم التراث المغربي الأندلسي الذي خلد العطاء الإسلامي في مجالات الفنون الإنسانية.

---

65) جامع حسان من مآثر الموحدين الخالدة التي حققت وحدة الفن الشرقي والفن الأندلسي المغربي، فهو رمز لفخامة الدولة الموحدية ومشاعرها في السمو والعظمة وذوقها في التناسق الجامع بين الفخفخة والبساطة وهو مجهود رائع إذا اعتبرنا انبثاقه من أسرة «موحدة» كانت تعمل على دعم الإسلام في صفائه الأصيل... وحنيفيته السمحة وعظمته الساذجة.
ويقع جامع حسان شمالي شرق مدينة الرباط على نحو 30 مترا فوق البحر وهو المسجد الثاني الذي بناه الموحدون بالرباط بعد مسجد القصبة العتيق وبانيه هو يعقوب المنصور الذي أتمه عام 592 هـ ويظهر أن بناءه لم يتم ومنارته أقرب عهدا من منارة الكتبية ومنارة جامع اشبيلية المعروف بالخرالدة، وهي مربعة كمنارة جامع دمشق، يبلغ عرضها ربع طولها حسب التقليد المعماري، وهذا العلو وهو 64 مترا يجعل من منارة حسان أعظم منارة في الغرب بل حتى في الشرق، أما الجامع فإنه مربع المساحة تقريبا هندسي التقسيم لتساوق سواريه الفاصلة بين صحونه الواسعة، ومحرابه المربع الشكل على خلاف المحاريب المغربية، و هو منحرف بعض الشيء عن القبلة مثل جامع القرويين.

المصادر

— (تاريخ فتح الأندلس) مطبوع، لابن القوطية أبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الإشبيلي المؤرخ اللغوي (367 هـ / 977م).

— (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي عبد الله بن محمد نشر بالقاهرة (1329 هـ / 1954م) بعنوان : «تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس».

— «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس» للحميدي محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي القاهرة 1952 ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ 1966 (414 ص).

— «فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس» لابن غالب نشره لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات م. 7 (1955) (ص 279 ـ 310). (راجع ابن غالب محمد أيوب الغرناطي الذي انتقى تعليقا من «فرحة الأندلس» مكتبة مراد ملا 1410 (5).

— «نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان»، لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف بن محمد (تحقيق محمد رضوان الداية)، دار الثقافة ـ بيروت 1967 (المكتبة الأندلسية 18).

— (تاريخ الأندلس) لابن الصيرفي أبي بكر تلميذ ابن العربي المعافري وصاحب (تاريخ الدولة اللمتونية).

— (بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس) لأحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1697 / المكتبة الأندلسية ج 2 (547 ص).

— (كتاب ملوك الأندلس والأعيان والشعراء بها) لإبن ينق أبي عامر محمد بن يحي الشاطبي (547 هـ / 1153م).

— «تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس»، لابن هذيل (مكتبة الأسكوريال رقم 1652 (136 ورقة).

— «ريحانة النفوس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس»، لابن عات النفزي أحمد بن هرون (609 هـ / 1212م). وله أيضا «النزهة في التعريف بشيوخ الوجهة» (التكلة لابن عبد المالك ـ خزانة القرويين ـ (ج 1 ص 238).

— «جنة الرضا في التسليم بما قدر وقضى»» (ندب الفردوس المفقود)، لابن عاصم أبي يحي محمد بن صاحب التحفة (857 هـ / 1453م) الخزانة الملكية بالرباط (خم 2618).

— (المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان بن خلف الجزء الثالث في خم نشره عبد الرحمن علي الحجي (بيروت 1965) وقبل ذلك بباريس 1937م.

— «الكتاب المبين» في تاريخ الأندلس في ستين مجلدا لأبي مروان بن خلف 469 هـ / 1076م (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 139).

— «المجمل في تاريخ الأندلس» لعبد الحميد العبادي جمع مادته ونسقها أحمد إبراهيم الشريف، الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ دار القلم 1964.

— مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس (نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي).

– Charles Emmanuel Dufour – L'Espagne catalane et le Moghreb aux XIIIè ■ XIVè, siècles-Paris, 1966, l vol.(664 p).

— الفن الإسلامي في اسبانيا. مورينو مانويل جوميث ترجمة لطفي عبد البديع ومحمود عبد العزيز سالم ـ الدار المصرية للتأليف والنشر ـ القاهرة (500 ص).

— وفي خزانة كتب بالأسيوس قاطر جزازات جمعها (ريبيرا) الإسباني في تراجم وجزازات علماء العرب بالأندلس وهي ثلاثون ألف جزازة لثلاثين ألف عالم.

— عبد الملك بن موسى الوراق أبو مروان، من مؤرخي القرن السادس الهجري.

له : (المقباس في أخبار المغرب والأندلس وفاس).

من أهم مراجع ابن عذاري وابن الخطيب :

الإحاطة ج 1 ص 278 / 288 الاستقصا ج 1 ص 166 / 169.

(المقتبس في أخبار المغرب والأندلس ص 35).

مفاخر البربر (ص 47 / تاريخ إسبانيا المسلمة: ليفي بروفنصال ج 2 ص 259 ـ 272 / ج 3 ص 81.

ع. ب. ع

العلاقات الثقافية بين الأندلس والبلاد العربية

د. محسن جمال الدين
كلية الآداب/جامعة بغداد

الأندلسيون الأوائل من حملة الثقافة المشرقية

بطولة وأمجاد :

لا يستطيع الباحث المحقق، بما يجده من فيض زاخر لتراث الأندلس العربي، أن يصل إلى أعماق ذلك الخضم الواسع الآفاق، المترامي الأطراف، من الثقافة العربية في تلك الديار. نظرا لما ضمت آثارهم من تراجم موفورة، وأخبار متنوعة، وأحاديث متضاربة، عن أحوال الأندلس، وما أحاط تاريخها الفكري، والأدبي، والاجتماعي، من تناثر وضياع.

ومن أراد أن يكشف عما خفي من كنوزها في زوايا مصادرها المطبوعة والمخطوطة، لأصابته الدهشة، لما يلمسه من تزاحم أسماء الذين درسوا العلم وحصدوا من ثماره، في داخل بلادهم أو خارجها[1].

1) راجع المكتبة الأندلسية. B.A.H التي نشرها (قديرة) Codera وغيرها من كتب التراجم : شرقية أو أندلسية للتدليل على هذا القول.

ثم وجب عليه أن يتعرف على أحوال العلماء البناة في أسس مجدها الثقافي. والذين كانوا الطلائع الأولى من المغامرين بأرواحهم وأموالهم، والذين عاش بعضهم في ضنك العيش، ولوعة الفراق، ومرارة البعد، ومتاعب الطريق.. يوم أن ركبوا البحار، وقطعوا القفار، وسارت قوافلهم تغذ السير قدما، نحو منابع الثروة الفكرية الإنسانية. فقصدوا مواطنها بصبر، وأناة، وتضحية، وإقدام، وشجاعة، وحماسة.. وشدوا نطقهم للهجرة وراء حدود آفاق وطنهم عبر البحر المتوسط، أو صحاري افريقية، أو رمال البادية والجزيرة. وصلوا جبال (فارس) وغابات (الهند) وأسوار (الصين) وقباب (بخارى) و (سمرقند) و (سيبريا). دون أن يعرفوا السأم، أو ينالهم الوصب أو يرجعهم شوق الأهل والديار، عن مقاصدهم السامية...[2].

الدروب والنهج التي سلكوها :

كانت الدروب والنهج التي سلكوها في السفر إلى المشرق العربي مختلفة الاتجاهات متباينة الوسائل والوسائط. أكثرها مسلكا هو طريق البر عبر مجاز (جبل طارق)[3] أو (الجزيرة الخضراء)[4] أو (جزيرة طريف)[5] في

2) في رحلة (أبي حامد الغرناطي)، وفي مشاهدات (ابن جبير) و (ابن سعيد المغربي) ما يثبت هذه البطولات العربية.

3) جبل طارق ـ أو الذي سمي بعد ذلك باسم جبل الفتح، لأن أحد خلفاء بني عبد المؤمن الموحدي، بنى مدينة عليه عام 556 ووصفه الشعراء ـ وهو أول جبل وصل إليه الفاتح طارق بن زياد وسمي باسمه حتى اليوم في جميع اللغات المعروفة.

4) الجزيرة الخضراء : وتسمى جزيرة أم حكيم ـ أقرب مدن الساحل مجازا إلى العدوة. راجع / الروض المعطار ص : 75.

5) جزيرة طريف : وهي التي نزل عليها طريف البربري مولى موسى بن نصير بحملة صغيرة عام 91 هـ. تقع على الساحل الاسباني. راجع : الروض المعطار ص : 127.

سفن شراعيــة تقصــد (سبتــة)[6] على الســاحــل الإفريقي أو (القيروان)[7] التـونسيـة. ومنهم من يتجـه بحرا صـوب جـزيرة (ميـورقــة)[8] وشقيقتهــا (منـورقـة) و (اليـابسـة)[9]. أو تسير بعض سفنهم نحـو (صقليـة) أو (كريت) ومنها يقطعون البحر المتوسط قـاصـدين (الاسكنـدريـة) كما ورد بعض هـذا النهج في رحلة (ابن جبير الكناني)[10] الأندلسي الغرناطي.

وقد حدد لنا هـذا الرحـالـة الأنـدلسي المـدة الزمنيـة التي مضت على رحلته وهو في طريقه للمشرق ووصوله لميناء (الاسكندريـة). فكانت ثلاثين يـومـا. أي خـلال شهر كامـل. منـذ أن فـارق أرض وطنـــه، من (جـزيرة طريف) حتى وصوله أرض مصر[11]. ويبدو للباحث أن هذه الرحلـة كانت طويلة الزمن، متشعبة المســالـك. والسبب في ذلـك يعود كما يظهر لاشتـداد أزمـة الحروب الصليبيـة، وهجمات فرسـانهـا وقرصـانهــا، في البر والبحر، في منطقة الشرق العربي الإسلامي.

وربمـا تتفـاوت المـدة الزمنيـة لقطع المسـافـات طولا أو قصرا، سرعـة وابطاء، ويعود ذلك لما يحيط المسـافر نفسـه أحيـانـا من صحـة، ومرض، أو

---

6) سبتة : مدينة في المغرب ـ مقابل جبل طـارق والمسـافـة بعرض (16كلم) ومنهـا تجهز طـارق بحملته إلى الأندلس سنة 92 هـ. راجع : المنجد ط 18 ص 246.

7) القيروان : مدينة في تونس ـ بناها عقبة بن نافع سنة 607 م كانت مدينة صناعيـة، ومحطـة للقوافل بلغت مجدها في عصر الأغالبة راجع المنجد ص / 426.

8) جزيرة ميورقة : جزيرة اسبانية قريبة من برشلونة فتحها المسلمون سنة 290 هـ.

9) منورقة واليابسة : بالقرب من مدينة برشلونة راجع الروض المعطار.

10) ابن جبير : رحالة أندلسي توفي بمصر سنة 614 هـ.

11) راجع رحلة ابن جبير ـ ط. 1 / بغداد ص 2 و 6.

من أمان، وخطر. أو قد تلذ له الإقامة في البلد الجديد لبضعة أيام، أو يغادره لتوه.

دوافع الرحلة :

للرحلة التي يقوم بها المسلم الأندلسي خاصة، أسباب متعددة لها صلة وثيقة بطابع الحضارة العربية الإسلامية، التي امتدت سيادتها يومذاك على دنيا المشارق والمغارب، ولعل للدين نفسه ولتعاليمه الكريمة، الأثر المباشر في ازدياد الرحلات الإسلامية خلال العصور الوسطى. لأن الدين يدعو إلى المعرفة، ولأن القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الأعظم ﷺ كلها تدعو لطلب العلم، وفرضه على المسلمين والمسلمات وتجعل للعلماء منزلة سامية محترمة مرموقة، هم موضع الاحترام والتبجيل..[12].

قال الدكتور المرحوم زكي محمد حسن في كتابه القيم (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) : «...والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية، وسيادة المسلمين في البر والبحر، وطبيعة الدين الإسلامي، كل ذلك من شأنه أن يشجع على الأسفار والرحلات..»[13] «وطبيعي أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم في تلك العصور»[14].

12) لم أرغب الإكثار من سرد الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة. ففي القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ المثبتة في كتب الحديث المشهورة ما يغني عن الاستشهاد.

13) راجع الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ـ للدكتور زكي محمد حسن ط. 1 ص : 6.

14) المصدر السابق ص 6.

ويأتي على رأس كل الدوافع الرحلة إلى (حج بيت الله الحرام) وزيارة قبر رسوله الكريم ﷺ. والأماكن المقدسة التي تجاور الحرمين الشريفين.

ويمكننا أن نوجز أهم الدوافع لقيام المسلمين الأندلسيين للرحلة إلى المشرق، على ضوء المصادر التي أشارت إلى ذلك. وأهمها[15] :

1 ـ دوافع الدين والأخوة العربية والمعتقدات.

2 ـ دوافع اللغة والفكر والثقافة وطلب المعرفة.

3 ـ دوافع النزهة والاطلاع على الشؤون الإدارية، والزراعية، والتجارية، والسياسية، والسفارات.

4 ـ دوافع الاضطهاد الفكري والديني. كما حدث للمسلمين العرب يوم أن تساقطت مدنهم بيد الاسبان واضطروهم للتنصر، وجعلوا لهم محاكم التفتيش. وفي (نفح الطيب) والكتب المؤلفة في اللغات الأجنبية والعربية ما يشير إلى ذلك ويقرره[16].

إن طالب العلم المسلم أينما سار وحيثما وصل يجد العون الصادق في رعايته، والحدب عليه ومدّ يدِ المساعدة لشخصه. بالرغم عن الحدود الوهمية

15) راجع رحلة بنيامين التطيلي ـ ط. 1 / بغداد ـ ترجمة عزرا حداد، المقدمة ص 10 وما بعدها كما يراجع : بحث الأستاذ الباحث الدكتور حسين مؤنس عن الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ج 7 و 8 ـ ص 199 وما بعدها.

16) راجع : محاكم التفتيش للأستاذ الباحث محمد عبد الله عنان.

التي أحدثتها السياسة. والتي حطمتها قوى المحبة والروابط الأخوية والدينية(17). واستطاعت فتوحات العرب المسلمين أن تجعل الدولة الإسلامية في وحدة تامة، وفي نطاق واحد محكم. لم تستطع الأحداث أن تفرقه أو تفصم من مرعاه، قال مقدم رحلة (التطيلي)(18) :

«فكان المسلم حيثما تنقل داخل حدود هذه المملكة يجد نفسه بين إخوان له. يظله ما يظلهم من دين ويسري عليه ما يسري عليهم من شرع وعرف وعادات».

«وأينما ألقى عصا الترحال من (اصبهان) و (بغداد) شرقا، و (القاهرة) و (غرناطة) غربا، وجد الجامع الذي يؤدي فيه فريضة الصلاة، والرباط الموقوف على إيوائه واطعامه إذا جاع والمدرسة التي يتلقى فيها علوم الدين والدنيا، والمارستان الذي يعالجه إذا ما ألم به مرض»(19).

إن العائلة العربية المسلمة في الأندلس كانت تجد لزاما عليها أن تدعو أبناءها للتزود بزاد العلم والمعارف وتحثهم على التغرب والسفر والرحلات في

---

17) راجع رحلة بنيامين ط. 1 / ص 12 وما بعدها.

18) راجع المصدر السابق ص 12 وما بعدها.

كما يراجع الفصول المختصرة عن (التأثيرات المشرقية في الأندلس ومدى أثرها في تكوين الثقافة الأندلسية) للأستاذ الباحث الدكتور محمد علي مكي / مجلة معهد الدراسات الإسلامية / مدريد ج 9 و10 ص / 494.

19) راجع (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) للمستشرق الروسي (اغناطيوس كراتشوفسكي) ـ ترجمة الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم ط 1 / الخرطوم ج 1 و 2.

ففيه تراجم وملاحظات ودراسات قيمة حول الرحلات والرحالة العرب في العصور الوسطى حتى القرون المتأخرة.

سبيله، والاستفادة من طلب الحديث وأصول الفقه ودراسة العربية. وفي النصوص الأندلسية الباقية لدينا نجد بعض (الوصايا) أمثال وصية (الباجي) و (ابن سعيد) و (ابن الخطيب)[20]. منها ما جاءت نثرا ومنها ما وردت شعرا.

قال الباجي في الدعوة إلى طلب العلم : «والعلم سبيل لا يفض بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرفقة والكرامة، قليله ينفع وكثيره يعلي ويرفع، ولا يخاف عليه سارق ولا محارب فاجتهدوا في طلبه، استعذبوا التعب في حفظه، والسهر لدرسه، وكل ذي ولاية وإن جلت، وحرمة وإن عظمت، إذا خرج عن ولايته، أو زال عن بلدته، أصبح من جاهه عاريا، ومن حاله عاطلا غير صاحب العلم»[21].

أما (ابن الخطيب) الذي قارن بينه وبين (الباجي) الدكتور هلال فقد قال لأبنائه[22] : «واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب، والعلم هو السبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى المخلة عادة. والذخر الذي قليله يشفع، وكثيره ينفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزه الدهر إذا نال، ولا يستأثر به البحر إذا هال. من لم ينله فهو ذليل، وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله».

---

20) راجع البحث الطريف : وصية القاضي (أبي الوليد الباجي) لولديه تحقيق وتعليق الأستاذ الدكتور جودة عبد الرحمن هلال / مجلة المعهد المصري مجلد / 2 ص / 17.

21) راجع المصدر السابق ص : 25.

22) راجع المصدر السابق ص 25 و 26 ـ كما يراجع (نفح الطيب) في ترجمة (ابن سعيد المغربي) وقصيدته التي أوصى بها أبناءه. ج / 3 ص 29 وما بعدها.

رواد ومغامرون :

لم نتعرف ـ مع الأسف ـ حتى اليوم على هـويـة الرائـد الأول من الأندلسيين الذي زار المشرق طلبا للعلم وأخذاً من الثقافة العراقيـة العربيـة. ويرجـح أن أسبـاب ذلـك يعـود إلى فترة الـولاة التي امتـدت من 92 هـ ـ 138 هـ (711 م ـ 756 م) حيث كانت فترة حروب مستمرة، وقلـق دائم للحكم والحكام. هذا وعلاقة الأندلسيين بالعراق الذي لم تتكون فيه الحضارة العباسية والمدارس العلمية إلا بعد سنة 132 هـ في سقوط الـدولـة الأمويـة. مع ميل الأندلسيين أنفسهم للشـام، ومركز الخلافـة الأمويـة بـدمشق، جعل روادهم الأوائل، لم يتـوجهـوا إلى العراق إلا نـادرا. وكانت غـالبيـة رحـلاتهم العلميـة تقصـد (مصر) والشـام. لوقـوع الـديـار المصريـة في طريقهم ولمحبتهم للأرض السورية التي خرجت منها قوافلهم الأولى، فاتحة، وغازية، ومحررة.

ولكن الدكتور حسين مؤنس ـ أشار إلى بعض الزيارات التي قام بها المسيحيـون الـزائرون إلى المشرق عـامـة، ودخـول بيت المقـدس ومـا ذكره الـدكتور مؤنس، نقلا عن المؤرخ سيمـونيت Simonet قـولـه : «ومن طريف ما يلاحـظ أن نصـارى الاسبـان انتهزوا فرصـة دخولهم في طـاعـة الـدولـة الإسلامية لكي يذهبوا إلى بيت المقدس للحج... ولكن يبدو أن عـدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيرا»[23].

أما بشأن حصـة أهل العراق من الفتح العربي للأنـدلس، فقـد كانت حصة صغيرة من الطلائع الأولى للأجناد، سكن بعضها في (غرناطـة) والآخر في (اشبيلية). ولكن من المفاخر المتميزة لتـاريخ الحكم العربي في الأنـدلس أن

---

23) راجع فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ط / 1 ص 507.

(موسى بن نصير) القائد الحاكم صاحب الفكرة الأولى للفتح العربي هناك، هو عراقي المنبت يرجع سكنى قبيلته وأسرته إلى (عين التمر). والأمير الشاعر (المعتمد بن عباد) وأسرته المعروفة ينتسبون إلى لخم بن عدى بن الحارث بن مرة. وهم من ولد النعمان ابن المنذر صاحب (الحيرة)[24].

إن هؤلاء العراقيين من الفاتحين الأولين لم تظهر لهم صفات متميزة عن غيرهم لأن الأغلبية الكبرى من الشاميين الذين لهم الولاء والميل للأمويين، ويتبعهم جنود من فلسطين، والأردن، واليمن، ومصر، هذا ولم تبرز شخصيتهم الاجتماعية والعلمية، إلا لهجرة (زرياب)[25] و (القالي) و (الموصلي). ولكل من هؤلاء أثره.

فالأول : اختص بالناحية الفنية والطراز المعاشي والاجتماعي.

والثاني : بنشر الثقافة العلمية ودراسة آثار العرب الفكرية، والمعارف العراقية.

---

24) يراجع / جمهرة أنساب العرب لابن حزم. وفجر الأندلس للدكتور مؤنس ج / 1 ونفح الطيب للمقري ج 1 ص 277 ط. 1.
ويراجع / تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي، للدكتور حمودة و ص 69 ط 1.
وفي دواوين : ابن دراج، وابن زيدون، وابن حمديس ما يشير إلى نسبة المعتمد وأسرته للخميين.

25) زرياب المغني البغدادي (توفي 230 هـ ـ 845 م) راجع دراستنا عنه في أدباء بغداديون في الأندلس) ص / 40.
أبو علي القالي البغدادي (توفي 356 هـ ـ 967 م) راجع دراستنا عنه في (أدباء بغداديون في الأندلس) ص / 12.
صاعد الموصلي البغدادي (توفي بصقلية سنة 410) راجع دراستنا عنه في مجلة كلية الآداب ـ بغداد، العدد / 6 سنة 1963 ص 265.

والثـالث : نشر جوانب الروح الفكاهيـة، والأدب الظـريف، والشمائل البغدادية.

إن أول التـاركين لـلأنـدلس والمتـوجهين للشرق بعـد فتـح البـلاد هم (موسى بن نصير) و (طـارق بن زيـاد) و (مغيث الرومي). وكان هـؤلاء من قـادة البلاد البـارزين وأصحـاب النصيب البـارز من التضحيـات والفـداء. حملوا الغنائم والخيرات (القوطية) من اسبانيا قاصدين (دمشق). مركز الخلافة الإسلامية يومئذ عام 94 هـ المصادف (712 م). أيام الوليد بن عبد المـالـك وقد امتدت المدة الزمنية لطارق وموسى ابن نصير وهما القـائـدان البـارزان في الأندلس على الوجه التالي. كما دونها بقائمة الدكتور مؤنس[26].

1 ـ طارق ابن زياد :

من رجب 92 هـ = أبريل ـ مايو 711 م.

إلى رمضان 94 هـ = يونيو 713 م.

2 ـ موسى بن نصير :

من رمضان 93 هـ = يونيو 712 م.

إلى صفر 95 هـ = أكتوبر ـ نوفمبر 713 م.

علاقة الأندلس بالمشرق :

هذا وفي غضون التاريخ الأندلسي، نجد بأن الديار الأندلسية لم تقطع الصلة يوما بديار المشرق عامة، والشام والحجاز ومصر والعراق خاصة. فمنـذ وطئت جيوش العرب أرضها عام 92 هـ / 711 م لم تنس يوما أنها وليـدة

26) راجع فجر الأندلس ط. 1 ص : 612.

تلك الأم التي أرضعتها من نمير لغتها ومنحتها قبسا من روح دينها، وأعطتها جانبا من حنان أمومتها. لأن الأندلسيين هم مشارقة في السمات والشمائل وهم عرب في أغلبيتهم الساحقة[27]. إلا أن زيهم قد أصابه التبدل ولسانهم قد حلت به الامالة، والرطانة العامية ولكنهم ظلوا أوفياء أمناء على لغة القرآن الكريم. يصونونها، ويحترمونها، ويقدسونها ويتدارسونها ويؤلفون فيها شرحا وتفسيرا، وبيانا، وفقها. ونحن نورد بعض النماذج لما ورد في هذا الشأن كما جاء في كتاب النفح للمقري[28] قال : «أما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز. فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس، لأن هذا عنده في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه، ويحال عليه. وينبه قدره وذكره عند الناس. ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة».

ثم أردف قوله : «وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك.. سمة الفقيه عندهم جليلة، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق.

وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات».

---

27) في وصف بلاد الأندلس ـ الاجتماعية ـ وفي زي أهل تلك البلاد يراجع نفح الطيب ج 1 ص 206 و 207 وأول (الباب الأول) من الكتاب.

28) راجع نفح الطيب ـ ج 1 ص : 205 وما بعدها.

أما عن اهتمامهم بالنحو، وانحراف كلامهم فقال[29] : «والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى أنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يزاد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه».

مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام (الشلوبيني أبي علي[30] المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التعريف الذي في لسانه، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مرعى عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل عندهم وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل. «ولما استقام عودهم، ونضجت مداركهم، وتوسعت آفاق معارفهم حاولوا الاستقلال بالأدب بالنسب، وسرد المكارم ورفع القيود التي كانت تشد بماضيهم القديم وأصلهم الكريم»، معتمدين على الحاضر، ومشيدين للمستقبل وهم بهذا قد اضعفوا مقاومتهم تجاه عدوهم، وكشفوا عن أخطائهم عند

---

29) راجع المصدر السابق ص 206.

30) هذا نص مهم لدراسة الحياة الفكرية والأدبية في الأندلس ولكن انحراف اللسان عند بعض علمائهم ليس عموما فيهم. ولعل في اختلاطهم بالأمم الأخرى وازدواجية اللغة وتعدد اللهجة في محيطهم سبب في هذا الانحراف.

خصومهم. ولقد اشار الدكتور الأستاذ أحمد هيكل في كتابه[31] قولـه : «على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية، ذلك الإحسـاس الـذي يكاد يكون مركب بنقص عـانـاه الأنـدلسيـون لسبب وضعهم من المشـارقـة فـالمشارقـة كانوا في مهد الثقـافـة الإسلاميـة وبلادهم منبع اللغـة العربيـة، وأقاليمها مصدر الاتجاهات الأدبيـة. فكل شيء عقيـدي أو عقلي أو فني يظهر أولا في المشرق ويأخذ منـه المشـارقـة مـا يشـاؤون، ثم يفـد بعـد ذلـك إلى الأندلس، ويورد الدكتور هيكل بعض النقاط الأخرى التي جعلتهم يتميزون على أهل المشرق ومنهـا : تعصبهم للـدين وتعصبهم للنحو، وتعصبهم لـلأدب التقليدي. وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمـام المشارقـة كان يـدفعهم إلى كل ما يلاحظ في حياتهم من تقليدية في الدين والثقافة والأدب. «وعلل وجود البيئة النائية، والأصل المولـد، والمجتمع المختلـط، والرخـاء الاقتصادي، والتطـور الـزراعي، والصنـاعي، والتجـاري، في أنهـا سبب في اقبـالهم على الثقافة وتعلقهم بـالأدب، واقتنـائهم للكتب، ومن هنـا كان المجتمع الأنـدلسي مجتمعا مثقفا متأدبا»[32].

أمـا في مجـال الانتفـاضـات السيـاسيـة، وتعلـق بعض الأنـدلسيين بالعباسيين أبناء العراق فيبدو ذلك في ثورة (العلاء بن مغيث اليحصبي) عام 146 هـ المصادف سنة 763 م. ضد (عبد الرحمن الـداخل) وقـد حمل الثـائر

31) راجع الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ط. 2 ص 62 وما بعـدهـا. كما يراجع / الذخيرة لابن بسام ج 1 القسم الأول. وقلائـد العقيـان لابن خـاقـان ـ ومطمح الأنفس كذلك. والمغرب في حلى المغرب ـ لابن سعيد.

32) راجع كتـاب الـدكتور هيكل، المصـدر السـابق ص 62 ومـا بعـدهـا و ص 64. وقـد اعتمـد المؤلف على المؤرخ الإسباني بلنشيا Palancia في تاريخه (اسبانيا المسلمة) ص 136 الصادر في (برشلونة) سنة 1945.

اليحصبي، الراية العباسية، وحارب (الداخل). غير أن هـذه الثورة لم يتحقق نجاحها، وقتل قـائـدهـا، وأرسلت (الرايـة السوداء) مع رؤوس الثـائرين إلى سرادق (المنصـور) العبـاسي، وهـو يحـج في مكـة المكرمـة. وخص صـــاحـب (النفح) هذا الموضوع بحـديث طريف، وأشـار فيـه إلى مقـارنـة المؤرخ (ابن حيان) الأندلسي[33] بين (المنصور العباسي) و (الداخل الأموي). وغالى بعض المؤرخين المتقـدمين وتبعهم من المتـأخرين بخـوف (المنصـور) وارتيـاعـه من (الداخل) بعـد فشل ثورة اليحصبي وأورد قول الخليفـة العبـاسي «الحمـد للـه وقطع البر والبحر، وأقام ملكا قد ادبر وحده».

ولم تكن النفوس الأندلسية، بناسية أصلها المشرقي، فقـد ظل الـدعـاء للخليفة العباسي قـائمـا إلى أن حصلت ثورة (العلاء اليحصبي) ضـد الـداخل الأموي ولم يجرأ الحكام الأندلسيون بتسميـة أنفسهم بـأمراء المؤمنين. والتلقب بألقاب الخلافة إلى أن ضعف الجانب العبـاسي السيـاسي، وقـام عبـد الرحمن النـاصر الأندلسي (300 هـ ـ 350 هـ) المصادف (912 ـ 961 م).

ويقابل هذا عنفوان الخلافة العباسية وقوة خلفائها من البنـاة الأوائل أمثال (المنصور) و (الرشيد) و (المأمون). وقـد أورد (المقري) حـديثـا طريفـا عن (هرون الرشيـد) قـال : «لمـا حضر بين يـديـه بعض أهـل المغرب قـال الرشيد : يقال إن الدنيا بمثابة طائر ذنبه المغرب. فقال الرجل : صدقوا يـا

---

33) راجع تاريخ الأندلس السياسي والاجتماعي ـ للـدكتور حودة ص : 120 ونفح الطيب ج : 1 (ص 310 وما بعدها.

ونحن نميل إلى القول بأن في (حكاية المنصور والداخل) وخوف الأول العبـاسي ـ من الأموي ـ جانبا من المغالات والدعاية الأندلسية.

أمير المؤمنين، وإنه (طاووس) فضحك أمير المؤمنين الرشيد، وتعجب من سرعة جواب الرجل وانتصاره لقطره..»[34].

إن مراكز الحضارة العربية كما أورد المستشرق (اغناطيوس كراتشكوفسكي) كانت في الأندلس محصورة في الجنوب وكانت (قرطبة) أول مراكزها وتكاد تكون أمجدها. يقابل ذلك (بغداد) وما فيها من مفاخر علمية، وثقافية، وحضارية. قال الدكتور الأستاذ (أحمد عبد الستار الجواري) في كتابه (الشعر في بغداد) : «وصفوة القول أنه اجتمع ببغداد في تلك الأيام مالم يجتمع بغيرها من المدن فكان جمالها الطبيعي وعناصر الحضارة التي توافدت عليها من مناطق شتى ووفرة الأموال والأرزاق فيها كل أولئك مكن لها أن تصبح مركز العلم والأدب والحضارة فوق أنها كانت مركز الخلافة الإسلامية في أزهى عصورها وأنضر أيامها»[35].

إن أبناء العروبة من الفاتحين الأولين، كانوا يحملون في قلوبهم وفي جنبات صدورهم، وفي طيات أذهانهم الثقافة العربية القديمة بأشعارها الجاهلية والإسلامية، وفي هذه الأشعار القصائد التي تشيد بالعزة والكرامة، وبالفتوحات والغزوات وبالبطولة والفروسية وقال عنهم المستشرق الروسي (اغناطيوس) :

34) راجع / نفح الطيب ج 1 (ص 228 ـ ويطلق المشارقة غالبا على أبناء الأندلس باسم (المغاربة) ـ لأن قطر الأندلس يعتبرونه جزءا من المغرب ـ وقد سموا (ابن سعيد) الغرناطي مثلا بـ (المغربي) وفي إيراد هذه الحكاية طرافة ومعنى.

35) راجع الشعر في بغداد ـ حتى نهاية القرن الثالث الهجري ـ للدكتور أحمد عبد الستار الجواري ط. 1 ص ، 46.
كما يراجع دراسات في تاريخ الأدب العربي ـ للمستشرق الروسي اغناطيوس كراتشكوفسكي ـ ص 50 و 72 وما بعدها.

«فالعرب عند فتوحاتهم حملوا معهم إلى كل مكان ما كانوا يتناقلونه من شعر جاهلي وكانوا في كل مكان ينشؤون شعرا محليا يمكن الحكم على طبيعته إذا قسناه على حركات الفتح في الأقطار العربية الأخرى التي وصلت إلينا عنها معلومات أكثر»(36).

وهو يشير في حديثه عن (انتقال العلم والشعر إلى أوربا) وعن تقليد (اسبانيا العربية) أي (الأندلس) بالخلافة العباسية حيث قال : «إن وحدة اللغة العربية والثقافية في جميع البلدان العربية أثرت تأثيرا شديدا في الأدب العربية ومعانيها وأغراضها وأساليبها فكانت هذه الآداب متشابهة في شرق الخلافة وغربها ففي (اسبانيا العربية) كانوا يقلدون آداب الخلافة العباسية إلى حد طمست معه النزعة المحلية حتى قال أحد نقاد العراق في القرن العاشر بعد أن اطلع على (العقد الفريد) لابن عبد ربه «هذه بضاعتنا ردت إلينا»(37).

بلاد وأوطان :

قمنا بإحصائية صغيرة استطعنا فيها أن نتبين ما وصلت إليه أقدام الأندلسيين، والبلاد التي حلوا فيها، والأوطان التي سكنوها. وهي تختلف طابعا، ولغة، ومناخا، وحياة اجتماعية، عن بلادهم ومسقط رؤوسهم :

---

36) راجع دراسات في تاريخ الأدب العربي ص 98.

37) راجع المصدر السابق ص 72 ـ والقول عن كتاب (ابن عبد ربه) المتوفى (328 هـ) إنما هو (للصاحب بن عباد) يوم أن وصل إليه العقد واستشهد بالآية الكريمة.
راجع عن ابن عبد ربه والشعر الأندلسي والتقليد لشعر المحدثين المشارقة، تاريخ الأدب الأندلسي.
ـ عصر سيادة قرطبة ـ للأستاذ الباحث الدكتور إحسان عباس ط. 1 ص 93.

من قارة أفريقيا :

بلاد المغرب
تونس
تلسان
مصر
الأسكندرية
السودان
مالي
طرابلس
القيروان
سبتة

من قارة أوربا :

البلغار
الصرب
الفولجا
البلقان
سردينا
صقلية
النمسا
هنغاريا

من آسيا :

مكة المكرمة	اصبهان	بلخ
المدينة المنورة	فارس	بخارى
جدة	اليمن	سمرقند
بيت المقدس	عدن	الصين
العريش	نيسابور	الهند
دمشق	سجستان	هراة
حلب	غزة	مرو
حماه	عسقلان	خوارزم

حمص	طبرية	مازندران
بغداد	بيروت	ارجان
الموصل	صيدا	سنجار
البصرة	صور	تلعفور
الكوفة	الرملة	الخزر
واسط	قيسارية	دينور
اربل	الفرما	
الاهواز	القلزم	
خراسان	زبيد	

ومن الطرائف المروية عن (أبي حامد الغرناطي) المتوفى بدمشق سنة 565 هـ المصادف سنة 1170 م) الذي وضع اللبنة الأولى في تاريخ الأدب الجغرافي كما يقول المستشرق اغناطيوس كراتشكوفسكي في مؤلفه الشامل[38] بأن ولده (حامد قد اقام في هنغاريا) وتزوج بسيدتين من أهل تلك البلاد واقام بها نهائيا، وهو يمتلك منزلا.

إن تربة الوطن العربي ضمت في حناياها أجداثا طاهرة من كبار علماء الأندلس. والذي يقرأ ويراجع كتب الرجال والتراجم يجد أسماء متعددة. ضمت أجسامها، الأضرحة والقبور، في (بغداد) و (الموصل)

---

38) راجع تاريخ الأدب الجغرافي ج 1 ص 295 و 296. و (أبو حامد الغرناطي) الأندلسي مؤلف كتاب (تحفة الألباب ونخبة الاعجاب) ترجمة (فيران) المستشرق الفرنسي. وقد تم تصنيف الكتاب (بالموصل) من مدن العراق الشهيرة، بتوصية من العالم الصوفي (الاربلي) وقد اشار في كتابه هذا عن النفط)..

و (البصرة) و (اربل) و (واسط) و (الكوفة). ناهيك بما دفن منهم في (مصر) و (فلسطين) و (الأردن) و (اليمن) و (الحجاز) و (القدس) وغيرها من الأقطار المجاورة للبلاد العربية.

وكان بعضهم يؤلف كتبه في العراق. كما فعل (الحميدي) في تأليفه لكتابه (جذوة المقتبس)[39] و (ابن دحية في كتابه (النبراس) في تاريخ خلفاء بني العباس[40] وغيرهما من المؤلفين..

ولقد بلغ عدد شيوخ (وليد بن بكر بن مخلد بن زياد العمري) الأندلسي السرقسطي ـ ألف (10) شيخ ومحدث وفقيه. لقيهم في رحلته وتوفي بدينور سنة 392 هـ. وألف كتاب (الوجازة في صحة القول بالإجازة). وروى عنه أبو ذر الهروي، وعبد الغني الحافظ «وكفاه فخرا بهذين الإمامين العظيمين رحم الله تعالى الجميع»[41] وكانت لهم مناظرات، ومحاضرات، ومراسلات، مع كر الشعراء العراقيين، والأدباء المعروفين (فابن سعيد المغربي) الغرناطي المتوفى بتونس سنة 685 دخل (بغداد) بعد سنة ثمان وأربعين وستمائة (سنة 648 هـ). لقي في حضرة (السلطان الناصر الأيوبي الذي ألف له (المغرب في حلى المغرب) و (المشرق في حلى المشرق) والذي كان يلقبه (بالبلبل، لقي الشهاب التلعفري، وابن نجيم الموصلي، والشرف بين بن سليمان الاربلي[42].

39) راجع دراستنا عن (الحميدي) وكتابه (الجذوة) في العدد / 8 من مجلة كلية الآداب / بغداد ولا يغرب عن بالنا كتاب (المغرب في محاسن أهل المغرب) لليسع بن عيسى الغافقي المتوفى في القاهرة سنة 575 حيث ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي.

40) راجع النبراس ـ الذي حققه ونشره الأستاذ المحامي عباس العزاوي ـ بغداد ط 1 / سنة 1946.

41) راجع نفح الطيب ج 3 ص : 140 ط. 1.

42) راجع نفع الطيب ج 3 ص 38 وما بعدها.

وكان بعضهم يتكلم بـألسنـة شتى، وبلغـات[43] ولهجـات مختلفـة كأبي حي الشاعر الفقيـه المفسر العـالم (الغرنـاطي). وأبي بكر محمـد ابن عبـد اللـه النبتي. الـذي سـاح في ارض ـ كا ترجمـه (المقري) والبعض منهم تولى المراكز العلمية الكبيرة والمناصب المرموقة. كأبي مرن عبـد الملـك ابن زهر الأيـادي. الذي تولى ريـاسـة الطب في (بغـداد). ثم بمصر ثم القيروان ـ وكانحفـظ شعر ذي الرمـة. وتـوفي هـذا العبقري في بلـدة (دانيـة) الأنـدلسيـة سنـة 595 هـ[44].

ولقـد بلـغ شغفهم بجمع الكتب والمؤلفـات النفيسـة، عنـد قيـاسهم برحلاتهم العلمية أن أبا عبد الله محمد بن عبد الله السلمي (المرسي) من القرن السـادس الهجري «كانت لـه كتب في البلاد التي ينتقـل إليهـا بحيث أنـه لا يستصحب كتبا في سفره اكتفـاء بمـا لـه من الكتب في البلـد الـذي يسـافر إليه[45].

هذا وليتصور الإنسـان اليوم كم هي المسـافـات الطويلـة التي قطعهـا أولئـك العلمـاء، وكم هي اروب الخطرة التي سلكهـا أولئـك البـاحثين عن الحقيقة.. فالمرسي صاحب تلك الكتب، قـدم من مينـاء مرسيـة) ووصل إلى نيسابور، وهراة ومرو وخراسان...

وذكر مقدم (رحلة ابن بنيامين التطيلي) في مقدمته نقلا عن المقـدسي بأن البلاد الإسلامية ف تلك العصور لم تكن تقطع من شرقيهـا إلى غربيهـا بأقل من عشرة أشهر..

---

43) راجع نفح الطيب ج 3 ص 12. نشر مختـارات من شعره الزميـل الأستـاذ الـدكتـور أحمـد مطلوب 1966.

44) راجع المصـدر السـابق ج 3 ص 13 ومن الذين درسوا بالمدرسة (النظامية) أبو عبد اللـه محمـد بن عبد الله السلمي (المرسي) المولود بمرسية (سنة 570).

45) راجع نفح الطيب ج 3 ص 10.

ولا يخفى على المدرك بعد المسافات، ونأى الحدود، بين الممالك الإسلامية في عصورهم السحيقة. وهم لم يعتمدوا على أب، ولا ثروة، وجاه ونسب. بل تراهم يشتغلون ويعملون ويسهرون، كما فعل العالم الأندلسي الشهير (الباجي) أبو الوليد. في بغداد. إذ كان يدرس نهارا ويحرس ليلا وكما عمل (أبو بكر محمد بن أحمد المالقي الخزرجي) الذي كان يخيط الثياب، وهو ابن نجار فقير[46]. وقد توفي سنة 651 هـ وكان أستاذه في القراءات السبع والنحو (الشلوبيني) المتوفى سنة 644 هـ.

ومن أولئك أيضا من ضحى بنفسه، وقتل شهيدا غريبا كما قتل (أبو عبد الله محمد بن سليمان الزهري الاشبيلي) الذي قدم بغداد سنة 590 هـ، وعمره ثلاثون سنة وذهب إلى اصبهان وبلاد الجبل وقتلته أيدي التتار السفاحة السفاكة في عام 617 هـ.

وقتلت هذه الأيدي الآثمة (أبا عبد الله محمد بن عبد الله ابن أحمد بن علي بن سعيد (العنسي) أبو القاسم الغرناطي) ـ فقد قتل في اصبهان حين استولى عليها التتار قبل سنة 630 هـ[47].

وكان شعارهم في طلب العلم وحفظه هو قول (أبي عمرو الداني) عثمان بن سعيد الأموي القرطبي، قال : «ما رأيت شيئا قط إلا كتبته، ولا كتبته إلا حفظته ولا حفظته فنسيته»[48].

---

46) ج 2 ص 411.

47) راجع نفح الطيب ج 2 ص 413 وج 3 ص 8.

48) راجع نفح الطيب ج 2 ص 335.

منزلة الأندلسيين عند المشارقة وألقابهم :

من زار مصر ووصل الأسكندرية يجد آثارا للأندلسيين، وأسماء لقبورهم. وتطالعه أسماء (المرسي)[49] و (ابن جبير) كما حققه المرحوم البحاثة (شيخ العروبة) وإذ انعطف نحو (دمشق) لوجد قبر الصوفي الكبير (محي الدين بن عربي) عند سفح (جبل قاسيون) يجاوره فقيه اللغة العربية ومن أئمتها الكبار الذي لازال علمه يدرس (في ألفيته) إلى اليوم في المشارق والمغارب، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن مالك الجياني المالكي المولود سنة 600 هـ. والمتوفى بدمشق سنة 673 هـ. ومن حقق في أماكن (بغداد) و (الموصل) لوجد مدافن (الحميدي) والأزدي (القرطبي)[50] وغيرهم.. وكانت لأبناء الأندلس منزلة محترمة عند خلفاء وملوك وسلاطين المسلمين في البلاد الشرقية وفي المجتمعات العلمية، ولذا الأئمة الكبار.

وهذه أخبار الإمام مالك (رض) والإمام أحمد بن حنبل (رض) والإمام الشافعي (رض) واجتماعهم بتلامذتهم الأندلسيين. وقد أخذوا رئاسة العلم في (المدينة المنورة) و (مكة المكرمة) و (دمشق) و (حلب) و (القاهرة) وبعض مدن (المغرب) و (اليمن). وأصبحوا أئمة في كبريات المساجد، والج وامع والمدارس، كالنظامية، والمستنصرية في العراق والعادلية في دمشق.

---

49) المرسي هو (أحمد بن عمر) أبو العباس. تلميذ أبي الحسن الشاذلي توفي بالاسكندرية سنة 686 وله كرامات مشهورة عندهم. راجع / النفح ج 2 ص 389 (أما ابن جبير) فقد مرت علينا ترجمته.

50) الأزدي القرطبي أبو بكر يحي بن سعيدون الملقب بضياء الدين المتوفى بالموصل سنة 567 هـ.

ذكر (المقري) أن المؤرخ (شمس الدين) ابن (خلكان) كان يشيع (جمال الدين) ابن (مالك) الأندلسي إلى بيته تعظيما له[51].

وأطلقت على بعضهم ألقاب وكنى، متعددة جمعنا بعضها، ومن هذه :
(أثير الدين) ـ لابن حيان النحوي الغرناطي.

(جمال الدين) ـ لابن مالك النحوي الجياني.
(رضي الدين) ـ لأبي عبد الله محمد الأنصاري.
(رشيد الدين) ـ لأبي محمد عيسى بن سليمان الرعيني.
و (البلبل) ـ لابن سعيد المغربي[52].

انفتاح الأندلس لثقافة المشرق :

كانت الفترة التي سبقت قيام الحكم الأموي في الأندلس والتي امتدت من سنة 92 هـ إلى سنة 138 هـ فترة انتقال واضطراب، ومشاحنات، ضحاياها أكثر من فوائدها. وفي مهزلة مقتل (عبد العزيز بن موسى بن نصير) ومأساة وضع (الولاة) ما يعطينا صورة جلية لهذا العصر القصير الزمن المتضارب النزعات القبلية من (قيسية) و (يمانية)، ومن (عرب) و (بربر) ومن شاميين و (بلديين) ومن (موالي) و (مولدين) وغيرهم، من مختلف

51) راجع نفح الطيب ج 2 ص 421.
52) راجع نفح الطيب ج 3 ص 136، 141 و ج 3 ص 29 هذا ولا يخفى بأن الأندلسيين كانوا يلقبون ويكنون كبار شعرائهم وكتابهم بألقاب مشهورة في المشرق، كبحتري المغرب، ومتنبي المغرب، وصنوبري المغرب، ولم يكتفوا بذلك بل أطلقوا أسماء المدن والأماكن بأسماء شرقية.

الأجناس واللغات[53]. يضاف إلى ذلك حروب بين الفاتحين المسلمين والاسبان المسيحيين[54]، ونظرة البغضاء والخوف من قبل سكان البلاد الأصليين. ويصفه الدكتور (هيكل) بأنه مجتمع «مفكك»..

أما عن شؤون المعرفة والثقافة في هذا الدور فلم يكن إلا بذور ضعيفة، وغرسات صغيرة. يمثلها التابعون والصحابة. أمثال موسى بن نصير، وعلي بن رباح، وحنش الصنعاني وعباس بن عقبة الفهري. وكانوا بمثابة الهداة للجنود، والمرشدين لهم في قضايا الدين، وشؤون الأحكام. وتوزيع المغانم، وتحديد الضرائب، وتخطيط المساجد، وتفقيه الناس.

ويميل (المقري) و (الأستاذ هيكل) الذي اعتمد عليه في أن هؤلاء أسسوا أوائل المدارس الأندلسية. حين أنشئت أوائلها في قرطبة، واشبيلية. وأن عنايتهم كانت متوجهة نحو تدريس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبلغة القرآن والحديث»[55] وقد بعث (عمر بن عبد العزيز) (رض) الخليفة الأموي بدمشق بعشرة من التابعين إلى افريقية لتفقيه الناس[56].

---

53) كان سكان الأندلس مكونين من عناصر شتى. الأصليون هم المسمون (بعجم الأندلس) والوافدون من المشرق خاصة يسمون باسم البلديين وهم جماعة (موسى بن نصير) ومن جاء بعدهم يسمون باسم (الشاميين). راجع الأدب الأندلسي ـ للدكتور أحمد هيكل ط. 37 وانظر كذلك أخبار مجموعة وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية.

54) راجع ص 68 من المصدر السابق ـ للدكتور هيكل.

55) راجع الدكتور هيكل ص 70 وما بعدها، ونفح الطيب ج 2 ص 51.

56) راجع المصدر السابق ص 71 ورياض النفوس للمالكي ج 1 ص 64. كما أشار (صاعد الأندلسي) في كتابه (طبقات الأمم) إلى اهتمام أهل الأندلس لعلوم الدين واللغة حتى توطيد حكم الأمويين. راجع المصدر السابق هامش ص 71 وصاعد ص 62.

ومن الوافدين على الأندلس في حياة حكم الأوائل من الولاة، الشاعر (أبو الأجرب جعونة بن الصمة) الهجاء. وهو عندهم بمنزلة الشاعرين (جرير) و (الفرزدق). وقد سأل أبو نواس بعد مدة من الزمن عنه وثمّن شعره عندما اجتمع بالشاعر الأندلسي (عباس بن ناصح).

ونحن لم نر من شعره الآن ما يدل على هذه المنزلة..

وهناك الشاعر المسمى عندهم بـ (عنترة الأندلس) وهو الوالي (أبو الخطار حسام بن ضرار) القحطاني دخل الأندلس سنة 125 هـ ـ 742 م. وكان شاعرا فارسا[57]. وفي مأساة تاريخ الأندلس ضاعت منا كثير من النصوص والأخبار المتعلقة بهذه الفترة.

أما عن خصائص ومميزات شعر هذا الدور «فليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس، شعر محافظ جاء مع الفتح وبعده مماثل لشعر أعلام الشعر الأموي، يعني بجزالة اللفظ، وفخامة العبارة، مع بساطة الفكرة، وتدني الخيال. يميل إلى البداوة. ويقترب إلى الخشونة. لبداوة الناس، وعصبياتهم القبلية، وقلة حضارتهم، وسذاجة ثقافتهم[58].

أما ميدان (النثر) فلا يختلف عن شقيقه الشعر، وإن تميز عنه بالإيجاز، وقوة العبارة، وقلة المقدمات الطويلة، والألقاب العديدة ومن كتابه وناثريه وخطبائه : موسى بن نصير، وطارق بن زياد، ويوسف الفهري، والكاتبان خالد بن يزيد، وأمية بن زيد[59].

---

57) راجع هيكل ص 72 و 73 ـ وجذوة المقتبس ص 188 وبغية الملتمس أرجم برقم 686 وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص 18، 19.

58) راجع : هيكل ص 75.

59) راجع الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور هيكل ص 77 وما بعدها.

أما الفترة الثانية ـ وهي فترة عهد الإمارة ـ التي امتدت من دخول (الداخل) عبد الرحمن إلى قيام الناصر من سنة 138 هـ ـ إلى سنة 300 هـ المصادف سنة 756 م ـ 912 م فقد تميزت بالهدوء والاستقرار والقضاء على الارستقراطية، والعصبية القبلية وبالإنشاء والتعمير، وبناء المسجد الجامع الكبير بقرطبة، وتشييد المباني الواسعة، والقصور الشامخة، والحدائق الفيحاء بالإضافة إلى بروز شخصية المرأة، أدبية، ومغنية، وحليلة، مع زيادة عدد اللاجئين من الأمويين المضطهدين من العباسيين، أو العناصر الناقمة والثائرة في المدينة، والعراق وسورية ومصر، على الحكمين العباسي والفاطمي ولم تشوه صفحة هذا العصر إلا ثورات المولدين وثورة (الربض) على الحكم بن هشام الذي حكم من سنة 180 هـ 206 هـ المصادف (796 هـ ـ 822 م)[60] وامتازت في عهد الداخل بعودة الطلبة الأندلسيين من المشرق، وكانوا هؤلاء يمثلون الفوج الأول من الناهلين من ثقافة البلاد المشرقية، وخاصة من حملة مذهب الإمام مالك (رض) أمام دار الهجرة في المدينة المنورة وكتابه الموطأ ومنهم :

1 ـ الغازي قيس، 2 ـ أبو موس الهواري، 3 ـ عبد المالك بن حبيب، 4 ـ يحي الليثي، 5 ـ زياد بن عبد الرحمن «وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية»[61] وبفضل هؤلاء الطلبة (انتشر المذهب المالكي) وتلاشى مذهب الإمام عبد الرحمن الأوزاعي (رض) الذي دخل مع الطلائع الأولى من الفاتحين الشاميين خاصة لأن الإمام

60) راجع المصدر السابق ص 86 وما بعدها.

61) راجع تاريخ الأدب الأندلسي ـ لهيكل ص 90 وما بعدها. ونفح الطيب للمقري ج 2 ص 336.

الأوزاعي منهم وهم منه. وبعناية ورعاية (الداخل) كثر أتباع الإمام مالك وبهمة تلامذته وعلى رأسهم (يحي بن يحي الليثي). ووافق هذا المذهب طبيعة أبناء الأندلس الذين لا يرغبون التفريع، والفلسفة، والكارهين للمنطق، والمتمسكين بأهذاب النصوص[62].

أما الشعر : ـ فكان يحدو خط المشرق في ملامحه الأولى وله (الاتجاه المحافظ) القديم. ويمثله الشاعر (أبو المخشي)[63] والخليفة (الحكم بن هشام) ـ وجده (عبد الرحمن الداخل و (عباس بن ناصح)[64] و (حسانة التميمية)[65] وبكر بن عيسى وأبو الحسين التيمي، وغريب الطليطلي، وابن هبيرة[66].

ويعزى بعض الناخبين ـ محافظتهم الشعرية في طرقهم للموضوعات التقليدية كالفخر، والحماسة، والمدح، والهجاء، والغزل، وسيرهم على الأسلوب القديم في صور الشعر الجاهلي في ذكر الصحاري والنوق، والكثبان، والجاذر، إلى تمسكهم بأهداب تراث الآباء والأجداد من الأوائل. والبيئة العربية، كما يقول الأستاذ (هيكل) في الأندلس هي أشبه بالبيئة الشرقية ـ عند تكوينها

62) راجع المصدر السابق ص 92 وما بعدها. و (تاريخ ابن الفرضي) ج 1 ص 181.

63) أبو المخشي ـ الشاعر هو عاصم بن زيد العبادي ويتصل نسبه بنصارى الحيرة في العراق. وقد جرت عليه مأساة بسمل عينيه لأنه مدح سليمان ابن عبد الرحمن (الداخل) اعتبره أخوه (هشام) تعريضا به، فسمل عينيه و (قطع قطعة من لسانه) وهشام حكم من (172 هـ ـ 180 هـ).

64) عباس بن ناصح ـ شاعر ثقفي من الجزيرة الخضراء. زار المشرق مع والده ولاق (أبا نواس) الشاعر البغدادي المعروف.

65) حسانة التميمية الشاعرة : بنت الحسين الشاعر من مدينة البيرة. وفدت على الحكم بن هشام (180 هـ ـ 206 هـ).

66) راجع هيكل ص 125 والدكتور إحسان في كتابه عن الأندلس ص : 33 وما بعدها.

الأول. وقد استشهد بحالة الأدب الأمريكي اللاتيني، وصلته باسبانية اليوم، لما فيه من رواسب اسبانية قديمة، إذا جردناه منها لم تبق له قيمة»[67].

أما خير شاعر يمثل الاتجاه الأندلسي في (عصر الإمارة) فهو (أبو المخشي) له سمات أندلسية خاصة في الشعر، مع محافظة على الطابع المشرقي المحافظ، والذي ظل مسيطرا على الحياة الشعرية في الأندلس لفترة طويلة[68].

ولم يتغير طابع (النثر) في عصر الإمارة عما هو عليه في المشرق من حيث المضمون والصورة، والخصائص. ومن أشهر الناثرين كتابا وخطباء، عبد الرحمن الداخل والحكم الربضي، من الأمراء الخطباء. وفطيس بن عيسى، وخطاب بن يزيد، وحجاج العقيلي من الكتاب[69].

أما (التجديد) وحركته في الأندلس في نواحي الشعر والنثر فقد ظهرت نشطة قوية، عاملة باحثة في حركة دفعها اتصال الأندلسيين بالمشرق، وزيارة المشارقة من العلماء للمغرب والأندلس، ومن أشهر هؤلاء النقلة المشرقيين :

ابراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي، الذي لقي الجاحظ، والمبرد، وثعلبا، وابن قتيبة من الأدباء، وأبا تمام والبحتري ودعبلا وابن الحكم من الشعراء، ونقل أشعارهم. وسليمان بن وهب وأحمد ابن طاهر من الكتاب وزار القيروان والمغرب ووفد على الأمير محمد الأموي في قرطبة (سنة

---

67) راجع هيكل ص 99.

68) راجع تاريخ الأدب الأندلسي - الدكتور هيكل ص 117 والدكتور إحسان عباس ص 34.

69) راجع المصدر السابق ص 126 وما بعدها.

238 هـ ـ 273 هـ) المصادف (852 ـ 886 م)[70] ثم جاءت الشخصيات البارزة من العراق، حاملة نصوص الأدب الجاهلي، والإسلامي، والعباسي، ومظاهر الحياة الاجتماعية وترفها ومدنيتها ـ متمثلة في شخص (أبي علي القالي) البغدادي و (زرياب البغدادي) الذي وصلها سنة 822 م ـ ومات فيها سنة 857. وخلف عائلة مرموقة الجانب، كريمة الشخصية، سعيدة الحياة، أثرت في الفن والشعر، وأطوار المعيشة وطرقها، والغناء ومدرسته[71].

الأندلسيون الأوائل، والعلوم والآداب التي ادخلوها ونقلوها لبلادهم :

لا نستطيع أن نحصي أسماء جميع من زار المشرق، وتعلم في مدارسه، ونقل آثاره العلمية والأدبية، في هذه الدراسة، بل سنفرد بحثا مطولا، أو كتابا مستقلا. غير أننا الآن نقدم البارزين منهم ونذكر الجانب المهم من الثقافة التي حملوها واختص كل واحد بها، واهتم بنقلها.

1 ـ حملة العلوم الشرعية :

أ ـ الفقه والحديث :

أول من ادخل مذهب الإمام مالك (رض) إلى الأندلس هما يحيى ابن يحيى الليثي، وزياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون[72]. كما أن

70) راجع الدكتور هيكل ص 140 وما بعدها.

71) راجع دراستنا عن زرياب في (أدباء بغداديون في الأندلس) والدكتور هيكل ص 136 وما بعدها والدكتور إحسان عباس ص 17 و 38 وما بعدها. وسلسلة محاضرات ـ في أدب الأندلس وتاريخها للمستشرق. بروفنصال ط / ص 6 وما بعدها.

72) راجع نفح الطيب ج 2 ص 251 وهيكل ص 92 وما بعدها.

أول من ادخل كتاب (الموطأ) لمالك (رض) هو الغازي بن قيس في عهد عبد الرحمن الداخل[73] وكذلك أبو موسى الهواي، كما ادخل بقي بن مخلد فقه الإمام الشافعي (رض).

2 ـ حملة علوم اللغة :

أول من أدخل كتاب (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي هم ثابت النحوي وابن قاسم ومنذر بن سعيد البلوطي. وبقي بن مخلد ومحمد بن وضاح[74]. كما ادخل أبو موسى الهواري، مؤلفات الأصمعي وابن زيد الأنصاري، وتبعه في حمل هذه المؤلفات الغازي بن قيس. ثم جاء دور العالم الأندلسي (جودى النحوي) الذي لقي الكسائي والفراء. وغيرهما. وهو أول من أدخل كتاب الكسائي في النحو. ثم جاء دور (محمد بن موسى النحوي) الذي شرح كتاب سيبويه ونشره في الأندلس. وكذلك (حمدون النحوي) قال عنه (الزبيدي) في طبقاته : «وهو في العربية والغريب والنحو الغاية التي لا بعدها غاية»[75] وكان بعضهم يحفظ كتب اللغويين العراقيين ويشرحها أمثال (أبو الحسن مفرج بن مالك النحوي). الذي شرح كتاب (الكسائي). ومنهم من لازم كتاب (سيبويه) كأحمد ابن يوسف بن عمير، ومحمد بن موسى بن يزيد.

---

73) راجع طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ط 1 (ص 275 و 276).

74) راجع طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ط 1 (ص 240، 218) والدكتور إحسان عباس عن تاريخ الأدب الأندلسي ج 1.

75) راجع طبقات الزبيدي ص 256 ـ 357. وجودى النحوي توفي سنة 198 هـ.

3 ـ حملة القراءات :

أول من اهتم بدراسة القراءات (الغازي) بن قيس الذي شهد تأليف مالك للموطأ. وقد أدرك (نافع بن أبي نعيم)[76] وقرأ عليه وأول من أدخل قراءته. كما اشتهر أبو موسى الهواري في كتابه (القراءات) وكتابه في (تفسير القرآن)[77] وجاء أبو عبد الله محمد بن عبد الله وهذا اختص بقراءة (ورش) صاحب نافع المتوفي بمصر سنة 197 هـ.

ولا ننسى فضل (محمد بن عبد السلام الخشني) الذي رحل إلى المشرق وحمل علما كثيرا من اللغة والحديث والقراءات. وكذلك محمد ابن وضاح.

4 ـ حملة التاريخ :

كان العالم (بقي بن مخلد) من أول العلماء الأندلسيين الذين نقلوا للأندلس (كتاب التاريخ) لخليفة بن خياط[78] وكتابه (الطبقات). كما حمل معه كتاب (سيرة) عمر بن عبد العزيز للدورقي. أما المؤلفات التاريخية الأخرى كالطبري وابن الأثير فقد دخلت إليهم متأخرة، كما يبدو لنا من خلال ما ورد في كتاب (معجم أبي علي الصدفي) الذي وضعه ابن الآبار المتوفى 658 هـ.

---

76) راجع المصدر السابق وراجع ص 305 المصدر السابق وص 354 و 276.
و (نافع بن أبي نعيم) هـ وابن عبد الرحيم بن ابراهيم ـ أحد القراء السبعة توفي سنة 169 هـ.

77) راجع هامش المصدر السابق ص 276 والمصدر السابق ص 278 وراجع طبقات النحويين ص 289 و 290.

78) قام بتحقيق هذا الكتاب الأستاذ أكرم العمري كما نشره الأستاذ سهيل زكار في دمشق 1967.

5 ـ حملة الفلسفة والعلوم العقلية :

أول من ادخل وجلب معه (رسائل إخوان الصفا)[79] أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني. وقد توفي سنة 458 هـ. ويذكر صاحب طبقات الأمم : «أنه لا يعلم أحد ادخلها الأندلس قبله». ولا ننسى محمد ابن مسرة الذي حمل فكرة (المعتزلة) وبعض آثارهم ودراسته كانت في البصرة. وقد توفي سنة 318 هـ. وضع عنه المستشرق الإسباني الكبير (آسين بلاسيوس) Asin Palacios دراسة واسعة عميقة.

6 ـ حملة الفلك والزيجات [80]:

أول من أدخل كتاب الفلك والزيجات، هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد الجريطي المتوفى سنة 398 هـ[81] حيث عنى (بزيج) محمد بن موسى الخوارزمي.

7 ـ حملة الأدب : نثره وشعره :

النثر : دخل كتاب (الأغاني) المشهور لمؤلفه أبو الفرج الاصبهاني إلى مكتبة الخليفة (الحكم المستنصر) المتوفى 366 هـ. على يد أحد رسله من التجار الذين كان يرسلهم إلى خارج الأندلس لاقتناء النفائس المشرقية والمغربية. «ووصل إلى الديار الأندلسية قبل أن يشترى ويباع ويتداول بالمشرق»[82] إضافة إلى مؤلفات (ابن قتيبة) و (الجاحظ) و (المعرّي) وقد قام

(79) راجع طبقات الأمم ـ لصاعد الطليطلي ص 109 و 110 وطبقات الأطباء، ج 2 ص 40 ـ راجع الفكر الأندلسي ص 327 و 330.

(80) الزيج لغة (فارسية) : جدول يستدل به على حركات السيارات في السماء.

(81) راجع طبقات الأمم ـ لصاعد ص 100 وما بعدها.

(82) راجع المصدر السابق ص 66 ونفح الطيب ج 1 ص 181 والدكتور هيكل ص 207 وراجع مقالة السيد هاشم الصعان في مجلة (المثقف) البغدادية، العدد 23 سنة 1961 ص 32 وما بعدها.

(ابن السيد البطليوسي) في تأليف كتابه (الاقتضاب في شرح أدب الكتاب) وخالف في ذلك تسمية الكتاب الأول، والمسمى عندنا في المشرق (بأدب الكاتب).

حملة الدواوين الشعرية :

الشعر : ديوان أبي تمام

إن أول من أدخله إلى الأندلس هو عثمان ابن المثنى (أبو عبد الملك) رحل إلى المشرق فلقي (حبيب ابن أوس) الطائي فقرأ عليه شعره، وأدخله الأندلس ولقي جماعة هناك منهم (ابن الأعرابي) وقد توفي بعد عودته لبلاده الأندلس سنة 273 هـ[83].

ديوان البحتري :

وقد حمله معه إلى الأندلس ابراهيم بن أحمد الشيباني، المعروف (بأبي اليسر الرياضي)[84] في عصر الإمارة وكان أبو حفص عمر بن يوسف (الخيطي) يتعصب للبحتري.

ديوان دعبل الخزاعي :

وقد أدخله إلى الأندلس لأول مرة (أبو اليسر الرياضي) الذي مر علينا ذكره[85].

---

83) راجع طبقات النحويين ـ للزبيدي ط. ص 288 وقد ورد اسمه (أبو عثمان ابن المثنى النحوي) في كتاب هيكل ص 219 الذي اعتمد على (ابن الفرضي ترجمة 249 والمغرب ج ؟! ص 112.

84) راجع طبقات الأمم لصاعد الطليطلي وهيكل ص 140 و 219 وطبقات النحوي ص 330.

85) راجع حول ذلك : مجلة المعهد المصري ـ مدريد، الدكتور محمد علي مكي ج 1 و 2 ص 113، المجلد 2.

ديوان أبي نواس :

أول من اهتم بشعر أبي نواس وسعى إليه للعراق واتصل به هو عباس بن ناصح (الجزيري) نسبة إلى الجزيرة الخضراء، وله طريفة جرت بينه وبين الحسن بن هانئ (أبي نواس) وكيف استقبله الشاعر العراقي واعتنقه وضمه إلى صدره ونفسه. ولما عاد بشعر (النواسي) اتصل بالحكم بن هشام[86].

ديوان المتنبي :

كان شعر المتنبي عند الأندلسيين قد جاءهم متأخرا في الواقع، وقد شغلوا بأشعار أبي تمام وتلميذه البحتري. بينما نرى أن أبا الطيب مثلا قد اهتم بصاحب (العقد) ابن عبد ربه وأعجبه شعره ونشره[87]. وقد طلب (الناصر) لدين الله (300 ـ 350 هـ) استنساخه وتكليفه جماعة من العلماء والأدباء بدراسته.

ومن الذين نقلوه واهتموا به (زكريا بن الأشج[88] الجزائري المغربي الذي حمله للأندلس. (وأبو الوليد بن عسال الأندلسي) الذي لقي أبا الطيب المتنبي في مسجد عمرو بن العاص. وبعد حديث جرى بينهما قال المتنبي : ألا انشدني لمليح الأندلس، يعني ابن عبد ربه، فأنشد قوله[89] :

---

86) راجع طبقات النحويين للزبيدي ص 284 وما بعدها. وكتاب التشبيهات للكتاني ـ تحقيق الدكتور عباس ص 311، 315.

87) راجع الدكتور إحسان عباس ج ؟! ص 146 وقد اشار الدكتور عباس إلى حدوث الضجة بوصول ديوان المتنبي ولكنه لم يحدد الزمن ج 1 ص 94.

88) راجع هيكل ص. 220 وما بعدها. راجع فهرست ابن خير الإشبيلي ص 404 ط. 2.

89) راجع هيكل ص 256 وما بعدها. وابن الفرضي ترجمة 455 ومعجم الأدباء لياقوت ج 2 ص 222.

يـا لـؤلـؤ يسبي العقـول أنيقـا ورثـا بتقطيـع القلـوب رفيقـا
مـا ان رأيت ولا سمعت بمثلـه وردا يعـود من الحيـاء عقيقـا
وإذا نظرت إلى محـاسن وجهـه أبصرت وجهـك في سنـاه غريقـا
يـا من تقطـع خصره من ردفـه مـا بـال قلبـك لا يكـون رقيقـا

فلما أكمل الأندلسي إنشاده، استعاد المتنبي، ثم صفق بيده وقال : «ياابن عبد ربه، لقد يأتيك العراق حبوا»، ويشير الدكتور (هيكل) في كتابه إلى أن اهتمام (عصر الخلافة) أي زمن (الناصر) بشعر المتنبي، يعود إلى اهتمامهم (بالاتجاه المحافظ) الذي كان أبو الطيب من أشهر شعرائه يومذاك[90]. وكان للقاضي أبي بكر بن العربي الفضل في نشره وتدريسه نقلا عن التبريزي.

ديوان أبي العتاهية :

يظهر أن أول من اهتم بديوان أبي العتاهية وشرحه هو (يوسف ابن عبد البر) النمري القرطبي المتوفى بشاطبة سنة 463 هـ. وكان يميل رحمه الله إلى مذهب الإمام الشافعي (رض)[91] وذكر (ابن خير الاشبيلي) في (فهرسة شيوخه وما رواه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف) وهو المتوفى سنة 575 هـ قوله بأنه قد حدثه (بالمختار من شعر أبي العتاهية

---

90) راجع هيكل ص 220 راجع فهرست ابن خير الاشبيلي ص 416 و417 حيث ذكر عناية القاضي (ابن العربي) ودراسته لشرح شعر المتنبي وشرح أشعار الحماسة، ونشر إصلاح المنطق التي ألفها الخطيب زكريا يحي ابن علي التبريزي.
91) راجع (المغرب) لابن دحية الأندلسي ط. 1 ص 3 الهامش.

وأخباره) القاضي أبو بكر بن العربي، وبأن (أبا الحسن علي ابن أحمد بن العباس بن طلحة) كان قد اختارها وانتقاها[92].

وأشار (ابن خلكان) إلى أن ابن عبد البر قد جمع ديوان أبي العتاهية كما أن أبا عمر يوسف بن عبد البر هذا العالم الجليل أخذ من أشعار أبي العتاهية واستشهد بها في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)[93]. بقية الدواوين الشعرية والأشعار المشروحة.

الحقيقة أنه لو القينا نظرة فاحصة على تراث الأندلس وشخصياته، لكان لأبي علي القالي البغدادي) الفضل الذي لا ينكر، والعلم الذي لا يمكن أن يجحده مكابر من الأندلسيين أو غيرهم. لأنه يعتبر الرائد الأول من بناة المجد الثقافي العربي الأندلسي. لما نقله من آثار المشارقة للأندلسيين، وقام بنشره في أوساطهم العلمية والأدبية. فهو الأستاذ الذي أوجد لهم نظام الدراسة الجامعية المنظمة، وهو الذي كون لهم نظام الحلقات التثقيفية. ويمكننا أن نعتبره أندلسي الهوى عراقي المعرفة[94] ومن اطلع على (فهرسة ابن خير الاشبيلي) و (معجم أبي علي الصدفي) لابن الآبار ـ لفخر بثقافة هذا

---

92) راجع (فهرست ابن خير الاشبيلي ط 2 ص 414. واخبرني الزميل الأستاذ الدكتور علي الزبيدي 21 / 12 / 1967 وهو ممن اعتنى بأبي العتاهية وشعره ـ بأنه أشار إلى من حمل ديوان أبي العتاهية للأندلس ـ في مقدمة أطروحته (بالفرنسية) وذكر صاحب (الأعلام) الأستاذ الزركلي ج 1 ص 319 ط. 1 أن يوسف بن عبد البر جمع زهديات أبي العتاهية.

93) راجع كذلك ابن خلكان ج 2 ص 458 ومختصر جامع بيان العلم وفضله ط. 1 ص 35، 200.

94) راجع دراستنا عن أبي علي القالي في كتاب (أدباء بغداديون في الأندلس) ط. 1 ص 12 وما بعدها. وقد اشار إلى نهاية بعض كتب (القالي) الدكتور إحسان عباس ـ في تاريخ الأدب الأندلسي ج 2 ط. 1 ص 56.

العالم العراقي ـ الذي احتضنته الأندلس ورعته وأكرمته وعاش فيها ومات مع أسرته وأولاده في تربتها. حيث دخلها سنة 330 هـ، ومات وعمره ثمان وستون سنة في عام 356 هـ. ولا يغرب عن البال بأن للتجار المهرة المتعلمين أياد لنقل كتب المشارقة.

وهاجرت كتب الفلسفة، والأدب، والطب، والحكمة، والتصوف واللغة. ومن بينها (كتاب القانون) لابن سيناء ومؤلفات (الفارابي) و (ديوان المتنبي) و (مقامات الحريري) و (رسائل الخوارزمي) و (خطب ابن نباتة) و (مؤلفات الثعالبي) وعلى رأسها (اليتيمة)[95]. ورسائل أبي العلاء المعري وكتب الجاحظ[96] وطيف الخيال للرضي وكليلة ودمنة لابن المقفع ومؤلفات ابن قتيبة والملاحن لابن دريد، ومجمل اللغة لابن فارس، والأمثال لأبي عبيدة، ومؤلفات الإمام الغزالي، التي أدخلها الموحدون، بهمة (المهدي بن تومرت). وغير ذلك من الرسائل والكتب النادرة. التي لها ذكر في الأندلس وتراثه المفقود والموجود، وعدم الذكر أحيانا في الوسط المشرقي. كما رأينا ذلك في آثار (المعري) المدونة في أحكام صنعة الكلام.

وكان أبناء الأندلس يعارضون ما يصل إليهم ويستحسنونه ـ شعرا كان أم نثرا، كتابا كان أم رسالة ـ كما فعل (الكلاعي) في معارضته لرسالة (الصاهل والشاجع) ـ للمعري ـ وعمل ما أسماه برسالة (الساجعة والغريب)، كما عارض كتابين آخرين لأبي العلاء المعري[97].

---

95) راجع الدكتور إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ج 1 ص 58. وراجع أحكام صنعة الكلام، للكلاعي ط. 1 ص 15.

96) نشر السيد (هاشم الطعان) في مجلة (المثقف) العدد 23 ايلول ـ تشرين أول 1961 ص 32 وما بعدها، مقالة طريفة عن (كتب الجاحظ في الأندلس) فوجب التنويه والإشارة إليها.

97) راجع المغرب، لابن دحية ص 34. وطبقات الأمم لصاعد الأندلس ص 116 ط. مصر.

ولا ننسى شروح العلماء الأندلسيين التي لازلنا نتداولها وخاصة ما يتعلق منها في شرح مقامات الحريري ـ للشريشي المتوفى سنة 619 هـ. وشرح (سقط الزند) لأبي السيد البطليوسي المتوفى سنة 521 هـ إضافة إلى شرح ديوان الحماسة لأبي تمام التي قام بشرحها ودراستها (ابن سيده) صاحب (المخصص والمحكم) المتوفى سنة 459 هـ.

ولقد اشار صاحب (إرشاد الأديب) و (نشوار المحاضرة) «بأن أول ما دخل من كتب الجاحظ وفي حياته) رسالة (التربيع والتدوير)[98] حيث قام فرج بن سلام) بزيارة العراق والاتصال مع (الجاحظ) نفسه ـ وجرت بينهما محاورة طريفة ذكرها صاحب (معجم الأدباء) ونقل إلى بلاده الأندلس (البيان والتبيين).

ولم يقتصر طلب العلم والرحلة من أجله على الرجال فقط، بل تعداهم إلى النساء أمثال السيدة الصالحة، مكية بنت عمر بن هاني التجيبي الأندلسي (من القرن السادس الهجري) التي ماتت في مصر بعد عودتها من حج البيت الحرام.

ولا يغرب عن البال جهاد أبناء الأندلس من العميان المكفوفين ومعاناتهم القاسية في طلب العلم (كالهواري) وغيره. من الذين قصدوا المشرق لطلب العلم في معاهده[99].

---

(98) راجع المثقف ـ مقالة السيد هاشم الطعان العدد 23 ص 32 وما بعدها.

(99) راجع معجم الأدباء ج 6 ص 174 وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم 1036 ص 286 مدريد. وراجع أخبار وتراجم أندلسية ـ ص 126 وراجع ما كتبناه عن (الهواري) في مجلة (البلاغ العراقية مجلد السنة الأولى.

إن استقصاء جميع الذين حملوا كتب المشارقة إلى الأنـدلس في دراسـة واحـدة يتطلب أولا الاطلاع على المخطوطـات التي ترقـد في مكاتب الغرب والشرق من مؤلفات الأندلسيين. وهذا مما يصعب علينا الحصول عليـه الآن. كما أنه يجب علينا أن نقوم بجرد كاف ومراجعة عامة لكتب الرجال والتراجم لعلماء المشرق وديار الأندلس والمغرب. وفي نيتنا أن نضع كتابا مفصلا نحلل فيه[100] الموضوع ونعطيه حقـه من التوسع والشرح. ونبين الجوانب الأخرى التي رافقت حركة حمل ثقافتنا المشرقية العراقية خـاصـة إلى بلاد (الفردوس المفقود) و (المجد المضاع).

وفي النهاية علينا أن نشيد بدراسة الأستـاذ الـدكتور (محمود علي مكي) التي قدمها رسالة (للدكتوراه) في جامعة (مـدريـد) وعـالج فيهـا (التـأثيرات المشرقيـة في الأنـدلس ومـدى أثرهـا في تكون الثقـافـة الأنـدلسيـة) ونشرت ملخصا عنها صحيفة (معهد الـدراسـات الإسلاميـة في مـدريـد) في مجلـديهـا التاسع والعاشر[101] واختصرها على التأثير المصري خـاصـة فلـه من الأنـدلس والثقافة والعلم، ولغيره من الباحثين التقدير والإعجاب.

د. محسن جمال الدين

---

100)سيكون من دراستنا عن (العلاقات الثقافية بين الأندلس والبلاد العربية).

101)عنوان البحث في الإسبانية ص 65 ـ 231 Ensayo Sobre Los Aportationes Orientales En La España Musulmana.

أهم المراجع والمصادر

المصادر القديمة :

1 ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي

2 ـ معجم أبي علي الصدفي لابن الأبار.

3 ـ فهرست ابن خير الاشبيلي

4 ـ المغرب لابن دحية.

5 ـ جامع التواريخ للتنوخي

6 ـ جذوة المقتبس للحميدي.

7 ـ الروض المعطار للحميدي.8 ـ أحكام صنعة الكلام للكلاعي.

9 ـ نفح الطيب للمقري.

10 ـ معجم الأدباء لياقوت.

11 ـ طبقات النحويين للزبيدي.

12 ـ أخبار وتراجم أندلسية للسلفي.

13 ـ برنامج شيوخ الرعيني

14 ـ طبقات الأمم لصاعد الأندلسي.

15 ـ رحلة ابن جبير لابن جبير.

16 ـ رحلة ابن بنيامين التطيلي.

17 ـ مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

المصادر الحديثة :

18 ـ فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس
19 ـ تاريخ الأدب الأندلسي للدكتور إحسان عباس
20 ـ الأدب الأندلسي للدكتور أحمد هيكل.
21 ـ محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها لبروفنسال.
22 ـ الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية لبروفنسال.
23 ـ الشعر في بغداد للدكتور أحمد الجوار.
24 ـ تاريخ الفكر الأندلسي لبلانشيا ـ ترجمة د. حسين مؤنس.
25 ـ تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي للدكتور علي محمد حمودة.
26 ـ دراسات في الأدب العربي اغناطيوس كراتشكوفسكي.
27 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي اغناطيوس كراتشكوفسكي.
28 ـ الموسوعة العربية الميسرة.
29 ـ المنجد للمعلوف اليسوعي.
30 ـ الاعلام للزركلي.
31 ـ الرحالة المسلمون في العصور الوسطى د. زكي محمد حسن.
32 ـ أدباء بغداديون في الأندلس د. محسن جمال الدين.
33 ـ المجلات : 33 الرابطة / القاهرة
34 ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد.
35 ـ مجلة تطوان / تطوان.

د. م. ج. د

ثقافة الصقالبة

محمد المنوني

من مبادرات البلاد الإسلامية في مشرقها ومغربها : ظاهرة تثقيف أفراد من المماليك، رغبة في تهذيبهم بالتعليم، وإشعاراً لهم بدمجهم في المجتمع العام، وتطبيقا ـ إلى حد ـ لتوصية الإسلام بشأن توعية الرقيق[1].

فكانت مبرة تسارع إليها أعداد من الحكام، وساهم فيها زمر من الأعلام والأعيان، وصار من معطيات هذه التربية ارتقاء مجموعات من

1) دعوة الإسلام إلى تعليم الرقيق : تحتفظ بها جملة من المصادر المنوعة، بينها كتاب «الإحكام في فصول الأحكام» لابن حزم : مطبعة العاصمة بالقاهرة ص 689 ـ 690.
ثم «المدخل» لابن الحاج : المطبعة المصرية بالأزهر 1 / 211, 215.
وقد كانت هذه المبرة بين الأنظمة التربوية التي سار عليها الموحدون، فيرد في رسالة الفصول الصادرة عن عبد المومن : «ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها : (إعلم ارشدنا الله وإياك)، وحفظها وتفهمها، وأشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء، والأحرار والعبيد، وكل من توجه عليه التكليف...»، «مجموع رسائل موحدية» : المطبعة الاقتصادية بالرباط، ص 132.

المماليك إلى درجات عليا في أنواع العلوم والآداب، فضلا عن الثقافة السياسية أو العسكرية.

☆ ☆ ☆

ولم تكن الأندلس لتغيب عن هذا النشاط، وشاركت ـ وهي في عهد ازدهارها ـ بنصيب موفور في تثقيف الموالي، وكانوا ـ في شبه الجزيرة حتى القرن الهجري الخامس ـ يغلب عليهم عنصر الصقالبة الذين ينعتون ـ أيضاً ـ بالفتيان ضمن نعوت متعددة، وهم المماليك البيض المجلوبون من أواسط أوروبا أو شمال اسپانيا[2]، فاستفادت مجموعات منهم ومن الجواري وبعض الزنوج : تكوينا ثقافيا منوعا ورفيعا أحياناً، وذلك ما يطرحه هذا العرض حسب النقط التالية :

ـ نماذج من عمليات تثقيف الرقيق.
ـ أسماء لامعة للمماليك والجواري المثقفين.
ـ تراث الرقيق.

☆ ☆ ☆

ـ أولا : نماذج من عمليات تثقيف الرقيق :

كان صقالبة الأندلس يتلقى عدد منهم تربية تثقيفية تحت رعاية المهتمين، وتوضحت مبادرات حكام الأندلس ـ في هذ الاتجاه ـ منذ عهد عبد الرحمن الناصر، فكان هؤلاء المماليك يربون منذ طفولتهم في قصور الحاكمين، وتبذل العناية لتزويدهم بمستوى ثقافي لائق، حيث يكونون إطارات إدارية

---

2) يرجع إلى «المقتبس لابن حيان القطعة التي حققها الدكتور عبد الرحمن علي الحجي : دار الثقافة ـ بيروت، وخصوصا المصادر الواردة أسفل ص 48.

أو عسكرية، فضلا عن الموالي الذين تلقوا تعليما مكتملا ارتقى بهم إلى مصاف العلماء أو الأدباء، وبعد عبد الرحمن الثالث استمرت هذه الظاهرة أيام الحكم الثاني، وفي عهد العامرين، ولدا بعض ملوك الطوائف وسواهم[3].

☆ ☆ ☆

وقد كانت هذه التربية تستهدف ـ أحياناً ـ مواد تعليمية معينة : فيصل إلى قرطبة راهب من بيزنطة يتقن الإغريقية واللاتينية، حتى يضطلع بتعليم اللغة اليونانية القديمة والترجمة منها : لأفراد من عبيد عبد الرحمن الثالث، وكان هذا هو المقترح لزيارة الراهب نقولا البيزنطي للعاصمة المروانية[4].

وعن المستنصر يقول ابن الآبار[5] : «أخرج الحكم من قصره وصيفة غلامية ذكية كيسة كاتبة مهمة، فأمر أبا القاسم سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصاري المعروف بالرصامي وبالقسام : أن يعلمها التعديل وخدمة الاسطرلاب وما يجري مجرى هذا، فقبلت ذلك كله وحذقته، وأعانتها قريحتها، واستكملت علمه في ثلاثة أعوام أو نحوها».

---

3) هذا يستفاد من العروض التالية، مع «تاريخ الفكر الأندلسي» ، الترجمة العربية ص 8.

4) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة : المطبعة الوهبية بالقاهرة 2 / 47.

5) «التكملة» مخطوطة خ. م 1411، وهذه الترجمة بين الزيادات التي تتوفر عليها هذه النسخة، حيث يجمعها ـ كاملة ـ مجلد ضخم بخط أندلسي عتيق مصحح، وللمزيد من التعريف بها : يرجع إلى محمد المنوني : «المخطوطات التونسية بالمغرب»، مجلة «المغرب» التابعة لوزارة الممثل الشخصي لجلالة الملك : العدد 6 ـ 7 ص 58 ـ 59، ونشير لهذه النسخة ـ استقبالا ـ بإضافة حرف خ.

وإلى هذا : يسجل ابن خلدون[6] عن المنصور بن أبي عامر : انه علم مواليه القراءات والحديث والعربية.

ونفس المؤلف[7] يذكر مجاهدا العامري أنبه هؤلاء الموالي، فيقول عنه خلال عرض علم القراءات : «... وكان معتنيا بهذا الفن بين فنون القرآن، لما أخذه به مولاه المنصور بن أبي عامر، واجتهد في تعليمه، وعرضه على من كان من أئمة القراء بحضرته، فكان سهمه في ذلك وافرا...».

ويتابع مجاهد الخطة ذاتها لما تصيرت إليه الإمارة، فينشر العلم في دانية، حتى يفشو في جواريه وغلمانه[8].

☆ ☆ ☆

وواكب هذه العناية من الحكام : اهتمام زمر من الأعلام وسواهم بتثقيف مواليهم : بأنفسهم أو بعرضهم على مجالس التعليم، ويأتي في رأس اللائحة : أحمد بن يونس بن أحمد الحراني القرطبي : استمر بقيد الحياة إلى أيام هشام المؤيد، فيذكر عنه ابن جلجل[9] أنه رأى بين يديه اثني عشر صبيا صقالبة : طباخين للأشربة، صناعين للمعجونات.

---

6) «العبر» ط. مصر 1284 هـ 4 / 164.

7) «المقدمة» المطبعة البهية المصرية ص 382.

8) «إعمال الإعلام» لابن الخطيب : القسم الأندلسي المنشور في المطبعة الجديدة بالرباط ص 250 : نقلا عن ابن حيان. ولخزانة مجاهد ألف إبن عمار المهدوي تفسير القرآن الكريم المسمى «بالتحصيل...»، حيث لخصه ـ بأمره ـ من كتابه الكبير : «التفصيل، الجامع لعلوم التنزيل»، حسب طالعة المجلد الأول من كتاب «التحصيل...» ؛ مخطوط الخزانة الحمزاوية، رقم 199.

9) «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» 2 / 42، وبالرجوع إلى ابن جلجل تتبين بعض مخالفة لما نقله عنه هذا المصدر، حسب النص المنشور من «طبقات الأطباء والحكماء»، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ص 113.

ونشير ـ بعد هذا ـ إلى أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي، وقد علم جاريته إشراق : العربية واللغة (والآداب)[10].

☆ ☆ ☆

وساهم في هذا النشاط فريق من تجار الرقيق، فيقول ابن بسام[11] : «وكان محمد بن الكتاني المتطبب فرد أوانه، وباقعة زمانه، منفقا لسوق قيانه : يعلمهن الكتاب والإعراب، وغير ذلك من فنون الآداب».

☆ ☆ ☆

وعن تلقين الثقافة الموسيقية للجواري يقول التيفاشي[12] عن إشبيلية :

... وهذا الغناء اليوم موقوف على إشبيلية من مدن الأندلس، وبها عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوار مملوكات لهن، ومستأجرات عليهن

---

10) «التكلة» نشر قديرة رقم 2115، ونشير لهذه الطبعة في الإحالات التالية بإضافة حرف ق ـ التكلة خ، وزيادتها هي الواقعة بين قوسين.

11) «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» : نشر الدار العربية للكتاب : القسم الثالث المجلد الأول ص 319، وفي الصفحة التالية : 320 يرد فصل من رقعة يصف فيها ابن الكتاني تعليمه للقيان.
هذا إلى أن ابن عذاري يثبت فقرة تصف إحدى جواري ابن الكتاني : «البيان المغرب...» دار الثقافة ـ بيروت 3 / 183.

12) وردت هذه الفقرة ضمن قطعة من كتاب «متعة الاسماع» وهي تستوعب «الباب العاشر في طرق الناس في الغناء على اختلاف طبقاتهم»، حيث قدم له وحققه الأستاذ المرحوم محمد بن تاويت الطنجي، ونشر ذلك في مجلة «الأبحاث» اللبنانية : السنة 21 ج 2 ص 93 ـ 116، وجاءت الفقرة التي نعلق عليها ص 103.

مولدات، ويشترين من إشبيلية **لسائر ملوك المغرب وإفريقية** : تباع الجارية منهن بألف دينار مغربية وأكثر من ذلك وأقل : على غنائها لا وجهها، ولا تباع إلا ومعها دفتر فيه جميع محفوظها...

ولا بد للجارية المغنية عندهم من أن تكون تحسن الخط، وتعرض محفوظها على من يصححه لها من جهة العربية، فيقرأ مشتريها ما في الدفتر، ويعرض عليها منه ما أحب، فتغنيه بالآلة التي تشترط في بيعها، وربما كانت محسنة في جميع الآلات وفي جميع أنواع الرقص والخيال، ومعها آلتها والجواري اللواتي يطبلن عليها ويزمرن، فتسمى مكلة، وتباع بعدة أُلوف من الدنانير المغربية».

ـ ثانيا : أسماء لامعة للماليك والجواري المثقفين :

1 ـ وتعرض ـ أولاً ـ عشرين إسماً من تربية الخلفاء والأمراء بالأندلس، انطلاقاً من الوصيف نجم، وكان معدوداً من أهل الأدب والشعر[13].

3،2 ـ راضية مولاة عبد الرحمن الناصر، وتدعى بنجم، توفيت سنة 423 هـ، قال عنها ابن بشكوال[14] : «ممن أعتقها الحكم عن أبيه، وتزوجها **لبيب الفتى**، وحجا ـ معا ـ سنة ثلاثة وخمسين وثلاث مائة، وكانا يقرءان ويكتبان، ودخلا الشام،

13) «التكملة» ق ع 1212.

14) «الصلة» مكتب نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ع 1534، وينبغي أن يقارن اسم «لبيب الفتى» مع الذي يحمل اسم «لبلب» المترجم في نفس المصدر ع 1029.

ولقيا ابن شعبان القرظي بمصر ونظراءه»، وروى عنها أبو محمد بن خزرج وقال : عندي بعض كتبها».

4 ـ ومن مماليك الحكم الثاني : نشير إلى ثلاثة : أبي القاسم فاتن الحكمي الخادم المعرف بالصغير وبالخادم، وهو ـ حسب ابن الآبار[15] ـ «كان في علم اللسان والبصر باللغة أوحد لا نظير له، اعترف له بذلك أبو بكر الزبيدي، وعليه عول المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر في مذاكرة صاعد فقطعه، وازداد ابن أبي عامر عجبا به، وكان ضابطاً لكتب اللغة قائمًا عليها، حسن الخط، راجح العقل، واسع المعرفة، فصيح اللهجة...».

5 ـ وخلفه ـ في خدمة قصر قرطبة ـ جؤذر الحكمي، فكان ـ بدوره ـ يتحقق بعلم العربية والتدقيق لمعانيها، ويقول عنه ابن حيان بعد ما ذكر وفاة فاتن الحكمي : «ولم يك بالبعيد منه في رفعة خلاله، وثقته، وأمانته، وفهمه ومعرفته...»[16].

6 ـ وثالث موالي الحكم : تليد الخصي، وكان يتولى خزانة العلوم بقصر بني أمية في قرطبة، وهو المصدر الوحيد للتعريف بفهارس هذه الخزانة، قال ابن حزم : «أخبرني تليد الفتى ـ وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس ـ أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة،

15) «التكملة» نشر بالنثيه ع 2524، مع «الذيل والتكملة» دار الثقافة بيروت : 5 / ع 1006.
16) «التكملة» ق ع 17.

في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»[17].

7 ـ ومن موالي المنصور بن أبي عامر : مجاهد العامري أمير دانية والجزر الشرقية : (البليار)، والمتوفى عام 436 هـ.

ويبرز مكانته العلمية عدد من المؤرخين، سابقهم ابن حيان في هذه الفقرة : «كان أبو الجيش مجاهد يباين سائر الملوك في زمانه بخلال من الفضل، من اشفهما العلم والمعرفة اللذان لم يكن في الأحرار ولا في الموالي أثبت قدما منه فيه، يكاد يربي على متقلديها من أكابر العلماء في وقته، لا سيا علم العربية فإنه تحقق به، إلى ما يتصرف (فيه) من علم القرآن : قراءته ومعانيه وغريبه وتفسيره، قد عني بطلب ذلك من صباه إلى اكتهاله، فكان في النهاية من البصر به.

وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من نظرائه، وأتت إليه العلماء من كل صقع، فاجتمع بفنائه جملة من مشيختهم ومشهور طبقاتهم : كأبي عمرو المقري وابن عبد البر وابن معمر اللغوي وابن سيدة، فشاع العلم في حضرته حتى فشا في جواريه وغلمانه، فكان له من المصنفين عدة يقومون على قراءة القرءان،

---

17) «جمهرة أنساب العرب» ط. دار المعارف بمصر ص 100.
«التكملة» ط. الجزائر ع 622.
«الحلة السيراء» ط. القاهرة ع 77.

ويشاركون في فنون من العلم يحملونه بها، ويشرفون دولته»(18).

---

18) «إعمال الاعلام» ص 250، ونضيف لفقرة ابن حيان عن مجاهد العامري : ارتسامات أخرى موضوعية، فيقول ياقوت في مادة دانية : «وكانت قاعدة ملك أبي الحسن مجاهد العامري، وأهلها أقرأ أهل الأندلس، لأن مجاهدا كان يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق عليهم الأموال، فكانوا يقصدونه ويقيمون عنده فكثروا في بلاده»، «معجم البلدان» مطبعة السعادة بمصر : 4 / 28.

وقال عنه ابن سعيد : «وكان محبا في العلماء محسنا لهم، كثير التولع بالمقرئين للكتاب العزيز حتى عرف بذلك بلده، وقصد من كل مكان، وشكر ـ في الأقطار ـ بكل لسان»، «المغرب في حلى المغرب» دار المعارف بمصر : ع 600.

وفي تعبير ابن عذاري : «وكان مجاهد من أهل العفاف والعلم، فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير، ومضى على ذلك طول عمره»، «البيان المغرب» دار الثقافة ـ بيروت : 3 / 156.

ويتحدث عنه ابن خلدون ضمن ذكر علم القراءات، فيضيف بعد الفقرة السابقة عند الفصل الأول : «واختص مجاهد ـ بعد ذلك ـ بإمارة دانية والجزر الشرقية، فنفقت بها سوق القراءة لما كان هو من أيمتها، وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموماً، وبالقراءات خصوصاً...»، «المقدمة» ص 382.

ومن الجدير بالذكر أن الاشتغال بالعلم تسلسل في بعض عقب مجاهد العامري، فترد عند ابن الآبار ترجمة تبتدي هكذا : «صهيب بن عبد المهين بن أبي الجيش واسمه مجاهد، بن محمد بن مجاهد، رومي الأصل، وولاؤه لبعض الصنهاجيين»، إلى أن يقول : «وروايته عن أبيه عن جده»، وترجمته ـ بعد هذا ـ لا تزال مسترسلة في التكملة ق 1232، حيث تختتم بتاريخ وفاة المترجم ـ بسبتة ـ عام 631 هـ.

ولما سكن المنوه به مراكش ودخل فاساً : كانت مناسبة لترجمته عند ابن القاضي في «جذوة الاقتباس» : طبع دار المنصور بالرباط ع 379، كما ترجمه ابن ابراهيم في «الأعلام» المطبعة الملكية 7 /372.

وبالإضافة إلى صهيب : عقد إبن الآبار ترجمة لجده مجاهد بن محمد بن مجاهد، المتوفى عام 585 هـ، وأثبتها في كل من «التكملة» ق 1179، ثم في «معجم أصحاب أبي علي الصدفي» 179، كما ترجمه ابن ابراهيم في «الاعلام» 3 / 281 ـ 282.

8 ـ وبعد مجاهد : نشير إلى أحد فتيان المظفر بن أبي عامر، وهو أبو الفتح نصر الصقلبي المظفري، له رواية حدث فيها عن عبد الرحمن بن أسد الكازروني المكي[19].

9 ـ مفرج مولى إقبال الدولة على بن مجاهد العامري : من الرواة عن أبي عمر الداني المقري[20].

10 ـ صندل مولى المامون بن ذي النون صاحب طليطلة، وهو ـ حسب ابن عبد الملك[21] ـ من أهل النبل والعلم والمعرفة بسياسة الملك، وقد كتب عن مولاه القادر بن مولاه المامون، وعليه كان معوله في تدبير رئاسته ببلنسية.

11 ـ زيد مولى المعتصم محمد بن معن الصمادحي صاحب المرية، والمتوفى عام 497 هـ، ويترجمه ابن بشكوال[22] هكذا : «روى عن أبي العباس العذري كثيرا وعن غيره، روى عنه غير واحد من شيوخنا، وكان معتنيا بالآثر وسماعه، ثقة في روايته، وكان مقرئا فاضلا».

☆ ☆ ☆

ـ ومن الصقالبة الرجال ننتقل إلى النساء : فنشير إلى أربع من جواري عبد الرحمن الناصر وسمن بالثقافة :

19) «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة : ع 1493.
20) «التكلة» ق 1145، «وأشار له ابن الجزري في غاية النهاية» رقم 2091.
21) «الذيل والتكلة» 4 / ع 266.
22) «الصلة» ع 1525.

12 ـ زمرد المتوفاة عام 336 هـ.

13 ـ ومرجان أم الحكم المستنصر.

14 ـ وكتمان.

15 ـ ومزنة المتوفاة عام 358 هـ[23].

16 ـ ومن جواري الحكم الثاني : كاتبته لبنى، المتوفاة عام 374 هـ، وكانت ـ حسب ابن بشكوال ـ[24] حاذقة بالكتابة، نحوية، شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، عروضية، خطاطة...

17 ـ نظام الكاتبة : بليغة مدركة محبرة للرسائل، وكانت بقصر الخلافة في قرطبة أيام هشام المؤيد، ثم توفيت عام 392[25].

18 ـ العبادية : جارية المعتضد عباد بن محمد، أهداها له مجاهد العامري من دانية : أديبة ظريفة كاتبة شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة[26].

19 ـ ريحانة قرأت ـ بالمرية ـ القراءات على أبي عمرو الداني، ثم قرأت عليه خارج السبع روايات، وأجازها، وكانت تتلو عليه القرءان خلف ستر[27]، وكأنها من جواري بني صمادح.

---

23) أربعتهن في «التكملة» خ، ورابعة الجواري : «مزنة» لها ترجمة في الصلة ع 1530، وعند الضبي في «بغية الملتمس» 1590.

24) «الصلة» 1529، مع «بغية الملتمس» 1589.

25) «التكملة» نشر بالنثيه 2865.

26) «المصدر» 2870.

27) «بغية الملتمس» 1185 : عند ترجمة أستاذها الداني، ثم عند ترجمتها 1592.

وستكمل هذه الجارية، تسعة عشر إسماً كلهم من تربية الخلفاء والأمراء بالأندلس.

20 ـ يضاف لهم الوصيفة التي أسلمها الحكم الثاني إلى أبي القاسم الرصامي قصداً لتعليها مادة التعديل والاسطرلاب وما إلى ذلك. وقد سبقت الإشارة لها خلال الفصل الأول.

☆ ☆ ☆

وإلى هؤلاء وأولائك تلمع أسماء زمرة من المماليك من تربية رجال العلم أو الأعيان، وكلهم تميزوا بالحرص على الرواية عن الشيوخ المغاربة، وأحياناً مع المشارقة، وهذه نماذج من أسمائهم :

21 ـ أبو القاسم رشيق مولى الأمير عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، كان بقيد الحياة عام 356 هـ[28].

22 ـ فائق مولى الوزير أحمد بن سعيد بن حزم[29].

23 ـ خلف المعروف بابن الجعفري : نسبة إلى مولاه جعفر ابن يوسف الكاتب، توفي عام 425 هـ[30].

24 ـ أبو الحسن مبارك مولى محمد بن عمر والبكري الإشبيلي، توفي عام 429 هـ[31].

---

28) «الصلة» 423.

29) «المصدر» 1002.

30) «المصدر» 377.

31) «المصدر» 1394، مع «بغية الملتمس» 1380.

25 ـ سابق مولى خلف بن علي الرعيني الأندلسي، من رواة كتاب الأدب لابن المعتز، وكان بقيد الحياة عام 445[32].

26 ـ أبو الحسن سعد مولى المشاور أبي عبد الله بن يحي المرسي، كان حيا عام 518 هـ[33].

27 ـ أبو الحكم رشيد مولى القاضي أبي أمية بن عصام، مرسي، له سماع سنة 524 هـ[34].

☆ ☆ ☆

28 ـ ومن الجواري : أمية الكاتبة وصيفة الحسين بن حي[35].

29 ـ هند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي، أديبة شاعرة[36].

30 ـ إشراق السويدية العروضية، مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي الكاتب، سكنت ببلنسية، وتوفيت بدانية بعد وفاة سيدها، وكانت وفاته سنة 443 هـ، ويقول عنها ابن الآبار :[37].

---

32) «التكلة» نشر بالنثيه 2678، مع «الذيل والتكلة» 4 / ع 2.

33) «الذيل والتكلة» 4 / ع 41.

34) «التكلة» ق 225.

35) «التكلة» نشر بالنثيه 2867.

36) «المصدر» 2886.

37) «المصدر» ق 2115، مع «التكلة» خ، وزياداتها هي الواقعة بين قوسين، ولقب المترجمة مصغر عن السوداء، حيث كان هذا لونها، حسب إشارة لذلك عند ترجمة مولاها في التكلة ق 1548، فتكون زنجية وليست من الصقالبة.

«وكانت قد أخذت عن مولاها العربية واللغة (والآداب)، وفاقته في كثير مما أخذته عنه، (وأحسنت في كل ما تناولته)، وكان لها علم بالعروض (وأوزان الشعر)، قال أبو داود سليمان بن نجاح (المقري) : أخذت عنها العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي. والكامل للمبرد، وكانت تحفظ الكتابين ظاهراً وتتكلم عليهما».

- ثالثا : تراث الرقيق :

إلى جانب المساهمات الحضارية المنوه بها في الفصل السابق، شارك أفراد من الصقالبة في حقل التأليف، وعرف منهم بضعة مؤلفين :

31 - حبيب الصقلبي : من فتيان الأموية بقرطبة، حسب ابن الآبار[38] الذي يضيف أن المترجم كان من أهل الأدب والاتصاف بالفهم والتيقظ، وكان له كتاب تعصب فيه لقومه، سماه «بالاستظهار والمغالبة، على من أنكر فضائل الصقالبة»[39].

ويعتبر هذا الكتاب ضائعا، وقد كان ابن بسام وقف عليه وأفاد منه في كتاب «الذخيرة»[40].

---

38) «التكلمة» ق 89.

39) لا يبعد أن يكون تأليف هذا الكتاب من أصداء قيام دول الصقالبة بالأندلس.

40) نقل ذلك عنه ابن الآبار في التكلة ق 89، 1212.

32 ـ محمد بن أفلح مولى الحكم الثاني، ألف تعليقا على كتاب قاسم ابن ثابت السرقسطي، الذي جمع فيه نحوا من أربعة آلاف قطعة من أشعار المتقدمين والمحدثين.

فتناول محمد بن أفلح هذا الكتاب، وسمى شعراء تلك الأشعار، وذكر مواليدهم وبلدانهم وأخبارهم، مع بيان ما تضمنته الأشعار من المعاني والآثار[41].

ـ مجاهد العامري سابق الذكر عند رقم 7، يثبت له الحميدي[42] أنه ألف في العروض كتابا يدل على قوته في هذا العلم، ويعتبر ـ بدوره ـ ضائعاً.

33 ـ فاتح مولى صاحب الأحكام أبي جعفر أحمد بن محمد بن رومان، له ـ حسب ابن عبد الملك[43] ـ مصنف حسن في الحدود والحقائق.

34 ـ أبو الفضل مبارك مولى إبراهيم بن عيسى الأنصاري : وقف الشيخ محمد عبد الحي الكتاني على إجازة برسمه أول الجزء الأول من جامع الترمذي بتاريخ جمادى الأولى عام 506 هـ،

41) من ترجمة قاسم بن ثابت عند خاتمة السفر الثاني من كتابه «الدلائل...» : مخطوطة استانبول، حيث نشر نصها الدكتور شاكر الفحام في دراسته المعمقة بعنوان «كتاب الدلائل في غريب الحديث، لأبي محمد قاسم بن ثابت العوفي السرقسطي»، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» : ج 3 مجـ 51 ص 515 ـ 517.

42) «جذوة المقتبس» مكتب نشر الثقافة الإسلامية بالقاهرة ع 829، وأشار ـ أيضاً لنفس الكتاب في «بغية الملتمس» ع 1379.

43) «الذيل والتكملة» 5 / ع 1002.

كتبها له ـ بخطه ـ أبو علي الصدفي بعد سماعه عليه لجامع الترمذي وللصحيح، محليا المجاز بالفقيه الأمين[44].

35 ـ أبو الحسن موفق المعروف بالمسنالي المري مولى يوسف ابن ابراهيم، وكان عارفاً بالحساب والتنجيم، وله في ذلك تأليف سماه «كتاب الاهتداء بمصابيح السماء»، كتبه ـ بشاطبة ـ سنة 506 هـ[45]. ولا يزال غير معروف.

☆ ☆ ☆

36 ـ وقد لمع بين أصحاب هذا التراث أسماء علمية رائدة : انطلاقا من أبي القاسم خلف البَرْبَلي نزيل بلنسية ومفتيها، والمتوفى عام 443 هـ، وهو مولى يوسف بن بهلول، فيقول عنه ابن بشكوال :[46].

«كان فقيها حافظا للمسائل، وله مختصر في المدونة حسن، جمع فيه أقوال أصحاب مالك، وهو كثير الفائدة، وكان أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه يقول : من أراد أن يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البربلي».

وفي تعبير ابن فرحون[47] : «وله كتاب في شرح المدونة واختصارها سماه «التقريب»، استعمله الطلبة في المناظرة وانتفعوا به... ذكر أنه لما أكمل

---

44) فهرس الفهارس الطبعة الأولى 2 / 110 ـ 111، وهذا الذي نعلق عليه غير الإسم سابق الذكر عند رقم 24، وقد يكون ـ أيضا ـ غير أبي الفضل مبارك مولى الزيادي، حيث جاء ذكره بين الرواة عن ميمون بن ياسين اللمتوني، حسب «الذيل والتكملة» مخطوط خ. ع، د 3784 ص 190.

45) التكلة ق 1175، مع معجم أصحاب أبي علي الصدفي ع 177.

46) «الصلة» 383.

47) «الديباج المذهب»، دار التراث بالقاهرة 1 / 352.

خلف كتابه دخلت منه نسخة صقلية وعبد الحق، بها، فلما قرأه ونظر فيه إلى أقواله، وما أدخله فيه من كتابه : استحسنه وأراد شراه فلم يتيسر له ثمنه، فباع حوائج من داره واشتراه، فغلا الكتاب، وتنافس فيه الناس عند ذلك».

37 ـ ونشير ـ بعد هذا ـ إلى أحد موالي هشام المؤيد، وهو أبو داود سليمان بن نجاح البلنسي المتوفى ـ بها ـ عام 496 هـ، وكان ـ حسب الذهبي[48] ـ شيخ الإقراء، ومسند القراء، وعمدة أهل الأداء، وعند ابن بشكوال :[49].

«وكان من جلة المقرئين وعلمائهم وفضلائهم وخيارهم، عالما بالقراءات ورواياتها وطرقها، حسن الضبط لها... وله تواليف كثيرة في معاني القرآن وغيره... روى الناس عنه كثيرا».

38 ـ محمد بن فرج القرطبي، المتوفى عام 497 هـ، وهو مولى ابن الطلاع : محمد بن يحي البكري، يصفه ابن بشكوال[50] ببقية الشيوخ الأكابر في وقته، وزعيم المفتين بحضرته.

وقال عنه ابن فرحون[51] : «سمع منه عالم عظيم، ورحل إليه الناس من كل قطر لسماع الموطا والمدونة لعلوه في ذلك».

---

48) «معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار»، دار التأليف بمصر 1 / 364، وله ترجمة طيبة عند ابن الجزري في «غاية النهاية»، رقم 1392، حيث يصدرها هكذا : «سليمان بن نجاح... مولى المؤيد بالله ابن المستنصر، الأندلسي، شيخ القراء، وإمام الإقراء».

49) «الصلة» 457.

50) «المصدر» 1239.

51) «الديباج المذهب» 2 / 243.

ولهذا يعتبر أحد البارزين في سند الموطا برواية يحي بن يحي الليثي، من طريق ولده عبيد الله بن يحي[52].

ومن مؤلفاته «كتاب أقضية الرسول ﷺ»[53] وهو منشور.

39 ـ عبد الله مولى الرئيس سعيد ابن حكم صاحب جزيرة منورقة، وتوفي عقب سنة سبع أو صدر سنة ثمان وتسعين وستمائة، كما هو تعبير ابن الزبير[54] الذي يقول عن المترجم : «تأدب بسيده أبي عثمان، وقرأ وسمع عليه، وأخذ عن جماعة ممن ورد إليهم جزيرة منورقة، وأجاز له جماعة... وألف برنامجا ذكر فيه نحو السبعين من شيوخه.

وإلى ابن الزبير : جاء ذكر المترجم عند العبدري في رحلته، وقد آب من حجته وزار مدينة مكناس مسكن المنوه به آنذاك، فقدمت فقرة الرحلة العبدرية إفادات جديدة عن مولى الرئيس ابن حكم :

«... وكان في أملي الاجتماع بالفقيه المحدث : أبي محمد عبد الله مولى الرئيس الأوحد العالم : أبي عثمان سعيد بن حكم صاحب منورقة، لما تقرر لدي من تهممه بالعلم، واعتنائه بالرواية، ولم يقض ـ حينئذ ـ أن اجتمع به،

---

52) يوجد سنده للموطا في طالعة بعض النسخ، ومنها مخطوطة رقية خ. ع. ج 708، أولها : حدثنا الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرج... في مسجده بقرطبة، في صدر ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وأربعمائة... عدد صفحاتها 355.

53) نوه به ـ كثيرا ـ محمد عبد الحي الكتاني في «التراتيب الإدارية...» الطبعة الأولى 1 / 251 ـ 252.

54) «صلة الصلة» : القطعة المخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 850 : تاريخ : قسم الخزانة التيمورية ع 250.

وقد وقفت على فهرسة شيوخه، فرأيت صنع فاضل ذي همة، وقد شاركته في بعض شيوخه الذين ذكرهم»[55].

☆ ☆ ☆

40 ـ وسوى هؤلاء يبرز اسم مملوك وراق بالبلاط الأموي في قرطبة، وهو حسين بن يوسف مولى الحكم الثاني، ولحسن الخظ يوجد بخطه ـ في وضع أندلسي ممتاز ـ كتاب «مختصر» أبي مصعب الزهري، حيث فرغ من كتابته في شعبان سنة 359 هـ، وهو يذيل منتسخه بتسجيل اسمه هكذا : «وكتب حسين بن يوسف عبد الامام الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين»[56]، وتعتبر هذه النسخة من ذخائر خزانة القرويين بفاس، حيث تحفظ بها تحت رقم 874.

41 ـ يضاف لهذا الوراق إثنان من الموالي : سعادة مولى محمد بن سعيد بن محمد بن حرون الأنصاري، وهو كاتب نسخة رقية من موطإ الإمام مالك برواية يحي بن يحيي الليثي، ولحسن الحظ لا تزال يقيد الوجود، حيث تحفظ بالخزانة الحسنية

55) «رحلة العبدري» بتحقيق الأستاذ الكبير محمد الفاسي، ص 280.
ونضيف هنا إشارة وردت في «بلغة الأمنية...» نشر مجلة تطوان بالعدد 9 ص 178 ـ 179، فيذكر هذا المصدر بين أساتذة سبتة اسم «ابن نبيل» الحيسوبي، وكانت تربطه صداقة علمية مع الإمام الأبلي : محمد بن ابراهيم التلمساني، ثم أخذ عنه مادة الحساب العالم المراكشي : أحمد بن محمد ابن الشماع الأوسي، فهل ابن نبيل هذا من حفدة المترجم ؟

56) عرف بهذه النسخة المستشرق الفرنسي بروفنسال في مجلة «هسبريس» بالجلد 18 سنة 1934، ج 2، ص 198 ـ 200 : تحت عنوان : «مخطوط من مكتبة الخليفة الحكم الثاني».

تحت رقم 12967، غير أنها مبتورة من أولها إلى أن تبتدي من آخر كتاب الزكاة حتى النهاية، في سفر يشتمل على 90 ورقة، مقاس 215 / 167 مم، مسطرة 30، خطها أندلسي مليح دقيق مدموج، ووقع الفراغ من انتساخها لثمان خلون من جمادى الآخرة، عام 495 هـ.

ويزيد في أهمية هذه الذخيرة تداولها إقراء وانتساخا، فتوجد عليها سماعات، كما يعرف فرع مستخرج منها تمت كتابته ـ بفاس ـ آخر عام 1185 هـ، وهو بنفس الخزانة، رقم 9121.

42 ـ ثم الوراق الذي يحمل اسم «الفتح»، وهو مولى الحسن بن الوليد بن الحاكم الاشبيلي، كتب ـ بخطه ـ التفسير الوجيز للواحدي، واتمه ـ عام 576 ـ بالحرام الشريف تجاه الكعبة المشرفة[57].

43 ـ تذييل ـ هنا باسم القائد مفرج مملوك يوسف الثالث سلطان غرناطة، فينظم مولاه قصيدة مخمسة في رثاء جماعة استشهدوا في ميدان الجهاد، ويشير فيها إلى مملوكه القائد مفرج[58].

☆ ☆ ☆

44 ـ وهذا لون معماري من تراث الرقيق : عن طريق الحاجب رضوان القشتالي : حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها

---

57) هذه النسخة بالذات من ذخائر خ. م 12850.

58) «ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث» : مطبعة معهد مولاي الحسن بتطوان، ص 148 ـ 149 تحقيق الأستاذ الكبير عبد الله كنون.

حسب تعبير ابن الخطيب، حيث يؤكد أن المولى النصري هو الذي أسس مدرسة غرناطة الشهيرة، وأوقف عليها الأوقاف الجليلة، فجاءت نسيجة وحدها : بهجة، وصدرا، وظرفا، وفخامة...[59].

45 ـ وأخيرا : نشير إلى كتاب أعيان الموالي بالأندلس، تأليف أبي بكر الرازي : أحمد بن محمد بن موسى الكناني القرطبي، ت 344 هـ، وكتابه من مصادر ابن الأبار في «التكملة»، حيث أقتبس منه عند الترجمة التي تحمل رقم 870[60]، ويعتبر ـ الآن ـ مفقودا.

محمد المنوني

---

59) «الإحاطة» : نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 1 / 506، 508 ـ 509.
وهناك بحث بعنوان : «الحاجب رضوان : مدرسة غرناطة وأسوار البيازين»، كتبه المستشرق الإسباني سيكودي لوثينا، ونشره في مجلة «الأندلس» ج 21 سنة 1956.

60) «التكملة» ق ص 279.

توضيح :

ـ المصادر والمراجع تذكر وضعيتها عند الإحالة الأولى : مخطوطة ومكانها ورقمها، أو منشورة مع ذكر المطبعة أو الناشر، ولا يتكرر ذلك في الإحالات التالية.

ـ وردت بالهوامش إشارات لمكان بعض المخطوطات هكذا :

خ. م : الخزانة الحسنية بالرباط.

خ. ع. ج : قسم حرف الجيم من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

خ. ع. د : قسم حرف الدال من مخطوطات الخزانة العامة بالرباط.

النّحو الأندلسيّ
وابن هشام المصري

محمد ابن تاويت
كلية الآداب / الرباط

كان اتصال الأندلس بالنحو العربي، في نفس القرن الذي اتصلت فيه مصر بهذا النحو، وهو القرن الثاني من الهجرة، وكان مبدأ هذا الاتصال عن طريق العناية بالقراءة القرآنية، ففي هذا كان المقرئ «ورش» القبطي الأصل، أو القيرواني الأصل الذي أخذ قراءته عن مقرئ المدينة المنورة، نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، بالولاء. إذ كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله القرطبي قد رحل إلى مصر فأخذ القراءة عن «ورش» المذكور، فشاعت قراءته في الأندلس ثم في المغرب، وكان أصله كذلك من القيروان، فكانت مدينة القيروان حجر الزاوية، بالنسبة إلى مصر وإلى الأندلس والمغرب معا، في العلم وفي السياسة كذلك.

وقيض لأبي عبد الله القرطبي، أحد ملوك بني أمية بالأندلس، وكان له بعض الفضل في شهرته واتباع طريقته القرائية، فقد استأدبه الحكم

المستنصر لبنيه، يعلمهم العربية والقراءة التي تلقاها عن «ورش» القبطي أو القيرواني ـ على الخلاف كما سلف ذكره ـ ومن ثم بدأ اقبال الأندلسيين، على الاعتناء بالقراءات القرآنية، وسايرها الاعتناء بالعلوم العربية، وعلى رأسها النحو والصرف، ولم تنفك عند الأندلسيين هذه المسايرة، فصرنا لا نكاد نجد نحويا إلا وهو على حظ من القراءت القرآنية، يختلف ذلك الحظ فيما بينهم.

وليس معنى هذا أن مصر لم تتصل بالعربية إلا عن مقرئها «ورش» ولا أن الأندلس لم تتصل بها إلا عن تلميذ «ورش» هذا، بل إنه قد سبق هذين الرجلين غيرهما في مصر والأندلس : فكان من قبلهما في مصر من هاجر إلى مصر من النحاة، مثل عبد الرحمن ابن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي، وكان من عظماء القراء، أخذ قراءته عن عبد الله بن عباس وأبي هريرة، وممن أخذ عنه نافع شيخ «ورش» على حين كان بالأندلس قبلهما أبو موسى عيسى الهواري المغربي الذي جمع بين العربية والفقه، على عهد عبد الرحمن الداخل، وأخذ بالمشرق الفقه عن مالك بن أنس والعربية عن الأصمعي وأبي زيد وغيرهما، وداخل الأعراب في مواطنها وسمع منها، ثم ألف كتابا في القراءات، كما يقول الزبيدي. وكان يعاصره الغازي بن قيس المؤدب، الذي أخذ كذلك بالمشرق فقهه عن مالك، كما أخذ عن نافع قراءته، ولقي الأصمعي ونظراءه، فيما ذكر الزبيدي، وكذلك كان جودى بن عثمان الموروي ـ نسبة إلى MORON يرحل إلى المشرق، فيأخذ نحو الكوفيين ويتتلمذ للكسائي والفراء، وكان يعاصر القرطبي المذكور، وكانت طريقتهم طريقة السلف والكوفيين خاصة، ولكن بعدهما كان رجل من جيان جمع المنطق والفلسفة والكلام إلى النحو، فقننه وسبر غوره، وهو محمد بن يحيى المهلبي (ت 353) الذي أقبل بكليته على الكتاب لسبويه.

ومهما يكن فإن القرن الثاني شاهد بالأندلس ومصر، علماء في العربية والقراءات لهم وزنهم الثقيل في علمهم، واشتدت العلاقات بين البلدين، ولم تفتر، نوعا ما، إلا على أواسط القرن الرابع، حيث كان الفاطميون قد أسسوا بها دعائم دولتهم، وأقاموا بمصر قواعد عاصمتهم، فكان العداء المستحكم بينهم وبين أمويي الأندلس، يصل في حدته، إلى أن يحمل خلفاء بني أمية على منع الأندلسيين حتى من أداء فريضة الحج، تحاميا لاتصالهم بالفاطميين ورجال دولتهم العاملين، فكان لهذا الموقف - لا محالة - أثره في تفتير الحركة النحوية، التي يأخذ بطرفيها الأندلسيون من جهة والمصريون من جهة أخرى. ومع هذا فلا شك أن بعضهم كان يتسرب إلى هذه البلاد من الطرفين وبطريقة بعيدة عن تدخل الدولة، أو قريبة منها، سائرة في ركابها، على خفية من غيرها، ومن الأولين كان مثل الجياني المذكور الذي لقي بمصر أبا جعفر النحاس، وأخذ عنه الكتاب، الذي انكب على قراءته وإقرائه لطلابه بالأندلس ويعقد بينهم المناظرات في شأنه، كل جمعة، فنهج لهم سبيل النظر.

لقد كان النحو يتأقلم، على كل حال، بالإقليم الذي ينمو فيه، قليلا أو كثيرا وإن كان هذا التأثر، حتى الآن، لم يدرس عندنا، إلا أن العالم العربي صار يقدر مكانة الأندلس، منذ هذا التاريخ واستمرت تعظم حتى كان الزمخشري بعد يتتلمذ على عبد الله بن طلحة الذي أقرأه الكتاب بمكة (توفي 518). إذن فكون النحو تأقلم بالأندلس، قضية واقعة لابد من افتراضها، وإن ابن حزم في القرن الخامس، كان يقارن بين العربية واللاتينية، فلا شك أنه لم يكن وحده مطلعا على هذه «اللاتينية» بل كانت شائعة شيوعا جعله وهو يتكلم عن «بلى» يخصصها بكونها لا تتكلمها. ثم كانت مقارنته

وهو يتكلم عن دلالة الألفاظ على المعاني، في كتابه المنطقي «التقريب لحد المنطق والمدخل إليه» فغيره ما كان ليبقى بعيدا عنها، وبالجملة فقد وجدناه يناظر بين العربية «واللاتينية» ويجعل الفضيلة أحيانا إلى جانبها في صراحته المعهودة، التي لو كان غيره بها لأفاد في تبيين التأثر بهذه «اللاتينية» وهو يعالج مسائل من العربية كما كان ابن حزم وهو في «المنطق» ينعطف إليها ويمعن في دقائقها...

وكذلك القول في ابن القوطية قبله، وهو منهمك على الصرف يؤلف فيه، ويختص الأفعال بكتابة النادر المثال فالوراثة كالبيئة عاملة فيه لا محالة، وكانت جدته الأولى «سارة» حفيدة غطيشة القوطي.

وعلى هذا فلا شك أن الأثر المصري، المعقد، لم ينج منه النحو ورجاله المصريون، وإن لم تكن البيئة الأندلسية، بذلك التركيز الذي كانت عليه البيئة الأندلسية فبهذه كانت بوتقة ينصهر فيها كل ما يطرأ عليه من الشرق ويأخذ شكله النهائي، ولكن مصر بحكم توسطها بين الشرق والغرب، وبحكم انفتاحها على الشرق، عامة وبشدة متناهية، كان تأثرها بالشرق أكثر من تأثيرها فيما يرد عليها من علمه، وقد وجدنا أن نحاة مصر، كانوا أولا مهاجرين إليها من الشرق. أما نحاة الأندلس، فقد هاجروا إلى الشرق، ثم عادوا إلى بلادهم يحملون بضاعته، ويتصرفون فيها، حسب أذواقهم، وما تملي عليهم أفكارهم وعقلياتهم التي فطروا عليها، وتأثروا بمحيطهم فيها، لقد اتصلوا بمدرسة الكوفة، فنبغوا فيها ثم اتصلوا بمدرسة البصرة، فحملوا رايتها طيلة القرون الستة أو ما يزيد عليها. وما كان القرن السادس، الذي تدهور فيه الشرق، وتسلط عليه الأتراك بمماليكهم، منذ الأيوبيين، حتى كان الأندلس وحده يحمل راية النحو، ويصبح في لمحة البصر، أستاذا للنحو

في العالم الإسلامي على الإطلاق، وحيا الله مدينة جيان واقليمها العريق الذي أمد هذا العالم الإسلامي بعد، بنحو ابن مالك، والذي كان على رأس شيوخه أبو حيان النفزي المغربي الأصل ثم الجياني فالغرناطي، وابن هشام هذا هو أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن هشام الأنصاري ولد في القاهرة عام 708، وأخذ النحو عن أئمتها، كابن السراج، بالإضافة إلى أبي حيان الذي سجل له بعض ما كان يلقي على تلاميذه من مسائل أجاب عنها ابن هشام هذا الذي قال فيه ابن خلدون «ما زلنا ونحن بالمغرب، نسمع أنه ظهر بمصر، عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه»، وقال فيه كلاما آخر ينبئ عن عظمة مكانته في النحو، كقوله : «إنه على علم جم يشهد بعظمته في صناعة النحو» ونحن بيدنا من كتبه ثلاثة كتب لها الشهرة والخلود، وهي :

1) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب.

2) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.

3) شذور الذهب في معرفة كلام العرب.

ومن تتبعنا لما ورد في هذه الكتب، وجدنا أن ما ذكر بها من عدد الأندلسيين والمغاربة، يفوق بكثير جدا، ما ذكر بها من أسماء المشارقة قديما وحديثا بالنسبة إليه. فهؤلاء الأندلسيون والمغاربة، تربو أسماؤهم على الأربعين وهم الآتون :

1) الأبدي، نسبة إلى أبدة UBEDA من إقليم جيان JAEN ! وهو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم النفزي الأبدي الأصل الغرناطي (ت 659).

2) ابن الأبرش خلف بن يوسف بن فرتون، أبو القاسم الشنتريني، نسبة إلى SANTAREN البرتغالية، من أعلام العربية (توفي بقرطبة 532).

3) ابن أبي الربيع عبيد الله، أبو الحسين الاشبيلي كان بحق إمام أهل عصره، هاجر إلى سبتة، لما خرجت مدينة اشبيلية SEVILLA من الحكم الإسلامي (توفي سنة 688).

4) ابن أبي العافية محمد بن عبد الرحمن الأزدي أبو بكر الكتندي نسبة إلى Cutanda الألبيري الأصل، كان مشاركا في عدة علوم وفنون (توفي 583).

5) ابن الأخضر علي بن عبد الرحمن، أبو الحسن ابن الأخضر الاشبيلي كان متقدما في العربية، وأكثر أخذه عن الاعلم (توفي 514).

6) ابن الباذش علي بن أحمد بن خلف أبو الحسن الأنصاري الغرناطي كان أوحد زمانه اتقانا ومعرفة ومشاركة في العلوم (توفي 528).

7) ابن الحاج أحمد بن محمد الأزدي الاشبيلي، له املاء على كتاب سيبويه ومختصر لخصائص ابن جني وغير ذلك (توفي 647).

8) ابن حزم علي بن أحمد، أبو محمد الظاهري، علم الأعلام في عصره وجامع أشتات العلوم والفنون على اختلافها (ولد بقرطبة وتوفي 456).

9) ابن خروف علي بن محمد الحضرمي الاشبيلي، الإمام المدقق المشارك في الأصول، وله مناظرات مع السهيلي (تردى فمات 609).

10) ابن السيد عبد الله بن محمد البطليوسي، نسبة إلى Badajoz كان عالما باللغات والآداب متبحرا فيها (مات ببلنسية 521).

11) ابن سيده علي بن اسماعيل المرسي الضرير اللغوي الواعية والمؤلف في العربية تآليف كالمخصص والمحكم، لم يسبق بها (توفي بدانية 458).

12) ابن الضائع علي بن محمد الكتامي الاشبيلي، بلغ الغاية في علم النحو ولازم الشلوبين، وله مؤلفات عجيبة وشروح (توفي 680).

13) ابن طاهر أبو بكر محمد بن أحمد، المعروف بالخدب، الأنصاري الاشبيلي حافظ بارع في العربية، اشتهر بتدريس الكتاب (ت 580).

14) ابن الطراوة محمد بن عبد الله السبائي المالقي، كان نحويا ماهرا وأديبا بارعا، ومنشئا مترسلا، إلى جانب قرض الشعر (توفي 528).

15) ابن طريف عبد الملك بن طريف من أهل قرطبة، أخذ عن ابن القوطية وكان حسن التصرف في اللغة، ألف في الأفعال (توفي 400).

16) ابن طلحة محمد بن طلحة الأموي، ولد بيابرة Evora وتولى الإقراء باشبيلية، وكان يميل إلى مذهب ابن الطراوة، وتأدب بابن ملكون وكان نظارا عارفا بعلم الكلام، قالوا إنه درس العربية والآداب باشبيلية أكثر من خمسين سنة، وكان له جاه عظيم (توفي بها 618).

17) ابن العريف الحسن بن الوليد، أبو بكر القرطبي، كان متقدما في المسائل النحوية والفقهية، حافظا للرأي رأس بمصره (توفي 367).

18) ابن عصفور علي بن مومن الحضرمي الاشبيلي، حامل لواء العربية لزمانه، اشتهر بالنحو فلم يؤخذ عنه غيره (مات في منادمة 669).

19) ابن عطية عبد الحق بن غالب الغرناطي الإمام الحافظ صاحب التفسير العظيم، كان إلى جانب نحوه فقيها مفسرا أديبا (ت 546).

20) ابن مالك (جمال الدين) خاتمة نحاة الأندلس الكبار محمد بن عبد الله الجياني الذي شغل الناس عن كتاب سيبويه، كان من شيوخه بجيان ثابت بن حيان المقرئ، ولم يجلس في حلقة الشلوبين إلا ثلاثة عشر يوما فكان عصامي علمه، ولم يشرح ابن هشام إلا ألفيته (توفي 672).

21) ابن مالك (بدر الدين محمد) الغالب أنه ولد بالشرق، ولكن امامته كانت بأبيه، شرح ألفيته وكافيته وتسهيله ولاميته، وله مشاركة في علوم البلاغة، ولم ينظم بيتا واحدا، على عكس أبيه الذي كان النظم طوع إرادته فنظم الآلاف من الأبيات (وتوفي عام 686).

22) ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن الجياني قاضي الجماعة، وأحد من ختمت به المائة السادسة، ثار على قصية العامل وألف فيه (توفي 592).

23) ابن معطي يحي بن معطي بن عبد النور الزواوي قرأ على الجزولي، ونظم أول ألفية في النحو احتذاها ابن مالك (توفي بالشرق 628).

24) ابن ملكون ابراهيم بن محمد الاشبيلي الحضرمي، كان إماما في النحو، روى عنه ابن خروف والشلوبين وغيرهما وشرح الحماسة (ت 584).

25) ابن هشام محمد بن أحمد اللخمي، أبو عبد الله السبتي النحوي اللغوي، كان قائما على العربية وآدابها، مع حظ في علوم غيرها، من تآليفه المدخل إلى تقويم اللسان في علم البيان، وكتاب المفصل والجمل في شرح علم الجمل، ونكت على شرح أبيات سيبويه للأعلم الشنتمرى، ولحن العامة وشرح الفصيح، وشرح مقصورة ابن دريد، وتآليف مفيدة استعملها الناس وبقي منها لحن العامة، وهو كتاب جليل، ذكر له ابن دحية في المطرب أبياتا في معاني الخال، (كان حيا سنة 557).

26) ابن يسعون يوسف بن بقى استيجي، قرأ بمدينة ألمريه Almeria، وكان أديبا نحويا لغويا فقيها فاضلا جليل العلم (ت 541).

27) أبو حيان محمد بن يوسف النفزي الجياني الغرناطي، عالم العربية واللغات، وواضع النحو للتركية والفارسية وغيرهما (ت 745).

28) الأعلم يوسف بن سليمان الشنتمري نسبة إلى Santamaria من البرتغال المعروفة باسم Faro وكان عالما بالعربية وأشعارها حافظا (ت 476).

29) الجزولي عيسى بن عبد العزيز بن يالبخت السوسي المراكشي، أول من اشتهر بالنحو والتعمق فيه من المغاربة، له القانون (ت 607).

30) حازم محمد بن حسن القرطجني، نسبة إلى Cartagena شيخ البلاغة والأدب، وأوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة (ت 684).

31) الخشني أبو ذر الجياني القاضي الأستاذ في العربية والأديب الشاعر، من رجال القرن السادس، من شعره ما خاطب به القاضي عمر وقد أثرت الشمس في وجهه «وسمتك الشمس يا عمر ☆ وسمة في القلب تنتثر» وذكر له شعر آخر في نفح الطيب، وهو نحوي ابن نحوي فقيه حافظ.

32) الخضراوي محمد بن يحي بن هشام الخضراوي نسبة إلى الجزيرة الخضراء كان رأسا في العربية أخذ عن الرندي وابن خروف وغيرهما (توفي عام 640).

33) خطاب يوسف بن هلال القرطبي الماردي نسبة إلى Mereda من جلة النحاة ومحققيهم في علوم اللسان وله شعر وتآليف (مات بعد 450).

34) الرندي عمر بن المجيد أبو علي الرنـدي نسبـة إلى Ronda الأستـاذ النحـوي من تـلاميـذ السهيلي ومقرئي الكتــاب لسيبـويــه، لــه شرح على الزجاجي.

35) السرقسطي ذكر بالشـذور، ولم نهتـد إليـه، ولعلـه عثمان بن فرج العبدري، نزيل القاهرة، والمترجم في صلة الصلة والتكلة والذيل (ت 570). أو أبو طاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميي صـاحب المسلسل في غريب اللغة والمتوفي عام 598 بقرطبة.

36) السهيلي نسبـة إلى جبل سهيل المشرف على Fuengirola وهـو أبـو القاسم عبد الرحمن، تلميذ ابن الطراوة وابن طاهر كان مشـاركا ومن تـآليفـه الأمالي في العربية والحديث والفقه (ت 581).

37) الشـاطبي القـاسم بن فيرة Fierro الرعيني، كان إمـامـا في النحـو والقراءات والتفسير والحديث حافظا محققا له منظومة في القراءات والتفسير والحديث حافظا محققا له منظومة في القراءات (توفي سنة 590).

38) الشلـوبين عمر بن محمـــد الاشبيلي، لقب أو نسب إلى Salebrena إمـام عصره في العربيـة والنقـاد للشعر وغيره وكان بـارعـا في التعليم (تـوفي 645).

39) الصفـار قـاسم بن علي البطليوسي، صحب الشلوبين وابن عصفـور وشرح كتاب سيبويه، ورد فيه على الشلوبين بشدة (مات بعد 630).

40) الصيري عبـد اللـه بن علي، لــه التبصرة في النحـو، قــال فيــه السيوطي : إنـه كتـاب جليل أكثر مـا يشتغل بـه أهـل المغرب، وقـد أكثر النقل عنه أبو حيان، وله ذكر في جمع الجوامع، كا يقول، في بغية الوعاة.

41) المالقي يحي بن علي، أبو زكريا الحضرمي، النحوي الأديب، الرحالة سمع بمصر وبنيسابور وروى عنه التاج الفراري (توفي بغرة 640).

هؤلاء كلهم أندلسيون إلا ابن معطي والجزولي المغربيين، ويصح أن يضم إليهم ابن مالك (بذر الدين) الذي ربما ولد بسوريا، ومع هذا فإن الأولين تلقيا علمها عن رجال الأندلس في غالبهم، وتلقى ابن مالك الابن علم النحو عن والده، ولهذا نعده ضمن النحاة الأندلسيين، زيادة عن كونه أندلسي الأصل.

على أن اسم المغاربة كان يعم الأندلسيين وأهل المغرب على السواء، فحينما يذكرهم ابن هشام باسم المغاربة لا يفرق بين هؤلاء وأولئك، ويعممهم جميعا بهذه التسمية، وإن كان جل اعتماده على الأندلسيين الذين يذكرهم بأعيانهم مما شفع لنا في عنواننا.

ومن المعقول أن يكون موقف ابن هشام من هؤلاء وهو يتعرض لآرائهم، موقف المؤيد أحيانا والمعارض أحيانا أخرى، وهذا لا يهمنا بقدر ما يهمنا اتصاله بهؤلاء الأندلسيين، وعرضه لآرائهم، التي لولاه لضاع جانب كبير منها.

وبما أن ابن مالك (جمال الدين) كان في الذروة من هؤلاء، فهو يشيد بإمامته في علمه، وينافح عنه حتى شيخه أبا حيان، الذي لم يملأ منه ـ كما يبدو ـ الحيز الذي ملأه ابن مالك، فأقبل على كتبه، واختص منها ألفيته بذلك الشرح الذي لم نر مثله بين شروح الألفية، لا في سطحه ولا في عمقه، طول نفس وتوسعا في الآراء، وأخذا وردا للنظريات، على المستوى العالي.

وبعد فلننظر فيا أخذ به عن هؤلاء الأندلسيين عامة أو رفضه من بعضهم.

فمن الابدي، ذكر أنه يجعل «كلا» في نحو «كلما استدعيتك فإن زرتني فعبدي حي» مرفوعا بالابتداء، وأن جملة الشرط والجواب خبرها، وأن الفاء دخلت على الخبر، دخولها في نحو «كل رجل ياتيني فله درهم» وأن في الكلام حذف ضميرين، والتقدير يكون «كل» في هذا لم ترد إلا منصوبة، مثل «كلما نضجت» «كلما أضاء» وهو كثير في القرآن.

وقال في الآية ﴿إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما﴾ «إن «أو» فيهما للتنويع، حكمها حكم الواو، في وجوب المطابقة، وهو الحق عند ابن هشام، رادا به على من استشكل تثنية الضمير في الجواب «فالله أولى بهما» فهو يراه بالإفراد عائدا على أحدهما اسم يكن. ومنع الأبدي في «افتعل» المعتل عينه، ان يضم في البناء للمجهول، ماقبل العين منه، فلا يقال «اختور» ومنع نيابة الثاني من مفاعيل باب أعلم، لأن الأول مفعول صحيح، والأخيران مبتدأ وخبر، شبها بمفعولي أعطى، وأجازه قوم..

وأما فيما يتصل بذكر ابن الأبرش فقد سئل بحضرته ابن الأخضر عن وجه النصب في قول النابغة.

«مقالة أن قد قلت سوف أناله» فأنشد ابن الأخضر :

«ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى» واكتفى بهذا الجواب. فلما سئل، قال ابن الأبرش «قد أجاب» يعني أن «مقالة» لما أضيفت إلى المبني اكتسبت منه البناء، على الفتح، وكان حقها أن ترفع، لأنها بدل من أنك لمتني» وهو فاعل أول البيت، قبل هذا.

قال ابن هشام : وهذا الجواب عندي غير جيد، لعدم ابهام المضاف، ولو صح، لصح البناء في نحو غلامك، وفرسه (اكتسابا من الضمير).

وذكر عن ابن أبي الربيع أن فعل الاستغاثة ضمن معنى الالتجاء في نحو «يالزيد»، والتعجب في نحو «ياللدواهي» فصح تعلق لام الاستغاثة به، ولو ترك على ظاهره لما تعلق به ذلك الحرف، لكونه متعديا بنفسه، وبهذا اعترض على من قال بتعلق اللام بالفعل المحذوف، كابن الضائع وابن عصفور، اللذين نسبا القول به لسيبويه، وأجابا على الاعتراض، بأن فعل الاستغاثة، لما وجب حذفه، ضعف تعديه، فقوي باللام.

وقال في «ليت» إنها إذا اتصلت بها «ما» الحرفية أزالتها عن اختصاصها بالأسماء، وجاز دخولها على الأفعال، فيقال مثلا : «ليتما قام زيد» وبهذا قال طاهر القزويني، وخالفهما ابن هشام، ومنع القول «ليتما قام زيد» وابان ابن أبي الربيع عن الوجه، فقال في «ليتما زيدا أضربه» بالنصب على إضمار فعل الاستغاثة فهو جائز في هذا جوازه في نحو «إنما زيدا أضربه»، وأصر ابن هشام على المنع فقال، إنه سمع «إنما قام زيد» ولم يسمع «ليتما قام». وقال ابن الربيع أيضا في «لكن» المخففة، إنها حين اقترانها بالواو، تكون عاطفة جملة على أخرى، أما إن وليها مفرد، فتعطف بشرطين، أن يتقدمها نفي أو نهي، وأن لا تقترن بالواو، وبه قبله قال الفارسي وغيره، وعارض آخرون، بأنها لا تكون مع المفرد إلا بالواو.

وكذلك قال ابن أبي الربيع في «عل» لا تستعمل إلا مجرورة بمن، ولا تستعمل مضافة، (سياق ذكرها مع غيرها في الخلاصة يوحي بجواز ذلك) وأما ما يتصل بأبي العافية، فقد قال في بيت أبي النجم :

قد اصبحت أم الخيار تدعي على ذنبا كلـه لم أصنـع

إن هنـاك فرقـا في المعنى بين رفع «كل» ونصبـه، ورد عليـه الشلوبين في هذه التفرقة.

وهذه القضية تناولها البيانيون والمناطقـة، فقـالوا «إن «كل» إذا وقعت في حيز النفي، كان النفي موجهـا إلى الشمول، نحو قول المتنبي : مـا كل مـا يتمنى المرء يـدركـه» ونحو «كل الـدراهم لم أخـذ» وإن وقع النفي في حيزهـا، كان النفي موجها إلى كل فرد فرد، كما في الحديث «كل ذلك لم يقع» ويلحق به «كله لم أصنع» فلا يكون هناك ذنب البتة قـد صنع، هـذا إن رفع «كل»، فـإن نصب، وقـع في حيز النفي، فيمكن أن يكـون قـد صنـع بعض الـذنب والمنفي إنما هو شمول الذنب، فهذا عند المنـاطقـة من قبل الكل، الـذي فيـه الحكم على المجموع، أمـا الآخر، فهـو من قبيـل الكليـة، إذ فيـه الحكم على كل فرد، وبهذا كان ابن أبي العافية على صواب....

وعن ذكر ابن الأخضر (وتقدمت الإشارة إلى ذلك) أنه سئل عن وجه النصب لكلمة «مقالة» في قول النابغة :

أتـــاني أبيت اللعن انـــك لمتني وتلـك التي تستـك منهـا المســامـع
مقـالـة أن قـد قلت سـوف أنـالــه وذلــك من تلقـاء مثلــك رائــع

فأجاب ابن الأخضر «ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى» يريد أن إضافة مقالة إلى المبني أكسبها البناء على الفتح... ورد عليه كما تقدم.

وفيما يكتسبه المضاف قيل :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا   مضافا لأرباب الصدور تصدرا
وإياك أن ترضى بصحبة ساقط   فتنحط قدرا من علاك وتحقرا

ومما نقل عن ابن البادش أن انتصاب «غير» في الاستثناء عن تمام الكلام، على التشبيه بظرف المكان، لا كانتصاب الاسم بعد «الا»، كما قال بذلك ابن عصفور وغيره من المغاربة، فيما ذكر ابن هشام، ولا ذلك على الحالية، كما قال به الفارسي، واختاره ابن مالك، وعنه أيضا، أن لام المستغاث لأجله متعلقة باسم محذوف، تقديره «مدعو لعمرو» في نحو قولهم «يالزيد لعمرو» وعند ابن جني متعلقة بالأداة «يا».

ويقول ابن البادش كذلك في نحو «نعم الرجل زيد»، أن المخصوص بالمدح مبتدأ، وقبله خبر له، وهو اختيار ابن خروف أيضا.

ويقول في باب الاشتغال، إن السابق ان تقدمه، أدوات النفي كما ولا وأن، يستوي فيه الرفع والنصب، وظاهر سيبويه اختيار الرفع.

وفيما يتصل بابن الحاج، فقد انكر على «المقرب» لابن عصفور، مجيء «لو» للتعليق في المستقبل، ولهذا لا تقول «لو يقوم زيد فعمرو منطلق» مع أنك تقول ذلك مع «ان» وكذلك أنكره بدر الدين ابن مالك، زاعما أن هذا الإنكار قول أكثر المحققين، قال ابن هشام، وفيه نظر...

وقال في الإشارة، التي تكون، كالضمير، من روابط الجملة، بما هي خبر عنه، ان ذلك مخصص بكون المبتدأ موصولا أو موصوفا، وكون الإشارة إشارة للبعيد كما في الآية ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار﴾، فالإشارة «أولئك» قائمة مقام «هم» وكذلك الآية الأخرى : ﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾ فقوله «كل

أولئك» قائمة مقام «كلها» والضمير في «عنه» عائد على «كل» «فالمبتدأ هنا موصول «الذين» في الأولى، ولكن في الثانية ترد عليه، اللهم إلا أن يقال بتأويلها بالمتصف بالبصر والسمع والفؤاد ولا يخلو من تكلف». ثم إن قيام اسم الإشارة للبعيد مقام الضمير موجود كذلك في الفارسية والتركية والاسبانية، ولا يقوم مقام الضمير، اسم الإشارة للقريب في هذه كلها. (فلعل هذه الالتفاتة منه ساعد عليها تلك اللغة المساكنة له).

وابن الحاج لا يلزم تقدم الفاعل على المفعول به، إن كان الإعراب لا يتبين فيها، نحو ضرب موسى عيسى، وقال، إنما التزم ذلك بعضهم.

ونقل الزجاج أنه لا خلاف في جعل «دعواهم» بالآية ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ اسم زالت أو خبرها، وتأخير البيان للحاجة جائز، والمنع إنما هو لمتأخرين، لأن الالتباس واقع في العربية، بدليل أسماء الأجناس والمشتركات، كذا قال ابن الحاج، فتكون الملابسات والسياق دليلا على المقصود، وزاد فقال إن العرب تجيز تصغير عمر وعمرو (على زنة واحدة) وبأن الإجمال من مقاصد العقلاء، وبأنه يجوز «ضرب أحدهما الآخر» وبأن تأخير البيان جائز...

وفيما يتصل بابن حزم فإنه ساق له بيتين فيما يكتسب المضاف من المضاف إليه، وفي ذلك التأنيث، وهما :

تجنب صديقا مثل«ما»واحذر الذي ... يكـــون كعمرو بين عرب وأعجم
فإن صديق السوء يزرى وشاهدى ... «كما شرقت صدر القناة من الدم

ففيه اكتساب المضاف من المضاف إليه التأنيث، ولهذا دخلت تاء التأنيث على فعله «شرقت صدر القناة» وهذا المصراع لبيت قاله الأعشى، وهو :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته　　　كما شرقت صدر القناة من الدم

وأما ما يتصل بابن خروف، فقد نقل عنه أنه قال في «أجل» إنها أكثر ما تكون بعد الخبر، وقال ابن مالك والزمخشري تختص به، دون الاستفهام، وقال أيضا في «اذن» إنها تكتب بالألف إن عملت، وبالنون إن لم تعمل، وهو قول للفراء.

وقال في «أما» بالفتح والتخفيف، إنها حرف وجعلها مع أن ومعموليها كلاما تركب من حرف واسم. وغيره يجعلها بمعنى «احقا» أو «حقا» فهي بهذا الأخير اسم بمعناه، أما الأول فيزعم أنها مركبة من همزة الاستفهام و «ما» اسم بمعنى شيء، وذلك الشيء حق، فالمعنى «أحقا».

وقال في «كنتي» إن التاء هنا علامة كالواو في «أكلوني البراغيث» (فهي علامة للمتكلم، كما أن الواو علامة على جماعة الغائبين عنده، فرارا منه أن يكون النسب إلى الجملة) وجعل ذلك ابن هشام وهما منه لأنه لم يثبت في كلامهم أنها تكون علامة.

وقال في «ما خلا» من قول لبيد : «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» ان موضعها نصب على الاستثناء، كانتصاب «غير» في نحو : «قاموا غير زيد» وقال السيرافي على الحال، وهذا الخلاف في محلها ثابت في حاشا وعدا، وزعم غيرهما الجر، وتقدير «ما» زائدة.

وقال ابن خروف في «ليس غير» إن ضمته تحتمل وجهين، ضمة اعراب، وضمة بناء، كما يجوز «ليس غيرا» كذلك بالتنوين وفي هذه الحالات، فالحركة اعراب.

وقال في «كذا» إنها لا تنصب تمييزها، فلا يقال «كذا درهما» وذكر ابن مالك أنه مسموع ولهذا قال في الألفية :

كم كأي ن وكـــــذا وينتصب   تمييز ذين أو بـه صـل من تصب

وقال في جملة أنواع اللام، إن من زيادتها لام المستغاث، كما عند المبرد، بدليل صحة اسقاطها، وقال آخرون، إنها غير زائدة.

وقال في «لما» إنها غير اسمية، رادا على من قال بأنها ظرف زمان، مثل حين، أو «إذ» لأنه يجوز أن يقال «لما أكرمتني أمس أكرمتك اليوم» فإذا قدرت هنا ظرفا، كان عاملها الجواب، والواقع في «اليوم» لا يكون في «الأمس» ولكن المعنى «لما ثبت اليوم اكرامك أمس أكرمتك اليوم.

وقال في «ما» التامة، ما تكون خاصة، وهي التي تقدمها اسم، تكون هي وعاملها صفة له، نحو «غسلته غسلا نعما» أي نعم الغسل، فهي فاعل، قال ابن هشام «وأكثرهم لا يثبت مجيء ما معرفة تامة، وأثبته جماعة، منهم ابن خروف، ونقله عن سيبويه.

وقال في قولهم عند إرادة المبالغة «ان زيدا مما أن يكتب» : ان «ما» معرفة تامة بمعنى الشيء أو الأمر، و «أن» وصلتها مبتدأ والظرف خبره، والجملة خبر لأن المشددة، زعم هذا السيرافي - كما قال ابن هشام - وابن خروف وتبعها ابن مالك، ونقله عن سيبويه.

وقال أيضا ابن خروف في «ماذا» الواردة في هذا البيت :

دعي مـــاذا علمت ســـأتقيـــه   ولكن بـــــــــــالمغيب نبئيني

إنه موصول بمعنى الذي، وكذا قال السيرافي، وقال الفـارسي، إنـه نكرة بمعنى شيء.

وقال ابن خروف في «ما» المصدريـة، إنها حرف، بـاتفـاق، والصواب الخلاف فيها، كا قال ابن هشام، فقد قال الأخفش وأبو بكر باسميتها.

وقـال ابن خروف أيضـا في «من» بـالكسر، إنهـا ترادف «ربمـا» إذا اتصلت بما، كا في قوله :

وانـــا لما نضرب الكبش ضربـــة   على رأســه تلقى اللســان من الفم

وتقدم أن الاعلم كابن طاهر قال بهذا أيضا.

وقال ابن خروف في الآيـة ﴿لست عليهم بمصيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله﴾ إن «من» مبتدأ، و «يعذبه الله» خبر، والجملـة في موضع نصب، على الاستثناء المنقطع.

وفي دخـول أدوات النفي على الســابـق في الاشتغــال، جــوز، كابن الباذش، النصب والرفع على السواء.

وقد خالف ابن خروف من اشترط في المفعول لأجلـه، اتحـاده بـالمعلل به فاعلا، فأجاز نحو «جئتك محبتك إياك».

وقـــال في «غير» بنحـو «قبضت عشرة ليس غير» يجـوز أن تكـون اسم ليس والضمة ضمة اعراب أو بناء، وتكون في هذا خبرا كذلك.

وكذلك قال ابن خروف، إنه لا تقدير في نحو «زيد عندك» و «عمرو في الدار» وبه قال ابن طاهر، بعد الكوفيين، وقالا، إن ناصب الظرف هو المبتدأ، وان المبتدأ يرفع الخبر إذا كان عينه، نحو «زيد أخوك» وينصبه إذا كان غيره، فكأنها قالا بالنصب على الخلاف، وهو عند الكوفيين عام، فقالوا، إن الناصب أمر معنوي، وهو المخالفة للمبتدأ.

وقال في «أفعل به» التعجبية، إن لفظه ومعناه الأمر، وفيه ضمير، والباء للتعدية، وهو للفراء والزجاج والزمخشري وابن كيسان، وقال في قول الشاعر «فخير نحن عند الناس منكم» إن الوصف خبر لنحن محذوفة، وقدر «نحن» المذكورة توكيدا للضمير في أفعل التفضيل، التي أغنت عنها «خير» لأن أفعل لا تعمل في الظاهر، في غير مسألة الكحل، وتبع في هذا أبا علي الفارسي.

وقال في المنادى بنحو «يا ثلاثة وثلاثين» بامتناع إعادة حرف النداء في «ثلاثين» والمنادى جماعة معينة.

وقال ابن خروف إن المستأنف قد يكون على معنى السببية، وتقدم ذلك فيما صرح به الأعلم الشنتمري.

ورد ابن خروف على من أعرب «أعمالا» في الآية ﴿بالأخسرين أعمالا﴾ مفعولا به، بأن «خسر» لا يتعدى كنقيضه «ربح» ووافقه الصفار، قال ابن هشام : وثلاثتهم ساهون، لأن اسم التفضيل لا ينصب مفعولا به، ولأن خسر متعد، كما بالقرآن ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾.

وقال ابن خروف، بوقوع الذي مصدرية، وبه قال ابن مالك ـ بعد يونس والفراء والفارسي ـ وجعلوا منه «ذلك الذي يبشر الله عباده»،

و «خضتم كالذي خاضوا» أي كخوضكم، وكذلك «أن» المصدرية، تقع بمعنى الذي، كقولهم «زيد أعقل من أن يكذب» أي من الذي يكذب، فهما يتقارضان، كما قال محمد بن مسعود الزكي في كتابه البديع.

وقال ابن خروف بعدم اشتراط اتحاد فاعلي الفعل والمصدر المعلل، في حذف عامل المصدر المؤكد إلا فيما استثني.

وقال في نحو «نعم الرجل زيد» إن المخصوص بالمدح مبتدأ، وما قبله خبر، كما تقدم، وهو اختيار ابن الباذش أيضا كما مر عنده.

ويقول ابن خروف بأن الظرف إنما يتحمل الضمير إذا تأخر عن المبتدأ، وهذا مخالف ـ كما يقول ابن هشام ـ لاطلاقهم، ولقول أبي الفتح ابن جني في «عليك ورحمة الله السلام» ان الأولى حمله على العطف على ضمير الظرف، لا على تقديم المعطوف على المعطوف عليه.

وقال ابن هشام أيضا في قول الشاعر «لمية موحشا طلل» لا نسلم أن صاحب الحال «طلل» بل ضميره المستتر في الظرف، لأن الحال حينئذ خال من المعرفة.

وعن ابن خروف في قولهم «قاموا ما خلا زيدا» أن «ما» وصلتها نصب على الاستثناء، وهو قول الشلوبين كذلك، وغلطها ابن هشام، بأن معنى الاستثناء قائم بما بعدها لا بها، والمنصوب على معنى لا يليق ذلك المعنى بغيره.

وأما ما يتصل بابن السيد، فقال في «كأن» إن التشبيه بها لا يكون إلا إذا كان خبرها اسما جامدا؛ نحو «كأن زيدا أسد»، بخلاف كأن زيدا قائم،

أو «في الدار أو عندك، أو يقوم» فإنها في ذلك كله للظن، وهو قول لجماعة أيضا.

وفي الاشتغال والفعلي طلبي، قال باختيار الرفع في العموم، نحو «الزانية والزاني فاجلدوا» والنصب في الخصوص، نحو «زيدا اضربه».

وفيما يخص ابن سيده، فإنه حكي عنه في «قد كنت في خير فتعرف» بنصب تعرف، وإليه أشار ابن مالك في التسهيل، حيث قال «وربما نفي بقد فنصب الجواب بعدها».

وعنه أن «متى» في قول أبي ذؤيب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج

إنها بمعنى وسط.

وقال في شرح الجمل «لا يكون الفعل المستفهم عنه إلا مستقبلا» وجعل ابن هشام هذا منه سهوا بنحو «فهل وجدتم ما وعد ربكم».

وقال ابن خروف في بيت الأعشى :

«لقد كان في حول ثواء ثويته   تقضي لبانات ويسأم سائم»

إن الهاء في «ثويته» يجوز أن تكون للحول، على الاتساع في ضمير الظرف بحذف كلمة «في» «قال ابن هشام، وليس بشيء لخلو الصفة حينئذ من ضمير الموصوف، ولاشتراط الرابط في بدل البعض، وجب في نحو قولك «مررت بثلاثة زيد وعمرو» القطع أي منهم.

وفيما يتصل بابن الضائع، فإنه قال في الآية ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ أن «إلا» بمعنى «غير» التي يراد بها البدل والعوض، وهذا هو

المعنى في المثال الذي ذكره سيبويه، توطئة للمسألة، وهو «لو كان معنا رجل إلا زيد لغلبنا» أي رجل مكان زيد، أو عوضا من زيد، وبهذا قال الشلوبين كذلك، وقال ابن الضائع أيضا، في البيت :

ألم يأتيك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بني زياد

إن الباء في «بما» متعلقة بتنمى، وأن فاعل يأتي مضمر، فالمسألة من باب الاعمال. وقال إن لام المستغاث، متعلقة بفعل النداء المحذوف، وبه قال ابن عصفور، أيضا، ونسبا القول لسيبويه.

وقال جوابا لمن استبعد في اللامين في الاستغاثة كون العامل الواحد لا يتصل بحرف واحد مرتين، إن الحرفين مختلفان في المعنى كما في قولك : «وهبت لك دينارا لترضى».

وقال في «لو» التمني، إنها قسم برأسها، لا تحتاج إلى جواب كجواب الشرط، ولكن قد يوتى لها بجواب منصوب كجواب «ليت»، وهذا القول لابن هشام الأندلسي أيضا (وهو الخضراوي).

ورد ابن الضائع، على ابن عصفور، الذي رد على الأعلم وابن خروف، القائلين بأن (المستأنف قد يكون على معنى السببية، بأن الإذن في الاعتذار بالآية ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ قد يحصل ولا يحصل اعتذار، بخلاف القضاء عليهم الوارد بالآية ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ فإنه يتسبب عنه الموت جزما، بأن النصب على معنى السببية كما في «ما تاتينا فتحدثنا» جائز بإجماع، مع أنه قد يحصل الإتيان ولا يحصل التحديث.

وفيما يخص ابن طاهر فقد قال، كالسيرافي والأعلم وابن خروف، إن «من» بالكسر، ترادف «ربما» وخرجوا عليه قول سيبويه «واعلم أنهم مما يحذفون كذا» إذ التقدير «اعلم أنهم ربما يحذفون كذا».

وقال ابن طاهر أيضا، كما تقدم عن ابن خروف، أن لا تقدير في نحو «زيد عندك وعمرو في الدار» وأن الناصب للظرف هو المبتدأ.

وقال في نحو «رب رجل صالح لقيته، أو لقيت» إن مجرور «رب» مفعول في الثاني، مبتدأ في الأول، أو مفعول على حد «زيدا ضربته»، ويقدر الناصب بعد المجرور، لا قبل الجار، لأن رب لها الصدارة، وإنما دخلت لإفادة التكثير أو التقليل، وهو قول الرماني أيضا.

وقال في البيت :

«فان لا مال أعطيه فإني صديق من غدو أو رواح»

ان ما بعد «ان لا» جملة اسمية، نابت عن الجملة الفعلية، وكذا قال آخرون في «هلا» بالبيت :

ونبئت ليلى أرسلت بشفاعة إلى فهلا نفس ليلى شفيعها

قال ابن هشام : والصواب في الأولى «فان أكن» وفي الثانية «فهلا كان» أي الأمر والشأن والجملة الاسمية فيها خبر.

وفيما يتصل بابن الطراوة، فقد قال في «أي» من الآية ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم﴾ إنها مقطوعة عن الإضافة، فلذلك بنيت، وان «هم أشد» مبتدأ وخبر، قال ابن هشام : وهذا باطل برسم الضمير متصلا بأي،

وبالاجماع على أنها إذا لم تضف. كانت معربة، (والأول لا يلزمه لأن رسم المصحف قد يخالف المعهود كما في «مال هؤلاء القوم».

وقال في دخول همزة الاستفهام على جملة فيها اشتغال، إن كان الاستفهام عن الاسم فالرفع نحو «أزيد ضربته أم عمرو» وشذ النصب.

وقال ابن الطراوة كذلك في «لات» إنها كلمة وبعض كلمة، وذلك أنها «لا» النافية، والتاء زائدة في أول الحين، وبه قال أبو عبيدة.

واستشكل ابن الطراوة قولهم في «يانصر نصر نصرا» : «إن الثاني عطف بيان على اللفظ والثالث على المحل، بأن الشيء لا يبين نفسه، فهو توكيد، وتابعه المحمد ان ابنا مالك ومعطي. وقال، إن جواب «لولا زيد» هو خبر المبتدأ قال ابن هشام، ويرده أنه لا رابط بينهما.

وقال في «نعم» بعد النفي إنه لحن، كما في «الست تقول كذا» و «أفلست تفعل كذا» وفصل في ذلك الشلوبين، كما ياتي.

وعند أبي الطراوة، كابن مالك والرماني، أن وصل الضمير أحسن من فصله، ان كان مفعولا ثانيا لفعل ناسخ نحو «بلغت صنع امرئ بَرٍّ إخَالُكَهُ».

وفيما يتصل بابن ظريف، فقد قال، كالسرقسطي، ان من جملة الأفعال فعل «حرى». وعلى ذكرها، قال ابن هشام، إن أبا حيان توهم فيها، وقال، إنما هي حرى بالتنوين، وان ابن مالك وهم فعدها من الأفعال، وهي اسم.

فقال ابن هشام، وأبو حيان هو الواهم، بل ذكرها أصحاب الأفعال من اللغتين، كالسرقسطي وابن طريف، وأنشدوا عليها شعرا وهو قول الأعشى :

ان يقـل هن من بني عبـــد شمس فحرى أن يكـــون ذاك وكانــــا

وفيا يخص ابن طلحة فقد اختار القول بصحة إقامة المفعول الثاني من باب «ظن» نائب فاعلها، إن لم يكن جملـة، ولم يكن لبس، ففي الأول لأن الفـاعل ونـائبـه لا يكون جملـة، وفي الثـاني كأن يكونـا معرفتين، نحو «ظن عمرو زيدا» في حالة كون عمرو مفعولا ثانيا.

وأما ما ورد على ابن العريف، فقال في نحو «زيـد قـام» بجواز فعليـة الجملة، على الإضمار والتفسير، وهو قول للمبرد وابن مالـك أيضـا، والكوفيون على التقديم والتأخير.

وأما ما يخص ابن عصفور فقد قال بجواز الفصل بين «إذن» ومعمولهـا بالنداء، وكذا ابن بابشاذ وزاد الدعاء نحو «اذن يافلان أو وفقت أكرمك».

وقـال في «أن» المخففـة، كما في شرحـه الصغير للجمل، إنهـا قـد تكون مفسرة بعد صريح القول.

وقال في «أن» واقعـة بين «لو» وفعل القسم، نحو «فـأقسم أن لو التقينـا» أو «واللـه ان لـو كنت حرا» انهـا في ذلـك حرف جيء بـه لربـط الجـواب بالقسم، كذا في مقربـه واستبعـده ابن هشـام، بـأن الأكثر تركهـا، فهو دليل على زيادتها التي قال بها سيبويه وغيره.

وقال ابن عصفور بأن «أي» تضاف إلى نكرة، وخـالفـه ابن هشـام في أوضح المسالك، وهي اسم موصول.

وقال في «الـ» التي للحضور الذهني، إنها لا تقع إلا بعد أسماء الإشـارة، أو «أي» في النداء، أو «إذا» الفجـائيـة، أو في اسم الزمـان الحـاضر نحو «الآن»

وبعدها اعترض هذا ابن هشام، بأمثلة، قال في الأخير، والمثال الجيد فيه «اليوم أكملت لكم دينكم».

وقال، إنهم أجازوا في نحو «مررت بهذا الرجل» كون الرجل نعتا، وكونه بيانا، مع اشتراطهم في البيان أن يكون أعرف من المبين.

وفي النعت أن لا يكون أعرف من المنعوت، فكيف يكون الشيء أعرف وغير أعرف ؟ فأجاب ابن عصفور، بأنه إذا قدر بيانا، قدرت «الـ» فيه لتعريف الحضور، فقد بينت الجنس بذاته والحضور بدخول «الـ» والإشارة إنما تدل على الحضور دون الجنس، وإذا قدر نعتا، قدرت «الـ» فيه للعهد، فالمعنى، مررت بهذا وهو الرجل المعهود بيننا، فلا دلالة فيه على الحضور، والإشارة تدل عليه، فكانت أعرف.

وقال إنه يجوز في نحو «لعمرك لأفعلن» أن يقدر لقسمي عمرك، فيكون فيه حذف المبتدأ، وغيره يقدر «لعمرك قسمي» بحذف الخبر.

وقال في نحو «جاءني إما زيد وإما عمرو» إن الإجماع على أن «إما» الثانية غير عاطفة كالأولى، وأنها إنما ذكروها في باب العطف لمصاحبتها لحرفه، وكذا قال يونس والفارسي وابن كيسان ووافقهم ابن مالك، لكونها ملازمة الواو العاطفة غالبا، ومن غيره «أيما إلى جنة أيما إلى نار» كما في الشعر.

وقال ابن عصفور في كون معمول أفعال النواسخ يليها معمول خبرها، فأجاز ذلك أن تقدم الخبر معه، وإلا فلا نحو «كان طعامك زيد آكل»...

ونقل ابن عصفور عن سيبويه، في الإضراب بحرف «بل» كونه بشرطين، تقدم نفي أو نهي، وإعادة العمل، نحو «ما قام زيد أو ما قام عمرو» و «لا يقم زيد أو لا يقم عمرو».

وقال بمنع تقدم المفعول على الفاعل عند اللبس، وهو قول أبي بكر والمتأخرين، كالجزولي وابن مالك، وخالفهم ابن الحاج كما تقدم.

وقال في قول الشاعر :

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجرب

وهو على تضمين «مطلي» بمعنى مبغض قال : ولو صح مجيء «إلى» بمعنى في «الجاز» «زيد في الكوفة» رادا بهذا على من قال به أي بموافقة «إلى» لفي، قال ابن مالك، ويمكن أن يكون منه «ليجمعنكم إلى يوم القيامة» بمعنى فيها.

واختار ابن عصفور في «إذا» أن تكون ظرف زمان، كما قال الزجاج، واختار ابن مالك، أن تكون ظرف مكان، كما قال المبرد.

ومنع ابن عصفور أن يقام المفعول الثاني في باب أعلم، نائب فاعل، وكذلك قال الخضراوي والأبدي كما سبق، إذ السماع لم يأت إلا بالواو، وقال في بيت نصيب :

فقال فريق القوم لما نشدتهم نعم وفريق أيمن الله ما ندري

بجواز جعل «أيمن» خبرا، والمبتدأ محذوف، أي «قسمي أيمن الله».

ومنع، ضم ما قبل العين المعتلة من الماضي، حين يبنى للمجهول من افتعل، فلا يقال «اختور» بل «اختير» وتقدم ذلك.

وقال في البيت :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

بأن المراد أن الجد أتاه السؤدد من قبل الأب، والأب من قبل الابن، وبهذا يكون الترتيب حاصلا بثم، ولكن يعضله قبل ذلك.

وقال في نحو «اعتكف في الشهر حتى في آخره» إن في إعادة الجار مع «حتى» أحسن، ولم يجعلها واجبة، كما فعل ابن مالك في عطفها، فيما ذكره ابن هشام (وإن كان في الخلاصة، لم يوجب إعادة الخافض، حتى ولو كان العطف على ضمير، كما قال «وليس عندي لازما»).

وقال في «إليك» من الآية ﴿واضمم إليك جناحك﴾ إنها إغراء، والمعنى خذ جناحك، أي عصاك، ورده ابن هشام.

وقال ابن عصفور أيضا، وقد تقدم، بانتصاب «غير» على الاستثناء، كانتصاب الاسم بعد إلا، واختار ابن مالك أن يكون على الحالية.

وقال أيضا، إن القسم إذا أجيب بماض متصرف مثبت، فإن كان قريبا من الحال، جيء باللام وقد جميعا، نحو «تالله لقد آثرك الله علينا»، وإن كان بعيدا جيء باللام وحدها كقوله :

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صال

وقال في وجوب حذف الفعل، إذا أقيم المصدر مقامه في الطلب، إن الوجوب في خصوص التكرار، أو كان مقرونا باستفهام توبيخي.

وقال، إن «قد» مع الماضي تفيد التقريب، وبه قال ابن مالك، في شرط دخولها كون الفعل متوقعا، كما نص عليه في التسهيل.

وقال ابن عصفور، تابعا لأبي الحسن، يجوز في نحو «فإذا زيد قد ضربه عمرو» النصب على الاشتغال، ويمتنع بدون «قد» (لعدم اقتران الشرطية بها).

وقال في «أولم يهد لهم كم أهلكنا» إن «كم» هنا فاعل ورده ابن هشام، بأنها لها الصدارة (فلا تكون فاعلا، لتقدم الفعل عليه).

وقال بالاستفهام في «كأي» وقد قال به ابن قتيبة، ثم قال به ابن مالك مستدلا بالمستفهم في «كأي تقرأ سورة الأحزاب» فأجيب ثلاثا وسبعين).

وقال بجواز جر «كأي» تابعا لابن قتيبة في «بكأي تبيع هذا الثوب» وخالف في ذلك الجمهور، ومنهم ابن هشام.

وقال ابن عصفور بعد المبرد والسيرافي والأخفش وابن كيسان في «كذا» بما نسب لفقهاء الكوفيين في قولهم «إن عندي كذا كذا درهما»، و «كذا درهما» «وكذا وكذا درهما» يلزم منه في الأول أحد عشر، وفي الثاني عشرون، وفي الثالث أحد وعشرون حملا على المحقق في نظائرهن من العدد الصريح، ولم يوافقوا الكوفيين في جواز «كذا ثوب» «وكذا أثواب» بالإضافة فيلزم بالأول مئة وبالثاني ثلاثة عند فقهائهم.

وقال في «كأن» من قول الحريري «كأني بك تنحط» بزيادة الباء كالكاف في قولهم «كأنك بالشتاء مقبل» فهما كافتان لِكَأنَّ عن العمل، كما تكفها «ما» والباء زائدة في المبتدأ.

وقال في قول الشاعر :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه   وما كل مؤت نصحه بلبيب

يجوز أن يكون «مؤتيك» جمعا حذفت نونه للإضافة، فدخول «كل» مجموع مذكر، ويكون مفردا مذكرا، ومؤنثا فيهما.

وتقدم أن ابن عصفور والأبدي، قالا إن «كلا» في نحو «كلما استدعيتك فإن زرتني فعبد حر» مرفوعة بالابتداء، ورد ذلك عليهما.

وقال ابن عصفور أيضا، في «يالي» من قول الشاعر :

«فيا شوق ما أبقى   ويالي من النوى»

أن يكون مستغاثا من أجله، لأنه لو كان مستغاثا به، لكان التقدير، يا أدعو لي، وذلك غير جائز في غير ظننت، وحسبت، وفقدت، وعدمت مما يلزم فيه أن يتعدى فعل المضمر المتصل إلى ضميره المتصل على مقتضى قوله «يالزيد لعمرو» إن لام لعمرو متعلقة بفعل محذوف «ادعو» وتقدم هذا عند ابن الباذش.

وقال ابن عصفور في اللام الثانية في الاستغاثة، إنها متعلقة بمحذوف هو فعل من جملة مستقلة، أي أدعوك، وإن هذا قد وقع عليه الإجماع مع أن فيه من يقول بتعلقه باسم، هو حال من المنادى، أي مدعوا، فلاشك أنه لم يطلع على هذا القول، كما قال ابن هشام.

وقال في لام المستغاث، إنها متعلقة بفعل النداء المحذوف، وهو قول الأكثرين، واختاره ابن الضائع أيضا، ونسباه لسيبويه، كما مر.

وقال في اللام للتبيين، فيما التبيين فيه للمفعولية، نحو «سقيا لزيد وجدى عاله» ان المحذوف في هذا ليس «أعني» لأنه لا يتعدى بنفسه بل التقدير «ارادتي لزيد».

وقال في البيت «ولو أن مـا أسعى لأدنى معيشة» إن موضع «أن» رفع بالابتداء، والخبر محذوف، يقدر مؤخرا، ويشهد لمجيئه كذلك، بعد البيت.

عنـدي اصطبـار وامـا أنني جـزع   يـوم النـوى فلـوجـد كاد يبريني

بخلاف غيره القائل بكونـه يقـدر مقـدمـا، في نحو «ولو أنهم آمنوا» بلو ثبت إيمانهم على حد «وآية لهم أنا جعلها».

وقال ابن عصفور في جواب «لما» : (إنه يكون فعلا مضارعا، مستـدلا بنحو «فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا» وقـال غيره، إن الجواب هو «جاءته البشرى» على زيادة الواو، أو أنه محذوف، تقديره «أقبل» يجادلنا.

وفصّل ابن عصفور في المضارع الواقع جوابا للأمر بـاسم الفعل، فقـال إن كان عن لفـظ الفعل فجـائز النصب كنزال وإلا فلا نحو «صـه فنكرمـه» فلا ينصب جوابا.

وقال، إن «لن» قد تاتي للدعاء، كما تاتي «لا» وهو رأي لجماعة كـذلـك وحجتهم نحو قوله :

لن تـزالـوا كـــذلكم ثم لازلت   لكم خـــالـــدا خلـود الجبـــال

وقـال في «لكن» المشددة، إنها للتـوكيـد دائمـا مثـل «ان» كـذلـك، ويصحب التوكيد معنى الاستدراك، قال في كتابه «المغرب» «إن وأن ولكن» معناها التوكيد، ولم يزد على ذلـك، وقـال في الشرح، معنى «لكن» التوكيـد وتعطي مع ذلك الاستدراك. «وقـال في نحو «مـا قـام زيـد ولكن عمرو» إن لكن عاطفة، والواو زائدة لازمة.

وقال في «ماذا» الواردة في قول الشاعر، وتقدم :

دعي ماذا علمت سأتقيه ولكن بالمغيب نبئيني

إنها لا تكون مفعولا لفعل «دعي» لأن الاستفهام له الصدارة، ولا لفعل «علمت» لأنه لم يرد أن يستفهم عن معلومها : ماهو ؟ ولا لمحذوف يفسره «سأتقيه» لأن علمت حينئذ لا محل لها، بل «ما» اسم استفهام، وتقدم فيها عن ابن خروف، أنها موصول بمعنى «الذي».

وقال في «نعم» إنها بعد الاستفهام، كما في نحو «هل تعطيني» للوعد، ذكر هذا في «المغرب» وقال ابن هشام : وهو غير مطرد، وقال إن العرب أجروا التقرير في الجواب مجرى النفي المحض، وإن كان إيجابا في المعنى فإذا قيل «ألم أعطك درهما» قيل في تصديقه «نعم» وفي تكذيبه «بلى» لأن المقرر قد يوافقك في المدعى وقد يخالف، فإذا قال : «نعم» لم يعلم، هل «لم تعطني أو أعطيتني».

وقال في جملة أفعال الاستثناء : «ليس» و «ولا يكون» و «خلا» و «عدا» و «حاشا» بوجوب الاستثناء بها، وجوزه السيرافي.

وقال ابن عصفور أيضا، إن تثنية الضمير في الآية ﴿إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما﴾ شاذ. وتقدم عن الابدي أن «أو» حكمها الواو هنا.

وقال في جملة «مالهم من الله من عاصم» إنها خبر، واستبعده ابن هشام ومال إلى كونها معترضة بين أجزاء الصلة، للمصول في ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما﴾.

وقال في الآية ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ إن البصريين يقدرون نائب الفاعل في قيل ضمير المصدر وجملة النهي مفسرة لذلك.

وقال في مقربه، بعد أن ذكر أسباب الامالة، سواء كانت الكسرة متصلة أم منفصلة، نحو «لزيد مال» إلا أن المتصلة أقوى، وإذا كان حرف الاستعلاء منفصلا عن الكلمة لم يمنع الامالة إلا فيما أميل لكسرة عارضة، نحو «بمال قاسم» أو فيما أميل من الألفات صلات الضمير نحو «أراد أن يعرفها قبل».

وقال في «فعلان» لسب الذكور كلؤمان، وفعل، كلكع، إنهما قياسيان، وكذلك نومان لكثير النوم (وقال ابن مالك بالسماع).

وقال، إن السماع قد جاء بوصل الموصول بالجملة القسمية وجوابها، وذلك في قوله تعالى ﴿وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم﴾ لأن «ما» عنده موصولة لا زائدة وإلا لزم دخول اللام على اللام في «ليوفينهم»، ورده ابن هشام بأن الامتناع لأمر لفظي والفاصل يزيل ذلك.

وقال في التعليق لأفعال القلوب، إنه لا يعلق منها غير فعل علم وظن، حتى يضمن معناها.

وقال، إن الحكم على محل الجملة في التعليق بالنصب، ظهور هذا في التابع، مستدلا بقول كثير :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولت

وزعم سيبويه، أن الزمان المبهم، إن كان مستقبلا فهو كاذا، في اختصاصه بالجمل الفعلية، وإن كان ماضيا فهو كاذ في الإضافة إلى الجملتين، ورد عليه بقوله تعالى ﴿يوم هم بارزون﴾ ظرفا، ولكن هذا الجواب لا يتأتى في البيت :

وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة   بِمُغْنٍ فتيلا عن سواد بن قارب

ومنع ابن عصفور تعدد الخبر مطلقا، فلا يجيز في نحو «هذا عبد بعتكه، أو عبدي بعتكه» أن يكون «بعتكه» خبرا ثانيا.

وقال في كاف التشبيه : إنه من الحروف التي تتعلق في حروف الجر، تابعا للأخفش، استدلالا، بأنه إذا قيل، زيد كعمرو، فإن كان المتعلق استقر، فالكاف لا تدل عليه، بخلاف «في» من قولنا «زيد في الدار»، وإن كان فعلا مناسبا للكاف، فهو متعد بنفسه.

وقال في شرحه للجمل، تكسر إن إذا وقعت بعد واو الحال، قال ابن هشام وإنما الضابط أن تقع في أول جملة حالية، نحو «الا إنهم لياكلون الطعام» فالجملة حال في الآية ﴿ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا انهم لياكلون الطعام﴾.

ومنع ابن عصفور، تابعا للبيانيين، في شرحه للإيضاح، عطف الخبر على الإنشاء، وأجازه تلميذه الصفار، كما في الآية ﴿وبشر الذين آمنوا﴾.

وقال كذلك عند تعرضه للمواضع التي يعود الضمير فيها على متأخر لفظا ورتبة، إن منها أن يكون المبدل منه الظاهر المفسر له مثل «ضربته زيدا» فحكى الجواز عن الأخفش، والمنع عن سيبويه.

وجعل فتح «حين» في قول الشاعر «على حين عاتبت المشيب على الصبا» وقوله «على حين يستصبين كل تحلم» مرجوحا بخلاف ابن مالك فالفتح عنده أرجح من الإعراب فيها.

نقل ابن عصفور عن ابن السيد، أنه قال في قول أبي ذؤيب، وقد تقدم.

بينا تعانقه الكماة وروغه يوما أتيح له جريء سلفع

ان من رواه بجر «تعانقه» مخطئ، لأن «تفاعل» لا يتعدى، ثم رد عليه بأنه إن كان قبل دخول التاء متعديا إلى اثنين، فإنه يبقى بعد دخولها متعديا إلى واحد، ومما جاء على القلة «عانقته وتعانقته» فهو إذن سماعي فيه، وإن تعدى إلى واحد قبل التاء وقال في البيت :

إذا قلت مهلا غارت العين بالبكا غراء ومدتها مدامع نهل

وقال في نحو «استغفرت الله من الذنب» إنه متضمن معنى «استتبت» وإلا لم يجز، وهو قول ابن الطراوة، كما تقدم.

وقال في قولنا «ما في الدار زيد» إنه يجوز فيه وجه ثالث، وهو أن يكون المرفوع اسما لما الحجازية، والظرف في موضع نصب على الخبرية، ونقل هذا عن أكثر البصريين، والمشهور فيها بطلان العمل عند تأخر الاسم عن الخبر.

وجوز، كذلك، في نحو «زيد نعم الرجل» وجها ثالثا، وهو أن يكون «زيد» مبتدأ حذف خبره وجوبا أي «الممدوح»، ورد هذا عليه.

وقال في زيادة «كان» إن باب زيادتها الشعر، مع أنه قيل بذلك في نحو «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب».

وقال في نحو «مررت بهذا الرجل» إن النحويين أجازوا في «الرجل» الصفة والبيان، واستشكله بأن البيان أعرف من المبين وهو جامد، والنعت دون المنعوت أو مساو له، وهو مشتق أو في تأويله، فكيف يجتمع في الشيء أن يكون بيانا ونعتا ؟ وأجاب ـ ما تقدم ـ أنه إن قدر نعتا فاللام فيه للعهد والإسم مؤول بقولك الحاضر، أو المشار إليه، وإذا قدر بيانا فاللام لتعريف الحضور، فيساوق الإشارة بذلك، ويزيد عليها، بإفادته الجنس المعين، فكان أخص، قال، وهذا معنى قول سيبويه فيا تقدم ذكره ولكن فيا قاله نظر عند ابن هشام.

وقال في «بارزون» إن قول سيبويه، بأن الزمن المبهم المستقبل يحمل على «إذا» إنما هو في الظرف، وتقدم هذا، والرد عليه، الذي أعاده ابن هشام في الباب الخامس عند ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المغرب من جهتها (أي من سببها).

وجعل ابن هشام من الوهم، قول ابن عصفور «كم» في قوله تعالى ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا﴾ ان «كم» فاعل يهد، وتقدم هذا.

وكذلك جعل من الوهم قوله في «حنت نَوَارٌ ولات هنا حنت» ان هنا اسم لات، وحنت خبرها بتقدير مضاف، أي وقت حنت، فاقتضى اعرابه الجمع بين معموليها، وإخراج هنا عن الظرفية، واعمال لات معرفة ظاهرة، وفي غير الزمان، وهو الجملة النائبة عن المضاف.

وقال في نحو «زيد هو الفاضل» بجواز حذف «هو» مع قوله وغيره، إنه لا يجوز حذف العائد في «جاء الذي هو في الدار» إذ لا دليل عليه.

وجوز في المخصوص المؤخر أن يكون مبتدأ حذف خبره. وتقدم هذا.

وقال في قول الشاعر «بما كان اياهم عطية عودا» هربوا من محذور ـ وهو أن يفصل بين كان وبين اسمها بمعمول خبرها ـ فوقعوا في محذور آخر، وهو تقديم معمول الخبر، حيث لا يتقدم خبر المبتدأ، وجعل ابن هشام هذا القول منه، لكونه خفيت عنه النكتة، إذ قال البصريون، إن عطية مبتدأ، وإياهم مفعول عود، والجملة خبر كان، واسمها ضمير الشأن.

وقال ابن عصفور أيضا، في نحو «عمرك لأفعلن» بجواز كون المحذوف هو «المبتدأ والتقدير في الخبر قسمى»، وكذلك أيمن الله قسم لي، ولذلك لم يعد هذا فيما يجب فيه حذف الخبر.

وقال في الآية : ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفجر﴾ إن الفاء فاء «فضرب» المقدر، وأن فاء فانفجر، حذفت، ليكون دليل ببقاء البعض.

وأعاد ابن هشام في الباب الخامس، ذكر أن ابن عصفور، جوز في «لعمرك لأفعلن» وفي «أيمن الله لأفعلن»، الوجهين، حذف الخبر وحذف المبتدأ، وقد أطال ابن هشام في النقول عنه، كما رأينا، وجلها عليه مسحة تنتمي إلى ما عرف في علم المعاني ولم يفقه في كثرة النقول عنهم من الأندلسيين إلا ابن مالك الأب. ومن عداه منهم فإنهم دونه نقولا عنهم في كتابه «المغنى» خاصة ونقل عنه في غيره كثيرا خصوصا في شرحه، فمنها أنه نقل عنه قوله إن الوقف على «إذن» بالنون، واختاره على الوقف بالألف الذي أجمع عليه القراء السبعة، كما قال ابن هشام.

وقالت الخلاصة كذلك :

وأشبهت إذن منونا نصب فألفا في الوقف نونها قلب

أما فيما يخص ابن عطية، فقال في «حاش الله - في قراءة ابن مسعود - إنه جار ومجرور»، وجعل ابن هشام هذا وهما منه، وقال لأنها إنما تجر في الاستثناء وإنما ترك التنوين تشبيها بالحرفية لأنها كمعاذ الله، فليست حرفا، بدليل قراءة بعضهم «حاشا الله» بالتنوين ودخولها على اللام في قراءة السبعة «حاش لله» والجار لا يدخل على الجار.

وقال ابن عطية في «ما» من نحو الآية ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ إنها كافة عن العمل للكاف، وبذلك قال الزمخشري، وقال الجماعة بمصدرية «ما».

وقال في الآية ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون، تنزيل من رب العالمين﴾ «إنها ليست فيها إلا اعتراض واحد، وهو «لو تعلمون» لأن «وإنه لقسم عظيم» توكيد للقسم الذي تضمنه «أقسم» وليس اعتراضا، وغيره يرى أن هناك اعتراضين، اعتراضا بين الموصوف وهو «قسم» وصفته وهو «عظيم» بجملة «لو تعلمون» واعتراضا بين «أقسم بمواقع النجوم» وجوابه. وهو «انه لقرآن كريم» بالكلام الذي بينهما. وهو ما أيده ابن هشام، وقال، إن التوكيد والاعتراض لا يتنافيان، رادا على ابن عطية، في القول بالتوكيد لا الاعتراض في «وإنه لقسم عظيم».

وقال في «وإن منكم الا واردها» هو قسم، والواو تقتضيه، أي هو جواب قسم، والواو المحصلة لذلك، لأنها عطفت على «لنحن أعلم» وهذه على «لننزعن» وهذه على «لنحضرنهم»، وهذه على «لنحشرنهم»، فهذه كلها أجوبة لقوله تعالى : ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا، ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا، وان منكم إلا واردها﴾ فهي تحتمل جواب القسم.

وقال في الآية : ﴿فلما رآه مستقرا عنده﴾ إن «مستقرا» هو المتعلق الذي يقدر في أمثاله «قد ظهر»، قال ابن هشام، والصواب ما قاله أبو البقاء وغيره، من أن هذا الاستقرار، معناه عدم التحرك، لا مطلق الوجود والحصول، فهو كون خاص.

وقال في الآية ، ﴿فالحق والحق أقول لأملأن﴾ إن «لأملأن» خبر «الحق» الأول، فين قرأه بالرفع، على تقدير «أن أملأن أورده ابن هشام.

وقال ابن عطية أيضا في الآية ﴿قاتلهم الله أنى يوفكون﴾ إن «أنى» ظرف «قاتلهم الله»، والصواب عند ابن هشام تعلقه بما بعده.

وقال في «الرحيم» من البسملة، بجواز الوصل بنية الوقف، فالتقى ساكنان، الميم ولام الحمد، من «الحمد لله» فكسرت الميم لالتقائها.

وقال في الآية : ﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا﴾ إن التقدير، بئس المثل مثل القوم الذين كذبوا، قال ابن هشام، فإن أراد أن الفاعل لفظ المثل محذوفا، فردود، وإن اراد تضمير المعنى، وأن في بئس ضمير المثل مستترا، فأين تفسيره ؟

وقال في الآية ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ أي إيمانها وكسبها، فالآية من اللف والنشر.

قال ابن هشام : وبهذا التقدير تندفع شبهة المعتزلة، إذ قالوا، سوى الله تعالى بين عدم الإيمان وبين الإيمان الذي لم يقترن بالعمل».

وأما ما يخص ابن مالك، جمال الدين، الذي تردد ذكره في كتب ابن هشام، زيادة عن أوضح المسالك أضعافا مضاعفة، بالنسبة إلى غيره، فقد قال في «أجل» إنها تختص بالخبر، وهو قول للزمخشري وجماعة.

وقال ناقلا عن سيبويه في نحو «عسيت أن تفعل» إن «أن تفعل» نصب باسقاط الجار، أو بتضمين الفعل معنى «قارب».

وقال هو وابن السيد في الآية ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم﴾ إن الجملة المفسرة، ليس «أن» في حيزها مصدرية وهي وصلتها عطف بيان على الهاء في به، لأن عطف البيان في الجوامد بمنزلة النعت في المشتقات، فكما أن الضمير لا ينعت، كذلك لا يعطف عليه عطف بيان، قال ابن هشام، والقياس معهما.

وقال ابن مالك بقول النضر بن شميل في تفسير «كلا والقمر» بأن معناه «أي والقمر»، وتبعه جماعة كذلك، في كونها تكون بمعنى نعم وأي.

وتبع ابن مالك معاصره ابن يعيش في تقسيم الضمير المستتر، إلى ما استتاره واجب، وإلى ما استتاره جائز، وتعقبه ابن هشام في أمثلة منه.

وقال في الآية ﴿إن هذان لساحران﴾ إنها جاءت على لغة بلحارث، في اجراء الألف بالمثنى دائما، وهو اختيار منه لغيره.

وقال في أم، من قولهم، «إنها لا بل أم شاء» لا حاجة إلى تقدير مبتدأ، قبل «شاء» زاعما أن «أم» تعطف المفردات، مثل «بل» وقدرها هنا ببل دون الهمزة، واستدل بقول بعضهم، «إن هناك لا بل أم شاء» بالنصب، فخرق اجماع النحويين على أن «أم» المنقطعة لا تدخل على مفرد، قال ابن هشام، فيما رواه ابن مالك، إن صحت الرواية، فشاء منصوبة بمحذوف، أي أرى شاء.

وقال ابن مالك إن صلة «أن» الموصولية، قد تكون فعلا مضارعا، مثل «صوت الحمار اليجدع» وعارضه ابن هشام، بأنه خاص بالشعر.

وقال في نيابة «ال» عن الضمير المضاف إليه، إن ذلك مشروط بكونها بغير الصلة.

وقال ابن مالك، بما قال به يونس والفارسي وابن كيسان، في «اما» الثانية، أنها غير عاطفة كالأولى، كذا قال عنه ابن هشام في المغنى، وهو مخالف لما ورد في الخلاصة.

ومثل أو في القصد اما الثانية   في نحو اما ذى واما الثانية

وقال في «أو» إن أكثر ورودها للاباحة في التشبيه، نحو، «فهي كالحجارة أو أشد قسوة»، والتقدير، نحو «فكان قاب قوسين أو أدنى».

وقال في «أو» أيضا إنها تجيء بمعنى الواو، وهو ما بالخلاصة، وقال بذلك جماعة، واستغرب ابن هشام هذا القول، حيث قالوا إنها تأتي بمعنى «ولا» نحو «ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم» وهي تلك بعينها، وإنما جاءت «لا» تأكيدا للنفي.

وقال أيضا، إن «أو» التي للإباحة حالة محل الواو، ورد عليه ابن هشام بأننا لو قلنا به «لكانت مجالسة الحسن وابن سرين مامورا بهما معا».

وقال إن من معاني «أو» التقسيم، نحو «الكلمة اسم أو فعل أو حرف»، قال ابن هشام، ذكر ذلك في منظومته الصغرى وفي شرح الكبرى ثم عدل عنه في التسهيل وشرحه، فقال، تاتي للتفريق المجرد من الشك والإبهام والتخيير، وأما هذه الثلاثة فإن مع كل منها تفريقا مصحوبا بغيره، ومثل بنحو «إن يكن غنيا أو فقيرا» «وقالوا كونوا هودا أو نصارى»، قال ابن هشام : وهذا أولى من التعبير بالتقسيم، لأن استعمال الواو في التقسيم أجود، نحو «الكلمة اسم وفعل وحرف» وقوله «كما الناس مجروم عليه وجارم» (وفي الخلاصة «خيرابح قسم بأوواېهم»).

وقال إن «الا» تكون زائدة، وحمل على ذلك قول الشاعر :

أرى الدهر إلا مَنْجَنُوناً بأهله   وما صاحب الحاجات إلا معذبا

قال ابن هشام، وإنما المحفوظ «وما الدهر»، ثم إن صحت روايته، فتخرج على أن «أرى» جواب لقسم مقدر، وحذف «لا» كما في «تالله تفتأ».

وجعل ابن مالك من أقسام «الا» ما ورد في الآية ﴿الا تنصروه فقد نصره الله﴾ وتعجب منه ابن هشام، لأن هذه كلمتان ان الشرطية ولا النافية.

وقال أيضا، يمكن أن تكون من موافقة «إلى» لحرف «في» قوله تعالى : ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ كما تقدم في ابن عصفور المعترض على القول بذلك.

وقال في قراءة «أفئدة من الناس تهوى إليهم» بفتح الواو، إن الكسرة انقلبت إليها وتبعتها الياء فصارت ألفا، كما في رضى رضا، وفي ناصية ناصاة.

وقال في «إذا» الواقعة في نحو «خرجت فإذا الأسد بالباب» إنها ظرف مكان، قال به المبرد واختاره ابن مالك، كما تقدم.

وقال في قضية الزنبور الوارد فيها «فإذا هو اياها» إن ضمير النصب استعير في مكان ضمير الرفع، ويشهد له قراءة «إياك نعبد» بالبناء للمجهول.

وقال تبعا للمبرد والفارسي ثم الحريري، إن «أمس» يصغر، فيعرب عند الجميع كما يعرب إذا كسر، ويشهد لهم وقوع التكسير فيها أخوان.

وعند ابن مالك أن الأرجح وصل الضمير، إذا كان العامل فيه فعلا ناسخا عمل في ضمير آخر، مثل «أخي حسبتك» وبه قال الرماني، كما تقدم في ابن الطراوة.

وقال في إضافة «مثل» إذا كان مضافا إلى معرفة، جاز أن تخلفها المعرفة في التنكير، فيقول «مررت برجل زهير» فالخفض صفة للنكرة، وتقول «هذا زيد زهيرا» بالنصب على الحال، بتقدير مثل، قبل زهير، الذي حل محله في الإعراب، خفضا ونصبا.

ومثل للحال المؤكدة لعاملها بالآية ﴿لآمن من في الأرض كلهم جيما﴾، قال ابن هشام في شذور الذهب، وهو سهو، لأنها مؤكدة لصاحبها.

وقال في «إذا» إنها وقعت مفعولا في الحديث «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عني غضبى».

ونص ابن مالك، على أن اظهار «أن» في نحو «ما تاتينا فتحدثنا» أحسن من الإضمار، وذلك في شرح العمدة.

وجوز ابن مالك إضافة «أيمن» إلى الكعبة، ولكاف الضمير، وخالفه في ذلك ابن هشام، وقال بإضافته إلى اسم الله خاصة.

وأوجب ابن مالك في نحو «ضربته إياه» كون إياه توكيدا، وغيره يجوز أن يكون بدلا، وأسقطه من البدل، كضربت زيدا اياه.

وأثبت ابن مالك، كالأصمعي والفارسي والقتبي، كون الباء واردة للتبعيض، وجعل منه الكوفيون «عينا يشرب بها عباد الله».

وقال في «بحسبك زيد» إن زيدا مبتدأ مؤخر، لأنه معرفة، وحسب نكرة.

وقال في «بل» إنها لم تقع في التنزيل إلا على وجه الانتقال من غرض إلى آخر قال ذلك في شرح كافيته، ووهمه ابن هشام.

وقال في حديث أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش «ان» بيد هنا بمعنى غير، على حد «ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم».

وجعل «ثم» في الآية ﴿ثم آتينا موسى الكتاب﴾ مهملة، قال ابن هشام، والظاهر أنها واقعة موقع الفاء كما في قوله «جرى في الأنابيب ثم اضطرب» وقال باجراء «ثم» مجرى الفاء والواو، بعد الطلب كما في الحديث «يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه» بنصب يغتسل.

وقال في الحديث «أسامة أحب الناس إلي ما حشى فاطمة» إن «ما» مصدرية، وحاشى استثنائية، ووهمه ابن هشام، وجعلها فعلا متعديا.

وقال بجواز القول «سرت البارحة حتى ثلثها أو نصفها» وقال إن المانع لنحو هذا المثال الزمخشري، ووهمه ابن هشام، ونسب القول بالمنع للمغاربة.

وقال في «والله لا أفعل إلا أن تفعل» المعنى، حتى أن تفعل، وقال به أيضا ابن هشام الخضراوي، وهو ظاهر قول سيبويه.

وقيد ابن مالك كون «حتى» إذا عطفت على المجرور أعيد الخافض، بأن لا يتعين كونها للعطف، نحو «عجبت من القوم حتى بنيهم» وقال ابن هشام تعقيبا عليه : يظهر لي أن الذي لحظه ابن مالك، أن الموضع الذي يصح أن تحل فيه «إلى» محل حتى العاطفة فهي فيه محتملة للجارة، فيحتاج حينئذ إلى إعادة الجار، عند قصد العطف، نحو «اعتكفت في الشهر حتى في آخره».

وقال في قوله تعالى : ﴿حتى عفوا وقالوا﴾ إن حتى هذه جارة، وإن بعدها «أن» مضمرة، قال ابن هشام، ولا أعرف له في ذلك سلفا، وفيه تكلف وقال إن «حيث» تقع اسما لأن، كما في قوله :

ان حيث استقر من أنت راعيـ ـه حمى فيه عزة وامان

وخالفه في هذا ابن هشام وقال لا دليل في البيت، لجواز تقدير «حيث خبرا لها وحمى اسمها، وأنشد ابن مالك في إضافة «حيث» إلى المفرد قول الشاعر «ببيض المواضى حيث لي العمائم» بجر «لي العمائم» والكسائي يقيسه.

وقال في «سواء» إنها كغير في المعنى والتصرف، فتقول «جاءني سواك» بالرفع، ورأيت سواك بالنصب، وما جاءني أحد سواك، بها.

وقال في قول الشاعر :

أبى الله إلا أن سرحة مالك على كل افناء العضاة تروق

إن «على» فيه زائدة للتعويض، قال ابن هشام، وفيه نظر، لأن المراد بفعل «تروق» تعلو وترتفع، وليست بمعنى تعجب هنا.

ونازع ابن مالك في ثبوت «ذو» الطائية الموصولة، في كونها تثنى وتجمع، كما حكى ذلك ابن السراج.

وجعل ابن مالك «ال» الزائدة، إما لازمة في علم كالسموأل، أو في إشارة، وهو الآن، وفاقا للزجاج (وفي الخلاصة : وقد تزداد لازما كاللات والآن والذين ثم اللاتي).

وخرج ابن مالك هذا البيت :

وما أصاحب من قوم فأذكرهم   إلا يزيدهم حبا إلى هم

على حذف مضاف، وقال إن التقدير فيه، يزيدون أنفسهم، ثم صار يزيدونهم، ثم فصل ضمير الفاعل للضرورة، وأخر عن ضمير المفعول.

وقال بالاستعانة، ضمن معاني «عن» ومثل له بقولنا «رميت عن القوس» لأنهم يقولون أيضا «رميت بالقوس» حكاهما الفراء.

وقال في «من» الداخلة على «عن» إنها زائدة، وعند غيره لابتداء الغاية.

واختار ابن مالك من الأقوال في «عسى» أن يكون فعلا ناقصا، وأن «أن» والفعل بدل اشتمال، في نحو «عسى زيد أن يقوم» وأن هذا البدل سد مسد الجزاين، كما سد مسد المفعولين في قراءة حمزة «ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير» بالخطاب.

وقال في قول الشاعر «ياابن الزبير طالما عصيكا» فيه إنابة ضمير عن ضمير، وقال ابن هشام إن الكاف بدل من التاء بدلا تصريفيا.

وقال في «عند» إنها اسم للحضور، قال ابن هشام، والصواب أنها لمكان الحضور.

وقال في انتصاب «غير» في الاستثناء، على الحالية، وهو قول أبي علي الفارسي وقال في بيت أبي نواس :

غير مـــــأســـوف على زمن ينقضي بـــــالهم والحـــــزن

إن «غير» مبتدأ، لا خبر له، بل لما أضيف إليه مرفوع يغنى عن الخبر، وذلك لأنه في معنى النفي، والوصف بعده مخفوض لفظا، وهو في قوة المرفوع بالابتداء، فكأنه قيل «مأسوف على زمن ينقضي مصاحبا للهم والحزن» فهو نظير «ما مضروب الزيدان» والنائب عن الفاعل الظرف، وهذا قول ابن الشجري في الأصل.

وقال إن الفاء تحذف في النثر نادرا، ومنه حديث اللقطة «فإن جاء صاحبها وإلا استمتع بها» وخصه غيره بالشعر «من يفعل الحسنات الله يشكرها».

وقال بجواز دخول الفاء على جواب «لما» نحو «فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد» ورده ابن هشام، بكون الجواب محذوفا وهو انقسموا قسمين.

وقال في الفاء، إنها قد تزاد، للتعويض، عوضا من أخرى محذوفة، كقوله «ضربت فمن رغبت» أصله «من رغبت فيه» أجازه وحده بالقياس على نحو قوله :

ولا يواتيك فيما ناب من حدث   إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق

إذ التقدير «فانظر من تثق به» قال ابن هشام، وفيه نظر.

وقال في «قد» إنها تدخل على ماض متوقع «قال ابن هشام، وعبارة ابن مالك حسنة، فلم يقل إنها تفيد التوقع، ولم يتعرض له بالمضارع.

وقال ابن هشام، في «قد» أيضا ومقتضى كلام ابن مالك، أنها مع الماضي إنما تفيد التقريب، كما ذكره ابن عصفور، وأن من شرط دخولها كون الفعل متوقعا كما قدمنا.

وقال ابن مالك في قولهم «أخطب ما يكون الأمير قائما» إن الخبر مقدم بمصدر مضاف إلى صاحب الحال وهو قول الأخفش.

وقال الفارسي في هذا البيت :

وطرفك إما جئتنا فاحبسنه   كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

إن الأصل في «كما» «كيما» فحذف الياء، وعلق عليه ابن مالك، بأنه تكلف وأن الكاف للتعليل، وما كافة، ونصب الفعل بها لشبهها بكي في المعنى، وزعم أبو محمد الأسود في كتابه «نزهة الأديب» أن الصواب «لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر» وأن الفارسي حرفه، وقالوا إن الكاف قد تقع هي ومخفوضها صلة، كما في البيت :

ما يرتجى وما يخاف جمعا   فهو الذي كالليث والغيث معا

ولكن ابن مالك أجاز أن يكون مضافا ومضافا إليه على اضمار مبتدأ، كما في قراءة «تماما على الذي أحسن» بالرفع، وخالفه ابن هشام.

وقال ابن مالك في «كأي» إنها تفيد الاستفهام، تارة قال ابن هشام وهو نادر، ولم يثبته إلا ابن قتيبة وابن عصفور، وتقدم ما فيه.

وقال في «كذا» إنها تستعمل غالبا معطوفا عليها وقد سمع بقلة، بدونه، مثل «كذا درهما» أو كذا كذا درهما»، ومن الغالب،

عد النفس نعمى بعد بؤساك ذاكرا   كذا وكذا لطفا به نسي الجهد

وقال في «كل» الواقعة توكيدا لمعرفة، والواجب إضافتها إلى ضمير يعود على المؤكد، إن هذا الضمير قد يخلفه الظاهر، كقوله :

كم قد ذكرتك لو أجزى بذكركم   يا أشبه الناس كل الناس بالقمر

وقال في الآية «انا كلا فيها» إن «كلا» حال من ضمير الظرف، قال ابن هشام، وفيه ضعف بتقديم الحال، وقطع كل عن الإضافة تقديرا، وقال ابن مالك، بوجوب مراعاة المعنى مع النكرة مضافة إليها «كل» فمعناها بحسب ما أضيفت إليه، مثل «كل نفس ذائقة الموت» وقال في البيت :

قد اصبحت أم الخيار تدعى   علي ذنبا كله لم أصنع

إنه لا فرق في المعنى بين رفع كل ونصبه، وتقدم ما في هذا.

وقال في «كيف» لم يقل أحد بكونها ظرفا، إذ ليست زمانا ولا مكانا، ولكنها لما كانت تفسر بقولك «علي أي حال» لكونها سؤالا عن الأحوال العامة، سميت ظرفا، لأنها في تأويل الجار والمجرور، واسم الظرف يطلق عليها مجازا، قال ابن هشام وهو حسن.

وقال في اللام في نحو ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾ إنها لام التعليل، قاله ابن الحاجب وغيره.

وقال في اللام كذلك، إنها تأتي للتعدية، ومثل لذلك في الكافية وشرحها، بالآية ﴿فهب لي من لدنك وليا﴾ (وكذلك ذكرها في الخلاصة).

وقال في لام التقوية، إنها لا تزاد مع عامل يتعدى لاثنين، لأنها إن زيدت في مفعوليه، فلا يتعدى فعل إلى اثنين بحرف واحد، وإن زيدت في أحدهما لزم ترجيح من غير مرجح، وقالوا في« هذا سراقة للقرآن يدرسه» إن الهاء مفعول مطلق، وشذ «يعطي للعصاة مناها» وقال إنه استعمل اسم فاعل لكاد، وأنشد عليه :

........................وإنني يقينا لرهن بالذي أنا كائد

وأجاز ابن مالك «ان زيدا لنعم الرجل ولعسى أن يقوم» لأن الفعل الجامد كالاسم، وهو في هذا تابع للأخفش والفراء.

وقال في اللام أيضا، إنها تكون للتبيين، قال ابن هشام هي ثلاثة أقسام ما تبين المفعول من الفاعل، وهذه تتعلق بمذكور، وضابطها أن تقع بعد فعل تعجب، أو اسم تفضيل، مفهمين حبا أو بغضا، تقول «ما أحبني وما أبغضني» فإن قلت «لفلان» فأنت فاعل، وهو مفعول وإن قلت «إلى فلان» فالعكس، قال ابن هشام، وهذا شرح ما قاله ابن مالك، ويلزمه أن يذكر هذا المعنى في «إلى» أيضا.

وقال في اللام كذلك، في شرح باب النعت من كتابه «التسهيل» : اللام في «سقيالك» متعلقة بالمصدر، وهي للتبيين.

وقال ابن مالك بجواز حذف اللام، كما في قوله تعالى : ﴿قل للذين ءامنوا يقيموا الصلاة﴾ أي ليقيموا، وهو قول للكسائي بشرط تقدم قل، وزاد ابن مالك عليه، في شرح الكافية، أنها ترد بقلة بعد القول الخبري كقوله :

قلت لبواب لديه دارها تأذن فإني حمؤها وجارها

فحذف وكسر حرف المضارعة، قال ابن مالك، وليس ذلك لضرورة، إذ في الإمكان أن يقول : «إيذن».

وفي الجزم بالآية السالفة أقوال، ثالثها للجمهور : أن الجزم بشرط مقدر بعد الطلب، وأبطل ابن مالك ذلك، لأن تقديره يستلزم ألا يتخلف أحد من المقول له ذلك عن الامتثال، ولكن التخلف واقع.

وأجاز ابن مالك دخول اللام في غير باب «ان» على الفعل من نحو «ليقوم زيد» زاد المالقي المضي الجامد نحو «لبئس ما كانوا يعملون».

وقال الأكثرون، ان «لا» يتخلص بها المضارع للاستقبال، وخالفهم ابن مالك لصحة قولنا «جاء زيد لا يتكلم» بالاتفاق.

وقال ابن مالك في «لو» حرف يدل على انتفاء تال، ويلزم لثبوته ثبوت تاليه.

وأثبت فيها أن تكون للمصدرية، وتقدم القول بذلك عن الفراء وأبي علي والتبريزي وأبي البقاء، كما في «يود أحدهم لو يعمر ألف سنة».

وقال أيضا في قول الشاعر :

فلو نبشر المقابر عن كليب   فيخبر بالذنائب أي زير

ان لو المصدرية أغنت عن فعل التمني، وقد أورد قول الزمخشري «وقد تجيء لو في معنى التمني» في نحو : «لو تأتيني فتحدثني» إذ الأصل «وددت لو تأتيني». وكذا القول في البيت، فأشبهت «ليت» في الإشعار بمعنى التمني، فكان لها جوابها.

وقال ابن مالك، إنه يرد بعد «لو أن» اسم مشتق، كما في قوله :

لو أن حيا مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرماح

قال ابن هشام وقد وجدت آية في التنزيل وقع فيها الخبر مشتقا، ولم يتنبه لها، وإلا لما استدل بالشعر وهي «يودوا لو أنهم بادون في الأعراب» وجعل في الفواصل بين «أن» المخففة وخبرها الجملة الفعلية حرف «لو» قليلاً (كما في الخلاصة «وقليل ذكر لو») وتبعه ابنه ووهمها ابن هشام.

وقال في خبر «لولا» انه يكون كونا مطلقاً كالوجود والحصول، فيجب حذفه، فإن كان مفيدا وجب ذكره ان لم يعلم، والاجاز.

وقال في رفع الفعل بعد «لم» انه لغة، وليس ضرورة، مثل «لم يوفون بالجار» ومنهم من ينصب بعدها، كقراءة «ألم نشرح» بالنصب وقال في البيت :

وكنت إذ كنت الهى وحدكا لم يك شيء يالهى قبلكا

بأن النفي بلم فيه منقطع، كما هو في «لم يكن شيئاً مذكوراً» وبهذا تختلف عن «لما» ففيها مستمر إلى الحال، فلا يجوز «لما يكن ثم كان».

وقال في جواب «لما» بأنه قد يكون جملة اسمية مقرونة باذا الفجائية أو الفاء نحو «فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون» ونحو «فمنهم مقتصد».

وقال في نحو «ما قام زيد ولكن عمرو» ان «لكن» غير عاطفة، والواو عاطفة لجملة حذف بعضها على جملة صرح بجميعها، أي «ولكن قام عمرو».

وقال في «ما» من نحو قولهم «ان زيدا مما أن يكتب» انها معرفة تامة، بمعنى الشيء أو الأمر، و «أن» وصلتها مبتدأ والظرف خبره.

وقال في «ماذا» بجواز كون «ما» استفهاما، و «ذا» زائدة، كما في «ماذا صنعت». قال ابن هشام، والصحيح أن الأسماء لا تزاد.

وقال الجمهور ان «ما» إذا نفت المضارع تخلص للحال، ورد عليهم ابن مالك بالآية «قل ما يكون لي أن أبدله» وقيل لا يكون للحال إلا بانتفاء قرينة خلافه.

وقالوا في «ما» الكافة، تتصل بأحرف وظروف، وذكر من هذه ابن مالك الباء كما بالبيت.

فلئن صرت لاتحير جواباً   لبما قد ترى وأنت خطيب

وقال في الآية «ومن قبل ما فرطتم في يوسف» ان «ما» في محل نصب عطفاً على «أن» وصلتها في «ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله» أي «وتفريطكم»، قال ابن هشام : ويلزم عليه الفصل بين العاطف والمعطوف وجعل منه ابن مالك «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً» ومن ذلك «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» فهذا فيه المعطوف شيآن على شيئين، وليس مما سبق.

وقال ابن مالك في قول الشاعر : «ولم تذق من البقول الفستقا» ان «من» للبدل، أي لم تذق بدل البقول الفستقا.

وقال من معاني «من» الفصل، وهي الداخلة على ثاني المتضادين، نحو «والله يعلم المفسد من المصلح»، قال ابن هشام، وفيه نظر.

وقال ابن مالك أيضاً، فيما تكون فيه «من» زائدة، كون مدخولها مفعولاً به، قال ابن هشام، ووجهه انها مع باقي المفاعيل لا تكون زائدة، لأن هذه، في المعنى بمنزلة المجرور باللام وبفي ومع، فلا تجامعهن «من».

وزعم ابن مالك، ان «من» الداخلة على قبل وبعد زائدة، قال ابن هشام وذلك مبني على قول الأخفش في عدم الاشتراط لزيادتها.

وقال في كون «من» للاستفهام، بوجوب تقدم الواو عليها، مثل «ومن يغفر الذنوب إلا الله» واعترض عليه بالآية «من ذا الذي يشفع عنده».

وخصص الرؤيا بمصدر الحلمية، وبه قال الحريري، وخالفها ابن هشام، مستدلا بالآية : «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك» فهي للعين.

واختار ابن مالك قول سيبويه والأخفش بجواز حذف مفعولي باب ظن، اقتصاراً أي لغير دليل.

وقال في «مهما» انها للزمان والشرط، فتكون ظرفاً الفعل الشرط، وأنشد على ذلك لحاتم :

وانك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

قال ابن هشام، ولا دليل في ذلك، لجواز كونها للمصدر، بمعنى أي اعطاء كثيرا أو قليلاً.

وذكر أيضاً من معانيها الاستفهام، كما في قول الشاعر :

«مهما لي الليلة مهما ليه» على أنها مبتدأ و «لي» خبر، وأعيدت الجملة توكيداً، قال ابن هشام : ولا دليل في البيت، لاحتمال أن التقدير «مه» اسم فعل، ثم استؤنف بما وحدها، استفهاماً.

وقال في «معا» انها بمعنى «جميعاً» وهو خلاف قول ثعلب : إذا قلت جاءا جميعاً» احتمل كون المجيء في وقت أو وقتين.

واختار ابن مالك والسهيلي في «مـذ ومنـذ» ان وليهما اسم مرفوع، قول أكثر الكوفيين، من أنهما ظرفان مضافان لجملة حذف فعلها.

وقال ابن مالك في «عرفات» بكون اعتبار تـائهـا في منع الصرف أولى من اعتبار تا «عرفة» و «مسلمة»، رادا على الزمخشري القائل بصرفها.

وقـال فيما سمي بـالتنوين الشـاذ، في نحو «هؤلاء قومـك» الصحيح أن هذا نون زيدت في آخر الاسم كنون ضيفن، وليس بتنوين.

وقـال ابن مـالـك، إن الـواو في قـولـه تعـالى : ﴿ومنـك ومن نـوح وإبراهيم ومـوسى وعيسى بن مريم﴾، كـونهـا للمعيـة راجـح على العطف (في الأواخر).

وقـال ان عطف الشيء على مرادفـه قـد يـأتي في «أو» وان منـه «ومن يكسب خطيئة أو إثما»، كما يأتي في الواو.

وقـال في الـواو قـد تخرج عن إفـادة مطلـق الجمـع، فتكـون للتقسيم، وتقدم هذا والتمثيل له عن غيره، وقد ذكر ذلك في التحفة، واعترض عليه.

وقال في نحو «يا اسجدوا» و «يا اسقيـاني» و «يـاليتني» هي للنـداء ان وليها أمر، أو دعاء كما في «يالعنة اللـه»، لكثرة وقوع النـداء قبلهـا، نحو «يـا آدم اسجد» «يانوح اهبط» «يامالك ليقض علينا ربك» وإلا فهي للتنبيه.

وقال في الآية : ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا، وقـالوا قـد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتـة وهم لايشعرون ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخـذنـاهم بما كانوا يكسبون، أفامن أهل القرى أن ياتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون﴾، ان

الزمخشري حكم بجواز الاعتراض بسبع جمل، إذ زعم أن «أفأمن» «معطوف على فأخذناهم» ورد عليه من ظن أن الجملة والكلام مترادفان، فقال، إنما اعترض بأربع جمل، وزعم أنه من «ولو أن أهل القرى» إلى «والأرض» جملة، لأن الفائدة إنما تتم بمجموعه، فالكلام عنده أخص من الجملة، لأنه القول المفيد بالقصد والجملة عبارة عن الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره. وقال ابن هشام إن ابن مالك كان من حقه أن يعدها ثمان جمل، احداها «وهم لا يشعرون» وأربعة في حيز «ولو» والمركبة من أن وصلتها مع «ثبت» مقدرا، أو ثابت على الخلاف والسادسة «ولكن كذبوا» والسابعة «فأخذناهم» والثامنة «بما كانوا يكسبون».

وقال في «قال» العاملة عمل ظن، يجب أن يكون زمنه للحال. قال ابن هشام ورد بقوله : «فمتى تقول الدار تجمعنا» قال، والحق أن متى ظرف لتجمعنا.

وقال إذا كانت أرى وأعلم منقولين من المتعدى لواحد تعديا لاثنين، وحكمها حكم مفعولي «كسا» في الحذف ومنع الإلغاء والتعليق.

وجوز ابن مالك في نحو «زيد قام» أن تكون الجملة فعلية على الاضمار والتفسير، وهو قول المبرد وابن العريف، والكوفيون على التقدير.

وقال في الجملة المعترضة، بين الشرط وجوابه، بكونها في الآيات «وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر» «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار» «ان يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى» وبهذا قال جماعة كذلك.

وقال أبو علي الفارسي، لا يعترض بأكثر من جملة، فرد على قوله ابن مالك بقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر﴾ ويقول زهير :

لعمري والخطوب مغيرات   وفي طول المعاشرة التقالي
لقد باليت مظعن أم أوفى   ولكن أم أوفى لا تبالي

وقال ابن مالك مما يميز الجملة المعترضة عن الحالية، أن تكون غير خبرية، كالامرية في «ولا تومنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدي هدي الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم» بناء على «أن يوتي أحد» متعلق بالفعل «تومنوا» قال ابن هشام والآية محتملة....

وقال ثعلب، لا تقع جملة القسم خبراً، فقال ابن مالك : إن السماع وارد بما منعه، وهو قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم﴾، ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم﴾.

وقال ابن مالك بجواز العطف على محل الجملة المعلق عليها بالنصب، كما في قول الشاعر :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا   ولا موجعات القلب حتى تولت

وقال في «لدن» و «ريث» ويعدهما الجملة الفعلية، كما في قوله : «لزمنا لدن سالمتونا وفاقكم» وقوله : «خليلي رفقا ريث أقضى لبنانة» ان الفعل بعدهما على اضار «أن» كما قال في كافيته والتسهيل وشرحه، وقال غيره بإضافتها إلى الجملة الفعلية، ولا إضار لأن فيهما.

وقال في نحو «قلت لهم قوموا أولكم وآخركم» إن التقدير فيه، ليقم أولكم وآخركم، وانه من باب بدل الجملة من الجملة، لا المفرد منه.

وقال في قول الشاعر :

ونعم مزكأ من ضاقت مذاهبه   ونعم من هو في سر وإعلان

إنه يجوز كون «من» موصولة فاعل لفعل «نعم» وهو «مبتدأ، خبره «هو» أخرى مقدرة، «في» متعلقة بالمقدرة، لأن فيها معنى الفعل، أي الذي هو مشهور، وزعم الفارسي انها نكرة تامة تمييز لفاعل «نعم» مستترا.

وقال في الفعل المسند لمؤنث، وفصل بين «الا» وبين فاعله، بجواز ترك التاء واثباتها في الشعر والنثر، وقرئ «ان كان إلا صيحة» فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم» وخص الأخفش الإثبات بالشعر، وأوجب التذكير في غيره، نحو «ما قام إلا هند» إذ التقدير فيه ما قام أحد إلا هند فهي بدل منه لا فاعل.

وقال في الظرف والجار والمجرور، ان وقع بينهما مرفوع، وتقدمهما نفي أو استفهام أو موصول أو موصوف، أو صاحب خبر أو حال، فإن الأرجح كون ذلك المرفوع فاعلا، وحينئذ، فهل عامله الفعل المحذوف، أو الظرف أو المجرور، لنيابتهما عن استقر، فيه خلاف بينهم، واختار ابن مالك الأول، مع اعترافه بالضمير مستترا في الظرف، والضمير لا يستكن إلا في عامله، وهذا تناقض، كما قال ابن هشام.

وقال في قوله تعالى : ﴿قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله﴾، ان الظرف ليس متعلقا بالاستقرار لاستلزامه الجمع بين الحقيقة والمجاز، فإن الظرفية المستفادة من «في» حقيقة بالنسبة إلى غير الله، ومجاز بالنسبة إليه.

ويفيد كلامه منع تقدير المفعول ان كان وفاعله ضميرين، لأنه سوى بينه وبين ماحذر لبسه، مع أنه يجوز تقديمه على الفعل كزيدا ضربت.

وفي «يانصر نصر نصرا» تابع ابن الطراوة في عدم صحة عطف البيان، في الأخيرين، لأن الشيء لا يبين نفسه، فهذا توكيد لفظي.

وفي البناء للمجهول لا فتعل معتل العين، تقدم قوله بما قال به الأبدي وابن عصفور، بل قال بامتناع ما ألبس من كسر أو ضم كخفت وعقت فالأول الضم أو الاشمام، والثاني الكسر.

وقال معترضا، على من قدر الفعل في نحو «إذا لهم مكر» وفي «أما في الدار فزيد» بأن «إذا» الفجائية لا يليها الفعل، وكذلك «اما» إلا مقروناً بحرف الشرط، نحو «فاما ان كان من المقربين».

وألحق في باب الاشتغال «حيث» في الحكم، بما ترجح نصبه، نحو «حيث زيداً تلقاه فأكرمه» قال ابن هشام، وفيه نظر (لوجوبه).

وقال أيضاً، في نحو «رأيته إياه» ان الضمير الثاني توكيد للأول، وليس بدلا منه، كما قال النحاة، أما «رأيت زيدا اياه» فلم يسمع.

وتبع ابن مالك ابن الطراوة، في القول، بأن عطف البيان لا يكون من لفظ الأول، لأن الشيء لا يبين بنفسه، وليس منه «كل أمة تدعى إلى كتابها» بياناً لكل أمة في وترى كل أمة جاثية... لأن الثاني قد اتصل بها ذكر سبب الجثو، فهو بدل كما في قول الشاعر :

تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى

وقال في معرض ما تفارق فيه الصفة المشبهة اسم الفاعل بكونها تخالف فعلها في العمل، وهو لا يخالف، وان الحديث «ان امرأة كانت تهراق

الدماء» بجواز كون «الدماء» مفعولا به، على أن الأصل «تهريق» كما فعل في ناصاة من ناصية، وغيره جعله تمييزا بأل.

وقال كالأعلم وتقدم، أن الرحمن ليس صفة، بل علم، وينبني على هذا، أنه بدل في البسملة، وأن الرحيم نعت له، لا لاسم الله، إذ تأخر عنه.

وقال ابن مالك في الحال الواردة لتأكيد عاملها، ان من ذلك «جاء القوم طرا» وقوله تعالى : ﴿لآمن من في الأرض كلهم جميعا﴾ وتبعه ولده، ولكن هذه ـ كما قال ابن هشام مؤكدة لصاحبها، وجعلها لعاملها سهو منهما، فالتي لعاملها نحو قوله تعالى : ﴿ولى مدبرا﴾.

وقال بالابتداء بالنكرة المعطوف عليها مالا يسوغ الابتداء به، واشترطه غيره كما في قوله تعالى : ﴿طاعة وقول معروف﴾ وليس منه «عندي اصطبار» و «شكوى عند قاتلي» لأن الخبر هنا ظرف مختص، وهو وحده مسوغ (كما في الخلاصة) وليست الواو عطفت اسما وظرفا على مثليهما لأنه يلزم العطف على معمولي عاملين مختلفين، فالاصطبار معمول للابتداء، والظرف معمول للاستقرار، والاستقرار الأول خبر، وهو معمول للمبتدأ نفسه عند سيبويه، واختاره ابن مالك نفسه.

وجعل النحاة من مسوغات الابتداء بالنكرة، أن تقع هذه أول جملة حالية، وليس بلازم استراط كونها بعد واو الحال، ومثل ابن مالك لهذه بقوله تعالى : ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم﴾، وقول الشاعر :

عرضنا فسلمنا فسلم كارها   علينا وتبريح من الوجد خانقه

وقال ابن هشام، ولا دليل فيهما لأن النكرة موصوفة، ذكرا في البيت وتقديرا في الآية، أي من غيركم، بدليل «يغشى طائفة منكم».

وقال ابن مالك في قول سيبويه : «واعلم أن ناسا من العرب يغلطون فيقولون : انهم أجمعون ذاهبون، وانـك وزيـد ذهبـان» : متى جوزنـا ذلـك عليهم زالت الثقة بكلا مهم، وامتنع أن تثبت شيئاً نادراً، لا مكان أن يقال في كل نادر، ان قائله غلط.

وقال ابن هشـام : توهم ابن مـالـك أنـه أراد بـالغلـط الخطـأ، ومراده بالغلط ما عبر عنه غيره بالتوهم، بدليل إنشاده :

بدا لي أني لست مدرك ما مضى ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائياً

واشترط في حـذف حرف الجر مع «أن وأن» أمن اللبس، كما في رغبت أن تفعل إذ لا يدري المحذوف، هل هو «في» أو «عن».

وقال، كالبيانيين وابن عصفور، بمنع عطف الخبر على الإنشاء، وأجـازه الصفار تلميذ ابن عصفور، كما تقدم.

وقـال في استغنـاء بعض أبنيـة الجموع عن القلـة، مثـل «صفى» وتبعـه ابنه، في جمع صفاة، واعترضه ابن هشام، بورودها على أصفاء.

وقال بالإجمـاع في منع العطف على معمولي عـاملين، وأحـدهمـا ليس جاراً، نحو «كان آكلا طعامك عمرو وتمرك بكر» وقال الفارسي بالجواز.

وقـال بجـواز تصغير «تى» وخـالفـه ابن هشـام، وقـال إنـه يستغني عن تصغيرها بتصغير «تاء».

وقال ابن مالك، في معرض الضمائر التي يعود فيها بعضها على متأخر، كأن يكون مخبرا عنه فيفسره خبره، مثل «هي العرب تقول مـا شـاءت» ان هذا من جيد كلامهم، وكذلك «هي النفس تحمل ما حملت» ولذا قال يمكن

جعل النفس والعرب بدلين، وتحمل وتقول خبرين، قال ابن هشام، ويمكن وجه ثالث، وهو كون هي ضمير القصة.

وقال ابن مالك وابنه، يجوز في عين فعلي صفة، أن تسلم الضمة فتقلب الياء واواً، وأن تبدل الضمة كسرة فتسلم الياء، كطوبى وطيبى.

وقال في حالة ما يكون الضمير عائداً على متأخر، يكون الظاهر مبدلا منه بالجواز إجماعاً، كما نقل ذلك عن ابن كيسان.

وقال ان ما بقي من الكلمات، على حرفين أحدهما زائد، إذا وقف عليه تجب هاء السكت ورد عليه ابن هشام، بنحو «لم أك» و «من تق» بدونها.

وقال في نحو «مررت برجل ذاهبة فرسه مكسوراً سرجها» بالمنع من التقديم لكون العامل صفة، وجعل هذا القول منه سهواً ابن هشام، إذ قال : «ولا خلاف في جواز تقديم معمول الصفة عليها بدون الموصوف.

وقال ان امالة «تلا» في «والقمر إذا تلاها» لمناسبة ألف جلاها، وقال ابنه، ان امالة ألف «سجى» لمناسبة «قلا» واعترضه ابن هشام.

وتبع ابن مالك الكسائي، بأن التقدير في الآية : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن﴾ يتربص أزواجهم، ثم جيء بالضمير مكان الأزواج، لتقدم ذكرهن، فامتنع ذكر الضمير، لأن النون لا تضاف، لكونها ضميراً، وحصل الربط بالضمير القائم مقام الظاهر المضاف له.

واشترط في امالة الفتحة قبل الراء، أن تكون هذه متطرفة، ورد ذلك ابن هشام، بنص سيبويه على امالتهم فتحة طاء في «خبط رياح».

وقال في الآية «انا كلا فيها» «ان كلا» حال، قال ابن هشام، وفيها ضعف، بقطع كل عن الإضافة، وتقديم الحال على عاملها الظرفي وتقدم.

وتعرض ابن هشام في أوضح المسالك أيضا، لإبدال الباء من الواو، فذكر من ذلك أن تقع عينا لجمع صحيح اللام فقال : وهذا ليس محررا بكتبه.

وقال رادا على ابن الحاجب، القائل في «رب» انها لاتفيد إلا تخفيفاً، فقال : بل تفيد أيضا التخصيص في «يارب غابطنا لو كان يطلبكم».

ومثل لزيادة الهاء، كما فعل ابنه وكثير من النحويين، بالهاء في «لمه» و «لم تره» وللام، بذلك وتلك، فرد هذا ابن هشام بكونها رأساً.

وقال في معرض اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه، وعند قول أبي الفتح ابن جني، في توجيه، «لا تنفع نفساً إيمانها» بتأنيث الفعل، انه من باب «قطعت بعض أصابعه»، لأن المضاف لو سقط هنا، لقيل نفسا لا تنفع، بتقديم المفعول، ليرجع إليه الضمير المستتر المرفوع، الذي ناب عن الإيمان في الفاعلية، ويلزم من ذلك تعدى فعل الضمير المتصل إلى ظاهر، نحو قولك «زيداً ظلم» أي نفسه، وذلك لا يجوز.

وقال في المفعول المطلق المؤكد، انه لايحذف عامله، لأنه إنما جيء به لتقويته (كما بالخلاصة وحذف عامل المؤكد امتنع).

وقال بوجوب حذف الفعل النائب عنه مصدره في الطلب نحو «فندلا رزيق المال ندل الثعالب» وتقدم عن ابن عصفور شرط التكرار.

وقال عند كلامهم على اكتساب المضاف البناء من المضاف إليه، كأن يكون مبهما، مثل «غير ودون ومثل»، ان هذا لا يكون في هذه الأخيرة، لأن «مثل» تخالف المبهمات، في كونها تثني وتجمع نحو قول الشاعر :

والشر بالشر عند الله مثلان

وقوله تعالى : ﴿أمم أمثالكم﴾.

وخرج الآيتين «انه لحق مثل ما أنكم تنطقون» وَ «أن يصيبكم مثل ما أصاب» منصوبا «مثل» فيها على أن «حقا» اسم فاعل من «حق» مقصورا عن «حاق» ففيه ضمير مستتر، وجاءت «مثل» حالا منه، وان فاعل «يصيبكم» ضمير يعود على الله في «وما توفيقي إلا بالله» في الآية : ﴿ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ويا قوم لا يجر منكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح﴾ وان «مثل» هنا مصدر، أي أن يصيبكم الله اصابة قوم نوح.

وقال في الاستثناء، ان «سوى كغير» معنى وإعرابا، وهو قول الزجاج، ويؤيده حكاية الفراء، أتاني سواك، وقال سيبويه والجمهور : انها ظرف.

وقال في الآية «فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا «انه من قبيل صاحب الحال نكرة موصوفة، قال ابن هشام وليس منه.

ورجح ابن مالك في هذين البيتين :

على حين عاتبت المشيب على الصبا   وقلت ألما أصح والشيب وازع

ولا جتذبن منهن قلبي تحلما   على حين يستصبين كل حليم

الفتح في كلمة «الحين» لأنه زمن مبهم اكتسب البناء من الماضي أصالة في الأول، ومن المضارع لا تصال نون النسوة به.

وقاس ابن مالك وابنه استعمال المصدر حالا، بعد «أما» نحو أما علما فعالم، وبعد خبر شبه به مبتداه، كزيد زهير شعرا، أو قرن بأل.

وقال ابن مالك في البيت :

ويرغب أن يبني المعالي خالد ويرغب أن يرضي صنيع الألائم

ان الخليل يرى أن موضع «أن» فيه جر، وسيبويه يراه نصباً، ولكن ابن هشام سهاه في هذا القول، وقال : ان محلها نصب عند الخليل بعد حذف الجار، وجوز سيبويه أن يكون المحل جرا.

وقال في «بنا عاد عوف وهو باديء ذلة» و «ما في بطون هذه الأنعام خالصة» و «السماوات مطويات» بالنصب، مما توسط فيه الحال بين المخبر عنه والمخبر به، واعترضه ابن هشام.

وقال في مثل البيت :

أتقرح أكباد المحبين كالذي أرى كبدي من حب مية يقرح

ان «الذي» مصدرية، كما هي في الآية «ذلك الذي يبشر الله عباده» والاية : وخضتم كالذي خاضوا» أي خوضهم.

والقول بالمصدرية، ليونس والفراء والفارسي، وارتضاه ابن خروف كما تقدم، فهي وأن المصدرية تتقارضان، كما تقدم عند ذكر ابن خروف.

وأجاز ابن مالك، كالفارسي وابن جني وابن كيسان، تقديم الحال وهي محصورة نحو «وما أرسلناك إلا كافة للناس» والحق انها حال من الكاف.

ومنع ابن مالك حذف عامل المصدر المؤكد، إلا فيا استثني (كما قال في الخلاصة : وحذف عامل المؤكد امتنع) وغيره يجيزه كخوفاً وطمعا.

وقال ابن مالك في نحو «مررت بهذا الرجل» على جعل الرجل نعتا : ان أكثر المتأخرين يقلد بعضهم بعضاً في ذلك، والحامل لهم عليه توهمهم أن عطف البيان لا يكون إلا أخص من متبوعه، وليس كذلك، فإنه في الجوامد بمنزلة النعت في المشتق وتقدم هذا القول.

وقال وابنه، كان حق «مخيط» أن يعل، لأن زيادته خاصة بالأسماء.... لكنه حمل على «مخياط» لشبهه به لفظا ومعنى، وان أشبه تعلم بالكسر لغة فيه...

وقال في «لا» النافية للجنس، ان المركبة مع اسمها لا تعمل في الخبر، لضعفها بالتركيب عن أن تعمل فيا تباعد منها وهو الخبر.

وقال في كون عطف البيان يتبع المضمر، بالمنع، كما هو في النعت سواء (لأن الضمير لا ينعت ولا ينعت به) وهو ما ذكره في التسهيل، وأجاز سيبويه «ياهذان زيد وعمرو».

وقال وابنه في نحو «تتجلى وتتذكر» إذا أدغمت اجتلبت همزة الوصول، قال ابن هشام ولم يخلق الله همزة وصل أول المضارع...

وقال في الآية : «اسكن أنت وزوجك» انه من عطف الجمل، والنحويون انه على الضمير.

ولعله قائل به في الخلاصة حيث قال :

وان على ضمير رفع متصل عطفت فافصل بالضمير المنفصل

ومثلوا لهذه القاعدة بالآية المذكورة، وبنحو «لا نخلفه نحن ولا أنت» وعنده «ولا تخلفه أنت».

وقال في قوله تعالى : «فلما نجاهم إلى البر فنهم مقتصد» ان الجملة جواب «لما» والظاهر عند ابن هشام انهم انقسموا قسمين فنهم مقتصد وتقدم.

وقال في فاعلي «نعم وبئس» انه يمتنع نعته، إذا قصد بالنعت التخصيص، مع إقامة الفاعل مقام الجنس، لأن تخصيصه حينئذ مناف لذلك القصد، فأما إذا تؤول بالجامع لأكمل الخصال، فلا مانع من نعته حينئذ، لا مكان أن ينوي في النعت ما نوى في المنعوت ويحمل على هذا قول الشاعر :

«نعم الفتى المرئى أنت إذا هم حضروا لدى الحجرات نار الموقد»

وقال ابن مالك في أفعال الاستثناء، نحو «قاموا ليس زيدا، ولا يكون زيدا، وما خلا زيدا» ان مرفوعهن محذوف، وهو كلمة بعض مضافة إلى ضمير من تقدم، فوهم ابن هشام، وقال : الصواب أنه مضمر عائد اما على البعض المفهوم من الجمع... واما على اسم الفاعل المفهوم من الفعل.

ووافق سيبويه، في تنزيل ما كان اسم زمان مبهم منزلة «إذ» نحو جئتك زمن الحجاج أمير «ولم يوافقه في مشبه «إذا» من ذلك.

وقال في عامل النداء : إن العرب لم تقدر أحرف النداء عوضا من أدعو وأنادي، لإجازتهم حذفها.

وقال بقياس ثلاث أشخاص، حينما يراد بها نسوة، كما قال عمر بن أبي ربيعة : ((ثلاث شخوص كاعبان ومعصر))، وجعل هذا ابن هشام ضرورة فالنظر إذن في المفرد.

وقال في البيت :

«عمتهم بالندى حتى غواتهم   فكنت مالك ذي غي وذي رشد»

انه يروي «غواتهم» بالأوجه الثلاثة، قال ابن هشام، فإن ثبتت رواية الرفع، فهو من الوارد من النوع الأول في الشذوذ كما بالبيت.

«وخالد يحمد سادتنا» (برفع سادتنا) وقوله : «كله لم أصنع» (برفع كله) والشذوذ فيما خالف مقتضى شرطين، أن لا يؤدى الحذف إلى تهيئة العامل للعمل وقطعه عنه، ولا إلى إعمال العامل الضعيف، مع إمكان العامل القوي.

وقال في الآية «وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً» ان أسباطا تمييز، وهو مما يرجح «ثلاث شخوص»، لا أنه بدل فرقة.

واقتضى قول ابن مالك اعراب «حسب» في «قبضت عشرة فحسب» بالنصب عند التنكير كما في الخلاصة (وأعربوا نصبا إذا ما نكرا قبل وما من بعده قد ذكرا قبل كغير بعد حسب أول).

وقال حول قاعدة «إذا دار الأمر بين كون المحذوف أولا أو ثانيا، فكونه ثانيا أولى فإن نون الوقاية في نحو «تحاجوني» ونحو «تامروني» أولى بالبقاء، والمحذوف هو النون الأولى، وذلك رأي سيبويه، بخلاف ما قاله أبو العباس وأبو سعيد وأبو علي وأبو الفتح.

وقال ابن مالك، بجواز حذف الموصول الاسمي، ولكنه شرط في بعض كتبه كونه معطوفاً على موصول آخر، والقول بالجواز عن الكوفيين

والأخفش، مستدلين بالآية «آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم» وبقول حسان :

أمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

وقول آخر :

ما الذي دأبه احتياط وحزم وهواه أطاع يستويان

التقدير «والذي أنزل» و «من يمدحه» و «الذي أطاع هواه».

ولم يذكر ابن مالك وابنه، كون «فاعل» من العدد يستعمل مع دونه، كقولنا «رابع ثلاثة» أي مصيرها أربعة، وأجاز بعضهم ثاني واحد.

وقال في البيت :

فوالله ما نلتم وما نيل منكم بمعتدل وفق ولا متقارب

ان أصله «ما ما نلتم» وقدر المحذوف في بعض كتبه «ما» النافية، وفي بعضها «ما» الموصولة (ويلاحظ في هذا انعدام شرطه سابقا).

وعد ابن مالك في المقصور «فعلى» كأربى، كما في الخلاصة : (والاشتهار في مباني الأولى يبديه وزن أربى والطولى)، قال ابن هشام، وهو مشكل كفعلاء أيضا، مثل خفقاء، قال ابنه، هو بالجيم والنون والفاء كدأثاء.

وقال رادا على من جعل «هذي» في قول المتنبي :

«هذي برزت لنا فهجت رسيساً»

مفعولاً مطلقاً، أي برزت هذه البرزة : بأنه لا يشار إلى المصدر إلا متعوتا بالمصدر المشار إليه، كضربته ذلك الضرب، قال ابن هشام، ويرده بيت أنشده هو، وهو قوله :

ياعمرو انك قد مملت صحابتي   وصحابتيك أخال ذاك قليل

والذي لحن المتنبي، جعل اسم الإشارة منادى، وحرف النداء لا يحذف معه، ولا مع اسم الجنس (وفي الخلاصة أن حذفه قليل معهما).

وقال في «يا طالعا جبلا» ان طالعا اعتمد على حرف النداء (كما بالخلاصة ((أو حرف ندا)) وسهاه ابن هشام في أوضح المسالك، لأن حرف النداء مختص بالاسم فكيف يكون مقربا من الفعل، وجعل هذا من قبيل الاعتماد على المقدر، أي يا رجلا طالعا، فهو صفة أعملته، والنعت عنده، هو التابع الذي يكمل متبوعه بدلالته على معنى فيه أو فيما يتعلق به، قال ابن هشام، وهو غير شامل للمدح ونحوه.

وقال في نحو «ما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل كذا» ان كلمة «خير» بدل، وابدال المشتق ضعيف.

وجعل من عطف مشبه الفعل على الفعل «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي» وعطفه الزمخشري على «فالق» الحب والنوى.

وقال في قول الشاعر «عليك ورحمة الله السلام» ان الحمل على «طلل» أولى، وهو الوارد في قوله : لمية موحشا طلل».

وسمى بدل كل من كل «مطابقا» لوقوعه في اسم الله نحو «إلى صراط العزيز الحميد الله» فالكل يطلق على ذى أجزاء وهو ممتنع هنا.

وقال : ان الإسناد اللفظي يكون في الأسماء والأفعال والحروف، وان الذي يختص به الاسم هو الإسناد المعنوي ولم يحققه كما قال ابن هشام.

وقال في نحو «رأيتك إياك» ان اياك توكيد، عند الكوفيين، وعند البصريين أنه بدل، فلو كان توكيدا لكان بالمرفوع (كما بالخلاصة ومضمر الرفع الذي قد انفصل ـ أكد به كل ضمير اتصل).

وقال في «فل» وفلة في النداء، انها بمعنى زيد وهند ونحوهما، قال ابن هشام، وهو وهم، وإنما ذلك بمعنى فلان وفلانة.

وقال في قول الشاعر : في لجة أمسك فلانا عن فل «ان هذه هي الخاصة بالنداء، قال ابن هشام والصواب أصلها فلان، حذف ضرورة منه الألف والنون كما في «درس المنا بمتابع فأبان» أي درس المنازل.

وقال في «فعال وفعل» نحو خباث وفسق، إنهما سماعيان، وتقدم أن ابن عصفور جعلها قياسيين.

وقال ابن هشام في قول الشاعر «تمنى ابنتاى أن يعيش أبوهما» إن الفعل مضارع، ووهم ابن مالك فجعله ماضيا «كأبقل ابقالها».

وقال ابن مالك، انه يجوز ترخيم المنادى ذي الإسناد، وان عمرا قد نقل ذلك، وهو سيبويه.

وقد ابن مالك بجواز تصغير أفعل التعجب، قياسا، كما في «ياأمليح» قال ابن هشام، ولم يحك اقتياسه إلا عن ابن كيسان.

وقال ابن مالك، إن يونس، الذي أجاز وقوع نون التوكيد الخفيفة بعد الألف، كان يكسرها، كما هي في قراءة ابن ذكوان ولا تتبعان.

وقال في نحو «قاموا ما خلا زيدا» مما فيه الحال معرفة، بما المصدرية وصلتها وقعت معرفة لتأولها بالنكرة (وإليه أشارت الخلاصة) :

والحال أن عرف لفظا فاعتقد تنكيره معنى كوحدك اجتهد

وقال بمنع «سراويل» من الصرف (كما بالخلاصة أيضا) :

ولسراويل بهذا الجمع شبه اقتضى عموم المنع

منكرا على ابن الحاجب الناقل صرفه.

وقال في قول الشاعر «لو يشأ طار بها ذوميعة» إن «لو» أعطيت حكم «إن» كما ان هذه تعطى حكم «لو» ومثل ابن مالك لهذه بالحديث «فالا تراه فإنه يراك» حيث أهمل عملها الذي أعطى في البيت للو، وهو الجزم.

وقال إذا تأخر جواب الشرط عن جواب قسم وتقدمها ذو خبر وجب جعل الجواب للشرط مع تأخره، نحو «زيد والله إن يقم أقم» وخالفه ابن هشام بالجواز.

وفيما يخص ابنه بدر الدين «ابن مالك» فقد مثل للام التعدية التي ذكرها والده في الكافية، بالآية المذكورة لوالده، وبنحو «قلت له افعل كذا».. وهي في شرح التسهيل للتبليغ في هذا المثال، قال ابن هشام والأولى أن يمثل لها بنحو «ما أضرب زيدا لعمر وما أحبه لبكر».

وقال من الحالات التي لهمزة الوصل بالنسبة إلى حركاتها، أن يرجح الضم على الكسر، فيما عرض جعل ضمة عينه كسرة، من نحو «اغزى».

ومنع بدر الدين نحو «ان زيدا طعامك لآكل» حيث يتخطى لام الابتداء العامل في «ان» ووهمه ابن هشام بنحو «ان ربهم بهم يومئذ لخبير».

وقال : كأبيه في عين فعلى صفة، انه يجوز في عينها أن تسلم الضمة، فتقلب الياء واوا، وان تبدل الضمة كسرة، فتسلم الياء، وتقدم هذا.

وأنكر بدر الدين، كابن الحاج، مجيء «لو» في التعليق للمستقبل، قال : «وغاية ما في أدلة من أثبت ذلك أن ما جعل شرطا للو مستقبل في نفسه، أو مفيد بمستقبل، وذلك لا ينافي امتناعه فيما مضى لا متناع غيره، ولا يحوج إلى إخراج «لو» عما عهد فيها من المضي.

وقال ابن هشام من جملة الرد عليه «قوله وذلك لا ينافي... إلى اخره، مقتضاه أن الشرط يمتنع لا متناع الجواب، والذي قرره هو وغيره، من مثبتي الامتناع فيها، أن الجواب هو الممتنع لا متناع الشرط، ولم نر أحدا صرح بخلاف ذلك إلا ابن الحاجب، وهو خلاف المتبادر في مثل «لو جئتني اكرمتك» وخلاف ما فسروا به عبارتهم، إلا بدر الدين، فإن المعنى انقلب عليه...

وقال : كأبيه، كان حق «مخيط» أن يعل، لأن زيادته خاصة بالأسماء، وهو مشبه لتعلم، بالكسر لغة، لكنه حمل على مخياط، وتقدم وجهه.

ووهمه ابن هشام في اتباعه لوالده، حيث مثل للنفي المنقطع بالبيت الذي تقدم لوالده، وذلك فيما كتب على التسهيل، وهو وهم فاحش، كما قال ابن هشام، وتقدم.

وقال : كأبيه، في أولى التاءين الزائدتين في المضارع، إنك إذا أدغمت اجتلبت همزة الوصول، وتقدم رد ابن هشام على ذلك.

وقال ان «ليتي» نادر، و «لعلني» ضرورة، وان قدى وقطى أعرف من قدني وقطني، وغلطه ابن هشام في جميع ذلك.

وقال في الحال التي دل عاملها على تجدد صاحبها، ان من ذلك «وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا» وهذا سهو منه، كما قال ابن هشام لأن الكتاب قديم (على أن هذه الأقدمية فيها تفصيل وخلاف عال).

وقال : كأبيه، بجواز أن يكون الوصف مبتدأ، دون تقدم استفهام أو نفي، نحو «خبير بنو لهب فلا تك ملغيا» وجوز غيره كونه خبرا.

وتقدم أن ابن مالك مثل للحال المؤكدة لعاملها، بالأية، ويزيد أبوك عطوفاً فتابعه في هذا ابنه بدر الدين، وسهاهما ابن هشام.

وقال في البيت :

«يداك يد خيرها يرتجى   وأخرى لأعدائها غائظة»

تعدد فيه الخبر، لأن يداك في قوة مبتدأين، فلا تعدد بالخبر.

وقال بدر الدين في قوله تعالى : ﴿ولا يوذن لهم فيعتذرون﴾ ان التقدير «فهم يعتذرون» وجعل ذلك على الاستيناف.

وتقدم لأبيه أنه قال بأن الفصل بلو، بين أن المخففة وبين مدخولها قليل، فتبعه ابنه، ووهمهما معاً ابن هشام نحو «أن لو نشاء لأصبناهم».

وقال في نحو «لا تأكل سمكا وتشرب اللبن» ان المعنى مع رفع المضارع كهو مع نصبه، على تقدير لا تأكل السمك وأنت تشرب اللبن.

وقال إذا تعدى الفعل لأكثر من مفعول، فنيابة الثالث ممتنعة اتفاقا، نقله الخضراوي.

وقال في البيت الحماسي :

«فارسا ما غادروه ملحما   غير زميل ولا نكسر وكل»

ان «فارسا ما غدروه» من باب الاشتغال، كقول أبي علي في الآية «ورهبانية ابتدعوها» قال ابن هشام، والظاهر أنه على المدح.

وقال في الآية «أنزل إليكم الكتاب مفصلا» إن «مفصلا» من الأحوال التي يدل عاملها على تجدد صاحبها، فوهمه ابن هشام في أوضحه.

وقال في قوله تعالى : ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا﴾، ان جواب الشرط محذوف، تقديره «ذهبت نفسك عليهم حسرات» بدليل «فلا تذهب».

وقال في الحال التي تدل على التسعير وغيره مما تقع فيه جامدة انها تؤول بالمشتق في جميعها، وهو تكلف كما قال ابن هشام بالأوضح.

وفي مسألة «ان محلا وان مر تحلا» و «ان مالا وان ولدا» مما حذف فيه خبر «ان» لبدر الدين مع والده، بحث أجاد فيه.

وقال في نحو «اياك الأسد» جائز، لتعدي «احذر» المحذوفة لمفعولين.

وقال : بحذف جملة الشرط في نحو «فلم تقتلوهم» أي «ان افتخرتم بقتلهم» وهذا القول للزمخشري، وتبعه بدر الدين.

وقال : كأبيه، ان امالة ألف سجى، لمناسبة امالة ألف قلا، قال ابن هشام، بل امالتها لقولك قلى وسجى.

وفيما يتصل بابن مضاء، فقد قال بجواز حذف الفاعل، تبعا للكسائي ولم يقل في مثل الحديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» بأن الفاعل لفعل «يشرب» ليس ضميرا، عائدا إلى ما تقدم ذكره ـ وهو الزاني ـ لأن ذلك خلاف المقصود، بل الأصل ولا

بشرب الشارب، فحذف الشارب، وليس الفاعل ضميرا مستترا في الفعل عائدا على الشارب، الذي استلزمه يشرب وحسن ذلك تقدم نظيره، وهو «لا يزني الزاني».

وقال ابن مضاء أيضا، في عمل اسم الفاعل المجرد عن «أل» الموصولة، بعدم اشتراط أن يكون للحال أو للاستقبال، بل جوز أن يكون للماضي، وهو قول للكسائي وهشام، مستدلين بقوله تعالى : ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾.

وفيما يخص ابن معطي، فقد قال بحذف «ما» النافية، وقال في ألفيته :

وان أتى الجواب منفيا بلا   أو ما كقولي والسما ما فعلا
فإنه يجوز حذف الحرف   ان أمن الالباس حال الحذف

وقال : في تعريف الكلام بألفيته، وأتى به ابن هشام كذلك في المغنى مستشهدا بتركيبه على حذف جملة الشرط، ان اكتنفه ما يدل على الجواب : ((اللفظ ان يفد هو الكلام)).

قال ابن هشام : «اما من ذلك ففيه ضرورة، وهي حذف الجواب مع كون الشرط مضارعا، وأما الجواب الجملة الاسمية، وجملتا الشرط والجواب خبر، ففيه ضرورة أيضا، وهي حذف الفاء (يريد أنه ان كان من ذلك القبيل، فخبر «اللفظ» هو الكلام والجواب محذوف دل عليه ما اكتنفه من المبتدأ والخبر، أما ان جعلنا الجواب مذكوراً في «هو الكلام» ففيه حذف الفاء الواجب ذكرها، كما بالخلاصة : واقرن بفا حتما جوابا...).

وتابع ابن الطراوة، في استشكاله اعراب نصر الثانية والثالثة عطف بيان، في «يانصر نصر نصرا» لأن الشيء لا يبين نفسه وإنما هذا توكيد لفظي.

وقال بعدم توسط خبر «مادام»، وخالفه ابن هشام في أوضح المسالك، بدليل «لا طيب للعيش مادامت منغصة ـ لذاته...»

وفيما يخص ابن ملكون فقال في «مذو منذ» انهما أصلان، لأنه لايتصرف في الحرف ولا شبهه، قال ابن هشام، ويرده تخفيف «ان» و «كأن».

ومنع ابن ملكون، حذف أحد مفعولي باب ظن اختصارا، وأجازه الجمهور، مستد لا بالبيت :

ولقد نزلت فلا تظني غيره　　مني بمنزلة المحب المكرم

وأما ما يتصل بابن هشام اللخمي فقال في «لو» ان لها معنى آخر لم يذكروه، وهو القليل، نحو «تصدقوا ولو بظلف محروق» وقوله تعالى : ﴿ولو على أنفسكم﴾ قال ابن هشام : وفيه نظر، قال الأمير : لأنها فيما ذكر شرطية بمعنى «ان» والتقليل من مدخولها، للدسوقي وجوابه محذوف.
واما ما يخص ابن يسعون، فقد تبع السهيلي، في كون «مهما» حرفا، في قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة　　وان خالها تخفى عن الناس تعلم

قال فهي بمنزلة «ان» بدليل أنها لا محل لها، واستدل ابن يسعون بقول الشاعر :

قد أوبيت كل ماء فهي ضاوية   مهما تصب افقا من بارق تشم

قال ابن يسعون، إذ لا تكون مبتدا، لعدم الرابط من الخبر، وهو فعل الشرط ولا مفعولا، لا ستيفاء فعل الشرط مفعوله، ولا سبيل إلى غيرهما، فتعين أنها لا موضع لها.

وأما ما يختص بأبي حيان، فذكر عنه أنه قال في «أن» الموصولية، لا توصل بالأمر، وان كل شيء سمع من ذلك، فأن فيه تفسيرية، واستدل بدليلين : أحدهما، أن «أن» والأمر بعدها، إذا قدر بالمصدر فات معنى الأمر، والثاني، أنها لم يقعا فاعلا ولا مفعولا، فلا يصح «أعجبني أن قم» ولا «كرهت أن قم» كما يصح ذلك مع الماضي ومع المضارع، وأجاب ابن هشام بكون فوات معنى الأمر به مثل فوات غيره من المضي والاستقبال، ثم إنه يسلم مصدرية «أن» المخففة مع لزوم مثل ذلك فيها، في نحو «والخامسة أن غضب الله عليها» والدعاء يفهم أيضا من المصدر، كسقيا ورعيا.

وقال أبو حيان في كون «أن» الزائدة، آتية للتوكيد، إن الزمخشري زعم أنه ينجر مع التوكيد معنى آخر، فقال في قوله تعالى : ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم﴾ دخلت «أن» تنبيها وتأكيدا على أن الإساءة كانت تعقب المجيء، فهي للاتصال واللزوم... وقال الشلوبين، لما كانت «أن» للسبب في «جئت أن أعطي» أفادت هنا أن الإساءة كانت لأجل المجيء وتعقبه، كأن لو فعلت لفعلت، قال وهذا لايعرفه كبراء النحويين.

وقال الزمخشري : عن «أنما» المفتوحة، انها تفيد الحصر كإنما المكسورة وقد اجتمعتا في قوله تعالى : ﴿قال إنما يوحى إلى أنما إلاهم إله واحد﴾، فالأولى لقصر الصفة على الموصوف، والثانية بالعكس، وعقب أبو حيان

عليه، بأن «هذا شيء انفرد به لا يعرف القول بذلك إلا في «إنما» بالكسر، فتعقب هذا ابن هشام، بأنه مردود بما ذكرت (يريد أن المفتوحة فرع عن المكسورة انظر دلائل الاعجاز وتعليقنا عليه).

وقال أبو حيان في جواب «إذا» انه ورد مقرونا بما النافية، نحو ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾، و «ما» لها الصدر، قال ابن هشام، وليس هذا بجواب وإلا لا قترن بالفاء مثل «وان يستعتبوا فما هم من المعتبين».

وقال في الآية : ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتكم كل ممزق انكم لفي خلق جديد﴾، يقال : لا يصح لجديد أن يعمل في إذا «لأن» ان ولام الابتداء يمنعان من ذلك؛ لما لهما من الصدارة، كما أن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، وأجاب ابن هشام بكون الجواب محذوفاً دل عليه بجديد، أي «إذا مزقتم تجددون» لأن الحرف الناسخ لا يكون في أول الجواب إلا مقرونا بالفاء.

وقال أبو حيان رادا على ابن مالك في «حسب» حين قطعها عن الإضافة : لا وجه لنصبها، لأنها غير ظرف، إلا إن نقل نصبها عنهم حالا وهي نكرة.

وقال أبو حيان، مخالفا ابن مالك أيضا، القائل بالحال المنفى عاملها في قول الشاعر :

فما رجعت بخائبة ركاب   حكيم بن المسيب منتهاها

وفي قول الآخر :

«فما انبعثت بمزؤود ولا وكل»

ان البيتين على التقدير «بحاجة خائبة» و «بشخص مزؤود» أي مذعور، ويريد بالمزؤود نفسه، على حد قولهم «رأيت منه أسدا» قال ابن هشام، وهذا التخريج ظاهر في الأول دون الثاني، فالصفات إذا نفيت للمبالغة لم ينتف أصلها.

وقال في نحو :

«عجبت من القوم حتى بنيهم»

وقول الشاعر :

جود يمناك فاض في الخلق حتى بائس دان بالإساءة دينا

ان «حتى» في هذا جارة، إذ لا يشرط في «تالي» الجارة أن يكون بعضا أو كالبعض، بخلاف العاطفة، وبهذا منعوا «أعجبتني الجارية حتى ولدها» وهي في البيت محتملة للعاطفة والجارة، رادا بهذا على ابن مالك القائل بتعين كونها للعطف في المثالين، وحسنه ابن هشام.

وقال أبو حيان : رادا على الزمخشري القائل بأن «كلا» في «كلا» سيكفرون بعبادتهم بالتنوين، انه حرف للردع، ونون كما في «سلاسل» : ان التنوين إنما صح في «سلاسلا» لأنه اسم أصله التنوين، فرجع به إلى أصله للتناسب، أو على لغة من يصرف مالا ينصرف مطلقا، أو يشرط كونه مفاعل أو مفاعيل.

وقال ابن مالك ـ كما تقدم ـ بأن الظاهر قد يخلف المضمر، في كل مضافة إليه، فخالفه أبو حيان، في الاستشهاد بالبيت الذي سلف زاعما ان «كل» في «يا أشبه الناس كل الناس» نعت، مثلها في «أطعمنا شاة كل شاة» وليست توكيدا، قال ابن هشام، وليس بشيء.

وقال ابن مالك، بوجوب مراعاة المعنى مع النكرة، في كل المضافة ـ كما تقدم ـ ورده أبو حيان بقول عنترة :

جادت عليه كل عين ثرة   فتركن كل حديقة كالدرهم

فقال : «تركن» ولم يقل «تركت»، فدل على جواز «كل رجل قائم وقائمون» قال ابن هشام لو ظفر أبو حيان بقوله تعالى : ﴿وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون﴾ لم يعدل إلى الاعتراض بالبيت.

وقال أبو حيان في : «كل» انها لو قطعت عن الإضافة، جاز مراعاة اللفظ، نحو «كل يعمل على شاكلته» ومراعاة المعنى نحو «وكل كانوا ظالمين».

وقال رادا على ابن عصفور والأبدي : القائلين بكون «كل» مبتدأ في «كلما استدعيتك فإن زرتني فعبدي حرا» ان قولهما مدفوع بأن «كلما» لم تسمع في ذلك إلا منصوبة، واستشهد بآيات كثيرة، كلما نضجت، كلما أضاء... كلما مر عليه ملأ.. كلما دعوتهم لتغفر...

وقال أبو حيان بمراعاة «كلا وكلتا» لفظا بالافراد أو معنى بالتثنية، ومثل لذلك بقول الأسود بن يعفر في الأول :

إن المنية والحتوف كلاهما   يوفي المنية يرقبان سوادي

ويقول الآخر فيهما معا :

كلاهما حين جد السير بينهما   قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى

ووهم أبو حيان ابن مالك ـ كما تقدم في عده حرى من الأفعال، وقال انها اسم بالتنوين، ورد عليه ابن هشام وقال انه الواهم.

وقال أبو حيان بقول ابن عصفور في فعل الاستغاثة المحذوف وجوبا : ان تعديه ضعف بالتزام الحذف، فقوي تعديه باللام في نحو «باللدواهي».

وقال في الآية : ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ التقدير «قَصْدُكُمْ أن تذهبوا به»، فرده ابن هشام، بكونه يقتضى حذف الفاعل، لأن «أن تذهبوا» على تقديره منصوب.

وقال في الآية : ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا من قبلكم﴾، ان اللام هنا لام الابتداء مفيدة لمعنى التوكيد، ويجوز أن يكون قبلها قسم مقدر وأن لايكون قال ابن هشام، والمشهور أنها لام قسم.

وقال أبو حيان، لا يجوز فصل الضمير المحصور بإنما، وإنما الفصل في البيت :

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما   يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

ضرورة، ووهمه ابن هشام، وقد قال الفارسي، ان العرب عاملوا «إنما» معاملة النفي و «لا» في فصل الضمير، مستشهدا بهذا وبآخر :

قد علمت سلمى وجارتها   ما قطر الفارس إلا أنا (انظر الدلائل)

وقال أبو حيان في نحو «جاءوني من جاءك» بالمنع، لأن الواو لم تسمع إلا مع لفظة جمع، وهذه علامة المذكورين في لغة أزد شنوءة...

ورد أبو حيان على الزمخشري حينما قال في : «ونحن له مسلمون» يجوز أن يكون حالا من فاعل «نعبد» أو من مفعوله، لا شتما لها على ضميريهم وأن تكون معطوفة على «نعبد» وأن تكون اعتراضية مؤكدة، أي ومن حالتهم أننا مخلصون له التوحيد، هذا الاعتراض توهما منه ـ كما يقول ابن هشام أنه لا اعتراض إلا ما يقوله النحوي، وهو الاعتراض بين شيئين متطالبين، وللبيانيين في الاعتراض اصطلاحات مخالفة لاصطلاح النحويين، كما قال ابن هشام، وجعل أبا حيان ضمن من لا يعرفون علم البيان.

وقال أبو حيان، متوهما على ابن عطية مالا يتوهم على صغار الطلبة بأنه قال في واو «وان منكم إلا واردها» الواو حرف قسم، ورد عليه بأنه يلزم منه حذف المجرور بباء الجار، وحذف القسم مع كون الجواب منفيا بأن. وان مراد ابن عطية من قوله «هو قسم» والواو تقتضيه هو جواب قسم والواو هي المحصلة لذلك لأنها عطفت على «ثم لنحن أعلم». هكذا يدافع ابن هشام عن ابن عطية توهم أبي حيان.

وقال في «ونعم من هو في سر وفي علن» ان «في» لا تدل على عالم ونحوه من الأكوان الخاصة، رادا على ابن مالك فيه ـ كما تقدم ـ.

وكذلك رد على تقديرهم في «فطلقوهن لعدتهن» مستقبلا لعدتهن قال ابن هشام، وليس بشيء.

وحجة أبي حيان في هذا الأخير، ان الخاص لا يحذف، وقال الصواب أن اللام للتوقيت، وان الأصل لاستقبال عدتهن، فحذف المضاف، ولكن ابن هشام جعل هذا منه توهما، وبين ـ كما قال ـ فساد تلك الشبهة فيما تقدم.

وقال أبو حيان : من شرط العطف على الموضع أن يكون للمعطوف عليه لفظ وموضع، فجعل صورة المسألة شرطا لها، ثم انه أسقط الشرط الأول الذي ذكره ابن هشام، واستغرب هذا من أبي حيان قولته تلك.

وقال أبو حيان : أجاز سيبويه «جاءني زيد ومن عمرو العاقلان» على أن يكون العاقلان خبر المحذوف، ويؤيده قوله :

تناغي غزالا عند باب ابن عامر وكحل أماقيكَ الحسان باثمد

وقال ابن هشام، ما نقله عنه فغلط، وإنما قال : وأعلم أنه لا يجوز «من عبد الله وهذا زيد الرجلين الصالحين» رفعت أو نصبت، لأنه لا تثني

إلا على من أثبته وعلمته، ولا يجوز أن تخلط من تعلم ومن لا تعلم فتجعلها بمنزلة واحدة.

وقال أبو حيان في رده على الزمخشري حيث قال هذا في قوله تعالى : ﴿ولا يحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا﴾، بالغيبة، أن التقدير ولا يحسبها والذين فاعل، ان هذا فيه استلزام عود الضمير على المؤخر، قال ابن هشام : وهذا غريب جدا، فإن المؤخر مقدم في الرتبة.

وقال أبو حيان في الآية : ﴿واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ ان الأُولى ان لايقدر في الآية الأُولى ضمير، بل يقدر أن الأَصل يوما يوم لاتجزى، بإبدال يوم الثاني من الأول، ثم حذف المضاف... وغيره يقول : ان فيها تقدير «فيه» أربع مرات، لا تجزى فيه... ولا يقبل فيه... ولا يؤخذ فيه... ولا هم ينصرن فيه.

وقال في الآية : ﴿والذين كفروا فتعسا لهم﴾ ان الذين منصوب بمحذوف، ويفسره تعسا، وخالفه ابن هشام، الذي جنح إلى كونها مبتدأ وتعسا مصدر لفعل محذوف هو الخبر، فاللام متعلقة بمحذوف لا بالمصدر، حيث إنه لا يتعدى بالحرف وليست لام التقوية لأنها لازمة.

وقال ابن هشام، سألني أبو حيان ـ وقد عرض اجتماعنا ـ علام عطف «بجقلد» من قول زهير :

نقي تقي لم يكثر غنية بنهكة ذي قربى ولا بجقلد

فقلت : حتى أعرف مـا «الحقلـد» فنظرنـاه فـإذا هـو سيء الخلـق، قلت : هو معطوف على شيء متوهم، إذ المعنى ليس بكثر غنيمـة، فـاستعظم ذلك (أبو حيان).

وقال أبو حيان في قولـه تعـالى : ﴿فـاذكروا اللـه كـذكركم آبـاءكم أو أشد ذكرا﴾ ان أشد حال، كان في الأصل صفة لذكرا.

وقال في «ما» لم يثبت مجيئها نكرة موصوفة، ولا دليل في «مررت بما معجب لـك» لاحتمال الزيـادة، ولو ثبت نحو «سرني مـا معجب لـك» لثبت ذلك، قال ابن هشام، ولا أعلمهم زادوا «ما» بعد الباء إلا ومعناها السببية.

وقال أبو حيان في الآية : «واقعدوا لهم كل مرصـد» ان اقعـدوا ليس على حقيقتـه، بل معنـاه، أرصـدوهم كل مرصـد، ويصح أرصـد كل مرصـد، وقلـد أبو حيـان ابن مـالـك في القول ان الإسنـاد اللفظي يكون في الأسماء والأفعال والحروف كما تقدم.

وقـال يعقوب بن إسحـاق السكيت، في كتـاب التوسعـة ان «عرضت الحوض على الناقـة» مقلوب، وقـال آخر، لا قلب في واحـد منهما، وهـذا مـا اختـاره أبـو حيـان، ورد على قـول الـزمخشري في الآيـة : ﴿ويـوم يعرض الذين كفروا على النار﴾.

وفيما يخص الأعلم فقـد أجـاز حـذف المفعـولين من أفعـال الظن دون أفعال العلم، اقتصارا، أي لغير دليل، نحو «وظننتم ظن السوء».

واشترط في المفعـول لـه أن يكـون متحـدا بـالمعلـل وقتـا، فـلا يجـوز «تأهبت السفر».

وعن الأعلم، أنه جعل «إياها» في مسألة الزنبور الوارد فيها «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو إياها» مفعولا مطلقا بتقدير «إذا هو يلسع لسعتها» فحذف الفعل، ثم حذف المضاف، وأقيم مقامه المضاف إليه، وقد صار ضميراً منفصلا.

واشترط الأعلم في زيادة الفاء في الخبر، أن يكون أمرا أو نهيا، نحو «الكتاب فاقرأه» والكذب فلا تقله «كما في البيت : «وقائلة خولان فانكح فتاتهم».

وبه قال الفراء وجماعة.

وجعل الأعلم من معاني «من» أن ترادف «ربما» حينما تتصل بها «ما» كما في البيت : «وإنا لما نضرب الكبش ضربة».

وبذلك قال السيرفي وابن خروف وابن طاهر.

وجعل «رحمانا» في قول الشاعر :

«تبارك رحمانا رحيا وموئلا»

عَلَماً لا صفة، فيبطل أن يعرب تمييزا، لأن شرطه كونه نكرة، وبه قال ابن مالك أيضا، كما تقدم جل ذلك.

وقال في الآية : ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا» ان الفاء غير عاطفة، وصح الاستئناف بوجه أن المستأنف قد يكون على معنى السببية.

وقال في العطف على معمولي عاملين، كما في قولهم «في الدار زيد والحجرة عمرو» ان ولي المخفوض العطف، كما هنا، فجائز، وإلا فلا، كأن يقال «في الدار زيد وعمرو في الحجرة» ففصل هنا واو العطف عن المخفوض وهو الحجرة».

وبهذا التفصيل قال قوم : والمشهور عن سيبويه المنع.

وأما ما يتصل بالجزولي، فقد نقل ابن هشام عن الشلوبين، أن نحويا من كبار طلبة الجزولي، سئل عن إعراب «كلالة» من قوله تعالى : «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة فقال : اخبروني ما الكلالة ؟ فقالوا له : الورثة إذا لم يكن فيهم أب فما علا، ولا ابن فما سفل، فقال : فهي إذن تمييز.. قال ابن هشام : ولقد أصاب هذا النحوي في سؤاله وأخطأ في جوابه، فإن التمييز بالفاعل بعد حذفه نقض للغرض الذي حذف لأجله، وتراجع عما بنيت الجملة عليه، من طي ذكر الفاعل فيها، ولهذا لايوجد في كلامهم «ضرب أخوك رجلا» (بالبناء للمجهول) اما قراءة من قرأ «يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» (بالبناء للمجهول) فالمُسَوِّغ أن الفاعل ذكر في جملة أخرى غير التي حذف فيها.

وعن الجزولي أن الحصر بالا، كالحصر بِإنّمَا في نحو «إنما ضرب زيد عمرا» والمحصور هو المفعول، وهو قول جماعة كذلك.

وعن الجزولي وابن عصفور وابن مالك، أن الفاعل يجب تقديمه على المفعول عند الالتباس، كضرب موسى عيسى، وخالفهم ابن الحاج كما تقدم.

وقال الجزولي بامتناع إقامة المفعول الثاني لظن نائب فاعل مطلقا، للالباس في النكرتين والمعرفتين، ولعود الضمير على مؤخر إن كان الثاني نكرة، لأن الغالب كونه مشتقا، وهو حينئذ شبيه بالفاعل، لأنه مسند إليه، فرتبته التقديم، قال بهذا قوم واختاره الجزولي.

وتبع الجزولي أيضا الأخفش في كون ما همزته بدل من حرف الإلحاق ـ كعلباء وقوباء، أصلها علباي وقوباي، بياء زائدة فيها للإلحاق بقرطاس، وأبدلت همزة ـ يرجح فيه التصحيح.

وأما ما يخص ذكر حازم، فنقل عنه ابن هشام في المغنى، الذي حلاه فيه بالإمام الأديب، ما ورد في مقصورته، حول واقعة الزنبور، في هذه الأبيات :

والعرب قد تحذف الأخبار بعد إذا ... إذا عنت فجأة الأمر الذي دهما
وربما نصبوا للحال بعد إذا ... وربما رفعوا من بعدها ربما
فإن توالى ضيران اكتسى بها ... وجه الحقيقة من أشكاله عما
لذاك أعيت على الأفهام مسألة ... أهدت إلى سيبويه الحتف والغما
قد كانت العقرب العوجاء أحسبها ... قدما أشد من الزنبور وقع حما
وفي الجواب عليها هل«إذا هوهي» ... أو هل إذا هو إياها قد اختصما
وخطأ ابن زياد وابن حمزة في ... ما قال فيها أبا بشر وقد ظلما
وغاظ عمرا على في حكومته ... ياليته لم يكن في أمره حكما
كغيظ عمرو عليا في حكومته ... ياليته لم يكن في أمر حكما
وفجع ابن زياد كل منتخب ... من أهله إذ غدا منه يفيض دما
كفجعة ابن زياد كل منتخب ... من أهله إذ غدا منه يفيض دما
وأصبحت بعده الأنفاس باكية ... في كل طرس كدمع سح وانسجما
وليس يخلو امرؤ من حاسد أضم ... لولا التنافس في الدنيا لما أضما
والغبن في العلم أشجى محنة علمت ... وأبرح الناس شجوا عالم هضما

قال ابن هشام : ولقد أحسن، الإمام الأديب أبو الحسن حازم بن محمد الأنصاري القرطجني، ثم صار يعلق عليها شارحا لمغازيها.

وأما ما يتصل بالخشني فقال في «لات» انها في الأصل بمعنى نقص من قوله تعالى : ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئا﴾ فإنه يقال : لات يليت، وقد

قرئ بها ثم استعملت للنفي، كما أن «قل» كذلـك (في نحو «قلما» تؤدى معنى النفي).

وفيما يخص الخضراوي، فقال في «حتى» بـالآيـة : ﴿فقـاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله﴾، انها مرادفة للحرف «الا» في الاستثنـاء بمعنى وهـذا المعنى ظـاهر من قول سيبويـه في تفسير قولهم «واللـه لا أفعل إلا أن تفعل» إذ المعنى حتى أن تفعل، وصرح به ابن مالك.

وفي شروط عطف «حتى» ذكر منهـا الخضراوي أن يكـون معطـوفهـا ظاهرا لا مضمرا، كما ان ذلك شرط مجرورهـا، ولم يقف ابن هشـام على هـذا الشرط لغيره الخضراوي، ولا على اعتماده فيه فجعله الشرط الأول من الثلاثة التي ذكرها.

وادعى الخضراوي وابن الخبـاز الإجمـاع، على ان «كأن» حرف مركب ولكن ابن هشام قال : وليس كذلك.

وقـال الخضراوي، كالشلوبين، ان «لو» لا تفيـد الامتنـاع بوجـه، هي تدل على التعليق في الماضي، كما دلت عليه «ان» في المستقبل، ولم تدل بإجماع على امتناع أو ثبوت.

وقـال في «لـو» التمني كما في «لـو تـاتيني فتحـدثني» انهـا قسم برأسهـا لاتحتـاج إلى جواب كجواب الشرط، ولكن قـد يوتي لهـا بجـواب منصـوب، كجواب «ليت» وبهذا قال ابن الضـائع أيضـا، قيل، ومنـه «فلو أن لنـاكرة» فهو تمن ولهذا نصب «فنكون» ولا دليل عليه.

وقـال الخضراوي كالأبـدي وابن عصفور، بمنـع إقامـة المفعـول الثـاني، لباب «أعلم» مبنيا للمجهول، وقد تقدم هذا.

ولم يجز الخضراوي في نحو «جاءوا زيد وعمر وبكر» أن يكون هذا من لغة أزد يشنوءة.

وقال انه لا يجوز نحو «قام الناس حتى أنا» لأن من شرط العطف بحتى أن يكون المعطوف ظاهرا.

وقال في حكم المرفوع بعد الجار والمجرور والظرف رفع على الفعالية نقل ذلك عن الأكثرين

وأما ما ورد عن خطاب، فقال في اللام غير العاملة، انها لا تدخل على الماضي المقرون بقد. فإذا قيل «ان زيدا لقد قام» فهو جواب لقسم مقدر.

وفيما يخص الرندى، فقال كأستاذه السهيلي وابن درستويه، في نحو «سير بزيد» إن النائب عن الفاعل هو ضمير المصدر، لا المجرور «بزيد» لأنه لا يتبع على المحل بالرفع، ولأنه يقدم، نحو «كان عنه مسؤولا» ولأنه إذا تقدم لم يكن مبتدأ، وكل شيء ينوب عن الفاعل، فإنه إذا تقدم كان مبتدأ، ولأن الفعل لا يؤنث له في نحو بهند».

وأما ما يتصل بالسر قسطى، فقد ذكر من الأفعال «حرى» التي ذكر ابن مالك، أن خبرها يجب اقترانه بأن. قال ابن هشام في الشذور ولا أعرف من ذكر «حرى» يعني في أفعال المقاربة، من النحويين غير ابن مالك، وتوهم أبو حيان ـ كما تقدم ـ أنه وهم فيها.

وفيما يخص السهيلي فقال في «أن» : ان الذي يؤول بالمصدر، إنما هو «أن» الناصبة للفعل، لأنها أبدا مع الفعل المتصرف، و «أن» المشدد إنما تؤول

بالحديث، لأن خبرها قد يكون اسما محضا، نحو «علمت أن الليث الأسد» وهذا لا يشعر بالمصدر.

واشترط السهيلي في إجراء جملة القول مجراها عند سليم فيعمل القول عمل «ظن» أن لا يتعدى القول باللام، وإلا فالحكاية.

وقال : رادا على من قال في الباء، إنها تكون للتعدية، فهي معاقبة للهمزة، في تصيير الفاعل مفعولا : ان بين التعديتين فرقا، وإنك إذا قلت «ذهبت بزيد» كنت مصاحبا له في الذهاب، قال ابن هشام : هذا مردود بقراءة «اذهب الله نورهم» في «ذهب الله بنورهم».

وقال في «سقط في أيديهم» ان نائب الفاعل ليس الجار والمجرور، بل ضمير المصدر، لأنه لا يتبع على المحل بالرفع، ولأنه يقدم ولا يكون مبتدأ.

وقال في الآية : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ ان «تلقوا» ضمن «تفضوا» فليست إذن الباء زائدة، وكذلك قال في «ومن يرد فيه بالحاد» معناه «يريد» بهم وقال في قول الشاعر :

«نضرب بالسيف ونرجو بالفرج»

ان معنى «نرجو» نطمع.

وقال في قول الآخر : «سود المحاجر لا يقرأن بالسور» ان معنى «يقرأن» يرقين ويتبركن، فيقال قرأت بالسور على هذا المعنى، ولا يقال «قرأت بكتابك» لفوات معنى التبرك فيه.

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ لو قالوا «نعم» لكفروا، ونازع السهيلي فيما حكي عن ابن عباس، مستمسكا بأن

الاستفهام التقريري خبر موجب، ولهذا امتنع سيبويه من جعل «أم» متصلة في قوله تعالى : ﴿أفلا تبصرون أم أنا خير﴾ لأنها لا تقع بعد الإيجاب، وإذا ثبت أنه إيجاب، فنعم بعد إيجاب تصديق له.

وقال إن أصل «لا» التي يَجْزِمُ الفعل بعدها، لام النفي، وأن الجزم إنما هو بلام أمر مقدرة، واعترضه ابن هشام مخالفا إياه في هذا.

وقال السهيلي بوجوب حذف غير المرفوع عند اعمال الثاني في باب التنازع في العمل، تمكسا بقوله :

تعفق بالأرطى لها وأرادها رجال...

فلم يقل ((تعفقوا وأرادوها)).

وقالوا في البيت :

تخيرن من أزمان يوم حليمة إلى اليوم قد جربن كل التجارب

ان التقدير من مضي أزمان يوم حليمة، كما قالوا في الآية «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم» ان التقدير، من تأسيس أول يوم.

فرد هذا السهيلي بأنه لو قيل هكذا لا حتيج إلى تقدير الزمان.

واشترط السهيلي في العطف بلا، أن لا يصدق أحد متعاطفيها على الآخر كما في «جاءني رجل لا زيد» قال ابن هشام، وهو حق.

وقال السهيلي ان «مهما» تأتي حرفا بدليل قول زهير :

«ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم»

وتقدم أن ابن يسعون تبعه في هذا، واستدل بقوله :

«قد أوبيت كل ماء فهي ضاوية مهما تصب أفقا من بارق تشم»

وقال السهيلي : ان الأصل في نحو «مالقيته مذيومان» هو ((مذكان يومان)) وهو اختيار ابن مالك كذلك، فلم يلها اسم مرفوع.

وقال في الآية «لا تأخذه سنة ولا نوم» التقدير، ولا يأخذه نوم، فهو من عطف الجمل.

وقال السهيلي فيما شرطوا لِضَمِيرِ الفصل ـ أن يكون ما بعده خبرا لمبتدأ في الحال وفي الأصل، وان يكون معرفة أو كالمعرفة، في أنه لا يقبل «أل» لا فرق بين كون امتناع «أل» لعارض، كأفعل من، والمضاف كمثلك وغلام زيد ـ أو لذاته كالفعل المضارع، فقال تعالى : ﴿وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى﴾، إنما أتى بضمير الفصل في الأول والثاني دون الثالث، لأن بعض الجهال قد يثبت هذه الأفعال لغير الله، كقول نمروذ ((أنا أحيي وأميت)) وأما الثالث فلم يدعه أحد من الناس.

وقال في جعل الرجل نعتا في نحو «مررت بهذا الرجل» : أما تسمية سيبويه له نعتا فتسامح، كما سمى التوكيد وعطف البيان صفة.

وقال في نحو «ضربني وضربت زيدا» ان الفاعل محذوف لا مضمر.

ومنع السهيلي حذف المفعول الأول لفعل «أعطى» وخالفه ابن هشام مستشهدا بنحو «حتى يعطوا الجزية» أي يعطوكم.

وتابع الكسائي في إجازة حذف الفاعل، كما تابعه ابن مضاء، مقدرين في «لا يشرب الخمر وهو مؤمن» : لايشرب الشارب، فليس ضميرا.

وقال السهيلي في قوله تعالى : ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾، لا يتعلق الاستثناء بفاعل، إذ لم ينه عن قول «إلا

أن يشاء الله» بقوله ذلك، ولا بالنهي، لأنك إذا قلت «أنت منهي عن أن تقوم إلا أن يشاء الله فلست بمنهي» فقد سلطته على أن يقوم ويقول «شاء الله ذلك» وتأويل ذلك أن الأصل إلا قائلا «إلا أن يشاء الله» وحذف القول كثير.

وقال أيضا «لا يجوز أن تقول» : «وصل إليك كتابك فقرأت به» على حد قوله : «لا يقرأن بالسور» لأنه عار من معنى التقرب، وتقدم هذا.

وأما ما يخص الشاطبي فقال في لاميته الشهيرة :

«ومهما تصلها أو بدأت براءة» لتزيلها بالسيف لست مبسملا

فجعل ابن هشام هذا من المشكل، وقال : لايجوز في مهما أن تكون مفعولا به لتصل لاستيفائه مفعوله، ولا مبتدأ لعدم الرابط، ثم قال وهذه بخلافها في قوله :

«ومهما تصلها مع أواخر صورة» فلا تقفن الدهر فيها فتثقلا

فيتعين كونها ظرفا، أو مفعولا به حذف عامله.

وقال الشاطبي في باب البسملة :

«ووصلك بين السورتين فصاحة» وصل واسكن كل جلاياه حصلا

فقال السراج إن الواو للتخيير، وقال محققوهم، ان ذلك ليس من الواو، بل من جهة المعنى : صل إن شئت واسكن إن شئت.

وقال الشاطبي في الآية : ﴿إن في السماوات والأرض لآيات للمومنين، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون، واخلاف الليل

والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾ في قراء «آيات» الثالثة بالنصب، إنه على اضمار «ان في»، قال ابن هشام، واضمار «ان» بعيد.

وأما ما يخص الشلوبين فقال في معنى «إذن» انها للجواب والجزاء في كل موضع.

ومنع في نحو «عسى أن يقوم زيد» أن يقدر الفعل متحملا لضمير الاسم فيكون مرفوعا بعسى وتكون أن والفعل في موضع نصب على الخبر.

وقال الشلوبين في نحو «جئت أن أعطي» لما كانت «أن» للسبب، أي العطاء، أفادت في الآية «ولما ان جاءت رسلنا لوطا سيء بهم» أن الإساءة كانت للمجيء وتعقبه، كما تقدم ـ وكذلك في قولهم، اما والله أن لو فعلت لفعلت، أكدت «أن» ما بعد «لو» وهو السبب في الجواب.

وقال ابن هشام، وهو معترض من وجهين، أن المفيد للتعليل لام العلم المقدرة و «أن» مصدرية، والبحث في الزائدة.

وأنكر الشلوبين في «ألا» أن تكون للاستفهام عن النفي، ورد عليه إنكاره لهذا القسم بالبيت :

ألا اصطبار لسلمى أم لها جلد   إذا الاقى الذى لاقاه أمثالي

واختار الشلوبين، ما هو ظاهر لسيبويه، من منع تثنية وجمع المفعول المطلق النوعي، قال ابن هشام، والمشهور الجواز.

وقال الشلوبين وابن الضائع، في نحو «لو كان معنا إلا زيد» لا يصح المعنى حتى تكون «الا» بمعنى غير التي يراد بها البدل والعوض.

وقال في البيت :

استقدر الله خيرا وأرضين به   فبينما العسر إذ دارت مياسير

ان «إذ» مضافة إلى الجملة، فلا يعمل فيها الفعل، ولا بينا وبينما، لأن المضاف إليه لايعمل في المضاف ولا فيما قبله، وإنما عامله محذوف يدل عليه الكلام، و «إذ» بدل منها.

ونقل الشلوبين، في تخريج «فإذا هو إياها» أنه مفعول مطلق، فالأصل فإذا هو يلسع لسعتها، ثم حذف الفعل، ثم المضاف، كما تقدم عن الأعلم.

وقال الشلوبين في «كله لم اصنع» ببيت أبي النجم : إنه لا فرق في المعنى، كما تقدم عن ابن مالك، ورد الشلوبين على ابن أبي العافية القول بالفرق، كما تقدم (وهو الحق، كما قال البيانيون)

وقال في «لو» انها لا تفيد الامتناع بوجه، وتقدم.

وقال في خبر «لولا» انه يكون كونا مطلقا كالوجود والحصول، فيجب حذفه، كما تقدم عن ابن مالك وابن الشجري.

وقال الشلوبين في «نعم» إذا كان قبل النفي استفهام، فإن كان على حقيقته فجوا به كجواب النفي المجرد، وإن كان للتقرير فالأكثر أن يجاب بما يجاب به النفي، رعيا للفظه، ويجوز عند أمن اللبس أن يجاب بما يجاب به الإيجاب رعيا لمعناه.

وأنكر الشلوبين في «لو» التي هي للتعليق في الماضي، أن تقتضي امتناع شرطها دائما، وخالفه ابن هشام.

وجوز الشلوبين، في قول ابن عباس «لو قالوا نعم لكفروا» أن يكون مراده، أنهم لو قالوا نعم، جوابا للملفوظ به، على ما هو الأفصح...

وقال الشلوبين فيما زعموه في كون الجملة المفسرة لا محل لها من الإعراب، انها بحسب ما تفسره، فهي في نحو «زيدا ضربته» لا محل لها، وفي نحو «انا كل شيء خلقناه بقدر» ونحو «زيد الخبز ياكله» ـ بنصب الخبز ـ في محل رفع، ولهذا يظهر الرفع، إذا قلت آكله.

وقال في «فمن نحن نؤمنه يبت وهو آمن» فظهر الجزم.

وقال في شبه الجملة الظرف والجار والمجرور، لا يتعلقان بالفعل الناقص، لأنه لا يدل على الحدث، وقد قال بهذا قبله المبرد والفارسي ثم ابن برهان، قال ابن هشام، والصحيح أنها كلها دالة عليه، إلا ليس.

وقال الشلوبين في نحو «قاموا ما خلا زيدا» ان ما وصلتها نصب على الاستثناء، وقال به ابن خروف كذلك فيما تقدم، وغلطهما ابن هشام.

وأما ما يخص الصفار فقال : ان الفصل بين «أما» وبين الفاء بالخبر، كما في «أما في الدار فزيد» قليل.

وقال الصفار بجواز عطف الخبر على الإنشاء وبالعكس، مستدلا بقوله تعالى : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، وبقوله : ﴿وبشر المومنين﴾ معطوفين على الخبر.

واستدل كذلك بالبيت :

تناغي غزالا عند باب ابن عامر   وكحل أما فيك الحسان باثمد

وقال في قول سيبويه «واعلم أنه لا يجوز من عبد الله وهذا زيد الرجلين الصالحين، رفعت أو نصبت» كما تقدم، فقال الصفار، لما منعها سيبويه من جهة النعت، علم أن زوال النعت يصححها...

ووافق الصفار ابن خروف، في الرد على من قال : ان «أعمالا» في «هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا» مفعول به، بأن خسر لا يتعدى مثل نقيضه «ربح» كذلك، واستدل الصفار على ذلك بقوله تعالى : ﴿كرة خاسرة﴾، قال ابن هشام، وثلاثتهم ساهون، وتقدم وجهه والاستشهاد بالقرآن.

وأما ما يخص الصيري فعنه في قولهم «كل رجل وضعيته» أنه يجوز فيه النصب، وخالفه ابن هشام في «أوضح المسالك» لكون الجملة ليست ذات فعل أو اسم فيه معناه وحروفه.

وأما ما يخص المالقي فقال في قولهم، ان «أجل» يكون تصديقا للمخبر، واعلاما للمستخبر، ووعدا للطالب : يجب أن يكون الخبر بالمثبت والطلب بغير النهي.

وقال في «أما» ان له معنى ثالثا، وهو أن تكون حرف عرض بمنزلة «ألا» فتختص بالفعل، نحو «أما تقوم» و «أما تقعد».

وزاد المالقي في مدخول اللام الماضي الجامد، نحو «لبئس ما كانوا يعملون».

وقال في «لوما» انها لم تأت إلا للتحضيض.

وقال في «مذ» إذا كانت اسما فأصلها منذ، وإذا كانت حرفا، فهي أصل.

وبعد فهذه أصداء النحاة الأنـدلسيين التي عثرنـا عليهـا في كتب ابن هشام السالف ذكرهـا. ولم نطلع على غيرهـا لـه، ان كان لـه ذلـك، كما أننـا ذكرنـا ضمنهـا نحـويين مغربيين لاشـك فيهما لكـونهـا تلقيـا عن الأنـدلسيين علمهما كما لقنـاه كـذلـك لـلأندلسيين ذكرنـا بعضهم كالشلـوبيين، وبقى ابن مالك الابن الـذي غـالبـا مـا نشـأ في القطر السورى ولكن علمـه بـالعربيـة والنحو اكتسبه عن والده لا محالة، لذلك عددناه ضمن النحاة الأنـدلسيين كما سلف.

محمد ابن تاويت

القضاء في قرطبة الإسلامية

القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي

د. محمد عبد الوهاب خلاف
كلية التربية / المدينة المنورة

I - القضاء في قرطبة الإسلامية :

1 - مركز قرطبة الديني والروحي بعد سقوط الخلافة :

لقد ظلت حلقات قرطبة العلمية والفقهية في ظل خلفاء بني أمية مقصد العلماء وقبلة الفقهاء والدارسين وقد حظيت بالتشجيع الأدبي والمادي أيام حكم الخليفتين الناصر والحكم المستنصر أما عهد المنصور بن أبي عامر الذي تميز بالاستبداد العسكري فقد كان له أثره السيء على الفقهاء والمشاورين فبإرهابه استكان الكثير منهم إذ قتل المنصور بعضهم ونفي البعض الآخر، ولم يرض بعض العلماء والمشاورين عن حجر المنصور على الخليفة هشام المؤيد واستئثاره بالسلطة واتخاذه لنفسه صنائع من طبقات مختلفة.

وقد أدى ذلك إلى نفور الناس منه وانصراف قلوبهم عنه فكانوا يتربصون به الدوائر، واجتمع جماعة من وجوه الناس على الإيقاع بهذه الطبقة إلى جانب البطش بهذا الخليفة المستضعف وحاجبه ابن أبي عامر وقتله والقيام بغيره[1].

وكان متزعم هذا الرأي الفقيه عبد الملك بن منذر البلوطي[2] متولى الرد بقرطبة وهو من صنائع الخليفة المستنصر.

وقد علم ابن أبر عامر بالأمر بل وقع في يده كتاب بخط ابن منذر أقر فيه بالأمر على نفسه فما كان من ابن عامر إلا أن جمع الفقهاء والقاضي ابن زرب ـ للتشاور فيما بينهم لإدانة عبد المالك بن منذر ومن معه. فأفتى بعض الفقهاء فيهم بحكم «المحاربة» لما سعوه من الفساد في الأرض، وتوقف آخرون منهم أبو عمر أحمد بن المكوي الذي ألح عليه ابن أبي عامر ليعرف رأيه حتى يستند إليه في إدانة ابن منذر، فما كان من ابن المكوي إلا أن خيب أمل ابن أبي عامر وقال :

«ما أرى عليه شيئا هو رجل هم بمعصية فلم يفعلها ولم يجرد سيفا» ولا أخاف سبيلا[3]. وخرج أمر السلطان بعد ذلك بطلب ابن منذر فنفذ ذلك في الحين مما كان له أثره السيئ على ابن المكوي وغيره من الفقهاء والمشاورين وانقبض ابن المكوي لهذا الحدث والتزم داره وادعى مرضا نحوا من الشهرين[4]. فلم يفت أحدا ولا خرج لمن أتاه إنكارا لما جرى على

---

1) القاضي عياض : ترتيب المدارك 4 / 640.

2) نفس المرجع السابق 4 / 639.

3) المرجع السابق 4 / 640.

4) نفس المرجع السابق نفس الصفحة.

صاحبهم ابن المنذر، إذ لم يؤخذ فيه برأيه وتوقعا لشر ابن أبي عامر إلى أن تقادم العهد وخشي زيادة وحشة ابن أبي عامر فعاد لحاله[5].

وهناك قصص أخرى تدل على ما تعرض له العلماء والفقهاء من إرهاب على يد المنصور، منها أنه عندما بنى ابن أبي عامر مدينة الزاهرة أراد اتخاذ مسجدها جامعا إلى جانب جامع قرطبة واستشار في «التجميع» فيه الفقهاء ورجال الشورى فلم يوافقه أكثرهم بحجة أنه لا يجمع في مصر واحد بين جامعين[6]، نظرا لأن المسافة بينهما على أبعد الطرق نحو الفرسخ[7] فلما مات قاضيه ابن زرب الذي كان المنصور يهابه داعا ابن أبي عامر أصبغ بن الفرج بن فارس الطائي إلى تولى الصلاة والخطبة في هذا المسجد، فامتنع القاضي على الرغم من إلحاح المنصور عليه، إلا أنه أصر على رأيه ولو ناله العقاب فسخط عليه المنصور وعزله عن القضاء والفتيا إلا أنه سلم من أذاه[8] وعاش بقية عمره مصونا.

وكان ممن سخط عليهم المنصور بن أبي عامر أيضا أبو بكر بن وافد فأسقطه عن الشورى والشهادة[9] وتعرض قاضي الجماعة أبو بكر بن السليم لسخط ابن أبي عامر. قال ابن حيان «لم يزل ابن السليم على القضاء بقية أيام الحكم فلما ولي ابنه هشام أبقاه إلى أن كان بينه وبين قيم دولته ابن أبي عامر من شنآن يقال أن سببه كلمات بدرت من ابن السليم، ولم يزل ابن

---

5) نفس المرجع السابق نفس الصحيفة.

6) المرجع السابق 4 / 657.

7) المرجع السابق نفس الصفحة.

8) ترتيب المدارك 4 / 658.

9) ترتيب المدارك 4 / 658.

أبي عامر يسعى في تهوين أمره ويتعرض لأحكامه وينقض قضاياه وفطن هو لذلك فخفف وطأته وداري سلطانه شهورا إلى أن توفي سنة 367 هـ / 978م[10].

كما أصيب بعض الفقهاء بالنفي من قرطبة على يديه أيضا منهم الفقيه القبري[11] وكذلك أبو القاسم أحمد بن قاضي إشبيلية أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدي إذ نفاه المنصور إلى العدوة[12] بسبب مداخلته للخليفة هشام المؤيد.

ويشير ابن حزم في كتاب نقط العروس إلى مجلس جمع المنصور فيه كبار فقهاء قرطبة المشاورين حينما هم بأن يتسمى بالخلافة وكان من هؤلاء الفقهاء والد ابن حزم وابن المكوي الإشبيلي والأصيلي وابن عياش وابن فطيس وقاضي الجماعة محمد بن يبقى ابن زرب فصوب ابن عياش وابن فطيس والأصيلي رأى المنصور وتوقف ابن حزم وابن المكوي وأما القاضي ابن زرب فإنه رفض ذلك رفضا قاطعاً.

ويذكر ابن حزم في نهاية المجلس ومما يدل على عزل القاضي ووفاته بعد أيام يسيرة وهو معتزل في منزله[13].

وعلى الرغم من نظام المنصور العسكري إلا أن قرطبة احتفظت بمركز السيادة الفقهية على ولايتها وكان لرأي فقهائها القول الفصل في القضايا

---

10) ترتيب المدارك 4 / 548.

11) الذخيرة 1 / 4 / 44.

12) ترتيب المدارك 4 / 583.

13) ابن حزم نقط العروس تحقيق د. شوقي ضيف 77.

والمسائل التي تعرض في تلك المناطق، وللدلالة على ذلك مما لدينا من الشواهد العديدة نذكر ما يلي :

رفض أحد المتخاصمين بسبتة ـ وكانت من عمل صاحب الأندلس ـ رأي فقهاء سبتة في شراء حصة من حمام وقال لقاضيها «لا أرضى إلا بفتوى فقهاء الحضرة بقرطبة» وحين رفع هذا الأمر إلى الفقيه أبي بكر المكوي وقع أسفلها «وهذا من حيل الفجار وأرى الشفعة واجبة» فلما رأى فقيه سبتة هذا الجواب قال : هذا عقاب لا يطار تحت جناحه[14].

والحق ما قيل هات مالي وخذ حمامك[15].

وكانت لفترة الفتنة البربرية أثرها المباشر على الحالة الدينية والروحية بقرطبة إلى جانب تأثيرها السيء كما ذكرنا على شتى مرافق الحياة. لقد استطاع الكثير من الفقهاء والعلماء الهرب من قرطبة إلى الجهات الأخرى الأكثر أمنا مثل محمد بن يوسف ابن محمد الأموي النجاد الذي خرج عنها واستوطن الثغر[16]. ومثل أحمد بن مطرف ويعرف بابن الخطاب الذي خرج أيضا إلى الثغر[17] ومحمد بن معافي بن صميل الذي خرج هو الآخر إلى الثغر[18] وأحمد ابن يحي بن أحمد بن واصل الذي خرج إلى طليطلة[19]. وأحمد ابن قاسم بن عيسى الذي انتقل أيضا إلى طليطلة[20]

14) ترتيب المدارك 4 / 639.
15) المرجع السابق نفس الصفحة.
16) الصلة 2 / 493.
17) المرجع السابق 1 / 40.
18) المرجع السابق 2 / 476.
19) المرجع السابق 1 / 60.
20) المرجع السابق 1 / 36.

وخلف ابن مروان بن أمية بن حيوة المعروف بالصخرى خرج منها فارا من الفتنة[21]، وهشام بن غالب الغافقي الذي خرج من قرطبة وسكن غرناطة[22].

وخلف مولى جعفر الفتى المقرئ ويعرف بابن الجعفري الذي خرج فارا من قرطبة وقصد طرطوشة[23] وسعد بن إدريس بن يحي الذي كان إماما للمؤيد هشام ابن الحكم بقرطبة خرج إلى إشبيلية[24] وكذلك أحمد بن محمد بن سعيد الأموي المعروف بابن الفراء الذي سكن أيضا إشبيلية[25] أما أحمد بن محمد بن عفيف فخرج من قرطبة في الفتنة قاصدا المرية وأحمد بن محمد القيسي الجراوي فإنه خرج في الفتنة وقصد مصر[26] وأحمد بن محمد بن يحي المعروف بابن الحذاء الذي خرج من قرطبة وسكن سرقسطة[27].

تلك كانت حالة فقهاء قرطبة ومشاوريها في فترة الفتنة ما بين فار مهاجر عنها خوفا على نفسه وأمواله، وعاجز عن الهرب لم يلبث أن لحقته المنية بيد البربر في عقر داره، ومع ذلك لم تفقد قرطبة مركزها الروحي والفقهي على الرغم من سنوات الفتنة الحزينة التي مرت بها وهلاك علمائها وفرارهم.

---

21) المرجع السابق 1 / 159.

22) المرجع السابق 2 / 616.

23) الصلة 1 / 164.

24) المرجع السابق 1 / 215.

25) المرجع السابق 1 / 50.

26) المرجع السابق 1 / 43.

27) المرجع السابق 1 / 32.

وما كادت تستقر الأحوال في عهد ابن جهور حتى عادت لها مكانتها القديمة وزعامتها للعلم وزيارة علماء المشرق لها وأخذهم الدرس عن علمائها. ولقد أوضحت لنا كتب التراجم أسماء عديد من الفقهاء القادمين إلى قرطبة من المشرق أو من الشمال الإفريقي أو من الولايات الأندلسية.

وكان رأي فقهاء قرطبة في القضاء يعتد به، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك. فقد كتب قاضي طليطلة ابن الحشا إلى ابن عتاب وابن القطان لأخذ رأيهما في عدد من القضايا[28] هذا إلى جانب الاستفسارات التي كانت تأتيه من القضاة من خارج شبه الجزيرة الأندلسية من العدوة والشمال الإفريقي فلقد كتب القاضي محمد بن شماخ[29] قاضي غافق إلى قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن الليث في قضية عرضت عليه وشاور قاضي الجماعة في ذلك ابن عتاب وابن عبد المالك وابن القطان. ولقد ظلت مجالس قرطبة نشيطة بعلمائها وبالوافدين عليها في عهد بني عباد وعهد المرابطين وظل لفقهائها الرأي الأخير في الفتاوي واقتنع سكان الولايات الأندلسية بذلك عن طيب خاطر ولعل نوزال ابن سهل خير شاهد على ذلك.

2 ـ لقب القاضي في قرطبة :

لقد كان خلفاء قرطبة يكبرون من يولونه خطة القضاء ويختارون لتلك الخطة أهليها ويوفونهم حقوقهم فيها فكانت للقضاء بها المنزلة العالية والرتبة السامية مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم[30]. ولقد كان قاضي

---

28) المرجع السابق 1 / 65.

29) ابن سهل ورقات 120، 121، 155.

30) المرجع السابق ورقة 4.

قرطبة يلقب بقاضي الجماعة نسبة إلى جماعة القضاة وظل لقب قاضي الجماعة في قرطبة حتى نهاية القرن الرابع الهجري وفي عهد عبد الرحمن شنجول تغير هذا اللقب وحل مكانه لقب «قاضي القضاة» وأول من لقب به في الأندلس القاضي أبو العباس بن ذكوان[31] ويمكن أن يدعى «الوزير القاضي» وأول من تقلد وظيفة الوزارة بالإضافة إلى ولاية القضاء في قرطبة ـ هو أبو العباس بن ذكوان في عهد عبد الرحمن شنجول. ولم تجتمع هاتان الوظيفتان لأحد في الأندلس قبله[32] وهذا يدل على اتجاه الأندلس منذ بدء انهيار الدولة الأموية إلى تقليد الشرق ومحاكاته في الألقاب ويرى برونفسال أن وصول بعض هؤلاء القضاة إلى منصب الوزير إنما كان ليستفيدوا بما تدره هذه الوظيفة من دخل مادي[33]. ونحن نخالف بروفنسال في ذلك نظرا إلى أن بعض من تولى تلك الوظيفة كانوا في الأصل أغنياء، وأن بعضهم كان يرفض أن يتقاضى راتباً. ولقد انقرضت دولة بني عامر بقيام المهدي أول ملوك الفتنة فغير اسم خطة القضاء إلى قاضي الجماعة، وكان لهذا التغيير سبب شخصي فقد كان المهدي من أحقد الناس على ابن ذكوان لتقريبه للعامريين من جهة كما كان ناقما عليه أحكاما أمضاها في حقه من جهة أخرى[34] غير أن ابن عبد الجبار لم يستطع أن ينال من شخص ابن ذكوان لعظم قدره في قلوب العامة والخاصة فلم يفعل سوى أن أزال عنه لقب قاضي القضاة وقصره على قضاء الجماعة.

---

31) أعمال الاعلام 146.

32) ترتيب المدارك 4 / 664.

33) النباهي 21، ترتيب المدارك 4 / 664.

34) L. Provencal, Hist. L'ESP. Musulu. Vol. III, p.124

واستمر هذا اللقب طوال القرن الخامس الهجري يطلق على قضاة قرطبة على الرغم من تمزق الخلافة وقيام ممالك الطوائف. ولقب قاضي القضاة بالطبع إن كان مستحدثا في الأندلس فقد كان معروفا في مصر الفاطمية وكان صاحبه له زي وموكب خاص[35] وكان معروفا أيضا في بغداد بينما كان يحمل أيضا في قرطبة لقب المسدد[36] ولم يكن لقاضي الجماعة بقرطبة على الرغم من لقبه أي سلطان على قضاة الولايات في الأندلس وكان قضاؤه يتوقف عند حدود أراضي عمل قرطبة على خلاف قاضي قضاة بغداد الذي كانت له الرئاسة على القضاة في الدولة العباسية. ولقد استمر لقب الوزير القاضي في عهد الجهاورة ولقب به الوزير القاضي أبو علي حسن بن ذكوان[37].

3 ـ علاقة قاضي قرطبة بقضاة الأقاليم :

لقد كان الخليفة الأموي يستطلع رأي قاضي الجماعة بقرطبة عند تعيين القضاة في الكور[38] والأقاليم. وفي نهاية القرن الرابع الهجري عندما عين المظفر عبد المالك أبا بكر محمد بن عيسى قاضيا على سبتة بلده ـ وكانت من أعمال الأندلس ـ أخذ برأي قاضي الجماعة ابن ذكوان.

وعند استعراضنا لقضاة الجماعة بقرطبة في نهاية القرن الرابع الهجري وطوال القرن الخامس الهجري نجد أن من شغل تلك الوظيفة كان لا بد له أن يكون أولا قد تمرس بالقضاء في أحد الأقاليم الأندلسية خارج قرطبة أو

---

35) ترتيب المدارك 4 / 664.

36) المقريزي : الخطط طبعة المثنى 403 ـ 404.

37) L. Provencal, Esp. Musul. au X.S.P. 83

38) ابن سهل ورقة 434.

شغل منصب الشورى داخلها أو خارجها أو إحدى الخطط الأُخرى في بلاد الأندلس، ثم يرقى أخيرا نظرا لمكانته الفقهية قاضيا للجماعة بقرطبة ودليلنا على سبيل المثال لا الحصر من قضاة القرن الخامس الهجري أن عبد الرحمن بن أحمد ابن أبي المطرف المعافري تولى قضاء الجماعة بقرطبة واستقضاه الخليفة هشام بن الحكم بقرطبة في دولته الثانية سنة 402 هـ / 1012م وكان قد عمل في القضاء في عدة كور[39] ويونس بن عبد الله بن محمد المعروف بابن الصفار استقضى أول مرة ببطليوس وأعمالها ثم صرف عنها وولي الخطبة بجامع الزهراء مضافة إلى خطته في الشورى، ثم ولي خطة الرد مكان ابن ذكوان في عهد العامرية، وبعد ذلك ولي أحكام القضاء والصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بقرطبة مع الوزارة[40] ثم صرف عن ذلك كله وقلده المعتد بالله هشام بن محمد المرواني قضاء الجماعة بقرطبة والصلاة والخطبة بأهلها سنة 419 هـ إلى أن توفى سنة[41] 429 هـ / 1038م.

واستقضى أبو الوليد محمد بن جهور، حسن بن محمد بن ذكوان قاضيا للجماعة بقرطبة ورقاه إليها من أحكام الشرطة والسوق[42] كما أن قاضي الجماعة سراج بن عبد الله بن محمد الذي تولى القضاء سنة 448 هـ / 1057م كان قبل توليه مشاورا في الأحكام بها[43] وكذلك قاضي الجماعة عبيد الله محمد بن أدهم الذي تولى قضاء الجماعة بقرطبة سنة

---

39) الخشني : قضاة قرطبة 33 ـ 39.

40) الصلة 1 / 302.

41) الصلة 2 / 646.

42) المرجع السابق 2 / 647.

43) الصلة 1 / 136.

468 هـ / 1076م فقد كان قبل ذلك صاحب أحكام المظالم ومشاورا في الأحكام بها[44].

وقاضي الجماعة عبد الصمد بن هذيل تولى قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي بكر بن أدهم المتوفى 486 هـ / 1094م وقد كان قبل توليه أحكام القضاء مشاورا في الأحكام بقرطبة[45].

4 ـ ممارسة القاضي لوظيفته وسلطاته وأنواع الدعاوي :

حدد القاضي ابن سهل في أحكامه الكبرى[46]. أن من لهم حق إصدار الأحكام أصحاب ست خطط «وتلخيصها القضاء والشرطة والمظالم والرد والمدينة والسوق».

وقال بعض الناس «خطة القضاء من أعظم الخطط وأجلها خطرا لا سيما إذا اجتمعت إليها الصلاة»[47].

ويقول أنه سمع شيخه عبد الله بن عتاب يقول : «الفتيا صنعة»[48] ويرى ابن سهل أن «التجربة تصقل هذه الصنعة» والتجربة أصل في كل فن ومعنى مفتقر إليه في كل علم»[49].

---

44) ابن سهل 424، الصلة 1 / 221.

45) الصلة 1 / 293.

46) المرجع السابق 1 / 358.

47) ابن سهل ورقة 2.

48) المرجع السابق نفس الصفحة.

49) المرجع السابق ورقة 1.

ويرى أبو صالح أيوب بن سليمان «أن الفتيا دربة وأول حضور الشورى في مجالس الحكام مادربت ما أقول في أول مجلس شاورني فيه سليمان بن أسود وأنا أحفظ المدونة والمستخرجة الحفظ المتقن ومن تفقد هذا المعني من نفسه ممن جعل الله إماماً يلجأ إليه ويعول الناس في مسائلهم عليه وجد ذلك حقا وألقاه ظاهرا وصدقا ووقف عليه عيانا وعلمه خبرا[50].

ويرى ابن عبدون أن القاضي يجب أن يكون ذا ثقافة قضائية واسعة جزلا في قوله صارما في أمره محقا في حكمه مصونا عن الناس وعند الرئيس والجمهور[51].

ورأى ابن عبدون وغيره من الفقهاء في أن يكون ذا ثقافة قضائية هو رأي عام، ولكننا رأينا في القرن الخامس الهجري كثيرا من القضاة وصفتهم المراجع بأنهم خلو من المعرفة أمثال عبد الله بن عمر ابن المكوي[52] وحسن بن محمد بن ذكوان[53] ويحي ابن محمد بن يبنى بن زرب[54] ولم تتعرض هذه المصادر لأسباب تعيينهم على الرغم من جهلهم ولكني أرى أن سبب ذلك يرجع إلى أنهم من أسر عريقة في العلم تولى آباؤهم من قبل قضاء الجماعة بقرطبة، فعبد الله ابن المكوي هو ولد الفقيه أبي عمر المتوفى في مطلع

50) المرجع السابق نفس الورقة.
51) ابن سهل ورقة 1.
52) ابن عبدون في القضاء والحسبة ص 7.
53) ترتيب المدارك 4 / 642.
54) الصلة 1 / 136.

انبعاث الفتنة البربرية[55]، وحسن بن محمد بن ذكوان هو ابن أبي حاتم محمد بن عبد الله صاحب المظالم بقرطبة والذي كان يخلف أخاه أبا العباس على قضاء الجماعة[56] وتوفي سنة 414 هـ / 1024م.

ومن صفات القاضي أنه لا يمكن من نفسه ولا ينبسط مع الفقهاء ولا مع الأعوان[57] ولا يخرج مع أحد من حاشيته حتى لا تسقط هيبته. ويجب أن يثبت في جميع أموره، ولا يعجل بقول ولا فعل إلا بعد روية ولا يكون كثير البطالة ولا مائلا إلى الراحة بل يكون حازما مجتهدا محتسبا في ذات الله كأنه في جهاد ورباط وحج[58] ويجب عليه أن يجلس مع الفقهاء كل يوم للتشاور، ولا يكون الفقهاء المشاورون أكثر من أربعة اثنين من مجلس القضاة واثنين من مجلس الجامع كل يوم[59].

ولقد كان القاضي يستمد سلطته وقوة نفوذه في تصريف أمور القضاء من منصبه وقوة شخصيته. ولقد فطن بروفنسال إلى ذلك في تعليله لسبب إلحاح بعض القضاة في طلب الاستعفاء[60] ولعل ذلك مرجعه إلى أن أحكامهم تحتاج إلى جهد كثير لتنفيذها.

ويجب أن يتميز القاضي بصفاته الأخلاقية، وأن يكون صالحاً عطوفاً، وأن تكون حياته بسيطة، وإن كان بعض قضاة قرطبة في القرن الخامس الهجري قد أصبحوا أغنياء يتمتعون بحياة بذخ وترف.

---

55) المرجع السابق 2 / 632.

56) ترتيب المدارك 4 / 641.

57) المرجع السابق 4 / 667.

58) ابن عبدون 8.

59) المرجع السابق نفس الصفحة.

60) المرجع السابق ص 9.

وفي خصال القاضي بين النباهي أن هناك عشرة شروط لا بد من توافرها فيه وهي الإسلام والعقل والذكورية والحرية والبلوغ والعدالة وسلامة حاسة السمع والبصر من العمى والصم وسلامة حاسة اللسان من البكم وكونه واحداً لا أكثر فلا يصح تقديم اثنين لاختلاف الأغراض والأهواء. وبين كذلك أنه أن فقد شرط من الشروط وخاصة الخمسة الأول يبطل الحكم، كما يبين أن شروط الكمال عشرة أيضا خمسة أوصاف ينتقى عنها وخمسة لا ينتقى منها : أن يكون غير محدود وغير مطعون عليه في نسبه بولادة اللعان والزنا وغير فقير وغير أمي وغير مستضعف وأن يكون فطنا نزيها مهيبا حليما مستشيرا لأهل العلم والرأي[61].

وكان لقاضي الجماعة ابن ذكوان بيت خاص في داخل القصر يأتيه المنصور ابن أبي عامر ويستشيره فيما يحتاج إليه ويفاوضه في أمور الدولة والغزوات، وليس معنى ذلك أنه كان يقوم بمهام منصبه القضائي في القصر. وكان مركزه يفوق مركز الوزراء[62]. وعلى الرغم من عظم مركز ابن ذكوان في عهد شنجول إلا أنه تبرأ منه وأخذ يكره أمره ويستعظم ما يدعو الناس إليه من قتال جماعة المسلمين بقرطبة[63] ولما انقرضت دولة بني عامر بقيام ابن عبد الجبار عليهم لم يستطع أن ينال من ابن ذكوان لمركزه في قلوب العامة والخاصة إلا أن أزال منه لقب قاضي القضاة واقتصر به على قضاء الجماعة.

61) L. Provencal. Hist. L'ESP. Musul. Vol. III.P.123

62) النباهي ص 5.

63) ترتيب المدارك 4 / 663.

وكان للقاضي في الأندلس أعوانه[64] ولقد حددهم ابن عبدون في اشبيلية بأنهم عشرة أربعة سودان برابر لحقوق المرابطين وغيرهم من الملثمين والباقي أندلسية[65].

ويبين ابن سهل وظائف القاضي وحدوده التي لا تكون إلى غيره من الحكام فقال : «وعلى القاضي مدار الأحكام وإليه النظر في جميع وجوه القضاء[66].

وقد عددها علي بن يحي وفسرها في كتابه فقال ويشتمل نظر القاضي على عشرة أحكام[67].

أحدها : قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين إما بصلح عن تراضي أم إجبار بآية.

ثانيا : استيفاء الحق لمن طلبه إما بإقرار أو بينة.

ثالثا : إلزام الولاية للسفهاء والمجانين والحجر على المفلس حفظا للأموال.

رابعا : النظر في الأحباس والوقوف والتفقد لأحوالها وأحوال الناظر فيها.

خامسا : تنفيذ الوصايا على شروط الموصي إذا وافقت الشرع.

---

64) ابن عذاري 3 / 67.

65) النباهي 57، ابن عبدون 9.

66) ابن عبدون 9.

67) ابن سهل ورقة 2.

وقد عين القاضي لذلك أمينا لتنفيذ الوصايا فقد كان عبد الله بن محمد بن معدان أمينا لتنفيذ الوصايا للقاضي يونس بن عبد الله ومن قبله[68].

سادسا : تزويج اليتامى من الأكفاء إذا عدم الأولياء وأردن التزويج.

سابعا : إقامة الحدود فإن كانت من حقوق الله تعالى تفرد بإقامتها إما بإقرار يتصل بإقامة الحد أو بينة أو ظهور حمل من غير زوج وإن كانت من حقوق الآدميين فيطلب مستحقها.

ثامنا : النظر في المصالح العامة من كف التعدي في الطرقات والأفنية وإخراج مالا يستحق من الأجنحة والأفنية.

تاسعا : الإصغاء للشهود وتفقد الأمناء واختيار من يرتضيه لذلك.

عاشرا : وجوب التسوية في الحكم بين القوي والضعيف وتوخي العدل بين الشريف والمشروف.

تلك كانت أحكام القاضي كا بينها النباهي في كتابه «المرقبة العليا»[69] ولعلنا نوافق ابن سهل في تطبيق تلك الأحكام عمليا فبمراجعة أحكامه الكبرى وجدنا تطبيقا عمليا لتلك الاختصاصات نعرض أمثلة منها في القرن الخامس الهجري :

---

68) النباهي ص 5.

69) الصلة ترجمة 587 1 / 259.

ففي فصل القضاء في مسائل الغائب يتبين لنا أن قاضي قرطبة كان يحكم في مسائل متنوعة وكانت كل أحكامه مستندة إلى رأي الفقهاء المشاورين منها قضية وارث غائب في المشرق - وله شرك في دار وطلب الورثة قسمة الدار وأفتى الفقهاء ببيع الدار وحفظ حق الوريث الغائب في قيمة ميراثه وذلك لأن الدار لا تحمل القسمة[70]. ومنها قضية غائب بناحية قرمونة وطولب بمال وله على حاضر مال وهناك شهود وإيصالات تثبت ذلك[71] وفي قضية قسمة دار الوزير ابن أبي عامر بين ابنيه الحاضر والغائب وذلك في سنة 460 هـ / 1068م قال ابن سهل : «أخبرني أبو عبد الله بن عتاب أن محمد بن أحمد بن بقي شاورهم في قسمة دار ابن عامر المفصلة بداخل مدينة قرطبة وقال أن ابنه الواحد الحاضر قام عنده وأثبت ملكها إياهما وانها مشتركة بينه وبين أخيه فلان الغائب بإشبيلية وأنها تحمل القسمة[72] ومسألة أخرى من يطلب نفقة من مال ابنه الغائب بالقيروان[73].

وكان من سلطة القاضي أيضا، أن يبيع المملوكة التي تركها سيدها وغاب إلى العدوة بدون ترك مصدر للإنفاق عليها وأورد ابن سهل قصتها وهي «أن مملوكة غاب عنها صاحبها محمد بن أحمد الشرفي إلى العدوة فأمر القاضي ببيعها ويقبض ثمنها للغائب ويوقف هذا المبلغ عنده أو عند ثقة غيره[74].

70) النباهي 5،6.

71) ابن سهل ورقة 180.

72) المرجع السابق الورقتان 181 - 182.

73) المرجع السابق ورقة 181.

74) المرجع السابق 189.

ورأينا كذلك في أحكام ابن سهل ركوب قاضي قرطبة مع الفقهاء لمعاينة حائط فيه تنازع[75].

وكذلك رأينا من اختصاصات القاضي منع الضرر الحادث من دخان فرن. قال ابن سهل في أحكامه : «أثبتت عاتكة عند الوزير القاضي بقرطبة أبي علي حسن ابن ذكوان من أن عبد الرحمن أحدث بالقرب من دارها فرنا يؤذيها دخانه واعذر إليه فعالج قطع ضرر الدخان عنها وأثبتت ذلك عند القاضي فاعترضته عاتكة بأن كون الفرن بقرب دارها ضرر عليها لأنه يحط من ثمنها وأثبتت ذلك فجمع القاضي الفقهاء إلى مجلسه وشاورهم في ذلك فأفتى ابن عتاب وغيره من الفقهاء بمنع الضرر واختلفوا في المنع[76]».

وفي مسائل القتل أورد ابن سهل عديدا من القضايا اخترنا فيا يلي نماذج منها مما حدث في القرن الخامس وفي أيامه :

«قضية الطبني الذي أصبح مقتولا في داره بقرطبة في شهر ربيع سنة 457 هـ / 1065 م في عهد أبي الوليد بن جهور وقام صاحب المدينة محمد بن هشام المعروف بالحفيد بالتحقيق في تلك القضية[77] وأخذ برأي القاضي أبو بكر بن زرب المتوفى سنة 381 هـ[78] / 992 م في قضية سابقة مماثلة، وكان أبو الوليد بن جهور يهتم بتلك القضايا بنفسه وكثيرا ما كان يجتمع مع القاضي والفقهاء لتحديد المسؤولية والنطق بالحكم.

75) ابن سهل ورقة 180.

76) المرجع السابق 352.

77) ابن سهل ورقة 357.

78) ابن سهل ورقة 387.

والمسألة الأخرى : قتل ابن فطيس زوجته رحيمة ابنة عبد الرحمن بن عبد الله ابن خالد بن شهيد[79] التي قتلت سنة 462 هـ / 1070 م وقد رأينا صاحب المدينة هو الذي تولى التحقيق في تلك القضية ولم يستغن عن رأي الفقهاء لتحديد دوافع القتل وحكم الشرع في ذلك. و كانت الدوافع في هذه القضية لأسباب الميراث[80]. ولم يذكر ابن سهل في أحكامه دور القاضي في مثل هذه القضايا وربما يكون سبب ذلك أن مسائل القتل العمد كانت من اختصاصات صاحب المدينة الذي كان يستعين أيضاً برأي القاضي والفقهاء أو ربما يتنازل القاضي عن بعض اختصاصاته في مثل تلك القضايا العاجلة لصاحب المدينة الذي كان يجب عليه الاستعانة برأي الفقهاء المشاورين.

وفي مسألة أخرى «من أتى القاضي متعلقا برجل يرميه بدم وليه» وكان للقاضي دور في مثل تلك القضايا[81]. إذا كان مرد الحكم فيها إليه.

ومن المسائل الأخرى التي تعرض على القاضي مسائل القتل الخطأ مثل «من رمى حجرا فأصاب امرأة مجهولة فماتت من ساعتها»[82].

كذلك تعرض عليه مسائل الحبس الخطأ مثل «من حبس في دم فشهد له بالطهارة والعافية»[83] وقضية أخرى في «محبوس في دم لم يثبت عليه مارمى به وشهد باستقامته»[84].

---

79) ترتيب المدارك 4 / 632.

80) ابن سهل ورقة 389.

81) المرجع السابق 388.

82) المرجع السابق 378.

83) المرجع السابق ورقة 382.

84) ابن سهل ورقة 383.

ومن القضايا الأُخرى التي تعرض على القاضي في مسائل القتل قضية «رجلين قتلا أختهما» وشهد بذلك عليهما وكشف القاضي عن أمرهما فلم يختلفا في أنهما قتلاها لريبة اتهامها بها[85].

ومن المسائل التي حكم فيها القاضي محمد ابن أحمد[86] (ت سنة 470 هـ / 1078م) «أن نصرانية زعمت أن عيسى هو الله تعالى وقالت كذب محمد فيما ادعى نبوته» واستعان القاضي برأي الفقهاء الذين حكموا عليها بالقتل[87].

وأورد ابن سهل قضية أخرى وهي «في الشهادة على ابن حمدون في عصر الخمر وبيعها. وشهد عند القاضي أحمد بن محمد[88] قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن كليب ومحمد بن زياد وزكريا بن خميس أنهم يعرفون أن عبد الله بن حمدون ممن يعصر الخمر ويبيعها ويشربها ويدخرها ويجمع إليه أهل الشر. وسأل عن ذلك فأخذ برأي أبي صالح وابن لبابة وعبد الله، فحكم القاضي أن شرب الخمر فيه الحد ثمانون سوطاً أما عصرها وبيعها فالأدب على قدر ما يزعه عن ذلك وينهاه وأما جمع أهل الشر والفساد فأكثر من ذلك من الأدب والحبس حتى تظهر منه توبة بعد الإعذار إليه في شهادتهم عليه[89].

85) المرجع السابق 384.
86) المرجع السابق 388.
87) المرجع السابق 390، الصلة ترجمة 1203.
88) المرجع السابق 390.
89) المرجع السابق 378.

وكان من اختصاصات قاضي الجماعة بقرطبة أيضا النظر في المشاجرات[90].

وقد تعرض ابن سهل في أحكامه في باب الطلاق وأسبابه[91] لقضايا كثيرة وبين دور القاضي من أجل الوفاق بين الزوجين بإرسال حكمين من أهلها فإذا فشلا حكم بالطلاق والنفقة على الزوج[92].

وتعرض أيضا لدور القاضي في أبواب الرهون[93] والشفعة[94] في المال الموظف وما يقتسم ومالا يقتسم[95] وفي مسائل المحجور[96] وباب البيوع[97] وباب العيوب[98] وباب الصدقات والهبات[99] وكان للقاضي دور عظيم في «العيوب» وعلى سبيل المثال أورد ابن سهل مسألة «من ابتاع صبية فألقاها مجموعة وقال اشتريتها أمس صحيحة[100] ويرى الفقيه ابن لبابة أن تعرض على قابلة يثق القاضي بها فإن ألقاها مجموعة طرية الجمع حلف المشتري مامسها وترد للبائع[101].

---

90) المرجع السابق نفس الورقة.

91) ابن سهل الورقتان 380، 381.

92) المرجع السابق أوراق من 112 ـ 128.

93) المرجع السابق الورقتان 118، 119.

94) المرجع السابق 278.

95) المرجع السابق من 278 إلى 284.

96) المرجع السابق 287.

97) المرجع السابق 406.

98) المرجع السابق 136.

99) المرجع السابق 159.

100) المرجع السابق 283.

101) المرجع السابق 160.

وتعرض ابن سهل في تلك الأبواب لعديد من القضايا ولأحكام القضاة فيها الذين لا يستغنون عن رأي فقهائهم.

وكان للقاضي أيضا الإشراف على المساجد والميضأة ونظافة أفنيتها[102] والتحقيق إذا ما جاءت شكوى في ذلك، بل كان من سلطته أن يأمر بفتح باب من أبواب المسجد أغلق منذ مدة تطول إلى خمسين عاماً وتلك قضية أوردها ابن سهل وهي «ركوب القاضي والفقهاء إلى مسجد الأمير هشام للباب الذي أغلق من أبوابه»[103].

وأفتى الفقهاء ابن لبابة وعبيد الله بن يحيى ومحمد بن غالب وقالوا إن فتح الباب من اختصاص القاضي وفقه الله وفتحه منفعة للمسجد[104].

وكان يجب ألا يسد باب القاضي ولا يحجب[105] وكانت أحكام القاضي وقفا على الأحرار أما العبيد فلا يمكن للقاضي أن يحكم لهم بقضية حتى يشاور سيده فيجيز ذلك أولا يجيز[106].

وكان من مسؤولياته أيضا الإشراف على بيت المال ومراقبة المسؤول عنه وتفقد أمر العاملين فيه لمراجعة المنصرف في كل عام ولو أمكن كل شهر[107].

---

102) المرجع السابق نفس الورقة.

103) ابن سهل 337.

104) المرجع السابق 338.

105) المرجع السابق نفس الورقة.

106) ابن عبدون 10.

107) ابن سهل 82.

وكان كذلك يراقب أوجه الصرف من أُجرة أو إنفاق أو إصلاح موضع من الثغور أو مدافعة عدو[108]. ويؤخذ رأي القاضي فيها مقدما وهو بالطبع لا يستغني عن آراء الفقهاء معه[109]. كذلك كان القاضي يعين إمام مسجد السجن الذي يؤم المسجونين ويعطى أجره من بيت المال[110].

ويعين كذلك مقرىء الجامع بقرطبة فقد نقل القاضي يونس بن مغيث الفقيه عبد الرحمن بن الحسن المتوفى سنة 446 هـ / 1055م من مسجده إلى الجامع بقرطبة للاقراء فيه وإقامة الصلاة حتى وفاته[111] وكان إلى جانب تلك المهام الملقاة على عاتق القاضي أن يجعل في كل صناعة رجلا من أهلها فقيها عالما خبيرا يصلح بين الناس إذا وقع بينهم الخلاف في شيء من أمورهم فهو أعلم بهم وأستر لانكشافهم[112].

وكانت تحت يدي القاضي محفوظات بيت المال أو كنوز الخيرات (الأحباس) والتي توجد في مقصورة مستقلة في المسجد الجامع تحت حراسة أمينة[113] ودليلنا على ذلك أن أبا الحزم بن جهور طلب من قاضي قرطبة أبي بكر محمد بن قاضي القضاة أبي العباس أحمد بن ذكوان أخذ مال الأوقاف لينفقه على المصالح فلم يوافقه[114] وعلى الرغم من إلحاح ابن جهور

---

108) المرجع السابق ابن عبدون 10، 22.

109) ابن عبدون ص 11.

110) المرجع السابق ص 10.

111) المرجع السابق ص 19.

112) الصلة 1 / 320.

113) ابن عبدون ص 24.

114) ابن عذاري 1 / 98.

إلا أنه أصر على رأيه ولم يساعده وسد بابه عن الحكم فاحتشم ابن جهور منه[115] ولقد صور ابن عبدون الفتنة في قرطبة وعصر الطوائف ومهمة القاضي في تلك الظروف أبلغ تصوير إذ حمل القاضي مسؤولية الانهيار الاجتماعي في تلك الفترة، فقال : «الناس قد فسدت أديانهم وإنما الدنيا الفانية والزمان على آخره وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء الهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم ولا يصلح هذه الأمور إلا نبي بإذن الله فإن لم يكن زمن نبي فالقاضي مسؤول عن ذلك كله ومن كان في عون المسلمين كان الله في عونه فعليه أن يصرح بالحق ويجري إلى الصلاح والعدل والتخلص وينظر لنفسه فعسى يتخلص والله بعزته يسدده ويوفقه للخير ويعينه عليه انه منعم بذلك والقادر على كل شيء[116].

ومن مساويء الفتنة البربرية ان ساد عدم الاطمئنان بين جميع طبقات الأندلسيين فإن الناس لم ترض عما فعله البرابر بقاضي القضاة ابن وافد حتى إن قلوبهم كانت تتقطع لما نزل به[117] وتوفى سنة 404 هـ / 1014م[118].

بل إن خوف الناس من البربر جعل الكثرين منهم يمتنع عن صلاة الجنازة على ابن وافد خوفا من البربر[119] وفي أثناء الفتنة البربرية في قرطبة لقي كثير من القضاة حتفهم[120].

---

115) ترتيب المدارك 4 / 785.

116) المرجع السابق نفس الصفحة.

117) ابن عبدون ص 60.

118) ترتيب المدارك 4 / 668.

119) ابن سهل ورقة 425.

120) ترتيب المدارك 4 / 670.

وكان موقف القاضي ابن ذكوان في الفتنة البربرية معتدلا فهو يرى ضرورة السلم وصلح البربر وصاحبهم سليمان المستعين وكان يوافقه في رأيه كثير من الفقهاء مثل ابن حوبيل وابن الشقاق وابن دحون[121].

ولقد حذر القاضي ابن ذكوان هشام بن سليمان من الفتنة وسوء العاقبة[122] وامتاز عدد من قضاة تلك الفترة بقلة العلم والمعرفة وقد تعرضنا فيما سبق لأسباب ذلك.

ولما أراد أهل قرطبة المزيد من الأموال لدفعها للأفرنج لمناصرتهم ضد البربر في دولة محمد بن هشام بن عبد الجبار الثانية بقرطبة سألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع إليهم مال الأحباس المودوع في مقصورة الجامع فامتنع فما كان منهم إلا كسر باب المقصورة وأخذ الأموال وإعطائها للأفرنج[123].

وفي خلافة هشام المؤيد الثانية نفذ أمر هشام بإخراج بني ذكوان عن الأندلس ونفيهم إلى العدوة وذلك في سنة 401 هـ / 1011م[124]. وعطل سليمان بن الحكم إمام البرابرة خطة القضاء بقرطبة طول ولايته زاعما أنه لم يرتض لها أحدا فعطل رسم القضاء مدة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر إلى أن هلك سليمان في محرم سنة 404 هـ / 1014م وولى علي بن حمود وأعاد رسم القضاء.

وفي عصر الاستقرار بقرطبة إبان عهد الجهاورة استجاب أبو الحزم بن جهور لإجماع أهلها في تعيين أبي بكر محمد بن قاضي القضاة أبي العباس بن

---

121) الصلة 1 / 244، ترتيب المدارك 4 / 684.

122) ترتيب المدارك 4 / 664.

123) ابن عذاري 3 / 79.

124) ابن عذاري 3 / 98.

ذكوان[125] ويرى بروفنسال أن إجماع الشعب على تعيينه ذلك لكي تكون له القدرة ليمسك بزمام المدينة ويوقف القرارات التي يفرضها الوضع السياسي[126].

وفي عهد بني عباد كان قضاة قرطبة يعينهم المعتمد بن عباد ولم يترك ذلك لابنه المأمون حاكم قرطبة[127].

وكان للقضاة دورهم في تهيئة الأذهان لجواز المرابطين بل كانوا رسل ملوك الطوائف لحث يوسف بن تاشفين على سرعة الجواز وكانوا قبل ذلك دعاة للمرابطين لا جبار ملوك الطوائف على الاستعانة بهم ولا ننكر دورهم في ـ استقدام المرابطين إلى الأندلس وزيادة حماسة يوسف بن تاشفين لجهاد النصارى فيها والذود عن الإسلام وحمايته.

فقد كان قاضي الجماعة بقرطبة أبو بكر عبيد الله بن أدهم. وكان أعقل أهل زمانه[128] ـ ضمن وفود القضاة المبعوثين للمرابطين من قبل المعتمد بن عباد وكان القاضي أبو جعفر القليعي قاضي غرناطة في عهد أميرها عبد الله بن بلكين ضمن الوفود الرسمية أيضا لاستدعاء المرابطين وقد ناصب بعد ذلك أميره العداء[129] ورفض إعطاءه الأموال[130] وكان الأمير يخشى قتله[131]. وكان عاملا على تهيئة الأحوال أمام المرابطين وعلى تحريض

125) ترتيب المدارك 4 / 666.

126) المغرب في حلى المغرب 1 / 70، الصلة 2 / 497.

127) L. Provencal. Hist. L'ESP. Musulu. Vol. III p. 125

128) ابن سهل 338، النباهي 96، الصلة 1 / 323، 293، 2 / 518.

129) ابن عذاري 4 / 132.

130) مذكرات الأمير عبد الله بن بلكين 114.

131) المرجع السابق 110.

يوسف على القضاء على ملك بني زيري في غرناطة وقص عليه مداخلات الأمير وأحواله الخاصة وأسرار مملكته[132] مما أدى إلى سقوط غرناطة في أيدي المرابطين[133].

وكان للقضاة والفقهاء دورهم في معركة الزلاقة بتحميسهم الجند وحثهم على الاستشهاد وحضهم على الصبر والثبات وتحذيرهم من الفشل والفرار[134] وكذلك القاضي أبو الأصبغ به سهل كان رسول أمير غرناطة عبد الله بن بلكين عندما استقر يوسف بسبتة يروم عبور البحر برسم الجهاد وكان من مؤيدي المرابطين في خلع ملوك الطوائف[135] ولما تم للمرابطين حكم الأندلس عزل عن القضاء وكانت حجة يوسف بن تاشفين في ذلك ما نصحوا مولاهم رب الإحسان عليهم فكيف يكون حالهم مع غيره[136].

وكان القضاة في الأندلس يعرفون أعجمية الأندلس القديمة المسماة ROMANOE ويناقشون المتقاضين بها في مجالس الحكم.

وكان المسلمون يطلقون علىهذه اللغة العجمية أو لطينية الأندلس. وكان إذا تظلم أحد إلى الحاكم من حكم القاضي طلب الحاكم انعقاد مجلس للفقهاء للنظر في التظلم[137].

---

132) المرجع السابق 119.

133) المرجع السابق 127.

134) المرجع السابق نفس الصفحة.

135) الاستقصا 2 / 42.

136) النباهي 97.

137) المرجع السابق نفس الصفحة.

5 ـ كيفية نظر القضايا وطرق الإثبات :

أ ـ سير الخصومة أمام القاضي.

ب ـ كيفية نظر القاضي في الدعوى.

جـ ـ طرق الإثبات.

د ـ المشاورون.

لم يوجد في قرطبة مقر ـ خاص للقاضي كي يعقد فيه جلساته لكن الديوان القضائي[138] كان يعقد في المسجد الجامع بقرطبة أو في ساحة الصلاة وأحيانا في بيت القاضي الخاص[139] وكان يسمى أيضا مجلس الحكومة[140] أو مجلس النظر.

سير الخصومة أمام القاضي :

وقد تعرض لكيفية سير الخصومة أمام القاضي كل من ابن سهل في نوازله[141] والقاضي عياض في ترجمته لأبي العباس بن ذكوان[142] والنباهي في تاريخ قضاة الأندلس[143].

وكان الناس والخصوم يلتزمون في مجلس القاضي الوقار وغض الصوت وكان يقربون إليه الأول فالأول بأسمائهم وذلك طبقا لحضورهم ويقيد هذا

138) الخشني قضاة قرطبة ص 36.

139) ابن سهل 275.

140) النباهي 88.

141) ابن سهل 275.

142) نفس المرجع السابق.

143) ترتيب المدارك 4 / 665.

الترتيب في جريدة وكان القاضي ينظر عددا من القضايا يوميا ومن يتأخر دوره يؤجل لليوم التالي ويكون فيه ترتيبه متقدما وتدفع إليه رقعته للغد[144]. وكان يمثل الخصمان أمامه ويسأل المدعى عن دعواه ويتفهمها عنه فإذا كانت دعوى لا يجب بها على المدعى عليه حق أعلمه بذلك. ولم يسأل المدعى عليه عن شيء وأمرهما بالخروج وإن صحت الدعوى استكمل القاضي الإجراءات[145].

وكان القاضي يضرب الآجال للناس من أجل مساعدتهم على إثبات حقوقهم وذكر ابن سهل أن ضرب الآجال معروف إلى اجتهاد القاضي والحكام وليس فيها حد محدود لا يتجاوز إنما هو الاجتهاد بحسب ما تقتضيه الحال[146].

ولقد اختلف الفقهاء الأندلسيون في ضرب الآجال وقال ابن سهل سمعت من يخبر عن القاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن بشر قاضي الجماعة بقرطبة أنه كان يضرب الآجال عشرة أيام ثم عشرة أيام ثم عشرة أيام وكان آخر القضاة بها علما ودربة في الأقضية وتفننا في الأحكام فسألت عن ذلك أبا عبد الله بن عتاب وكان معه تفقه وفي كتابه له تدرب فقال لي كذلك كان يفعل وكان يثني عليه كثيرا ويفخر بطول صحبته إياه في القضاء وغيره، والطريقة في كتابة الآجال أن يكتب الحكم بيده كقوله :

«ذلك كتب أجلنا .و اجلت فلان بن فلان في المدفع الذي ادعاه في الشاهدين اللذين شهدا عليه بما ذكر في العقد الذي في أعلى هذا الكتاب

144) النباهي 194.

145) ترتيب المدارك 4 / 665.

146) النباهي 194.

بعد أن علمناه أو أعلمته بها وبقبولي لها وبثبوت ذلك عندي بشهادتها[147]...إلخ».

وإذا كتب عن القاضي كاتبه كتب «أجل القاضي فلان بن فلان قاضي حاضرة كذا وفقه الله فلان بن فلان فيما ذهب إليه من حل ما ثبت عنده عليه لفلان بن فلان في العقد الواقع في بطن هذا الكتاب بعد معرفته بما فيه وبما ثبت آجلا جامعا للتلوم[148] وغيره من أحد وعشرين يوما أولها يوم كذا لعشر خلون من شهر كذا من سنة كذا ثم يكتب القاضي بخط يده هذا صحيح وإن شاء كتب هذا الآجل صحيح أو كتب الآجل صحيح وقد يكتب هذا على غير وجه سوى ما ذكرنا[149].

وأضاف ابن سهل مستندا إلى آراء تلاميذ مالك أنه «إذا انقضت الآجال والتلوم ولم يأت المؤجل بشيء يوجب له نظر أعجزه القاضي وأنفذ القضاء عليه وسجل وقطع بذلك شغبه عن خصمه في ذلك المطلب ثم لا يسمع منه بعد ذلك حجة إن وقع عليها ولا تقبل منه بينة إن أتى بها كان هذا المؤجل العاجز طالبا أو مطلوبا إلا في ثلاثة أشياء العتق والطلاق والنسب[150].

---

147) ابن سهل 10.

148) التلوم : الانتظار والتمكث وهي ما يعرف في القانون بنظرة الميسرة أي المهلة التي يمنحها القاضي للمدين «انظر المعجم».

149) ابن سهل 10.

150) ابن سهل 11.

وكان الشهود ينتظرون دورهم حتى يناديهم حاجب القاضي، ولقد جازت شهادة الأعمى على معرفة الصوت،[151] وكان الشهود يوقعون بأسمائهم على شهادتهم[152].

وقال ابن سهل نقلا عن محمد بن الحكم «ينبغي للقاضي أن يكتب شهادات الشهود بين يديه ولا يلقن الشاهد ويتركه على ما عنده من تعلم ولا بأس من أن يسأله عن تاريخ شيء إن احتاج إليه ولا يسأله أن يزيد في شهادته أو ينقص منها، وينبغي للقاضي إذا شهد الشاهد عنده أن يكتب شهادته واسم قبيلته ونعته ومسكنه ومسجده الذي يصلي فيه والشهر الذي يشهد فيه والسنة ثم يوقع ذلك في صك عنده ثم يجعله في ديوانه لئلا تسقط للمشهود له شهادته فيزيد فيها أو ينقص»[153]. قال ابن عتاب ولابد من تقييد تاريخ الشهادة[154] وأضاف ابن سهل أنه تجوز الشهادة على الخطوط لأن الأصل في الشهادة على الخطوط من قول مالك وأصحابه وإنها تجوز في الحقوق والأحباس والطلاق وغيرها إلا أن الذي جرى به عمل الشيوخ أنها تجوز في الأحباس وما تعلق بها فقد حكم القاضي ابن زرب في جائحة مات شهود الجائحة وشهد على خطوطهم فأجاز ذلك وقضى بالجائحة[155] وكان للمتنازعين الحق في أن يوكلوا وكيلا بدلا عنهم يمثل دفاعهم[156].

151) النباهي ص 198.

152) ابن سهل 79.

153) ابن سهل 16.

154) المرجع السابق نفس الورقة.

155) ابن سهل 19.

156) L. Provencal, Hist. L'ESP. Musulu. Vol. III, p.129

المشاورون :

كان قاضي قرطبة يستشير الفقهاء المشاورين لاستطلاع رأيهم. ومما يسترعى النظر في شؤون القضاء ومداولاته في تلك الحقبة أن القاضي الذي يفصل في المنازعة وهو أعلى مرتبة من المشاور يستطلع رأي هذا الأخير فيما هو معروض عليه للقضاء فيه دون تقيد برأيه ويمكن تشبيه هذا الأسلوب في القضاء بما هو معروف في نظام المحكين المأخوذ به في بعض الدول وهو أقرب ما يكون في مصر إلى نظام هيئة مفوضي الدولة في مجلس الدولة المصري وفي المحكمة العليا الدستورية إذ أن محكمة الموضوع لا تفصل في المنازعة الإدارية أو الدستورية إلا بعد أخذ رأي هيئة مفوضي الدولة في المسألة القانونية بتقرير تعده الهيئة بالرأي القانوني مسببا وتعرض رأيها فيه كتابة والمحكمة غير مقيدة بهذا الرأي الذي يقدم على بحث قانوني مجرد وبيان لوجهة نظر هيئة مفوضي الدولة في تطبيق صحيح حكم القانون في الخصوصية موضوع النزاع المطروح على المحكمة وهو نظام عرف في بادئ الأمر في مجلس الدولة الفرنسي ثم أخذت به نظم قضائية أخرى كقانون مجلس الدولة المصري لما فيه من مزية بتبصير المحكمة ببعض الأمور وتيسير مهمتها في الفصل في المنازعات بتقديم دراسة فنية ممتازة لجميع جوانب المسألة القانونية موضع البحث.

وإذا كان نظام هيئة مفوضي الدولة الذي يعتبر إحدى مزايا القانون الإداري الآن والذي هو محل الإعجاب بوصفه نظاما مبتدعا يأخذ هذا الدور البارز في العضر الحديث فإن له جذوراً يرجع أصلها إلى الفقه الإسلامي في أسلوبه في القضاء الذي كان له فضل السبق بابتكاره هذا النظام منذ بضعة قرون على نحو ما سلف بيانه قبل أن تعرفه التشريعات

الحديثة في صورته الراهنة التي لا تختلف في جوهرها عما كانت عليه في الإسلام. وكان يقوم بكتابة الأحكام كاتب القاضي ويشهد عليها من حضر من الشهود[157] وكان بعض الكتاب غير متفرغ لهذه الحرفة وحدها مثل عبد الله بن محمد بن معدان (تـ 416 هـ / 1026م) وكان صاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة وكاتب القاضي يونس بن عبد الله ومن قبله وأمينهم على تنفيذ الوصايا[158] واحتفظ بعض كتاب الأحكام بمناصبهم رغم عزل القاضي أو وفاته واستكتب القاضي يونس بن عبد الله الفقيه عبد العزيز ابن مسعود على تقييد أحكامه وأقره على ذلك من تلاه من القضاة وكان أيضا في عداد المشاورين بقرطبة وتوفي 446 هـ / 1055م[159] وكان الفقيه ابن عتاب كاتبا للقاضي ابن بشر[160] وكان أبو الأصبغ عيسى بن سهل كاتبا للقاضي أبي بكر بن منظور بقرطبة[161] وتولى الشورى بها مدة كما كان عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الصنهاجي ويعرف بابن اللبان (توفي 480 هـ / 1088م) كاتبا للقاضي أبي بكر بن أهم[162].

6 ـ مرتب القاضي وموارد دخله :

يرى «ليفي بروفنسال» أن القاضي كان يحصل على راتبه الشهري من الخليفة ولا شك أنه كان مرتفعا ولكن لا يمكن تحديد الحد الأدنى لهذا

157) النباهي 194.
158) نقلا عن ابن حيان الصلة 1 / 259.
159) الصلة 1 / 352.
160) ترتيب المدارك 4 / 810.
161) النباهي 97، الصلة 2 / 415.
162) الصلة 1 / 328.

الراتب[163] وكانت لكثير من قضاة قرطبة أعمالهم الخاصة وعلى سبيل المثال القاضي أبو بكر ابن السليم كان يصيد السمك بنهر قرطبة ويبيع صيده ويأخذ من ثمنه ما يقتات به ويتصدق بفضله[164]. والقاضي أبو بكر محمد بن يبقى الذي ولي قضاء الجماعة بعد ابن السليم عندما تولى القضاء كان عنده من الأموال ما يفي حاجته وأشهد الناس على ذلك[165] وتوفى سنة 441 هـ / 1050م[166].

وكان بعض القضاة لا يأخذ أجرا عن عمله في القضاء مثل القاضي عبد الرحمن ابن سواد بن أحمد بن سوار المتوفى سنة 464 هـ / 1072م والذي كانت مدة عمله في القضاء أربعة أشهر تنقص يومين لم يكن ليأخذ على عمله في القضاء أجرا[167].

7 ـ وظائف أخرى أسندت إلى قاضي قرطبة :

بمقارنة الوظائف الأخرى التي أسندت إلى قاضي قرطبة في القرن الرابع الهجري بمثيلاتها في القرن الخامس الهجري نرى ما يأتي :

في القرن الرابع الهجري ـ العاشر الميلادي ـ أسندت إلى قاضي قرطبة إلى جانب خطة القضاء قيادة الصوائف[168] وذلك لتحريض الجند على

---

163) L. Provencal, L'ESP. Musulu. AUX. S. P. 85

164) ترتيب المدارك 4 / 542.

165) ترتيب المدارك 4 / 631.

166) ابن سهل ورقة 424.

167) الصلة 1 / 323.

168) ابن خلدون المقدمة 393.

القتال ورفع معنوياتهم في حربهم ضد النصارى[169] وخطة الشرطة[170] والمواريث[171] والأحكام[172] ووجوه الإنفاق في سبيل الأمانات في بناء الجامع والحصون وتفريق الصدقات[173] وأحكام السوق والوثائق السلطانية[174] وإمامة الصلاة العامة سواء في الجامع الكبير في قرطبة أو في مدينة الزهراء وذلك أيام الجمع[175]. وباستعراض أعمال قضاة قرطبة في القرن الرابع الهجري نرى أنه أُسندت أكثر من خطة من الخطط السابقة في وقت واحد لقاضي قرطبة وأن كثرة جمع هذه الخطط لقاضي قرطبة وأن كثرة جمع هذه الخطط لقاضي قرطبة يجعل الإنسان يحار في قدرة شاغلي هذه الخطط على تأديتها في وقت واحد على أحسن وجه خاصة وهناك بعد في مكان إحداها عن الأُخرى مع ضرورة وجوده في أكثر من مكان في وقت واحد.

لذلك نرى أن بعض ألقاب هذه الخطط كانت شرفية وأن المنوط بها لم يمارس اختصاصاتها وقد فطن إلى ذلك أستاذنا الدكتور محمود علي مكي في مقدمته عن ابن حيان[176] ودليلنا على ذلك أيضا أنه في مصر الفاطمية كانت تؤخذ بعض ألقاب هذه الخطط على سبيل التشريف لكننا نقف أمام

---

169) ترتيب المدارك 4 / 663.

170) ابن حيان المقتبس تحقيق عبد الرحمان الحجي 81.

171) المرجع السابق 123.

172) ترتيب المدارك 4 / 659.

173) المرجع السابق 4 / 660.

174) المرجع السابق 4 / 663.

175) L. Provencal. OP. P. 83

176) ابن حيان المقتبس تحقيق د. محمود مكي ص 44.

هذا النص بحذر شديد وهو للمنصور بن أبي عامر الذي يتباهى فيه ببعض القضاة وأنهم يصلحون لكل خطة ويذكر عنه أنه قال : «في أصحابي رجل بصير بدنياه يصلح لكل خطة من مكاني بالحجابة إلى مكان بوابي فلان فما بينهما من ذوي منزلة ومستقل بكل أمر ويصلح لكل خطة فإذا استفسر عنه قال : هو ابن الشرفي[177].

ومن هذا النص نرى أن عهد المنصور بن أبي عامر تميز بنوع خاص من الرجال يتحمل المسؤولية لأكثر من خطة في وقت واحد وعندئذ يستطيع عن طريق أعوانه القيام بترتيب أمورها وحسن ضبطها.

لكننا في القرن الخامس الهجري لم نر وظائف أخرى أسندت إلى قاضي قرطبة سوى خطة الصلاة والخطبة في المسجد الجامع أحيانا[178] أو ربما يتولى بعض القضاة الأذان بمسجده[179] ونحن لا نعتبر الأذان في الواقع وظيفة وبالذات حينما يؤذن القاضي في مسجده ورأينا كذلك أنه في هذا القرن أسندت إلى قاضي قرطبة مهام مثل السفارة عن السلطان إلى الممالك المجاورة على نحو ما وقع حينما أرسل المعتمد ابن عباد القاضي أبا بكر بن أدهم سفيرا لدى يوسف ابن تشافين داعيا إياه إلى الجواز للأندلس[180] وشرح وجهة نظر المعتمد لابن تاشفين وتحميسه للدفاع عن الإسلام ضد نصارى الأندلس هو وقضاة بعض ملوك الطوائف الأخرى.

---

177) ترتيب المدارك 4 / 677.

178) الصلة 1 / 313، 2 / 632، 636، 647، ابن سهل الورقتان 424، 425.

179) الصلة 1 / 358.

180) الروض المعطار ص 86، البيان المغرب 4 / 132.

ومن ثم نرى أن وظيفة السفارة عن صاحب السلطان كان قضاة قرطبة في القرن الرابع الهجري يتولونها أحيانا.

وكانت لقاضي قرطبة أيضا وظيفة الوعظ والإرشاد مع قضاة الولايات الأندلسية الأخرى، ونلمس ذلك في تحميسهم الجند في معركة الزلاقة ضد النصارى.

وكذلك كان لهم دورهم السياسي في التحدث باسم الأندلسيين لإحداث التغيير في نظام الحكم والفتوى بضرورة هذا التغيير وإقصاء ملوك الطوائف عن دولهم[181] وبقتالهم إن امتنعوا.

8 ـ عزل القضاة :

في القرن الخامس الهجري لم يكن عزل قاضي الجماعة بقرطبة غريبا في المجتمع القرطبي بل كان شيئا مألوفا غالبا وإن كان يثير في نفوس الناس التساؤلات وقد حفلت فترة الفتنة بأمثلة كثيرة عن ذلك وكان هذا العزل لظروف سياسية تارة وللدس والوقيعة والغيرة والحقد بين الفقهاء تارة أخرى وسنعرض تفصيل ذلك، وإذا قارنا بين أسباب العزل في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وبين القرن الخامس نرى ما يأتي :

في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كان من أسباب عزل القاضي شكاوي الناس المظلومين ضده «وكان الخليفة يعزله ثم يحقق فيها وأحياناً يوقع العقوبة عليه إذا ثبتت إدانته وآية ذلك :

---

181) نفح الطيب 6 / 107.

إن الخليفة المستنصر عزل ابن الخال سعيد قاضي كورة اشبيلية وأرسل الوزير صاحب المظالم عبد الرحمن بن موسى بن حدير إلى اشبيلية للتحقيق فيما نسب إلى القاضي المعزول من مظالم»[182].

وكذلك أورد ابن حيان «أن الخليفة المستنصر عزل القاضي محمد بن داود قاضي قلعة أيوب وصاحب الصلاة فيها يوسف بن محمد أمر بسجنهما لجرائر نقمها عليهما»[183].

وفي عهد المنصور بن أبي عامر رأينا عزل القضاة لظروف سياسية ولرغبته في الانفراد بالحكم، وقد تعرضنا لذلك بالتفصيل في بداية هذا الفصل فقد عزل أبو الأصبغ بن فرج بن فارس الطائي عن القضاء والفتيا[184] لرفضه اتخاذ مسجد الزاهرة مسجدا جامعا إلى جانب مسجد قرطبة[185].

وكذلك عزله لقاضي قرطبة أبي بكر بن السليم لكلمات بدرت منه[186] في حق المنصور بن أبي عامر».

أما عزله للقاضي محمد بن يحي بن زكريا التميي المعروف بابن برطال فسببه أنه ظهر اختلال في أحكامه لكبر سنه فعزله عن القضاء وألحقه بالوزارة في المحرم سنة 392 هـ / 1002م[187].

---

182) ابن حيان : المقتبس تحقيق الحجي ص 86.

183) ابن حيان المرجع السابق 75.

184) ترتيب المدارك 4 / 658.

185) المرجع السابق 4 / 657.

186) المرجع السابق 4 / 548.

187) ابن سهل 277، المغرب في حلي المغرب ص 215 يذكر ذلك في سنة 362 هـ وهذا التاريخ خطأ.

وفي أثناء الفتنة البربرية اتهم قاضي الجماعة أبو العباس بن ذكوان بأنه يهوى السلم والميل إلى صلح البرابرة وصاحبهم المستعين وذلك في خلافة هشام المؤيد الثانية الذي أصدر أمره بإخراجه عن الأندلس ونفيه إلى العدوة هو وأخوه أبو حاتم وأخوهما الأديب أبو عمر وذلك في سنة 401 هـ / 1011م[188].

ولقد استقضى الخليفة هشام بن الحكم في دولته الثانية عبد الرحمن ابن أحمد بن أبي المطرف المعافري قاضيا للجماعة بقرطبة سنة 402 هـ / 1012م وعزله في رجب سنة 403 هـ / 1013م وكانت مدة قضائه سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما ولم تذكر المراجع سببا للعزل وحين وصله كتاب الإعفاء أعلن شكره لله وتصدق بمد من القمح [189].

وكان قاضي الجماعة يحيى بن وافد أحد الأشداء على البربر وخليفتهم المستعين فلما استولوا على قرطبة وخلعوا أميرها جدوا في طلب قاضيها الذي أهين إهانة عظيمة في شوارع قرطبة «فسيق راجلا» مكشوف الرأس نهاراً يقاد بعمامته في عنقه والمنادي ينادي عليه «هذا جزاء قاضي النصارى مسبب الفتنة وقائد الضلالة» وأدخل على المستعين سليمان بن الحكم في تلك الحالة فأكثر توبيخة وأمر بصلبه لولا شفاعات الفقهاء والصالحين فاكتفى بحبسه إلى أن مات في المطبق سنة 404 هـ / 1014م [190] ودفن بمقبرة الربض [191] وفي خلافة القاسم بن حمود أورد لنا ابن سهل في

188) ترتيب المدارك 4 / 666.

189) الصلة 1 / 302.

190) النباهي 89، ترتيب المدارك 4 / 670، ابن سهل 277.

191) ابن سهل 277.

أحكامه [192] أنه حدث نزاع قبيح بين يونس بن عبد الله المعروف بابن الصفار صاحب الصلاة وبين أبي عبد الله بن عبد الرؤوف صاحب المظالم وذلك في ربيع 409 هـ / 1019م جعل القاسم بن حمود يعزل ابن الصفار صاحب الصلاة. وتضاف تلك الخطة لابن بشير قاضي الجماعة حتى انقراض دولة آل حمود سنة 419 هـ / 1029م وفي خلافة هشام بن محمد المعتد بالله سعى الفقهاء على ابن بشير عنده حتى عزل وولى مكانه يونس بن عبد الله الخطتين القضاء والصلاة [193].

وفي عهد بني جهور عزل الشيخ أبو الحزم بن جهور أبا بكر محمد ابن أبي العباس أحمد بن ذكوان [194] ولم تبين المراجع سبب هذا العزل ولعل ذلك يرجع لأمور خاصة منها معارضته لإعطاء مال الأوقاف لأبي الحزم ابن جهور لصرفها على المصالح [195] وعين بدلا منه عبد الله ابن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن المكوي الذي عزله أبو الوليد محمد بن جهور سنة 435 هـ / 1044م وكانت مدة عمله بالقضاء ثلاث سنين وشهرين واثني عشر يوما [196] ولعل سبب ذلك قلة علمه ومعرفته.

وعزل أبو الوليد محمد بن جهور قاضي الجماعة بقرطبة حسن بن محمد ابن ذكوان لأمور ظهرت منه [197].

---

192) المرجع السابق 327.

193) المرجع السابق ورقة 327، الصلة 1 / 313.

194) الصلة ترجمة 1150.

195) ترتيب المدارك 4 / 785.

196) الصلة ترجمة 606 ص 268.

197) الصلة ترجمة 311 ص 136.

ولعل تلك الأمور كانت أحكاماً ظالمةً أصدرها في صالح أصحاب الحق ولم يهتم برأي الفقهاء خاصة وأنه كان ضعيفا، وربما تكون أموراً خليقة ظهرت عليه وشابت نزاهته، ولم يكتف بعزله بل حدد إقامته ومنعه من الخروج إلا إلى المسجد [198] وفي عهد المرابطين عزل القاضي عبد الصمد بن موسى بن هذيل عن القضاء ولم تذكر المراجع سبب هذا العزل ولزم بيته إلى أن توفي على أحسن حال سنة 495 هـ / 1102م [199]

ثبت بأسماء قضاة قرطبة القرن الخامس الهجري حسب تاريخ توليهم

في فترة الفتنة :

1) **أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان** : تولى القضاء مرتين الأولى 392 هـ ذي الحجة 394 هـ الثانية شعبان، 395 ـ جمادى الأولى 401 هـ، مدة عمله في المرتين سبعة أعوام ونصفا.

2) **أبو بكر يحيي بن عبد الرحمن بن وافد اليحصبي** : ولي القضاء 401 هـ ثم عزل سنة 404 هـ وتوفي في المطبق.

3) **عبد الرحمن بن أحمد بن أبي المطرف المعافري** : تولى قضاء الجماعة يوم عرفة سنة 402 هـ لثمان بقين من رجب سنة 403 هـ لمدة سبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً.

---

198) المرجع السابق نفس الصفحة.

199) المرجع السابق 358.

(تعطل القضاء ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر في عهد سليمان المستعين، من سنة 403 هـ ـ 407 هـ).

4) **عبد الرحمن بن أحمد بن سعيد بن بشر ابن غرسية ويعرف بابن الحصار** : (تولى 407 هـ ـ 419 هـ) لمدة اثنتي عشرة سنة وعشرة أشهر وأربعة أيام.

في عهد بني جهور :

1) **يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث يعرف بابن الصفار** : تولى في ذي الحجة 419 هـ حتى وفاته في رجب لليلتين بقيتا من رجب سنة 429 هـ.

2) **محمد بن أحمد بن هرثمة بن ذكوان** : ولاه أبو الحزم بن جهور وصرف عن القضاء 432 هـ ثم توفى 435 هـ.

3) **عبد الله بن أحمد بن عبد الملك بن هشام ويعرف بابن المكوي** : (432 هـ ـ 435 هـ) مدة عمله بالقضاء ثلاثة سنين وشهران وإثنا عشر يوماً.

4) **حسن بن محمد بن ذكوان** : (435 هـ ـ 440 هـ) كانت مدة عمله بالقضاء أربع سنين وأحد عشر شهراً وثمانية عشر يوماً ثم صرف عن القضاء وتوفى 451 هـ.

5) **أبو بكر يحي بن محمد بن يبقى بن زرب** : تولى القضاء حتى وفاته لخمس بقين من رجب 447 هـ.

6) **سراج بن عبد الله بن محمد ابن سراج** : تولى القضاء في صفر من سنة 448 هـ حتى وفاته في النصف من شوال سنة 456 هـ.

7) **محمد بن أحمد بن مخلد** : تولى القضاء مرتين، الأولى بتقديم محمد بن جهور، والثانية بتقديم المأمون يحي بن ذي النون.

في عهد بني عباد والمرابطين :

1) **محمد بن أحمد بن عيسى بن منظور** : تولى القضاء حتى وفاته في غرة جمادى الآخرة 464 هـ.

2) **عبد الرحمن بن سوار بن أحمد ابن سوار** : تولى القضاء من أربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأخرة سنة 464 هـ حتى وفاته لإثنتي عشرة ليلة لذي القعدة من نفس السنة (مدة عمله في القضاء أربعة أشهر تنقص يومين).

3) **عبيد الله بن محمد بن أدهم** : تولى القضاء من 468 هـ حتى وفاته 486 هـ).

المرابطـــون :

4) **عبد الصمد موسى بن هذيل بن محمد ابن تاجيت** : تولى القضاء سنة 486 هـ ثم صرف عنه 490 هـ وتوفي في أول ربيع الاخر 495 هـ.

5) **محمد بن علي بن عبد العزيز ابن حمد بن التغليبي** : تولى القضاء في شعبان 490 هـ حتى وفاته في ثلاث بقين من المحرم 508 هـ.

مصادر البحث

ابن بسام (أبو الحسن علي الشنتريني) تـ 542 هـ / 1147م.

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.

- القسم الأول (في مجلدين) المجلد الأول طبعة سنة 1939م، والمجلد الثاني طبعة 1942م، القسم الرابع (المجلد الأول) طبعة سنة 1945م.
مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة القاهرة.

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) تـ 578 هـ / 1183م.

- كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، جزءان تحقيق ونشر السيد عزت العطار الحسيني 1374 هـ / 1955 القاهرة.

ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد) تـ 456 هـ / 1063م.

- نقط العروس : تحقيق د. شوقي ضيف مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة عدد 13 مجلد 2 ديسمبر 1951م القاهرة.

ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين) تـ 469 هـ / 1076م.

- المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، دار الثقافة 1965 بيروت.
- المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق وتقديم وتعليق د. محمود علي مكي دار الكتاب العربي بيروت 1973.

ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد) تـ 776 هـ / 1385م.

- أعمال الأعلام (الجزء الخاص بالأندلس) تحقيق ليفي بروفنصال، 1956 بيروت.

ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي) تـ 808 هـ / 1406م.

- المقدمة، الطبعة الثالثة دار الكتاب اللبناني بيروت.

ابن سعيد (علي بن موسى بن عبد الملك... المغربي) تـ 685 هـ / 1286م.

- المغرب في حلى المغرب. في جزأين، تحقيق د. شوقي ضيف، الطبعة الثانية، دار المعارف 1964م القاهرة.

ابن سهل (القاضي أبو الأصبغ عيسى....) تـ 486 هـ / 1093م الأحكام الكبرى، مخطوط تحت رقم ق 838، الخزانة العامة للكتب، الرباط.

ولا يزال العمل مستمرا في سبيل إنجاز تحقيقه بالاشتراك مع الدكتور محمود علي مكي.

ابن عبدون في القضاء والحسبة (ضمن مجموعة ثلاث رسائل في الحسبة).

تحقيق ليفي بروفنصال، 1955، القاهرة.

ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد)، كان حيا سنة 712 هـ / 1312م.

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب الجزء الثالث تحقيق ليفي بروفنصال دار الثقافة، بيروت، لبنان (طبعة بالأوفسيط عن طبعة باريس 1930)، والجزء الرابع (قطعة من تاريخ المرابطين) تعليق د. إحسان عباس الطبعة الأولى، 1967 دار الثقافة بيروت.

الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم)، تـ 866 هـ / 1461م.

- صفة جزيرة الأندلس، من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق ليفي بروفنصال، 1937، القاهرة.

الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد القيرواني)، تـ 361 هـ / 971م.

- قضاة قرطبة، طبعة 1966 القاهرة.

خلاف (محمد عبد الوهاب ـ دكتور).

- صاحب الرد والمظالم في الأندلس، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد 14 سنة 1978، الكويت.
- صاحب المدينة في الأندلس، مجلة معهد التربية للمعلمين، العدد الأول، 1979، الكويت.
- صاحب الشرطة في الأندلس، مجلة أوراق، العدد 3،1980، مدريد.
- مسألة ابن حاتم الطليطلي، مجلة المناهل، العدد 18، 1980، المغرب.
- وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس، دراسة وتحقيق، الطبعة الأولى، 1980، القاهرة.
- وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس، دراسة وتحقيق، الطبعة الأولى، 1980، القاهرة.
- وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس، دراسة وتحقيق، الطبعة الأولى، 1981، القاهرة.
- تراجم في تسمية فقهاء الأندلس وتاريخ وفاتهم، دراسة وتحقيق، مجلة المناهل، العدد 21 المغرب.

السلاوي (أحمد بن خالد الناصري) تـ 1319 هـ / 1901م.

- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى (الأجزاء 1 ـ 4).

تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء 1954، المغرب.

عبد الله بن بلقين (كان حياً في أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي).

- مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق ليفي بروفنصال، دار المعارف القاهرة سنة 1955م.

عياض (القاضي أبو الفضل.... بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي)، تـ 544هـ / 1149م.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
  تحقيق د. أحمد بكير محمود، دار مكتب الحياة بيروت، 4 أجزاء في مجلدين.

المقري (أحمد بن محمد... التلمساني)، تـ 1041 هـ / 1631م.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، 10 أجزاء 1949 القاهرة.

المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي...) تـ 845 هـ / 1446م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية الجزء الثاني طبعة جديدة بالأوفسيط مكتب المثنى، بغداد (عن الطبعة المصرية).

النباهي (أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي)، تـ 776 هـ / 1374م.

- تاريخ قضاة الأندلس المسمى بكتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضا والفتيا.
  تحقيق ليفي بروفنصال، 1948 القاهرة.

Levi Provencal (E).

- Histoire de LEspagne Musulmane, tome III, Paris, 1967
- LEspagne Musulmane au Xème Siècle, Paris, 1932.

II - مخطوط نوازل ابن سهل الأسدي الأندلسي

أسماء المخطوط :

أورد ابن بشكوال في كتابه الصلة عند ترجمته للفقيه أبي الأصبغ عيسى بن سهل أن له كتاباً يسمى «الأحكام» وذكر ابن فرحون في كتابه الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب في ترجمة الفقيه عيسى بن سهل أن له كتاباً يسمى «الإعلام بنوازل الأحكام».

وبإطلاعنا على هذا المخطوط في مودعات الخزانة في المغرب وتونس. رأينا عنواناً آخر هو «كتاب نوازل أحكام الشيخ القاضي العالم العلم الأوحد المفتي المشاور أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الأندلسي الجياني»[200].

وفي نسخة أخرى : «النوازل» تأليف أبو الأصبغ بن سهل الأسدي الأندلسي[201] وفي نسخة أخرى كتاب : «نوازل أحكام بن سهل».

مؤلف المخطوط :

هو القاضي أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي أصله من جيان من البراجلة سكن قرطبة وتفقه بها، سمع من فقهاء عصره وولي قضاء طنجة ومكناسة ثم رجع إلى الأندلس وبقي بغرناطة إلى أن توفي سنة ست وثمانين وأربعمائة[202].

مخطوطات ابن سهل في المكتبات العربية.

أ ـ الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط :

لقد أطلعت على النسخ المودعة في الخزانة العامة بالرباط وصورتها بالميكرو فيلم للاستفادة منها.

---

200) نسخة مكتبة الزاوية النصارية رقم 73 ص، مخطوطات الأوقاف 370.

201) نسخة المكتبة العامة بالرباط رقم : 3398 د.

202) انظر الصلة : ترجمة رقم 942، النباهي : المرقبة العليا ص 96 ـ 97.
ابن فرحون : الديباج المذهب تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور 2 / 70 ـ 72.
مقدمة كتابنا : وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس ص 11 ـ 12.

وتوجد نسخة مكتبة الزاوية الناصرية بتمكروت تحت رقم (1189)، مخطوطات الأوقاف 838 ق الخزانة العامة ـ الرباط.

وهي نسخة كاملة خطها أندلسي واضح، وعدد أوراقها (426) ورقة وتاريخ الانتهاء من كتابتها لأربع خلون من شهر جمادى الأولى من عام واحد وخمسمائة.

والنسخة الثانية نسخة مكتبة الزاوية الناصرية بتمكروت تحت رقم : (37 ص) وتحت رقم : (370 ق). مخطوطات الأوقاف وخطها واضح إلى حد ما وعدد أوراقها (380) ورقة ولم نستطع قراءة تاريخ الانتهاء من كتابتها.

والنسخة الثالثة تحت رقم : (1728 د) المكتبة العامة بالرباط وعدد أوراقها (212) ورقة وهي نسخة ليست مؤرخة.

والنسخة الرابعة تحت رقم : (3398 د) المكتبة العامة بالرباط وعدد أوراقها 277 ورقة.

والنسخة الخامسة تحت رقم : (55) ق الخزانة العامة بالرباط وعدد أوراقها (209) ورقة، ومؤرخة بخاتم كاتبها في الإثنين الأول من شعبان سنة 1178 وهي نسخة غير كاملة.

ب ـ الخزانة الحسنية بالرباط :

نسخة تحت رقم (2501) الخزانة الحسنية بالرباط.

جـ ـ مكتبة جامعة القرويين بفاس :

نسخة بمكتبة جامعة القرويين بفاس في جزئين متوسطين تحت رقم ل، 299[203].

د ـ دار الكتب الوطنية بتونس :

وفي تونس أطلعت بدار الكتب الوطنية على المخطوطين لنوازل ابن سهل الأول تحت رقم : 18394 بفهرس مكتب الأستاذ المرحوم حسن حسني عبد الوهاب، وعدد أوراق هذه النسخة 209 ورقة إلا أنها مهلهلة ومعالجة وإن كان خطها أندلسيا جميلا ولم يدون كاتبها تاريخ الانتهاء من كتابتها.

والنسخة الأخرى تحت رقم : (7212) فهرس المكتبة العبدلية التابعة لجامع الزيتونة ضمن مجموع به (3) رسائل.

الرسالة الأولى :

الوثائق الفشتالية لمحمد الفشتالي.

الرسالة الثانية :

رسالة فيمن جاء في الضمان.

---

203) لقد وعدني الأستاذ عبد الرحمن الفاسي محافظ الخزانة العامة للكتب والوثائق بتسهيل تصوير تلك المخطوطات التي اطلع عليها وكتب أرقامها في بحثه القيم عن «خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين» انظر هذا البحث في مجلة المناهل المغربية العدد 21 ص 28 حاشية رقم : 98.

الرسالة الثالثة :

الإعلام بنوازل الأحكام لعيسى بن سهل الأسدي وعدد أوراق مخطوط ابن سهل هنا 105 ورقة وهي نسخة غير كاملة.

محتوى مخطوط الأحكام الكبرى :[204] **ورقة**

---

204) استخرج هذا المحتوى بصفحات مخطوط الزاوية الناصرية بتمكروت تحت رقم : 1189.

أهمية مخطوط الأحكام الكبرى :

تأتي أهمية هذا المخطوط في أن كاتبه شاهد عيان على تلك القضايا الاجتماعية والاقتصادية فيذكر القاضي أبو الأصبغ عيسى ابن سهل بأنه أثناء نظره في القضاء وتقيد الأحكام جرت على يده نوازل استطلع فيها رأي من أدرك من الشيوخ وعرضت لديه مسائل كاشف عنها كبار العلماء مشافهة أو مكاتبة وكتب ذلك حسب وقوعه لاحسب ترتيبه «لا تذكر به متى احتجت واستظهر به متى احتجت وإن كانت أصول ذلك في الأمهات ففي تفريقها بيان وزيادات تقيد معرفة ما جرى به العمل وكيفية الاستدلال من الأصول الأولى»[205].

وبذلك ندرج ابن سهل كشاهد عيان لتلك القضايا الاجتماعية بمعناها الواسع فهو درسها وأخذ رأي المشاورين من شيوخ عصره وعبر عن رأيه بعد رجوعه إلى الأصول ودونها في نوازله وهي بذلك تاريخ حضاري للأندلس.

205) ابن سهل : مخطوط الأحكام ورقة 1.

ويكفي دلالة على أهمية هذه الخطوط التربوية أيضا ما نسجله هنا لأبي بكر بن العربي (المتوفى سنة 543 هـ) في كتابه العواصم من القواصم (نسخة جامع الزيتونة ـ خط) بأن الصبيان كانوا يختمون تعليمهم بأحكام ابن سهل[206].

وفي العصور الحديثة : «أفاد مؤرخ الأندلس الأستاذ ليفي بروفنصال إفادة عظيمة من الأحكام الكبرى حين كتب مجلده الثالث عن التاريخ الأندلسي فرجع إليه في كثير من المواضع التي كتبت عن نظام الحكم في الأندلس وعن حياة المجتمع الأندلسي وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية.

ولقد استفدت أنا أيضاً من مخطوط الأحكام الكبرى حين كتبت أطروحتي التي قدمت لكلية الآداب جامعة القاهرة 1976 لنيل درجة الدكتوراه في الآداب والتي تنشر تحت اسم قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي اقتصاديا واجتماعيا، (الدار التونسية للنشر).

ولقد رأيت أن هذا المخطوط لابد أن يرى النور لما يصور من نبض الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس تصويرا واقعيا. خاصة أن كثيرا من الباحثين لم تهيأ لهم الفرصة ليكون هذا المخطوط في متناول أيديهم.

---

206) انظر : حسن حسني عبد الوهاب : آداب المعلمين / لمحمد ابن سحنون ص 140 ـ 144 تعليق محمد العروسي المطوي.
الشركة التونسية لفنون الرسم 1972.

فعزمت على تحقيقه بالاشتراك مع أستاذي الدكتور محمود علي مكي. فصورت صوره المختلفة من مودعات الخزانة العامة وبدأت في تحقيقه تحقيقا علميا يستفيد منه الباحثون في حضارة المغرب والأندلس وهو الآن يعد للطباعة.

وفكرت أيضا في إفادة قاعدة عريضة من المهتمين بالتراث الإسلامي إذا بسطنا هذا التراث وعرضناه في دراسة عصرية الى جانب التحقيق.

لذلك كانت هذه المجموعة من الدراسات والتحقيقات التي بدأت العمل فيها ابتداء من عام 1979 وظهر منها حتى الآن أربع كتب وكانت خطتي في ذلك هو جمع الوثائق التي ترتبط بموضوع واحد ودراستها وعرضها في قالب عصري وربطها بالقوانين الوضعية الراهنة ليسهل فهمها وتقريبها للقاعدة العريضة من المهتمين بهذا التراث.

وكنت أعمل ضمن فريق يضم أستاذي الدكتور محمود علي مكي أستاذ الآداب الأندلسي بجامعة القاهرة والأستاذ المستشار مصطفى كامل اسماعيل رئيس مجلس الدولة المصري ووزير العدل السابق بجمهورية مصر العربية والخبير القانوني لمجلس الأمة الكويتي حاليا.

وبهذا الفريق خرجت الكتب الأربع الأولى من مستخرجات مخطوط الأحكام الكبرى.

فالكتاب الأول :

طبع تحت اسم **«وثائق في أحكام القضاء الجنائي في الأندلس» دراسة وتحقيق.**

الطبعة الأولى . 1980. القاهرة.

ويتناول هذا الكتاب دراسة وتحقيق لوثائق أحكام القضاء الجنائي في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى.

وهذه الوثائق دارت أحداثها في القرنين الرابع والخامس الهجريين وهي تلقي ضوءاً على التاريخ الاجتماعي للأندلس في تلك الحقبة وعلى الإجراءات وأسلوب البحث القانوني والتحقيق والتدقيق الذي كان يتولاه القاضي قبل الفصل في موضوع القضية.

وعدد هذه الوثائق عشرون وثيقة. ويمكن تصنيف موضوعات هذه القضايا الجنائية في مجموعات يتميز كل منها بضرب من الجرائم تتحد مواصفاتها وتنتظمها أحكام وقواعد تتفق في أصولها وتقوم على فكرة موحدة تصدق من قبيل القياس على ما يماثلها فهناك جرائم القتل العمد ببواعثه المختلفة والاغتصاب والضرب والجرح المفضي إلى الموت أو القتل الخطأ في عرف القوانين الوضعية الراهنة ثم هناك قضايا التي من هذه المرتبة مثل جرائم تعكير الأمن والعبث به وتهديد سلامة الأرواح والاعتداء على حرمة الملك الخاص والتعدي بالإيذاء والضرب والتهديد والقذف والسب.

الكتاب الثاني : طبع تحت اسم

«وثائق في أحكام قضاء أهل الذمة في الأندلس» دراسة وتحقيق، الطبعة الأولى، 1980، القاهرة.

ويتناول هذا الكتاب أوضاع أهل الذمة ممن احتفظوا بدياناتهم المسيحية أو اليهودية في ظل الحكم الإسلامي للأندلس، في ست عشر وثيقة، وهي تمثل دور القضاء الإسلامي في تأصيل العدالة الاجتماعية بالنسبة لأهل الذمة أسوة بغيرهم من المسلمين ودون تفرقة طبقا لعقد الذمة الذي أقره الإسلام وتوضح هذه الوثائق مدى الحرية الدينية التي كان يتمتع بها النصارى واليهود في ظل الحكم وتلقي هذه الوثائق الضوء على التاريخ الاجتماعي لأهل الذمة ونشاطهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الأندلس حتى القرن الخامس الهجري.

وقد تنوعت الخلافات في المعاملات بين المسلمين وأهل الذمة بمقدار اتساع أوجه النشاط في جميع مرافق الحياة وطرح العديد من هذه المشاكل على القضاء الإسلامي الذي يفصل فيها بما أثر عنه من عدالة مطلقة ونزاهة في الحكم وتتعلق إحداث هذه الوثائق بأمور تتعلق بالرق والردة والتنازع على الملكية والبيوع والأحباس والتطاول على الدين الإسلامي والحضانة وإحداث الكنائس وحياة القبور وإلى ما ذلك...

الكتاب الثالث : طبع تحت اسم

«ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس» دراسة وتحقيق، الطبعة الأولى، 1981، القاهرة.

ويتناول هذا الكتاب دراسة وتحقيقا لثلاث وثائق أندلسية تتصدى لأهل الأهواء، والبدع وما يتخذ في حقهم من جزاءات دينوية رادعة.

فالوثيقة الأُولى : في تكفير أهل البدع وتقدير ما إذا كان يعدون من أهل الكبائر أم لا يعدون كذلك.

والوثيقة الثانية : في مسألة الزنديق أبي الخير.

وأبرزت النوايا الخفية التي توارت خلفها زندقة أبي الخير داعي الشيعة الأفارقة تمهيدا لتهيئة الجو إذا ما سنحت الظروف لمقدمهم إلى الأندلس ومن ثم كان أُسلوب هذا الداعي التشكيك في الدين. بينما باطنه الدعاية للمذهب الشيعي وأنصاره.

الوثيقة الثالثة : تتناول مسألة ابن حاتم الطليطلي المتهم بالزندقة ولم تثر حوله شبهة الدعاية السياسية السرية ضد نظام الدولة إلا أنه قد وجهت إليه تهم بالتنقص من شأن الرسول الكريم والاستخفاف بالشريعة.

وقد حفلت هذه الوثائق الثلاث بآراء فقهاء المالكية الأندلسيين ووجهة نظرهم في التشديد على أهل الأهواء والبدع وقطع شأفتهم.

والكتاب الرابع : طبع تحت اسم

«وثائق في الطب الإسلامي ووظيفته في معاونة القضاء في الأندلس» دراسة وتحقيق، الطبعة الأُولى ـ القاهرة.

ويتناول هذا الكتاب القضايا المتصلة بالطب سواء منه الطب البشري أو البيطري وهي أربع عشرة وثيقة ويمكن تصنيف هذه الوثائق إلى ثلاث مجموعات.

المجموعة الأولى :

تتعلق بمنازعات لجأ القضاء فيها إلى استشارة من يمكن أن نسميهم بالأطباء البشريين إذ أن القضايا كانت متعلقة ببيع عبيد أو جواري ظهرت فيهم بعد البيع عيوب ناتجة عن أمراض أو كسور اختلف حولها المتبايعون. هل كانت عيوبا قديمة قبل أمد التبايع أو حديثة ظهرت بعده وتشمل هذه المجموعة الوثائق الست الأولى فضلا عن الوثيقتين التاسعة والعاشرة.

المجموعة الثانية :

من هذه الوثائق هي من نوع الأولى إلا أنها متعلقة ببيع دواب ظهرت فيها بعد التبايع عيوب أدت إلى نشوب خلاف بين المتبايعين، وتشمل هذه المجموعة الوثائق الأربع الأخيرة.

أما المجموعة الثالثة :

فتشمل الوثيقتين السابعة والثامنة ولعلها من أطرف ما ورد في هذه الوثائق إذ هما متعلقتان بذلك النزاع الأبدي الذي لم يزل قائما منذ أيام جالينوس حتى عصرنا الحاضر وهو النزاع بين الطبيب والمريض على أجرة العلاج.

وهناك خطة للعام القادم إن شاء الله لتكملة هذه الموسوعة التراثيه وعمل ثلاث كتب أخرى هي :

أ - وثائق في الحسبة في الأندلس، دراسة وتحقيق.

ب - وثائق في العلاقات الأسرية في الأندلس، دراسة وتحقيق.

جـ - وثائق في المعاملات التجارية في الأندلس، دراسة وتحقيق.

ويهمنا من هذا العمل أن نقرب التراث ونبسطه بين يدي المهتم به والله الموفق للصواب.

والسلام عليكم ورحمته وبركاته.

محمد عبد الوهاب خلاف

أصداء كتب خليفة بن خياط في الأندلس

خوسي ماريا فورنياس
جامعة غرناطة/اسبانيا

تكرم السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ووجه إلي الدعوة للمشاركة في هذا اللقاء عبر رسالة وصلت إلي في الأيام الأولى من هذا الشهر، واتصل بي صديقي المخلص محمد الصباغ هاتفيا للغرض نفسه، أعبر هنا عن شكري لكلا الأستاذين الفاضلين.

لقد كان الوقت الذي أمكن لي خلاله إعداد هذه المحاضرة قصيرا جدا كما يلاحظ. ومن هنا يأتي الاختصار في حجم هذا التقرير بحيث لم استطع أن اضع اللمسات الأخيرة والضرورية لاكماله، كما لم يكن ممكنا أن أهيأ نصا نهائيا يصلح للنشر ـ مع ذلك، وعلى الرغم من أن التاريخ يقع خارج نطاقي

واختصاصي، فقد حضرت تلبية لهذه الدعوة الكريمة وللأهمية التي يحظى بها هذا اللقاء العلمي.

كان في نيتي في بدء الأمر أن يكون عنوان هـذا التقرير المتواضع أصداء كتب خليفة بن خياط وغيره من المؤرخين المشرقيين في الأندلس. أما المؤرخون الآخرون الذين يشير إليهم العنوان فهم بالضبط ابن أبي خيثمة وسيف بن عمر والنسائي والبخاري وسأتكلم بإذن اللـه بشيء من التفصيل عن انتقال كتابي خليفة بن خياط التاريخ والطبقات إلى الأندلس. واقتصادا في الوقت سأقتصر على عرض سلاسل الرواية للكتب الأخرى والتي كنت قد درستها مفصلا، لقد اعتمدت في دراسة دخول (ادخال) هذه الكتب إلى الأندلس على الفهرسة المشهورة لابن خير الإشبيلي وبرنامج ابن عطية الغرناطي، صاحب التفسير. وكما هو معروف فإن برنامج ابن عطية نشر حديثا في بيروت ولكن بدون أية إشارة إلى البحوث الأوربية والتي من بينها - وأقولها بكل تواضع - رسالتي التي تقدمت بها لنيل شهادة الدكتوراه والتي طبع موجز لها سنة 1971، وبعض الدراسات التي قمت بنشرها في مجلتنا Meah.

إن موضوعي هذا اللقاء الرئيسيين هما - كما تعلمون - تاريخ الأندلس عامة، وابن حيان بصورة خاصة. وأنا سأهتم بالجانب الأول في إحدى واجهاته وهي المتعلقة بكتب التاريخ المشرقية في الأندلس وسنلاحظ أن تاريخ خليفة بن خياط هو أول نموذج محفوظ حتى أيامنا هذه للكتب التاريخية المبنية على ترتيب السنين أي المسماة بالحوليات Anales وهكذا فإن تقريري هو جمع مختصر للواجهتين أي التاريخ العام وترتيب الحوليات الذي سينهض به فيما بعد ابن حيان في **المقتبس**.

1 ـ خليفة بن خياط وكتبه

كما تعلمون، فإن أبا عمرو خليفة بن خياط بن خليفة بن خياط العصفري التميمي البصري، الملقب بشباب كان محدثا نسابا اخباريا توفي في مدينة البصرة، وقد ناف عمره على الثمانين، سنة 5 ـ 854 / 240.

ولا نعرف عن حياته إلا نزرا يسيرا : نعرف أنه ينحدر عن عائلة عريقة في العلم وأن والده وجَدّه يشبهانه في الإسم، ونعرف أيضا أنه لم يرحل كما فعل غيره في طلب العلم، بدليل أن ابن الخطيب، صاحب تأريخ بغداد لم يورد له ذكرا في كتابه، وهو المعروف بحديثه عن كل شخص زار بغداد أو مرّ أو أقام بها. ولكننا بالمقابل نعلم أنه اختلف على شيوخ عدة، من مثل سفيان بن عيينة ومحمد بن جعفر فندر وهشام الكلبي ويزيد بن زريع، وعلى هذا الأخير كان تردده كثيرا. وبين تلامذته يرد، بشكل من الأشكال، البخاري المشهور وابن حنبل وعبد الله بن أحمد وبقي بن مخلد الذي كان راويته في الأندلس. أما دوره كمحدث فهو موضع خلاف وجدل وهو ما عالجه سهيل زكار في مقدمة تحقيقه لكتاب تأريخ خليفة ابن خياط. ولكن الذين كتبوا عنه يتفقون بصورة عامة أنه كان ثقة. ـ ينسب إليه ابن النديم في الفهرست أربعة كتب ولكن لم يصل إلينا منها غير اثنين وكلاهما مطبوعان وهما الـ أريخ والطبقات.

ويجدر بنا أن نذكر بأن كتاب التأريخ وصل إلينا في مخطوطة فريدة من قسم الأوقاف في الرباط عثر عليها الأستاذ الفاضل ابراهيم الكتاني وهذه المخطوطة هي نسخة كتبت في الأندلس في عام 477 / 84.

2 ـ أهمية التأريخ والطبقات

1) التأريخ : يقول سهيل زكار : هذا الكتاب هو وثيقة مهمة لدراسة الإدارة الإسلامية في بدايتها، فالمؤلف، بعد انتهائه من الحديث عن حكم كل واحد من الخلفاء، يعدد كافة رجال الدولة والولاة والكتاب الذين يعملون تحت امرته. إن أهمية هذا الكتاب لا تكن فقط في أنه أقدم تأريخ إسلامي وصل إلينا، بل في المادة التي يحتويها والطريقة التي كتب بها. ـ ويقول الدكتور حسين مؤنس في نقده لتحقيق هذا الكتاب والذي نشره في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ما نصه : «إن تاريخ خليفة بن خياط هو أقدم مؤلفات التأريخ الجديرة بهذا الوصف التي وصلت إلينا، فقد درس وكتب خليفة خلال النصف الأول من القرن الهجري الثاني، ولم يسبقه إلى ذلك أحد من العرب، فإن خليفة لم يكن راوية أخبار كأبي مخنف يحيي بن لوط، ولا صاحب رسائل كعروة بن الزبير، ولا صاحب أخبار قصار كسيف بن عمر، وإنما كان مؤرخا له إدراك لعلم التاريخ واستقلاله عن غيره ومعرفة بكتابته، والدليل على ذلك أنه وضع كتابه على أساس الحوليات والحوليات هي أولى مراحل التأريخ الصحيح. وربما كان من المفيد أن نسأل هنا عمن أخذ خليفة هذه الطريقة، وهل سبقه فيها أحد، لأن الطريقة التي اتبعها طريقة صاحب حوليات عارف بأصول ترتيب الحوادث على السنين... وتحقيق الكتاب ممتاز... وهذه خدمة جليلة أسداها سهيل زكار لتراثنا العربي..

2) كتاب الطبقات : أعود ثانية إلى رأي سهيل زكار المنشور في دائرة المعارف الإسلامية : «وطبقات ابن خياط هي أيضا أقدم كتاب موجود

بكامله، فطبقات ابن سعد وهو مؤلف قد سبق ابن خياط إلى هذا النوع من التأليف، وصل إلينا منقوصا. إن الأخبار التراجمية التي يضمها طبقات خليفة ابن خياط هي أخبار موجزة ومختصرة، ولكن أهمية الكتاب تكمن في وصوله إلينا كاملا وفي عنايته وتفصيله في ذكر الأنساب. إن المؤلف في الواقع، يذكر كل قبيلة عربية وكل مجموعة منها وكل عائلة هاجرت في صدر الإسلام، ويحدد مكان إقامتها. وهذه المعلومات لها قيمة عظيمة لدراسة الهجرات الداخلية في العالم الإسلامي ولدراسة هجرة العرب الكبرى في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، ولدراسة تأريخ الخلافة الأموية. وإنما نعنى بدراسة هذا الجانب لأن القبائل العربية خلال خلافة بني أمية لعبت دورا رئيسيا. كما أن للكتاب أهمية مقاربة لدراسة العقائد والثقافة والمجتمع في الإسلام. ولحسن الحظ فإن للطبقات طبعة محققة قام بها أكرم العمري في بغداد في عام 1967».

من جانبي فقد قرأت بعناية الأخبار التي يضمها كتاب التأريخ حول المغرب الإسلامي وحول الأندلس بصورة خاصة، وهي أخبار غير كثيرة ولكنها لطبيعتها تستحق دراسة مفصلة خاصة أقتصر هنا على الإشارة العابرة إلى بعضها. ومنها أن كتاب التاريخ لخليفة ابن خياط يؤكد لنا خبر الحملة التي قادها عبد الله بن موسى بن نصير ضد جزر البليار. وهو الخبر الذي ظل إلى وقت قريب محل شك من قبل المؤرخين، حتى أن ليفي بروفنسال في كتابه المشهور حول تأريخ اسبانيا الإسلامية شكك في صحة خبر قيام هذه الحملة.

قال خليفة بن خياط : «وفيها ـ أي في سنة تسع وثمانين ـ أغزى موسى بن نصير ابنه عبد الله بن موسى، فأتى ميورقة ومنورقة جزيرتين

بين صقيلية والأندلس وافتتحها. وهذه الغزوة تدعى غزوة الأشراف، كان معه أشراف الناس» (ص. 400).

كما ترون خليفة بن خياط ينسب هذه الحملة إلى عبد الله بن موسى ابن نصير في حين يتحدث «ليڤي بروفنسال» عن عبد العزيز بن موسى ابن نصير كقائد لهذه الحملة.

وقال خليفة أيضا : «وفيها ـ يعني في السنة نفسها ـ أغزى موسى ابن نصير ابنه مروان بن موسى السوس الأقصى فبلغ السبي أربعين ألفا» (ص. 400).

«سنة أربع وتسعين : وفيها قدم موسى بن نصير من الأندلس وافدا إلى الوليد بن عبد الملك يخبره ما فتح الله على يديه وما معه من الأموال والتيجان وبعث إليه بالخمس» (ص. 408).

«سنة خمس وتسعين : وفيها قفل موسى بن نصير من افريقية واستخلف ابنه عبد الله بن موسى بن نصير وحمل الأموال على العجل والظهر، ومعه ثلاثون ألف رأس فقدم على الوليد» (ص. 409).

«افريقية : مات عبد الملك وعليها موسى بن نصير فأقام سنتين، ثم شخص إلى الوليد سنة خمس وتسعين واستخلف ابنه عبد الله بن موسى حتى مات الوليد» (ص. 417).

«افريقية : (سليمان بن عبد الملك) : أقر عليها عبد الله بن موسى بن نصير ثم عزله سنة سبع وتسعين» (ص. 420).

3) دخول كتابي التأريخ والطبقات إلى الأندلس وروايتها فيها نجد ذكر دخول هذين الكتابين إلى الأندلس في تأريخ ابن الفرضي حيث

يقول : « وكان مما انفرد به بقي بن مخلد ولم يدخله سواه : مصنف أبي بكر بن شيبة بتامه، وكتاب الفقه لمحمد بن ادريس الشافعي الكبير بكماله، وكتاب التأريخ لخليفة بن خياط وكتابه في الطبقات، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي» (Cairo, I 107 ـ 109) ويكرر ذكر هذا الخبر نفسه ابن حيان وفي المقتبس ذاته ويعلق الدكتور محمود مكي على هذا الخبر بقوله : «ويفهم من حديث (ابن خير في فهرسته) في ذلك أن الكتابين كان لهما رواج عظيم حتى القرن السادس الهجري وأن معتمد الدارسين فيهما كان على رواية عبد الله بن يونس عن بقي»

(المقتبس ص. 579 ـ N 460).

ويهمني هنا أن أثبت مرة أخرى أن كتاب المقتبس هو كتاب من نوع كتب الحوليات، أي أنه من حيث مذهبه هو كتاب يسير على نفس المنهاج الذي اختطه خليفة بن خياط في تأريخه لأول مرة والذي سار عليه من بعد الطبري وغيره، ولكن يجب أن نقر بأن كتاب ابن حيان هو قمة الكتب التي سارت على هذه الطريقة.

ألتفت الآن إلى بيان سلسلة رواية كتاب الطبقات حسب ما ورد في فهرسة ابن خير وفي فهرسة عبد الحق بن عطية وهما الوحيدان اللذان ذكرا ذلك.

أما بيان سلسلة رواية كتاب التأريخ فلا يرد إلا في فهرسة ابن خير.

سأقرأ نصوص ابن خير وابن عطية وأشير على كل منها في الجدول المبين. إن محدودية الوقت لدي تجبرني على عدم الوقوف على الترجمة لكل

واحد من الرواة، لذلك سأقتصر على تأريخ ولادة ووفاة كل منهم. كذلك أورد سلسلة الرواية التي تضمها مخطوطة الرباط النفيسة المرقمة 199 / أوقاف والواردة من الزاوية الناصرية في تمكروت.

خوسي ماريا فورنياس

صورة الأندلس في مؤلفات بعض الشرقيين طوال القرون الوسطى

د. راشيل آرييه
ترجمة: مصطفى الضو

الأندلس، إقليم بأقصى بلاد الإسلام، أثارت اهتمام المؤلفين الشرقيين منذ نشأتها، ففي أوائل القرون الوسطى كان للعلاقات الثقافية دورها في تقريب مسلمي الشرق في الدولة العباسية بإخوانهم القاطنين بشبه الجزيرة الإيبيرية. وكان الحج إلى الديار المقدسة بمثابة رابط روحي عميق يجلب عددا كبيرا من الأندلسيين إلى الشرق الذي يرحل إليه العلماء أيضا لطلب العلم تحدوهم الرغبة في متابعة دروس اعلام أساتذة الشرق والحصول على الإجازات واعلاء شأنهم في أعين أهلهم. كما كان التجار يجوبون البحر الأبيض المتوسط ويقيمون علاقات اقتصادية متينة بين الدول الإسلامية وغالبا ما يدونون ملاحظاتهم في روايات رحلاتهم. ليس الغرض من هذا العرض الوصول إلى دراسة شاملة متكاملة لأوصاف اسبانيا الإسلامية التي أثرت الإنتاج الثقافي الشرقي في القرون الوسطى وأكسبته تألقا، وإنما نريد

ـ انطلاقا من اختيـار عشوائي لبعض المؤلفات الهامـة لمؤرخين وجغرافيين ورحالة وموسوعيين عاشوا خلال فترات ذهبية للخلافة العباسيـة ببغـداد أو للسلاطين المماليك بمصر وسوريا ـ إلقاء نظرة على الأندلس.

منذ نهاية القرن الثـاني الهجري الموافق لأواخر القرن الثـامن الميلادي أعرب العرب المشـارقـة عن ميلهم الشـديـد إلى التـاريـخ لأنـه يروي إليهم أخبار مآثر ومفاخر أجدادهم وأنسابهم. المعطيات الأولى لأخبار فتح اسبانيـا تظهر من خلال كتابات محمد بن عمر الواقدي، وهو مؤرخ اهتم بالتحقيقـات الكرونولوجية التي جمعها من مصادر روايـات محـدثين مصريين كانوا مقيمين باسبانيا أو من روايات تابعيهم ومن معظم المشارقة الذين شاركوا في عمليـة الفتح بجانب موسى بن نصير، ومن جهة أخرى نجد هؤلاء المجاهـدين الـذين عـادوا إلى مصر والتصور الشعبي لـديهم ينسب إلى موسى بن نصير أحـداثـا ووقـائع أسطوريـة. طـابع مزدوج : حقيقي وأسطـوري يطبـع الكتـابـات التـاريخيـة الأولى في القرن الثـالث الهجري، التـاسـع الميـلادي التي تتنـاول موضـوع الأنـدلس. فقيـه ألبيرة، عبـد المـالـك ابن حبيب، تعلم طيلـة ثمـان سنوات بالمدرسة المصرية وبالمدينة، روى أحاديث الواقدي حول أخبار عصر الحكام العرب لاسبانيـا وعصر حكم الأمراء الأمويين لقرطبـة. من تـاريخـه، بقي مخطوط وحيد بخزانة بودليان بأكسفورد قام محمـد علي مكي بنشر فصول منـه تتعلق بفتح الجزيرة الإيبيريـة. الأخبـار حول الرحلات التي قـام بهـا موسى بن نصير والمعارك التي خاضها تكاد تكون منعدمة، على عكس ذلـك نجـد أخبـارا مفصلـة عن أعمـال طـارق وروايـات أسطوريـة حـول الغنـائم والكنوز التي ظفر بها موسى وأبناؤه. في نفس هذا القرن نجـد أخبـارا حول فتـح شمال غرب إفريقيـا وإسبـانيـا في «فتـوح مصر» للمـؤرخ المصري ابن

عبد الحكم المنتسب إلى عائلة فقهية شهيرة، وهي مستخرجة من الروايات الدينية استنادا إلى المحدث المصري الليث بن سعد الذي يروي أحاديث واقعية وأسطورية في آن واحد، يكتفي البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» ببعض السطور المقتبسة من الحديث المدني للواقدي، بينما نجد الطبري المحدث المفسر الكبير للقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يعتمد على روايات المحدثين المصريين في حديثه المفصل عن ثورة ضواحي قرطبة في عهد الحكم الأول الأموي وعن وصول المهاجرين القرطبيين إلى الاسكندرية واستقرارهم بكريت.

إلى حدود القرن الرابع (العاشر الميلادي) تظل معرفة المشارقة للأندلس غير كاملة، ولا تنال إلا نصيبا قليلا في «المسالك» الذي ألفه موظفو الإدارة العباسية ورؤساء مصالح البريد والعدل. الروايات التي نجدها عند خرداد به، ابن الفقيه الحمداني وابن رستش مستوحاة من الأساطير الشائعة بمصر حول بداية فتح الأندلس؛ ولا تختلف عنها إلا قليلا مكونة نوعا من «العجائب». موضوع هذه العجائب يتضح من خلال روايتين : «دار طليطلة المسدودة» و «مائدة الملك سليمان» حيث نجد ارتباطا بينهما وبين رواية الليث بن سعد. موضوع الرواية الأولى من هاتين الروايتين الأسطوريتين يتعلق بوجود قصر طليطلة المغلق بواسطة 24 قفلا، إذ كان كل ملك قوطي يضيف قفلا لهذه الأقفال. رودريك أو رودريق، آخر ملوك القوط باسبانيا أراد أن يكشف سر هذا المكان، رغم محاولة رجال الدين إقناعه بالعدول عن ذلك، فأمر بفتح هذه الدار، وجد فيها صورا تمثل عربا على متن فرسان، فوق رؤوسهم عمامات، متمنطقين بسيوفهم، وخلال نفس هذه السنة تم دخول العرب إلى اسبانيا. ترددت هذه

الأسطورة في حكايات ألف ليلة وليلة المصرية الأصل (الليلة 271 و 272) وحتى في اسبانيا نفسها اقتبسها المؤرخون القشتاليون في القرن 13 م من الرواة العرب، كما أوضح ذلك «إدواردو سافيدرا» «Eduardo Saavedra» وبعده «ريني باسي» «Rene Basset»، «الدار المسدودة» لا تعدو أن تكون نقلا لرواية تتعلق بقاعة بيت المال التي هي جزء من الكنيسة المحادية للقصر الملكي للقوط بطليطلة. موضوع الرواية الثانية يتعلق بعثور طارق بن زياد بطليطلة على طاولة من الزمرد كانت في ملك سليمان، ابن داوود التي أصبحت ضمن غنائم «الوليد» الخليفة الأموي بدمشق الذي ولاه كل من موسى وطارق، في رواية مختصر لابن حيان، ذكره مؤلف نفح الطيب، نجد أن هذه الطاولة ليست إلا مقرأ لترتيل الإنجيل بكنيسة طليطلة.

عند هؤلاء الرواة الشرقيين في نهاية القرن التاسع، وعند معاصرهم اليعقوبي نجد معلومات جد قليلة تتعلق ببلاد الأندلس ومياهها الجارية وأهم الرحلات التي أقيمت بالأندلس. بعد تولية الأمير عبد الرحمان الثالث على قرطبة نجد الاصطخرى المشرقي يخصص لاسبانيا الإسلامية فصولا هامة في كتاباته حول عناصر : السكان، الزراعة، تجارة العبيد. أربعة عشر رحلة كانت قرطبة نقطة انطلاق منها. اتسعت العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب على عهد الأموي عبد الرحمان الثالث الذي لقب بالخليفة الناصر. كلف «الاصطخري» العلامة التاجر العراقي «ابن حوقل» بتكميل كتابه «كتاب المسالك» والذي تابع رحلاته عبر افريقيا الشمالية واسبانيا وغيرها. استخلص حديثا «أندري ميكيل» من خلال تتبعه لظهور علم الجغرافيا البشرية دور هذا «التاجر الرسول» الذي كان يدين بالولاء للفاطميين بافريقيا. أهمية توضيحات «ابن حوقل» خصوصا في الميدان الجبائي أشار

إليهـا المرحـوم ليڤي بروڤنصـال في دراستـه القيمـة حـول العصر الأمـوي باسبانيا. وقـد حرص كثير من المؤرخين على استغلال وصف الأنـدلس، من حيث مواردها الرئيسية وصناعاتها التقليـديـة وتجارتها استغلالا دقيقا في كتـابـاتهم. الأحكام التي أصدرهـا المؤلف الشيعي «ابن حوقل» حول طبـاع الأندلسيين في عصره، تكتسي طابعا متحيزا وأحيانا مغرضا.

ومن الأخبـار التي لا يمكن غض النظر عنهـا مـا رواه المؤلف المشرقي الجغرافي العالم «المقـدسي» في أواخر القرن العـاشر حول الأنـدلس حيث أقحم شبه الجزيرة الإيبيرية التي لم يسبق له زيارتها بنفسه ضمن الأقـاليم الأربعـة عشر التي تتكون منهـا على حـد قولـه الإمـارة الإسـلاميـة. وكانت الحركـة الفكرية وعلم اللغة والقياس وتجارة البلاد بالنسبة لهذا العالم موضوع دراسـة مفصلة جادة وهادفة. ومما لاشك فيه أن الخلط بين المؤسسات الأموية وبين مؤسسات الفاطميين المعاصرة لها، الـذي وقع فيـه هـذا الرحـالـة الفلسطيني يعود إلى انتسـابه إلى الشيعة.

فـإلى الأنـدلسي المشرقي أحمـد الرازي، من أب تـاجر، أصلـه من الري بفارس، استقر بـالجزيرة الإيبيريـة، يعود الفضل إلى وصف الأنـدلس منـذ الحقبة الثانيـة من القرن الرابع الهجري / العـاشر الميلادي، استفـاد من هـذا الوصف الشرقيون الآخرون للعصر اللاحق وخصوصـا يـاقوت الحمـوي الـذي عـاش في القرن 12 وبـدايـة القرن 13 الميلاديين، حيث نجـد في قـامـوسـه المتعلق بدراسة المواقع الجغرافية «معجم البلدان» اقتباسات كثيرة من كتـاب «المسالك والممالك» للأنـدلسي البكري (القرن 11الميلادي) ويتجلى من خلال هـذه المـوسـوعـة الكبيرة استعمال لحصيلـة مهـارة كل المعـاجم البيـوغرافيـة الأندلسية للقرن 12 الميلادي. ويـاقوت ـ كسابقيه ـ لم يعر أي اهتمام لرجـال السياسة الأندلسية اللهم إلا الإشارة لبعض تواريخ المعارك المشهورة.

إن المكانة المخصصة لمملكة غرناطة في كتب التاريخ العام والمنتخبات التاريخية الجغرافية الشرقية الغزيرة تبدو جد ضئيلة إذا قيست بالأبحاث الطويلة المخصصة للحياة السياسية والإدارية للماليك. كما نجد معلومات مقتطفة يسيرة تتعلق بتاريخ أحداث غرناطة النصرية، وفي أغلب الأحيان يكتفي المؤرخون بسرد تاريخ مقتضب لاسبانيا قبل وبعد الفتح الإسلامي وإشارات لتعاقب الملوك بالأندلس في عهد بني الأحمر، مع إلقاء نظرة حول ملوك غرناطة وكيف أنهم كانوا يصارعون تارة الملوك المسيحيين باسبانيا وتارة أخرى يعقدون الهدنة بينهم، دون أدنى إشارة إلى الوضع المتدهور للأندلس.

صورة الإمارة النصرية لغرناطة التي يعطيها لنا المؤرخون المشارقة في القرن 14 وبداية القرن 15 الميلاديين مستوحاة من كتابات ذات أغراض مدحية. قام الموسوعي المسعودي بتقديم وصف لاسبانيا الإسلامية في العصر الذهبي للخلافة في قرطبة أوائل العصور الوسطى وأكمله الجغرافي الصقلي الإدريسي في القرن 12 الميلادي، ونقله ابن سعيد الأندلسي في القرن 13، وأعاد صياغته الأمير السوري أبو الفداء في «تقويم البلدان» والنويري في «نهاية الأرب» والقلقشندي المصري في «صبح الأعشى» وبدر الدين العيني المصري من أسرة سلاطين المماليك في «عقد الجمان» حيث نجد مذكرات حول تاريخ الإسلام. بعد عرض عام حول الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الإيبيرية يذكر المؤلفون المشارقة أهم المدن الإسبانية، مجاري مياهها ونباتاتها، حيواناتها وإنتاجاتها مع تخصيص صفحات كثيرة لمدينة غرناطة نظرا لموقعها الممتاز الذي أثار اهتمام الرحالة المشارقة، وكانت المقارنة بين المدن العربية من أهم الموضوعات التي تطرق إليها جغرافيو

العصور الوسطى، وان التشابه بين غرناطة ودمشق كان من الموضوعات التي تناولتها الأعمال الأدبية، يقول أبو الفداء في غرناطة «مدينة رائعة تشبه دمشق، بل تفوقها...». شاعر إسباني مجهول من القرن 11 الميلادي في عصر ملوك الطوائف، يصف غرناطة بطريقة مضرة : «غرناطة لا مثيل لها، لا في مصر ولا في سوريا ولا في العراق». وقد تغنى المؤلفون المشارقة بخيرات Vega، بأشجارها، فواكهها ومياهها الجارية وأبدوا إعجابهم بجمال مدينة صغيرة مجاورة لها وهي Loja وكذلك Alhama المعروفة بمياهها المعدنية الحارة، وصفوا أيضا ألمرية «ملتقى قوافل الأندلس» هذه المدينة المزدهرة المتوفرة على ميناء يستقبل تجارة الأسكندرية. كا أشار العيني المصري إلى جودة تين مالقة الذي يصدره السلطان النصري إلى الشرق والغرب.

مكانة مملكة غرناطة لها نصيبها الوافر في مؤلف القاضي ابن فضل الله العمري كاتب الدولة على عهد السلطان المملوكي الصالح عماد الدين اسماعيل. ففي كتابه «التعريف» وهو «المؤلف الحقيقي المتكامل لكاتب محرر» يعطينا صورة واضحة للنسب العربي للنصريين مشيرا إلى بعض الملاحظات الدقيقة المتعلقة بمراسلة ديبلوماسية متبادلة بين ديواني غرناطة والقاهرة. والرواية تأخذ صبغة تبريرية في فصل من كتاب «مسالك الابصار في مسالك الأمصار» المخصص لمعلومات أساسية ـ لرجل عالم ـ حول معركة Vega التي انتصر فيها جنود أبي الوليد اسماعيل الأول النصري في يونيه 1319 على أبناء قشتالة Don Pedro و Don Juan الوصيين على الملك الصغير ألفونس 11. وكان انتصار أهل غرناطة هذا قد اطلق عنان تصور المؤرخين الذين أبرزوا المفارقة بين أهمية الجهاز العسكري الذي استعمله القشتاليون وقلة عدد جنود المسلمين، وفي هذا الصدد نجد معلومات جد

مهمة جمعها العلامة العمري في فصل من كتاب «مسالك الأبصار» المخصص لافريقيا الشمالية واسبانيا، وقد جاب الأندلس في عهد يوسف الأول النصري سنة 738 / 1387، مع العلم أن ما يلزم لعبور المملكة النصرية من المثي عرضا 3 أيام و 10 أيام طولا، ويذكر أن مدينة مالقة الجميلة تتوفر على صناعات واسعة للأسلحة وللأطباق المزخرفة المزينة بالذهب والأواني الخزفية اللامعة، كما أثار اهتمامه وجود صناعة الخزف باندراكس، وأعطى معلومات جد هامة حول المراكز الحضرية الرئيسية للسلطنة النصرية وهو لم يقتصر على تقديم وصف جغرافي كلاسيكي لعاصمة الأندلس وضواحيها بل يذكر أنها مدينة كبيرة، على شكل دائري ذات منظر خلاب... تقع في مكان يجنبها تيارات الرياح التي نادرا ما تجتاحها لأنها محاطة بالجبال من جميع جهاتها، ويذكر أيضا أبواب المدينة وقناطرها وضواحيها مشيرا إلى أن الأزقة الضيقة مجاورة للمسجد الكبير، والسواري الفخمة الحاملة لسقائف البنايات تثير إعجاب المسافرين، وقد لاحظ هذا الفقيه المشرقي أن المنابر أعدت لدراسة العلوم الدينية ومكاتب العدول توجد بجانب أماكن العبادة، والمسجد الكبير (الحمراء) مرصع بثريات من الفضة، ومما لفت انتباهه تمركز السكان في منطقة Vega بغرناطة أمام المسجد الكبير (الحمراء) على ضفاف نهر دارو. وقد زار ابن فضل الله حيا يقطنه سواد القوم من Albaicin الذي كانت له إدارته المستقلة وقضاته ومسجد (الحمراء) الذي يؤمه المؤمنون منهم. كما ترك لمؤرخي الحضارة الذين تعترضهم صعوبة الحصول على الوثائق معلومات دقيقة حول لباس وهيآت سكان الأندلس، وأجور الجنود الذين يتقاضون مرتباتهم ذهبا والتي تتغير حسب درجاتهم، والصناعات اليدوية بمدن الساحل الأندلسي وحول صعوبة تموينها بالحبوب، وبعض الأخبار عن

جرأة القراصنة الغرناطيين الذين كانوا على استعداد دوما لاقتحام الشواطئ الإسبانية المسيحية.

هناك تباين كبير بين صورة الأندلس التي رسمها العمري والملاحظات الموضوعية التي أبداها بهاء الدين الخالدي الذي عاش بمصر في القرن 15 صاحب كتاب «المقصد الرفيع المنشأ الهادي إلى صناعة الإنشاء»، وهو مخطوط بـ (الخزانة الوطنية بباريس Arabe 4439) ولا نعرف شيئا عن مؤلف هذا المخطوط الذي كان موجها بدوره إلى كتاب ديوان المماليك. وعلى كل حال فإن الخالدي اقتصر على كتابة نسخ من مسالك الأبصار وقام بتلخيص فصول عن جغرافية الأندلس من صبح الأعشى للقلقشندي، ويبدو أن مؤلف الخالدي ظهر بعد كتاب القلقشندي، وما التغني بغرناطة (ص 1280 (v°r°) إلا صورة طبق الأصل للنصوص الشرقية الآنفة الذكر.

في النصف الثاني من القرن 15الميلادي، ورد ذكر الأندلس في كتابات العلامة الشافعي سراج الدين عمر ابن الوردي المتوفى سنة 861 هـ/1457 م. فقبل سنوات عثر Rafaela Castrillo Márquez بمكتبة القصر الملكي بمدريد على مخطوط مبثور الأول في 35 صفحة أورد فيه هذا المؤلف الشرقي نظرة عامة حول شكل الجزيرة الإيبيرية التي كان يتصورها على شكل مثلث كغيره من الغربيين : الإدريسي، ابن سعيد والمصنف المغربي ابن عبد المنعم الحميري مؤلف كتاب «الروض المعطار» وابن حوقل هو المشرقي الوحيد الذي تصور الجزيرة الإيبيرية على شكل مربع، والمخطوط المذكور يحتوي على وصف العديد من المدن الإسبانية من بينها : قرطبة واشبيلية وطليطلة التي ظلت تحت حكم الإمارة القشتالية، إلا أنه لم يشر إلى العديد من أماكن التجمعات السكانية الحضرية كسرقسطة والمدن

الواقعة بساحل البحر الأبيض المتوسط كبلنسية ومرسية رغم الدور السياسي والاقتصادي الذي كان لها على عهد الأمويين وما بعده، وكما بين كل من Rafaela Castrillo و Joaquin Vallué Bermejo أن ابن الوردي كان يخلط بين مدينتي قرطاجنة وقرطاجة ويعتقد أن قنوات المياه الرومانية توجد بهذه المدينة الإفريقية وأن الطابع الأسطوري يسيطر على الأخبار المتعلقة بفتح اسبانيا في كتابات الجغرافيين الشرقيين أوائل القرون الوسطى، على عكس ذلك نجد أوصافا دقيقة يبدو أنها مقتبسة من نزهة المشتاق حول غرناطة ومالقة المشهورة بتينها وخصوصا ألمرية، على عهد المرابطين.

يبدو حب الاستطلاع الذي أثارته اسبانيا الإسلامية جليا في تفكير عالم مصري، في النصف الثاني من القرن 15، يتمثل في أخبار رحلة عبد الباسط، وهو ابن موظف سام مملوكي مؤرخ وتاجر، توجه إلى الاسكندرية في شوال 866 / يوليوز 1462 والتحق بتونس الحفصية لإتمام دراسته في علوم الطب، التقى فيها بأدباء وتجار أندلسيين فروا من الزحف الإسباني، وقرر خلال إقامته بوهران القيام برحلة إلى اسبانيا. الرواية التي تركها لنا متضمنة في مجموع أخبار كتابه «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» وهي بمثابة شهادة عيان للأوضاع الاجتماعية والحركة الفكرية للأندلس كما تلقي الأضواء على بعض الوقائع للتاريخ السياسي للدولة النصرية إبان تدهورها وإلى هذا العالم المشرقي الدقيق التفكير والموضوعي يرجع الفضل في توصلنا بأحد آخر الأوصاف لمالقة النصرية التي نزل بها يوم 23 ربيع الثاني 870 هـ/ 13 دجنبر 1465 م صحبة بعض التجار الأندلسيين والتلمسانيين، والرحلة التي قام بها عبد الباسط هي نفس الرحلة التي قام بها من قبله الرحالة الطنجي ابن بطوطة لمملكة غرناطة على عهد يوسف

الأول سنة 1350. فبعد أن وصف هذا العالم المصري قصبة مالقة أعرب عن إعجابه بصناعة الخزف بها وروى محادثاته مع واعظ الجامع الكبير، كما ذكر أخبار اقتحام الجنود المسيحيين لضواحي هذه المدينة الأندلسية، سافر عبد الباسط من مالقة إلى غرناطة على متن بغل كابن بطوطة، ففي ميناء Almunècar لاحظ أن سفنا تحمل حمولات من الجوز والتين في اتجاه بلدان مسيحية، وفي Velez Malaga أثارت انتباهه جودة الفواكه الجافة، في Alhama de Grenada حيث قضى فترة من الزمن فرضتها ظروف الطريق المؤدية إلى عاصمة المملكة النصرية أعجب بتنظيم الحمامات الطبيعية ووصفها وصفا دقيقا مع إشارته إلى أن ولوجها يتم بالمجان، زيارته لغرناطة ملأت نفسه غبطة وإعجابا بجمال طبيعتها وبخصوبة منطقة Vega وأثنى على شجاعة أهلها، وقد قدر عدد الجنود الرماة بـ 80.000 وهذا العدد سيظل موضوع نقاش لو لم تأت شهادة لاحقة بقليل للعالم البولوني Nicolas de Popielovo الذي جاب المملكة النصرية سنة 1480 تؤكد وجود 70.000 جندي تحت تصرف سلطان غرناطة، ومهما يكن من أمر فإن عبد الباسط أشار إلى كثافة السكان على غرار المؤلف المصري العمري بقرن قبله، وأثارت كروم ضواحي مدينة غرناطة اهتمام هذا الرحالة المشرقي، كما عقد الصلة بقاضي الجماعة بغرناطة ابن منظور الذي أدهشه عمق نظره الفقهي. وفي Alhambra استقبله السلطان أبو الحسن علي (17 يونيه 1466) خلال جلسة سأله خلالها عن أحداث مصر وسوريا، ومنحه حق إعفاء سلعه من واجبات الجمارك وأغدق عليه الهدايا تكريما منه لعلمه وأدبه. زار عبد الباسط أيضا حي Albaicin المكتظ بالسكان ولم يخف قلقه إزاء الوضعية العسكرية للمملكة النصرية حيث إنه يرى أن القشتاليين شرعوا في

الاستيلاء على أهم المدن والحصون الطبيعية للبلاد، مشيرا إلى أن العلاقات الإنسانية ظلت قائمة بين المسلمين وغيرهم في كل جهات حدود الإمارة، ويروي في الفصل التاريخي من كتابه أخبار الخلافات التي حدثت بين السلطان سعد وابنه أبي الحسن بالإضافة إلى تطور الحالة العسكرية لصالح المسيحيين. ونجد أصداء رحلة هذا العالم المصري شتيتة في الأخبار الشرقية التي أتت بعد سنة 1450، وقد سبق للعلامة الواعية العيني أن اشار إلى أن ابن الأحمر (هكذا كان يسمي الملوك النصريين بلقب جدهم) قد هزمته توالي انتصارات الاسبانيين ولم يكن بإمكانه أن يضمن الاستنجاد بقوات خارجية. بعد ذلك ظهرت لهجات جديدة خصوصا في كتاب «التبر المسبوك» للفقيه الشافعي السخاوي. في الربع الأخير من القرن 15 الميلادي سقطت على التوالي أهم حصون المملكة النصرية، وتغني ببسالة الغرناطيين الذين كانوا محاصرين بالبحر والعدو، ولا يمكن إخفاء ما سماه السخاوي بالذل الذي ألحقه الإفرنج بمسلمي الأندلس عقب غارتهم على غرناطة؛ كما تحدث عن الاضطرابات التي أدت إلى سقوط الدولة النصرية. وقد تأثر ابن إياس المصري بالغ التأثر بأخبار ضعف الأندلس التي كان الحجاج والتجار ينقلونها إلى المشرق عند توقفهم بمدينة الاسكندرية، ويتجلى ذلك في مؤلفه «بدائع الزهور». لا نجد في المؤلفات التاريخية ما بين 1483 و 1492 إلا أخبارا لمدن مفقودة ومعارك دامية وحروب ضارية، ففي سنة 1492/897 يعلن ابن إياس عن خبر سقوط غرناطة ويرى أنه من الفواجع الرهيبة التي مني بها الإسلام، وهكذا تأتي رواية هذا المصري المثري بآخر شهادة شرقية وفي نفس الوقت عاطفية وتاريخية عن الأندلس المحتضرة.

هل لا تزال هناك مؤلفات شرقية يمكن من خلالها الاطلاع على معلومات أهم حول الأندلس ؟ تيار مزدوج تاريخي وأسطوري يطبع روايات أخبار أوائل القرون الوسطى. نوع من المؤشرات الطبوغرافية يتجلى في المؤلفات الأدبية التي يرمي مؤلفوها إلى تعليم القارئ وتسليته. الأدب الجغرافي يتغنى بخيرات البلاد. موسوعات القرون الوسطى لا تتناول موضوعات البيئة الإنسانية في الأندلس، أما في أواخر هذه القرون فنجد فكرا متقدا دائم اليقظة وتعاطفا ممزوجا بالقلق في روايتي أخبار الرحالتين المصريين اللتين يمكن اعتبارهما مصدرا تاريخيا من الدرجة الأولى.

نأمل أن نكون قد أوفينا ـ في إطار الوقت الذي كان مخصصا لنا ـ هذا الموضوع ما يتطلبه من تقويم لبعض الجوانب التاريخية والثقافية الأندلسية الشيقة من كل الوجوه.

مِن وحي الندوة

د. عبدالله الغنيم
عميد كلية الآداب / الكويت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين،

وبعد، أتقدم بالشكر الجزيل للمغرب الشقيق ولوزارة الثقافة على هذا اللقاء الطيب الذي جمعنا حول أبي مروان ابن حيان والذي كان ـ كما تبين لنا من الجلسات السابقة ـ مناظرة علمية ممتازة، جلت جوانب مختلفة من حياته ومنهجه وأسلوب كتابته والفوائد المتحصلة والمرتجاة من النصوص التي وصلت إلينا منه.

وأرجو أن تسمحوا لي بثلاث ملاحظات في هذا الموضوع أفدتها من قراءة نصوص ابن حيان.

الملاحظة الأولى :

شاع بين الباحثين أن أبا عبيد البكري قد ولد عام 432 هـ، ذكر ذلك جاينجوس وبالنثيا، ونقله عدد من الكتاب العرب. وينقض هذا القول وصف ابن حيان لأبي عبيد البكري عند قدومه مع والده إلى قرطبة عام 443 هـ بأنه فتى بذ الأقران جمالا وبهاء وسروزا وأدبا.

ولا يعقل أن يشهد ابن حيان مثل هذه الشهادة لغلام لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره. والفتى في لغة العرب هو الكامل الجزل من الرجال، وعلى ذلك فإن سنه حينذاك بين العشرين والثلاثين، ومولده ما بين سنتي 413 هـ و 423 هـ.

وقد توقف دوزي عند هذا الموضوع وآزره الدكتور حسين مؤنس في كتابه «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» وأضاف إلى ذلك قوله : «ثم إن الآراء متفقة على أن أبا عبيد البكري توفي سنة 487 هـ عن سن عالية، فإذا كان قد ولد سنة 432 هـ فقد كانت سنه يوم توفي 55 سنة على هذا الحساب، وهي ليست بالسن العالية. ثم أورد الدكتور مؤنس نص ابن خاقان عن البكري الذي يقول في ترجمته له : «رأيته وأنا غلام ما أقمر هلالى ولا نبغ في الذكاء كوثرى ولا زلالى في مجلس ابن منظور في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور، وله شبلة كأنما يروق العين إيماضها ويفوق السواد بياضها، وقد بلغ سن ابن محلم». أي أن أبا عبيد كان في الثمانين حينما كان ابن خاقان غلاما.

ولم يحاول الدكتور مؤنس أن يذهب إلى أكثر من ذلك في تحديد زمن ولادة البكري ووفاته. وأنا إذ أتفق معه فيما يتعلق بزمن ولادته

أختلف معه في قوله : «إن الآراء مجمعة على أن أبا عبيد البكري توفي سنة 487 هـ...». فالضبي صاحب الملتمس يقول غير ذلك. ويؤكده نص ابن خاقان الذي أشار إليه مؤنس دون أن يستخدمه استخداما كاملا.. فالمعروف أن ابن خاقان من مواليد عام 480 هـ، فلو فرضنا أنه التقى بالبكري حين كان عمره عشر سنوات، لكانت السنة التي رآه فيها هي سنة 490 هـ وسن البكري حينذاك ثمانون سنة. وهذا يخالف ما ذهب إليه أغلب الباحثين بأن البكري قد توفي عام 487 هـ، ومعتمدهم في ذلك ابن بشكوال وابن الأبار. والذي أرجحه ما تفرد بذكره الضبي في بغية الملتمس أن البكري قد توفي عام 496 هـ. وإذا سلمنا بذلك يمكن القول أن ولادته كانت سنة 410 هـ على وجه التقريب.

الملاحظة الثانية :

يقول الدكتور محمود مكي في كلامه عن تلاميذ أبي حيان في مقدمة كتاب المقتبس : «يبدو أن البكري لازم ابن حيان خلال إقامته في قرطبة، بل لعل شيخه أبا مروان هو الذي وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافيا الذي كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ».

وأرى أن هذا حماس لا مبرر له.. فالمعروف أن ابن حيان ليس جغرافيا كما سيأتي في الملاحظة الثالثة ـ وأن البكري قد استفاد في مجال الجغرافيا من أبي العباس أحمد بن عمر العذري الذي التقى به في ألمرية وأجاز له، وفي ألمرية ربما استفاد من جغرافي معاصر آخر هو أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض (379 ـ 459 هـ) الذي ذكر عبد الواحد المراكشي أن له كتابا يدخل في باب المسالك والممالك.

والصلة بين العذري والبكري واضحة في النصوص التي رواها البكري عن العذري في كتاب المسالك، وفي المنهج العام لكتابيهما، كما يظهر في الأسلوب الذي لم يتأثر إطلاقا بأسلوب ابن حيان.

ومن هنا لا نريد أن يدفعنا الحماس لشخصية علمية ما بأن ننسب إليها ما ليس لها كما فعل الأستاذ الدكتور مكي في دراسته القيمة عن ابن حيان.

الملاحظة الثالثة :

يقول الدكتور حسين مؤنس في كتاب (تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس) : «إن من العسير أن نفصل بين المؤرخ والجغرافي والأديب في تاريخ الفكر الإسلامي. ولو تناولنا كتابا أدبيا صرفا كالبيان والتبيين للجاحظ ودرسناه دراسة تدقيق لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ما يضع أبا عثمان بن بحر في صفوف المؤرخين والجغرافيين».

..هذه قضية روجها من قبل المستعرب الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي)، وزادها الدكتور بسطة في الشكل والتأكيد، حتى وضع ابن حيان في عداد الجغرافيين لأنه تكلم في ثنايا تاريخه عن جسر قرطبة ومساجدها ودورها وحماماتها، فحمل ذلك الدكتور مكي على الظن بأن ابن حيان هو الذي وجه البكري إلى الاشتغال بعلم الجغرافيا.

وهذه القضية توجب علينا التوقف والتأني قبل إصدار هذا الحكم، فنحن لا نستطيع أن نقيم أية علاقة بين الجغرافيا وأي علم آخر عند

الاصطخري وابن حوقل والمقدسي والإدريسي وابن سعيد المغربي وأبي الفداء صاحب حماة وغيرهم، فميدان علم البلدان واضح ومميز منذ القرن الثالث الهجري.

وإذا ما وجدنا كتابا يحتوي على معلومات جغرافية وتاريخية مثل كتاب الممالك والمسالك للبكري، فينبغي أن يكون حكمنا في هذا هو بناء الكتاب، فالمعلومات التاريخية في كتاب البكري تأتي عرضا، وإذا ما انتزعنا تلك المعلومات يظل بناء الكتاب متكاملا غير مختل.. وينصرف هذا الحكم أيضا على كتاب (نظام المرجان) للعذري.

هذه مجرد ملاحظات عابرة من وحي هذا اللقاء المثمر حول تاريخ الأندلس وحياة وآثار أبي مروان ابن حيان راجيا أن تنال هذه الملاحظات عناية المهتمين بتاريخ الأندلس وآثاره الأدبية والفكرية.

د. عبد الله الغنيم

محاكم التفتيش الإسبانية
وسراديب الموت فيها

د. عبدالرحمن علي الحجي
جامعة الامارات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

أيها الحفل الكريم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لأسباب منها تأخر الحضور إلى المؤتمر لم يتسع الوقت لترتيب المادة العلمية المجموعة لدي حول هذا البحث كما يجب أو أرغب وإن كان اهتمامي ومتابعتي به رغم بطئها ليست جديدة على موضوعي وقد نشرت عنه بحثا مصغرا قبل شهر(☆)، فمنذ وفق الله في إنجاز طبع كتاب (التاريخ الأندلسي

☆) مجلة منار الإسلام التي تصدر في أبوظبي العدد الأول من السنة السابعة (محرم 1402).

من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 1492 م جرى الاهتمام بموضوع الأندلس بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش وبقايا الوجود الإسلامي في الأندلس ومستقبله.

ولعل البحث الحالي من بواكير هذا الاهتمام المكتوبة، وجرى الانتفاع بكتب ومصادر متعددة قديمها وحديثها، وأتقدم بالشكر لكل من جهد نفسه بصدق وموضوعية للكتابة فيه وفي غيره من المسلمين عربا وغير عرب، ومن الباحثين الغربيين لاسيا الاسبان فكل جهد في ذلك مفيد، كما أشكر القائمين على المؤتمر وكل من شارك فيه والمرجو أن يتكرر اللقاء من أجله في هذا البلد الكريم كل بضع سنين. وهذا الأسلوب وأمثاله أمل قديم، ولي حول هذا الأمر مقترحات لعلي أقدمها فيما بعد.

من مآثر هذه المؤتمرات اللقاءات الودية والعلمية، وهي مهاز لنتاجات جيدة والمضي فيها وتفتح أبوابا لاستمرارها وتعيين مواقع وتعريف بالمخطوط والمطبوع الجديد والحث على خدمتها، فهو جو مترع كريم بقدر ما يعد له ويتوفر فيه من عوامل الخير في هذا السبيل.

وما أكثر ما تسهم هذه المؤتمرات في كل ذلك وتحق الحق وتنصف أهله وتسعى لتسديد النظر واستخلاص العبر.

وقيمة كل علم بقدر نفعه وإسهامه في البناء الإنساني والعمراني وما يوفر من عطاء وينتصر لحق «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»، ولذلك فإن للعلم والعلماء ـ بشروط ومواصفات ـ عندنا في حضارتنا الإسلامية، وهي وحدها كذلك لمنهجها الرباني، مكانة فذة.

كان هذا المغرب من الجناح الغربي للعالم الإسلامي منطلقا لفتح الأندلس وما تلاها للدعوة الإسلامية ومدها الكريم الذي بارك المغرب وجناحه وكل أرض ظللها، ثم كان المغرب عونا على الدوام ثم موئلا لأهل الأندلس ولدراسته وحضارته ولعله يكون إن شاء الله في وقت يأذن الله به معوانا على الانطلاق الثاني والفتح القادم الكريم الجديد ونبعا مستمرا في حمل أمانة الإسلام، فإن وعد الله أن يعم هذا الدين الأرض والأقوام كافة وأن الرسول الكريم ﷺ بشر بفتح عاصمة الأمبراطورية الغربية بعد أن تم فتح عاصمتها الشرقية على يد الخلافة العثمانية المجاهدة سنة 857 هـ (1453 م).

وحين ندرس تاريخنا الإسلامي يكون ذلك استعراضا لتاريخ الأمة الإسلامية، خلال القرون المختلفة، والأندلسي جزء منه مطبوع فيه أحوالها ونتاجها بما فيه من أوقات الهبوط، اقترنت تطابقا بيانيا مع مقدار الالتزام بالإسلام أو الانحراف عنه، وان تعامل الآخرين جماعات وأفرادا معها على هذا الأساس.

ولا ندرس هذا التاريخ على أساس أنه انتهى بل ليكون مستمرا على الأساس ذاته، وحتى يكون تاريخ الأمة والبلاد تاريخ بعيد عن التناول القومي والوطني. فما عرف الإسلام ولا تاريخه هذه الأطر الضيقة غير المتجاوبة مع تياره وأفكار أهله وعقيدته الإسلامية وشريعته الربانية.

وإن كافة التحركات في البلاد الإسلامية ـ الأصيلة والدخيلة ـ كانت في القرن الحالي على هذا الأساس أو ذاك، فالأصيلة نبعت وقامت على

أساسها الإسلامي، وإن أخطأ بعضها في الفهم والأسلوب، والدخيلة ـ محلية أو خارجية ـ هي التي قامت بعيدة عن هذه الأصالة أو ناوأتها واستمدت أهدافها من ذلك. وان أكثر، إن لم يكن كل، هذه الأحداث قامت بهذا السبب، فكل توجه دخيل بالأحداث والتاريخ لما هو صرف بالأمة الإسلامية وتاريخ الإسلام عن نهرها جاريا متفجرا أو هاديا متبعثرا، والفهم الأصيل لابد أن يحمل الأدوات الصالحة. ويأتي موضوع محاكم التفتيش في الأندلس مهما إذا جرى تناوله بأسلوب قوي مترابط أصيل متفتح.

بعد سقوط غرناطة في 2 ربيع الأول 897 هـ. (2 يناير ـ كانون الثاني 1492 م) إثر توقيع معاهدة الضمان والأمان المزعومة للمسلمين فيها أو الاستسلام ثم الانتقام، التي تقع في نحو ستين بندا على اختلاف[1] ـ جرى تسليم آخر ملوكها أبو عبد الله الصغير مفاتيحها بعد التوقيع بعد مآل الحال التي وصلت إليه الأندلس نتيجة أحداث فأضاعها أبو عبد الله ثلاث مرات تقود أحدها إلى الأخرى حلقات متصلة.

1) يوم تنازل فتعهد من أجل فك نفسه من الأسر.

2) يوم أقام الصراع ضد أبيه وعمه.

3) يوم وقع صك الاستسلام وسلمها إلى الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا.

---

1) نهاية الأندلس، عنان، 244، التنصير القسري للمسلمين، حتاملة، 19، التاريخ الأندلسي، 553.

ولم تكن تنوي سلطات اسبانيا النصرانية أن تفي بأي شيء بل كان ذلك سترا يحجب ما تفور به النفس من الرغبة في الانتقام، وتلك كانت عادة هذه السلطات وللأسف طول الزمن. فلم تنفذ من المعاهدة إلا كل نقيض، سمة المعاملة الدارجة من السلطات الاسبانية وكنيستها ومن عاونها تجاه المسلمين على عكس ما كانوا هم يحظون به من معاملة كريمة غدت من الصعوبة بمكان لأي أحد فضلا عن الباحثين انكار حسن معاملة المسلمين لغيرهم في اسبانيا بالذات وفي الظروف كلها ولو جرى هذا من قبل الباحثين لاسيا الاسبان فسيكون امتدادا وتوازيا للاضطهاد الذي لقيه المسلمون على أيدي غالبيهم بعد ذهاب دولتهم، ولكن في الاسبان والباحثين الغربيين عدد لا بأس به ممن بين كثيرا من الحقائق المدينة لأفاعيل تلك السلطات(2).

ولو طبق جزء يسير من تلك المعاهدة أو حتى لم يطبق منها شيء لوجدنا للإسلام وجود واضح في اسبانيا لأن الإسلام يقوم بذاتيته الإلهية وطبيعته الربانية ونظرته الغنية الكريمة، فلا يزول بل ويتسع لأنه هو القوي ولا شيء يقف أمامه وهذا ينسجم مع دين الله تعالى أنزله خالق الكون والإنسان ومما جعل الآخرين لافلاسهم تجاهه لا يملكون غير الاضطهاد لأهله.

بدأ نقض البنود والعهود واحدا واحدا جزءا أو كلا وذهبوا إلى أبعد من ذلك شيئا فشيئا حتى وصل الأمر إلى الموت بأبشع الطرق بالحرق أو

2) الفن الإسلامي في اسبانيا، مورينو، 262، نهاية الأندلس، 350.

الموت البطيء لكل من يثبت عليه أي التزام بالإسلام أو ما يفصح أنه ما يزال يواليه، وخلال تلك القرون السوداء - التي زادت عن الثلاثة من عمر محاكم التفتيش في اسبانيا - حتى على اسبانيا النصرانية التي تلت سقوط غرناطة والتي ما زالت آثارها السيئة تنال من اسبانيا وشبه الجزيرة الإيبرية عموما، وشملت اليهود وغيرهم وقتا ما، تلك القرون الثلاثة التي دارت باسبانيا محاكم تفتيشها إلى الوراء بل إلى الهاوية، تلك المحاكم التي تسلطت على المسلمين في الأندلس حتى كان آخرها بداية القرن التاسع عشر. فقد استهلكت هذه المحاكم كل طاقة اسبانيا النصرانية وشغلتها وضللتها وأضلت بها، وكان هذا الانشغال الواسع في المكان والزمان وترويع الإنسان دليلا على قوة تمسك مسلمة الأندلس بدينهم وكثرة عددهم[3] فلم يفرغ منهم إلا بعد ما يزيد على ثلاثة قرون وإن كانت اسبانيا خاصة بقيت تحكم بروح محاكم التفتيش بعد ذلك بكل ما يتعلق بالإسلام، ولو بعدما اطمأنت كنيستها إلى زوال أي أثر أو مؤثر لهم ولكن روح هذه المحاكم الكنسية والرسمية ما زالت ترتع وتئن تحتها فطرة الإنسان في اسبانيا وإن تفاوت وتفلت منها إلى حد غير قليل.

وهذه القرون الثلاثة مليئة بالأحاديث العجيبة في كيفية هبوط الإنسان وإيغاله في الوحشية إذا تلوثت فطرته أو فسدت نتيجة بعده عن هداية الله تعالى الإسلام الذي يؤمن تابعه بالأديان السابقة وتولى رعاية

---

3) نهاية الأندلس، 411 وبعدها.

موكب النبوات ليكون آخرهم ووارثهم محمد بن عبد الله ﷺ وعليهم أجمعين ليكون هداية لأهل الأرض كافة، وكل أهل الكتاب لاسيا النصارى أولى من غيرهم بالإيمان به وقد استجاب لهذا الكثير منهم واسبانيا الإسلامية مثال بينا عاداه آخرون، وسلطات اسبانيا النصرانية وكنيستها في الغرب مثال وفي الغرب لاسيا أوربا وفي اسبانيا النصرانية كبره. وإنه ليعلل البعض أن سبب زيادة حنق الكنيسة في الغرب وأوربا بالذات بداية نهضتها العلمية على العلم والعلماء وما ارتكبته بحقهم وموقفها منهم هو إسقاط لموقفها من الإسلام عليهم باعتبار تلك العلوم إسلامية ومنقولة من الحضارة الإسلامية خلال المعابر المعروفة وأكبرها الأندلس التي ماجت بالعلم وحفظت معالم هذا الدين وحملت نتاجه ومواقفه وجهاده فكانت موطن حضارة وميدان جهاد رغم كل ما مر بها من تلكآت وتنكرات وارتباطات وارتكابات داخلية وخارجية.

وإذا كان بعض المنصفين من الباحثين الغربيين قد جرموا شارل مارتل (المطرقة) في بلاط الشهداء 114 هـ (732 م) فلعله تتاح الفرصة في يوم يأتي أو قد بدأ لتجرم وتدين خمينس والملكين الكاثوليكين وسلطات اسبانيا الكنسية والرسمية التي تبنت محاكم التفتيش وكل الأسماء التي خدمت هذه الموجة الظالمة لقيادتها، ويدين الاسبان أنفسهم ما قام به هؤلاء وقد بدأ هذا الأمر وأخذ يزداد ولابد من بيان ذلك من قبلهم كي تتحطم أوثانهم في النفوس والحياة.

حادثة نادرة

بضع سنوات مرت يوم اصطدمت سيارة بحائط لدار قديمة في قرية (خراكوا) قرب مدينة بلنسية الأندلسية المسلمة على الشاطئ الشرقي للأندلس

المطل على البحر المتوسط، وتهدم الحائط الذي حمت أحجاره وآوت لقرون مخطوطات إسلامية ثمينة، أمينة عليها، فكانت كشفا علميا كبيرا.

ويبدو من معلومات متعددة واستنتاجات أن هذه الحادثة لم تكن فريدة فقد آوت مباني دور المسلمين في الأندلس في هذه القرون الثلاثة العجاف في أي مكان منها أرضها سقفها حيطانها أعمدتها الكثيرة من مثل هذه الذخائر التي حفظت جزءا من علوم المسلمين حتى يصل إلينا بعد أن رأى ما أصاب ذلك من التحريف والتمزيق والتحريق أكبرها ما جرى احراقه من القرائح والأفكار والنتاج والجهد الخير وعصارات البصائر المخلصة المضيئة، في رحبة باب الرملة في غرناطة سنة 904 هـ (1499 م)[4]. جرى كل ذلك في ميدان باب الرملة ورحبتها في غرناطة بعيد سقوطها تحت مرأى والأمر القاصم من سلطات اسبانية الرسمية والكنسية برعاية مطرانها خمينس حتى لقد قيل إن ما أحرق في ذلك اليوم الذي سموه من أعمال الإيمان في حفل جرى له الاستعداد قد يتجاوز تقديره أو يعانق المليون مخطوط.

وتفسير هذه الظاهرة النادرة، ظاهرة اخفاء الكتب في الدور، إنه حين بدأت سلطات اسبانيا النصرانية الصليبية تتعقب المسلمين بعد ذهاب سلطانهم وسقوط دولتهم آخر حصونهم غرناطة سنة 897 هـ (1492 م) فزال وجودهم السياسي يوم ذاك، دأبت تحارب كل ما له علاقة بالإسلام

4) نهاية الأندلس، 316، 504.

والمسلمين لتقهرهم بفنون العقوبات التي تنتهي بالإبادة والموت لهم ولوجودهم الإسلامي. وقننت ذلك بمحاكم التفتيش الاسبانية الصليبية المتوحشة التي اعتادت انزال عقوباتها على أي أحد من المسلمين حالما إشارة إليه أو منه أنه مسلم أو له بالإسلام صلة، حتى ولو كانت كتبا يقتنيها، فرأى أهل هذه الدار أن يبنوا ما لديهم من كتب داخل حائط دارهم فذلك أوفر طريقة لحمايتها وحمايتهم، وبقيت قرونا حتى كانت حادثة السيارة والبيت القديم لتكشف هذا الكنز الثين، ورب ضارة نافعة.

قيام محاكم التفتيش وقراراتها

من الممكن تقدير عدد المسلمين في الأندلس لدى سقوط غرناطة بما لا يقل عن ستة ملايين نفس وإلى ثمانية، بما فيهم المسلمون المدجنون الذين سكنوا المدن الإسلامية التي سقطت قبل غرناطة، ولعل هذا غير الجزائر الشرقية (البليار) : ميورقة ومنورقة واليابسة.

ورغم ما أصاب المدجنين من ارهاق وعنت وأحكام وصل منها حد الموت وألوان الاضطهاد والكبث والتنصير بالقوة وهدم المساجد أو تحويلها إلى كنائس إلا أنه لم تصل على الدوام إلى ما وصلت إليه في القرون التالية، وفي صور مخففة في بعض المناطق كان لأسباب منها أن هؤلاء المسلمين المدجنين قوام الحياة في اسبانيا، وفي طليطلة مثلا ـ إذ كانت السلطة الاسبانية ظهرت أحيانا بهذا المظهر، وفي أوقات لتلك الظروف ـ بجانب وجود سلطان اسلامي للمسلمين في غرناطة يخشونه وهذا مما جعل خطر

النصارى نحو المسلمين يتمتع بشيء من طبيعته وأنه يعني أن الذي أثار الحقد وزاده هي السلطات الكنسية والرسمية.

ويوم سقطت غرناطة كان عدد سكانها نحوا من أربعة ملايين، والغريب أنه لم يبق الآن مسلم في اسبانيا ذلك أن معاهدة استلام غرناطة نقضت بسرعة وطورد المسلمون وكل ما يتعلق بهم من حرق للكتب وللإنسان وتهديم للمساجد والقصور أو تحويلها إلى كنائس حتى في قرطبة التي سقطت سنة 636 هـ التي بلغ عدد مساجدها في القرن الرابع الهجري مثلا نحو 1600 مسجد أو ضعفه[5].

ومنذ السقوط الأخير 897 هـ بذهاب سلطان المسلمين في الأندلس بدأت النية المبيتة بنقض كل شيء وارتكاب أي شيء رغم أن معاهدة التسليم موقعة عليها من الأعيان والرهبان والملكين الكاثوليكيين وابنهما ومؤكد ذلك بقسم بدينهم أن يلتزموا بها وإلى الأبد وصدق البابا على ذلك، فما هي إلا مديدة حتى ظهر الكتوم وشيكا.

ففي السنة التالية كان طرد وترحيل أبو عبد الله الصغير إلى المغرب وسكن فاس[6]، وصبت الحرب على كل ماله ومن له علاقة بالإسلام والمسلمين، وكان أشدها وأبشعها على المسلم نفسه بقصد الافناء لكل ذلك.

---

5) قرطبة حاضرة الخلافة، سالم، 1 / 182.

6) ولد نحو 867 هـ (1462 م)، بيعت أملاكه في 898 هـ (15 /4 / 1493 م) ورحل إلى المغرب في أكتوبر تشرين الأول منها.

وقد تكلم في هذا عدد من الباحثين الغربيين[7] والاسبان كذلك[8]. ومن لم يصدق ستأتيه الأدلة القوية والنصوص المهمة كما جرى في قضية السيد القمبيطور[9] بعد أن عثر على نص ابن علقمة المؤرخ البلنسي الذي شاهد أحداثها وربما شارك فيها.

وإذا توفرت بعض الدراسات الحديثة في هذا الموضوع فإن ما لم ينشر من مصادره المخطوطة غير قليل. ومكتبات المغرب والمغرب الكبير مستودع للمخطوطات الأندلسية الباقية الناجية. ولعل ما نجا من الكتب أكثر مما نجا من الإنسان أو العكس. ومثلما احتوى المغرب هذه المخطوطات والمحفوظات المهاجرة احتوى المسلمين المهاجرين إليه والعلماء الذين كتبوا فيه مؤلفات عن الأندلس وتاريخه أو نقلوها معهم، وبالإمكان وضع قائمة تضم المصادر الأولية لهذا الموضوع مطبوعها ومخطوطها ونقولات من المفقود منها ونصوص ووثائق فيها وفي بعض المراجع الاسبانية بجانب بعض الدراسات الحديثة.

استمر هؤلاء المسلمون في الأندلس يحتملون ويواجهون اجراءات التنصير القهري وواجهوا الموت من أجل ذلك وتقبلوه بل وأصروا على عقيدتهم وهم يساقون إليه واحتملوا الموت بمجازره تعذيبا والقاءا من مرتفع وحرقا وقتلا سريعا أو بطيئا أو دفنا أحياء فرديا وجماعيا رجالا ونساء بقوة وإصرار

---

7) قصة العرب في اسبانيا، لين بول.

8) الفن الإسلامي في اسبانيا، مورينو 251، 262.

9) التاريخ الأندلسي، 379.

طيلة ثلاثة قرون عمر محاكم التفتيش المليء بالنوادر وحتى بعد ذلك وكم ثاروا وقاتلوا وجاعوا وضحوا وكم احتملوا خلال ذلك الاجبار على ما يخالف دينهم[10]. ففي مدينة آبلة تم حرق 113 مسلم في ثلاث سنوات أو أقل (1499 م ـ 1502 م)[11] وفي طليطلة أعدم بالموت حرقا 1200 شخص في جلسة واحدة[12].

وكل ذلك كان يبارك من كل أهل الصلاحيات حتى بابوية روما. وهذا لم يجر في غرناطة وحدها بل في كل مدن الأندلس، أما المظالم الاجتماعية والحرمان من ممارسة العقيدة والحريات العادية العامة فتلك أوليات.

تأسست محاكم التفتيش الاسبانية قبل سقوط غرناطة في المدن الأخرى ولكن بسقوط غرناطة بدأت عملية التنصير فجندوا أفواجا من الرهبان والراهبات ظنا منهم أن ذلك يتم بسرعة فخابوا وبدأ العنف لكن صلابة المسلمين أدهشتهم.

فمنذ السقوط بدأت عمليات الاضطهاد والتعصب وهاجر الكثير إلى المغرب واستمرت الحرب حتى بدأت عمليات التنصير العلني الإجباري سنة 904 هـ (1499 م)[13] وفيها تم إحراق الكتب في ميدان باب الرملة وأجبر

---

10) التنصير القسري، 55.

11) التنصير القسري، 67.

12) التنصير القسري، 68.

13) نهاية الأندلس، 304.

الناس على تسليم ما عندهم منها إلى السلطات في سائر مدن غرناطة بعد ذلك في سنة 1511[14]، فتلا حرق الكتب الذي تم في عام 904 هـ قيام ثورة البيازين[15] أحد أحياء غرناطة نتيجة للاضطهاد والتنصير القهري، فصدر قرار بعد ذلك بتعميد أبناء المسلمين قسرا في كافة غرناطة، ومثل هذا أو قريب منه حدث في البرتغال[16]. ولأجل انقاذ غرناطة من الكفر في زعمهم أصدرت السلطات الاسبانية الكنسية والرسمية سنة 1501 م أمرا بمنع تواجد المسلمين في غرناطة[17] ومنع المسلم من ممارسة عقيدته ولغته، وحاول المسلمون الاستعانة بسلطان مصر وأرسلوا لذلك سفارة فكانت ثورة البشرات في نفس العام 1501[18]. وكان المسلمون حين أجبروا على النصرانية لجأوا إلى التظاهر بها وابطان الإسلام وهؤلاء هم الموريسكيون حفاظا على دينهم، فكم احتملوا وقاتلوا وطلبوا العون من جهات متعددة، وفي سنة 1518 صدر للمرة الثانية أمر بتغيير الملابس.

وصدر في السنة التالية أمر بالرحيل أو التنصر.

واستمر هذا الجو يزداد حدة وتكثر فيه القرارات حتى صدر سنة 1524 م قرار تأكيد باجبار كل مسلم أن يختار بين التنصر أو الرحيل ومن

---

14) نهاية الأندلس، 318.

15) التنصير القسري، 66، 75.

16) محاكم التفتيش، علي مظهر، 56.

17) نهاية الأندلس، 324.

18) التنصير القسري، 81.

لم ينفذ ذلك فصيره الاسترقاق مدى الحياة وتم به تحويل جميع المساجد إلى كنائس وحرم التخاطب والتكاتب باللغة العربية واستعمال أي شيء من العادات الإسلامية وتجريد المسلمين من كل شيء[19].

وفي سنة 1525 م صدر قرار بمنع المسلمين من أمور ويجبرهم على ملابس معينة، وفي آخرها فرض التعميد وأمر أهل بلنسية المسلمون بالخروج، وفي سنة 1529 فرض على سائرهم الخروج، وفي سنة 1565 م حرم الكلام بالعربية وحرم غيرها. وتجدد هذا وغيره في سنة 1566 م فكان لديهم اللغة المسماة ب الخميادو (Al Jamiodo). وهي استعمال القشتالية وكتابتها بالحرف العربي، ولكن لم يمر بي ما إذا وجدت كتابة العربية بحرف قشتالي مقابل ذلك. وعلى اثر ذلك قامت ثورات متعددة منها في سنة 1569 م واستمر الأمر بين ثورة وقرار للطرد والموت والحرمان ومنع وقمع كل شيء وجرت هجرات إلى بلدان المغرب والجزائر وتونس ومصر والشام والقسطنطينية وربما العراق وأرسلت خلال ذلك إلى مناطق متعددة استنجادات ووصلت نجدات من جهات ومنهم الأخوان بربروس : عروج وخير الدين واستشهد الأول في الأحداث سنة (1517 م) واستمر خير الدين يعاون الأندلسيين حتى أصدر الملك فيليب الثالث قرار الطرد الأخير سنة 1018 هـ (1609 م) الرحيل إلى المغرب أو إلى أي مكان وإلا فالموت[20]. فرحل منهم مئات الألوف ومات مثلهم، واستمرت المطاردة وأحكام محاكم

19) نهاية الأندلس، 357.

20) نهاية الأندلس، 397 ـ 8.

التفتيش تفني العباد وتدمر البلاد «تهلك الحرث والنسل». وحينما ضبط مسجد صغير في قرطاجنة الأندلس سنة 1769 م[21] جرت عليه وعلى أهله العقوبة، فالمسجد دوما دليل الحياة وقلبها النابض بالحركة. واستمر هذا الأمر كذلك وكان من آخرها ما جرى في بداية القرن التاسع عشر الميلادي ذلك أنه بعد صدور مرسوم نابليون سنة 1223 هـ (1808 م) بالغاء محاكم التفتيش الاسبانية فلم يعمل به وقام أحد ضباط الحملة الفرنسية التي احتلت مدريد قام في السنة التالية بمتابعة هذا الأمر وتحريه فلم يحصل على شيء ثم عرفوا ديرا قرب مدريد ما يزال يمارس أعمال محاكم التفتيش فاحتلوه وفتشوه ولما شك في الأمر ولم يصدق ادعاء الرهبان بالتخلي عن ذلك ومقته من قبلهم وكانوا يقفون في غرفة عند مدخل الدير أمر برفع السجاد منها وصب الماء وتبينت باب أرضية كأنها قطعة من أرض الغرفة تفتح بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس فكسروها ودخلوها بسلم يؤدي إلى باطن الأرض فكانت دهاليز مظلمة فأخذوا شمعة كبيرة وهبطوا إلى داخل تلك المدرجات فوجدوا هناك مجالس محاكم التفتيش واطلعوا على أدوات التعذيب وغرف صغيرة في حجم الإنسان بعضها عمودي وبعضها أفقي يسع الأول انسانا واقفا حتى يقضي عليه والآخر ممددا حتى يموت وتبقى الجثة في السجن حتى تبلى ويسقط اللحم عن العظم وفتحت منها كوة صغيرة لتصريف الرائحة، فدخلوا تلك الغرف ووجدوا عدة هياكل بشرية لا تزال في أغلالها وكان السجناء نساء ورجالا

21) نهاية الأندلس، 409.

أعمارهم بين 14 ـ 70 وقد أمكن انفكاك بعض السجناء الأحياء وهم في آخر رمق وكان بعضهم قد أصيب بالجنون من الخوف والتعذيب وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية، ثم ستر الضابط النساء منهم وأخذوا إلى النور تدريجيا فأخذ هؤلاء يبكون فرحا بانقاذهم ويقبلون أيدي الجنود، واطلعوا على آلات التعذيب في غرف خاصة بها منها آلات تكسير العظام وسحق الجسم ابتداء من عظام الرجل فالرأس واليدين بالتدريج حتى تأتي الآلة على كل الجسد ليخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة وعثروا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماما توضع فيه الرأس المعذبة بعد ربط الأيدي والأرجل ويقطر على رأسه من ثقب في أعلاه ماء بارد بانتظام وقد جن من جراء ذلك الكثير ويبقى المعذب حتى الموت وعثروا على آلة يسمونها السيدة الجميلة وهي تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها وبرزت من جوانب التابوت عدة سكاكين حادة وكانوا يطرحون الشاب ـ ولعلها للشباب خاصة ـ فوق هذه الصورة ويطبقون عليه بسكاكينه حتى يتقطع ويموت ببطء وعثروا على عدة آلات لسل اللسان وتمزيق أثداي النساء وآلات جلد بعد تعرية حتى يتناثر اللحم من العظم، وفرح الناس الذين حضروا هذه المشاهد مع الجند لذلك فرحا شديدا مما يدل على أنهم هم أنفسهم كانوا تحت وطأتها فكان عندهم يوما شبيها باقتحام الباستيل الفرنسي[22]. لكن هذه المحاكم عادت مرة أخرى سنة 1229 هـ (1814 م) باسبانيا كصحوة الموت كي يموت إلى الأبد إن شاء الله،

---

22) محاكم التفتيش، 130 ـ 137.

ولكن للأسف فإن مثل هذه الأفعال مازالت تمارس حتى اليوم في مواطن كثيرة بل وفي بعض بلدان العالم الإسلامي بأشكال متعددة وتحت شعارات مدعاة للطغيان.

ولكن إذا كانت هذه المحاكم قد انتهت في اسبانيا بالشكل هذا فقد استمر الاضطهاد والحجب والتشويه للإسلام وإيغار الصدور والتحريض عليهم بالكذب بشكل أو آخر بعد أن لم يكد يبقى مسلم في اسبانيا غير الولاء والعاطفة فنتيجة لذلك بعد هذه القرون السوداء العجفاء نشأ ناس بمرور الزمن مسلمين حجبوا عن معرفة الإسلام فنسوه مع تتابع الأيام وصار الارتباط به ولاء وعاطفة وبعض المظاهر الغامضة كعادات يمارسونها فمثلا وجد في مدينة طليطلة التي سقطت سنة 478 هـ (1085 م) أن الأهالي فيها لا يزالون يذبحون الأكباش حتى سنة 1329 م[23] وبقي فيها مسلمون قلوبهم مطمئنة بالإيمان إلى ما بعد سنة ألف للهجرة[24] وحتى قبل نصف قرن ان أحد المغاربة وقع في هذه الأيام الأخيرة ببعض قرى طليطلة فوجدهم يذبحون الأكباش يوم عيد الأضحى المبارك (النحر) ويقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم[25].

غير أنه قبل ما يزيد على عشر سنين حين صدر قرار في اسبانيا يبيح ممارسة المذاهب النصرانية الأخرى أعلنت ستمائة أسرة اسبانية أنها ما تزال

---

23) الحلل السندسية، شكيب أرسلان، 1 / 400 ـ 1.

24) الحلل، 1 / 437، 465.

25) الحلل، 3 / 398.

مسلمة حسب ما ذكر لي أحد الأساتذة في خبر قرأه في صحيفة أمريكية وقتها.

إن مسألة الأندلس أو مأساتها هي مأساة الإنسانية وقلما يوجد في التاريخ لها مثيل وفي مثل نوعيتها وأسبابها وهدفها وتاريخها وبمثل هذه الصورة والمدة والأساليب والكثرة، وإن كان ما زال المسلمون في العالم وفي تاريخهم يعانون ما يقترب من هذا أو يشابهه «فصبر جميل والله المستعان».

فيمكن الاستنتاج ـ على اعتبار تقدير العدد الكلي للمسلمين في الأندلس لدى سقوط غرناطة من ستة ملايين إلى ثمانية، من ذلك أن عدد المسلمين الأندلسيين الذين هجروا من ثلاثة ملايين إلى أربعة ومن قبروا من مليونين إلى ثلاثة والباقون ذهب وتشرد (ولله الأمر من قبل ومن بعد).

ولكن رغم كل تلك الظروف التي يعجب الإنسان المطلع عليها كيف أمكن أن ينجو في اسبانيا شيء له بالإسلام صلة حتى جثث الموتى الذين قضي عليهم بالموت جماعات أو ربما دفنوا أحياء غيبت آثارها وكشف عنها حديثا. فهل نعجب من هالك كيف هلك أم من ناج كيف نجا. ويأبى الله إلا أن يكشف ما خبأته دخيلة الأرض والحيطان وما عميت عنه الأخبار وما أراد الباطل طمسه أو القضاء عليه من الحق والخير والدعوة الكريمة.

لكن آثار الإسلام في اسبانيا اختلطت بكل ما فيها وحملت في أرحام حافظت على كثير منها وصارت في دماء اختلطت بها لابد أن يظهر نبضها حيا ملموسا، وقد بدأ بأكثر من أسلوب منذ نهاية القرن الماضي وبدايات

الحالي سواء عن طريق الاهتام بالمباني أو بالمعاني في دفائن العلم ورهائنه أو في سلسبيل يتنقل خفيا وراء بشرة الإنسان فيها الذي بدأ يظهر جليا.

فمثلما لم تمح الآثار من الناس والمدن ستبقى جذورها مثلما تبقى ثمارها تنمو وتحبو، فالأندلس محفور اسلامها مثل غيره وشبيهه غائر فيه مهما بدت آثاره بالية وصورته غائبة، فالإسلام المحفورة آثاره في اسبانيا كانت حقائقه والارتباط به باقيا وثابتا في أي موقع ولو في أصلابها، اتصلت أو انقطعت ولو بخيط رفيع لكنه قوي بقيت الآثار المتنوعة بإرادة الله ومن الاسبان أنفسهم وكم جرت محاولات لتشويه حتى المباني لكن المسحة الإسلامية باقية وليس في الآثار فقط.

إن الذين تنصروا بعد سقوط غرناطة إن وجدوا فهم قلة، ولعل هؤلاء أو أكثرهم من الذين لم تتفاعل نفوسهم مع الإسلام أو بمرور الزمن نشأ جيل لا يعرف الإسلام في بداية الأمر ربما كانوا من الذين دخلوا الإسلام بغاية أخرى وان كل الذين كانوا بهذه الصيغة في بداية الأمر قد اظهروا التنصر ولعل هذا كان مما أغاض الكنيسة وأثارها أكثر وفي كل مرة كانت السلطات الاسبانية تدهش لما ترى من تمسك المسلمين بدينهم وتفاجأ بذلك بعد أن ظنت أنها قضت عليه، وكم ثورات قامت حتى بعد قرن أو يزيد وحروب في الدفاع عن العقيدة والاستشهاد من أجلها. ومن مجمل قضايا ذكرت في هذا البحث دليل على رسوخ هذه العقيدة في النفس. ولذلك في كل مرة كانت الكنيسة تصدر أمرا أشد وأقسى كما تبين، إن المسلم

مهما بعد إذا كانت بذرة الإيمان في نفسه قائمة فإن استنهاضه واستبقاءه في دائرة الدين أمر طبيعي.

ولكن بمرور الزمن أصبح جيل من المسلمين في اسبانيا بعد سقوط الأندلس ومرور السنين جهل الإسلام ولا يعرفون شيئا إلا أقل من القليل وغدوا اذا احسوا بالصلة فإنها عاطفة.

ويستخلص من تصانيف ما دون عن الأحداث أن كل الذين دخلوا النصرانية بعد سقوط الأندلس كانوا يخفون إسلامهم ويمارسون عبادتهم ومعتقداتهم سرا ويجتهدون في توريثه أولادهم حتى الذين تركوا العبادة خوف الموت من أدائها فقد بقوا على اسلامهم اقرارا لكن بمرور الزمن وأجياله تغير الأمر.

أما الذين تنصروا فعلا فلم يكن اسلامهم عميقا أو اسلموا ظاهرا لأسباب دنيوية.

وإن بعض الأوضاع في بلداننا اليوم من العالم الإسلامي أو التي فيها مسلمون تحاول اتباع نفس الأسلوب فإنه بجانب الاضطهاد ومنع بيان الإسلام بل وتشويهه وزرع اتجاهات أخرى فكرية وخلقية يعملون على تجاهل وتجهيل كل شيء اسلامي وكأنه غير موجود كل ذلك يجري بجانب عمليات التضليل الأخرى.

إن سقوط الأندلس لا يعني انتهاء الوجود الإسلامي فيها فإن كان ذلك رسم وقتها انتهاء وجود سياسي لهم فلا يعني بحال نهاية وجودهم

الإنساني وحتى الآن ولذلك كان هـذا أمل المسلمين نلمحـه في كتـابـاتهم حين يذكرونها ولو بعـد مـدد طويلـة كانوا يقولون : ردهـا اللـه للإسلام وهـذه الحقيقة ستتضح فإن الإسلام الـذي غرس الأرض ولو لفترة ثمـانيـة قرون لا تتحول إلى صحراء مادام للماء وجود وينابيعه في الأجواف تمور وتـدور لأن القوة مهما كانت إن نفعت مع أي أحـد أو شيء فليس مع الإسلام وان الخير مهما غـاض أو كبت فسـوف ينهض يـومـا من حيث لا يحتسب حتى أهلـه. تلك قضية أرادها الله وليس من خير إلا في الإسلام.

رحلة الحق ع القرون

الباطل دوما عاجز عن مواجهة الحق إذ لا يملـك غير البطش القـاتل والقهر المميت في كل العصور لاسيما حينما يتولى سلطة يجند نفسـه وأتبـاعـه ويستهلك طاقاته والإمكانيات لهذا الغرض لإبادة الحق وأهله ويضع لذلـك قوانين الجاهلية، يقف من ورائها مكشرا كالحا متعطشا لدماء المؤمنين باللـه والمجاهدين في سبيله وهكذا دائما المواجهـة بين الكفر والإيـمان في كل زمـان ومكان والإنسـان هو الإنسـان إذا غوى هـوى، ولا يرتقي إلا إذا هـدي إلى شرع الله ودعوته وطريقة الحق المستقيم.

وقصة أصحاب الأخدود التي ذكرها اللـه في القرآن الكريم على ذلـك خير شـاهـد وأبلغ دليل، ومثل ذلـك جرى خلال العصور كثيرا، ومنهـا مـا جرى في محاكم التفتيش الاسبانية الصليبيـة التي اقيمت للمسلمين في الأنـدلس لاسيما بعـد سقوط غرنـاطـة سنـة 897 هـ، واستمرت تلـك المحـاكم نحو ثلاثـة قرون، ثقيلة عجافا مهلكة، ما كان يخطر على بال أحد غيرهم أدنى صورها،

والتي اتبعت سياسة الحجر على كل ما هو اسلامي حتى للمسلمين أنفسهم أن يمارسوه أو يتنفسوه، والقهر لكل معنى وحتى شعائر العبادة مباشرتها، فضلا أن يغرسوها ثم الإبادة والإماتة بالدفن والحرق لكل ما له بذلك صلة، حرق النتاج الإسلامي في الكتب وحرق المسلم نفسه الذي يحمل معاني الإسلام ويتمثلها وينهض لها ويعمل من أجلها.

والاحتفال بهذا الأمر بوحشياته المتنوعة غدا عندهم مألوفا معروفا مناسبات يتسلى بها رجال الكنيسة وغيرهم وحولها يسمرون، إنه تاريخ أسود رهيب ومرعب. وتوفرت في ذلك قصص وبعضها كأنها خيال أو هي منه أغرب لولا أنها وقعت وتقع على الدوام حين تغيب معاني الخير وتسود الجاهليات في أي قوم ووقت وبلد.

مواقع محاكم التفتيش وأحوالها

ويبدو من متابعة موضوع محاكم التفتيش أن مقراتها على الأغلب كانت تقوم في الأديرة والكنائس وهذا منتظر لأن الذين يقومون بها سكانها ورعاتها، فمحاكم التفتيش ولدت في أحضان الكنيسة وفيها عرفت وترعرعت وأنبتت، وكان لهم جيش وكيان وكأنه دولة بل هو الدولة، والذي يرتكب هذه الفعال تنتظر منه كل ثمرات فساد الفطرة بالبعد عن العقيدة الحقة في كل أحواله فالهداية حق وصدق وكل لا يتجزأ، كما أنه عرفت أماكن أخرى لها وهي بعض المباني الإسلامية من الحصون كحصن شنتمنكش[26] والقصور

26) الآثار الأندلسية الباقية، عنان، 320.

الإسلامية كقصر الجعفرية في سرقسطة إذ اتخذته محاكم التفتيش لها مقرا مبكرا سنة 1485 م[27] وكذلك قصر الخلافة القرطبية القديم[28] وربما جعلت المساجد لذلك مكانا زيادة في النكاية والأذى والامتهان وإيغالا في الإيلام.

ولقد ذكر لي أحد الأساتذة الأفاضل وهو الصديق العزيز محمد بن تاويت التطواني نقلا عن الأستاذ الدكتور كاستيخون أن في قرطبة برجا ما يزال قائما كان يلقى منه بعض من حكمت عليهم محاكم التفتيش من المسلمين بالموت وقد أراه ذلك البرج في قرطبة حين زيارته لها.

ورجال الكنيسة والأديرة ونساؤها هم الذين قاموا بذلك وقادوا هذه الحملة وعمقوها وحملوا الناس على كره الإسلام وأهله وقمعهم، فأرهبوهم، وهم نشيطون في ذلك، بل حينما تكون هذه مهمتها تنشط وتتسلط وهم عامل الحقد والكراهية وحرب الإسلام وما تقوم عليه وله من أجله وحتى موضوع التبشير يتعلق بهذا الأمر فهم نشيطون فيه مع المسلمين وكأنه قام لأجلهم والحق أنه أحد فروع الصليبية وكما خسرت الحروب الصليبية في الشرق والغرب كذلك لجأت إلى أمور وأساليب أخرى كالتبشير والاستشراق ويظن البعض أنها ذات دوافع أخرى وذلك وهم وتوهيم كيف لا وهي ما زالت كذلك.

---

27) الآثار الأندلسية، 108، الفن الإسلامي، 262، الحلل، 2 / 118.

28) الآثار الأندلسية، 31.

ومحاكم التفتيش تعتبر تتويجا للحروب الصليبية التي كانت لقرون في الأندلس، أصاب رذاذها كل من ظن أنه يتعاطف أو يهتم بأمر المسلمين فيها ولعل هذا هو السبب في موقف هذه المحاكم من الرسام الاسباني المشهور جويا الذي تحفظت عليه الكنيسة بل إن هذه الروح هاجرت بشكل أو أكثر إلى مناطق أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية ولعل هذه الروح هي أكبر سبب لاضطهاد السود في أمريكا والذي أصل كثيرا منهم من مسلمي افريقيا وكتاب الجذور للكاتب الأمريكي ألكس هالي الذي تحول إلى مسلسلات وفيلم يفصح عن ذلك. ومن أسف أن المسلسل اقتطع الكثير مما يشير إلى ذلك بل إنه ربما من الصواب الاستنتاج بأن ملابس جمعية الكو ـ كلوس ـ كلان على مثال جنود محاكم التفتيش وربما فعالها.

إن هذا الكلام ليس هجوما على النصرانية دينا أنزله الله تعالى صافيا وهو بريء بصفائه ووحدانيته ونبوته البشرية من كل ذلك أي أن عيسى عليه السلام هو رسول بشر كانت ولادته معجزة اختاره الله ليكون نبيا وأنزل عليه كتابا، والمسلم عارف بهذا ومؤمن مستيقن به وهذه التي تولت محاكم التفتيش كان أولى بها حسن السلوك وأقرب إلى التصديق بدين الإسلام لو كانوا حقا نصارى.

وإن الذي تحمله المسلمون خلال تاريخ الأندلس وغيره وفي الوقت الحاضر في مناطق عديدة من الموت والإبادات من قبل قوى البغي فكرة وأسلوبا كما وكيفا وإمكانيات كان عجيبا وغريبا وقوى المسلمين في وجه ذلك دليل على رسوخ العقيدة في هذا الإنسان الذي اعتنقها.

وموضوع هذه المحاكم الوحشية جدير بدراسة مستقلة موسعة جامعة موثقة بعد اقتناء المعلومات الجديدة، تزيل حجب البصيرة وتكسر جذر الصمت الرهيب المطبق وسدى الظلم والظلمة المفروضة وتظهر مدافن ومكامن النسيان السحيقة وكلها تعرف بحقائق غريبة مثيرة ومريبة، تجعل العالم النصراني والكاثوليكي والاسباني قبل الإسلامي بحاجة إلى معرفتها ليرى أية خديعة كبرى لعبت به وعاش عليها قرونا أنزله لها رجال الكنيسة وقادوه إليها وإلى أمثالها في كل اتجاه وعايشوه عليها، ولكن قد باء سعيها وجاء يومه لتدفن هي وتعيش تلك الحقائق في أرضها وفي كل أرض أخرى في هذه الحياة على أرض الله تعالى، يشبعها النور ويخضرها الماء ويعمرها الإيمان ويبسط عليها بفضل الله تعالى وعونه ومنته أروقة الحضارة الإنسانية يعطرها الإسلام وبه تقوم وتقيم وتستنير.

وقصة محمد بن عبد الرفيع الأندلسي من مدينة جيان والمتوفى في تونس سنة 1052 هـ (1652 م) التي رواها نفسه في كتاب له مخطوط «الأنوار النبوية في أنباء خير البرية» رغم رعبها وفظاعتها وبشاعتها ليس أكبر الصور المعبرة والتي نوردها في هذا المكان إن شاء الله تعالى وتاريخ تحرير هذا الكتاب هو 1044 هـ (1644 م) في تونس[29] فيذكر ابن عبد الرفيع أنه كان يحمل ليعلم في مكتب النصارى وسنه أربع سنوات لكن والده من سن ست سنوات كان يعلمه الإسلام والعربية وأوصاه بالكتمان

---

29) نهاية الأندلس، 403 ـ 407، كذلك : حاضر العالم الإسلامي، تعليقات شكيب أرسلان على هذا الكتاب المترجم، 2 / 23، الحلل، 1 / 380.

وشدد في الوصية أن لا يخبر أحدا من الخلق ويكتم على كل أحد حتى على أمه وعمه لأن الكنيسة كانت تتابع من يعلم أبناءه أي شيء عن الإسلام وأراد أن يمتحن كتمانه فيرسل أمه لتسأله عن ذلك فينكر وكذلك فعل مع عمه أشد الإنكار ثم سمح له والده أن يخبر أمه وعمه وبعض أصحابه الأصدقاء فقط الذين كانوا يأتون إلى دارهم ويتحدثون في أمر الدين سرا فتعرف بأصدقاء آخرين وسافر إلى عديد من مدن الأندلس : جيان وغرناطة وقرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها، وميز من خلال ذلك سبعة رجال يتحدثون عن غرناطة وأحوال المسلمين فيها ثم يتحدث ابن عبد الرفيع في كتابه المذكور عن سقوط غرناطة وترحيل المسلمين منها سنة 902 هـ (1497 م) ثم ارغامهم على العودة من سواحل البحر إلى الأندلس لما رأى العدو من عزمهم ثم يذكر ارغام المسلمين على الكفر ابتداء من ازالة اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات فقاتل المسلمون مرات وكان العدو يحرق بالنار كل من لاحت عليه أمارات الإسلام ويعذبه بأنواع العذاب فكم عذبوا وأحرقوا ونفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم. ثم كان الهروب سنة 1013 هـ (1605 م) للمغرب والمشرق خفية وكيف سافر بعضهم إلى بلغراد والتقى بالوزير العثماني مراد باشا فأبلغه بما يجرى للمسلمين في الأندلس وفرنسا الذي نقل هذا إلى السلطان العثماني فكتب إلى ملك فرنسا وطلب إليه السماح للمسلمين منها ومن الأندلس على سفن يرسلها ثم يتحدث ابن عبد الرفيع عن الخروج الذي هو النفي الأخير سنة 1019 هـ (1610 م) الذي جرى للمسلمين على أيدي محاكم التفتيش وسلطات اسبانيا النصرانية.

الرحلة الكريمة مستمرة

وما يجرى أحيانا اليوم في العالم الإسلامي لاسيا منذ ذهاب خلافته بدايات هذا القرن لا يختلف دوما أو كثيرا عن محاكم التفتيش الاسبانية الصليبية التي استمرت قرونا وقد تفوقها أحيانا في بعض جوانبها وتفنناتها وإن اختلفت من بعض النواحي، ولكن إذا كان ذلك جرى بأيدي غير المسلمين فاليوم قد يجري أيضا على أيدي مسلمين وهم الأعداء حقا بل هي اليوم أكثر تفننا وأقوى وسائل وأكبر مكنة، تفترى وتدعي وتبرر وتقرر وتخشى الحق وهو مجرد إذ لا تملك فكرا ولا حجة وهي في جبروتها أخوف ولكن حبال الباطل قصيرة ولابد من يوم تقطع فيه وتزول بأيدي المؤمنين حين يستعدون للجهاد بكل أنواعه والقوة المواجهة المسلحة يفرحون بنصر الله.

ومحاكم تفتيش الأمس مثلها اليوم وإن لم تحمل اسمها أو تختلف من بعض جوانبها تجند كل طاقاتها لإبادة المؤمنين بالله وشرعه لا تفتأ تتخذ كل وسيلة عنيفة بجانب تشويه صورتهم أمام الناس استهتارا وامتهانا للحقائق والوقائع والفضائل واستكبارا على الله وخلقه وشرعه واستصغارا للحق وأهله وترويعا للمؤمنين ومعادات لكل معنى خير وزهوا بباطلهم لما امتلكوا من مناصب ومواقع وقوى بها تجبروا وهم صغار وأنكروا حق الله فيها وأداء نعمته عليهم فاستباحوا الإنسان بعدما استباحوا حقائق الإيمان.

للحق وجنده صولات قادمات

وإذا أمكن الباطل أن يروج ترهاته لمدة فلابد أن يكتشف ذلك يوما ما ويرتد عليه ويكون للحق نصرة. وحسب المسلم أن يجاهد، كل

أحواله نصرا والشهادة آخر المطاف في الدنيا نصر حقيقي وهو أول الحياة عند الله بعدها يستعد للمقام الرفيع في جنته وهي أساس كل نصر وهو الذي في النهاية يقود إليه الدنيا والآخرة.

والمسلم يخدم دينه في كل أحواله، وحين يموت مظلوما متهما يلفه ذلك لقرون فيأتي يوم تهب نسائم نصر الله عليه تغسل كل تلك الأوضار وتزيح الأباطيل وتنعش بذور الخير في نمو عفيف وغرس كريم وثمر طيب فذلك على الدوام.

ومحاكم التفتيش الاسبانية الصليبية يوم قتلت وحرقت ودفنت المؤمنين بالله تعالى وقرآنه الكريم وشوهت الإسلام مثلما شوهت النصرانية وأجبرت على التنصر وهدمت كل بنيان اسلامي وادعت زورا وبهتانا وانتهت من ذلك خلال قرون ثلاثة كانت تعد الانتهاء من ذلك وأهله في الأندلس أملا من آمال تلك الطغم الظالمة الآثمة ولا يسمع أحد بعدها شيء، وضعوا لذلك حجبا دون التعرف عليه وما ارتكبوا في حقه من سواد العمل، وإن سمع الناس به فبصورة منفرة مزورة عن دين الله لما روت من تشويه وافترت من أكاذيب هي بها ألصق ابتدعها حقدها الصليبي الأسود ونزعتها الأنانية ونفسها الغارقة في لذائذ المحرمات النابتة في مستنقع المنكرات، حتى غدا ذلك عندها دينا تبنته وتؤمن به وتعمل لحمايته، يقود ذلك رجال الكنيسة الذين كانوا الأمل أن يكونوا أعقل الناس وأقربهم إلى هداية الإسلام وأولى أهل الكتاب بالإيمان به والدعوة إليه وحمل رايته والجهاد من أجله بإخلاص.

وللأسف فقد كان هؤلاء قادة هذا الكبر والإثم والعدوان، عليه اعتمدوا في ذلك على تعمية البصائر والأبصار وحماية باطلهم والاستنامة إلى حجب الفطر عن الأنوار أشرقت بدين الله الذي ارتضاه رحمة للعالمين.

أشرقت الأنوار من خلال الأستار

لكن إذا نفع ذلك من أي شيء فهو لا ينفع مع الإسلام الذي لابد لنوره أن ينبثق يوما في أي مكان وكل مكان بل ومن خلال الأسباب والأحداث والأمكنة التي ظن أن فيها الحماية والاستتار حيث يحاط بهم ويأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا وممن ربوهم على أيديهم والطريق التي أساقوا الناس فيها، فكم من وضع سعى بذلك، وفي العصر الحديث إماطة للدعوة الإسلامية، كانت بستانا يانعة الغروس. ولقد ساق الله تعالى في القرآن الكريم قصة موسى وفرعون مثالا يتكرر، وفي التاريخ الإسلامي عبر منها موضوع اسلام التتار والمغول الذين هاجموا العالم الإسلامي وأوغلوا في تخريبه. وكم من راهب أعد ليكون حربا على الإسلام في الوقت الحاضر يدرسه لهذا الغرض كان له بذلك طريقا، طريق الإيمان بهذا الدين. ألم تسمع عن تلك الراهبة الأمريكية التي أعدت اعدادا خاصا وكانت من المتعلمات المتقدمات المعتمدات لدى الكنيسة والقساوسة وبعد حصولها على الليسانس طلب إليها تحضير رسالة ماجستير عن الإسلام للتعرف على طرق لحربه بإشراف أحد الرهبان الأساتذة وبعد مدة جاءته يوما لتفاجئ مشرفها وتقول له إنها اقتنعت بالإسلام دينا وعقيدة وشريعة واعتنقته، فكلمها محاولا ثنيها عن ذلك فباءت المحاولة بالفشل ومضت المرأة الراهبة في طريق الإسلام تدعو إلى الله وما زالت بعون الله تعالى على العهد ونسأله أن يجمعنا في مستقر رحمته.

ويح الجاهليات لو تعيد النظر لصالحها

هكذا كانت الأساليب التي صيغت لحرب الإسلام متنوعة مغرقة في غير ما حالة تخدم في عين الوقت أو فيما بعد الإسلام وتلك من معجزات هذا الدين أودعها الله فيه وعلى ذلك فنحن نوجه القول إلى كل الذين يحاربون الإسلام لأي سبب أو دافع ومن أي موقع ألا يتعجلوا بل يتمهلوا ولا يندفعوا بل يسمعوا ولا يعنفوا بل يكفوا ويعيدوا النظر ويبعدوا فيه ويعمقوا البصر إلى ما وراء الزبد كي لا يكون حاجبا عما تحته من أسباب الحياة الإنسانية وصارفا عن السعادة في الدارين وأن هنالك ربا جليلا حسيبا قريبا قويا قاهرا لا يفلت منه أحد ولا يغيب عنه شيء فلا يصح الإعراض عن دينه الذي ارتضاه فكيف بمن حاربهم وعاداهم.

قدوم الحق

ياويح الجاهليات إنها تعيش في أرض الله وتنعم بفضله وبما سخر لها من أسباب الحياة برحمته في نفسها وفيما حولها وأنزل لسعادتها في الدارين من دين قويم كريم فترفضه وتأباه بل تحاربه وتنصر الظلمات، ويتحولون إلى طغاة سدنة للجاهلية يلوذون بأعتابها ويحرسون أبوابها الموصدة، عادوا نعم الله تلك، اتخذوها أسلحة لحرب شرعه، فأي عصيان للواحد الديان المنعم الرحمان بفعل يقودهم إلى خسارة وتعاسة في الدارين، يدعون على الله كذبا وزورا. إنها ظلمات الجاهلية في أي زمان ومكان والحق إن شاء الله قادم يكشف هذه الغمة ويزيل العتمة ويذهب بالظلمة يأخذ بالإنسان إلى نور الله المبين.

وحين يعيد هؤلاء النظر ويمكنوا للبصيرة والبصر سيجد الذين جهلوه الأمن والأمان والذين سخروا ما معهم وجعلوا موقفهم من الإسلام عدوانا

وحربا مسخرين ما لديهم من المناصب والمواكب والمسؤوليات، مسلمين وغير مسلمين، أنهم جانبوا طريق الله وأصابهم الندم في الدنيا والآخرة. والعاقل الذي يصحح مسيرته قبل فوات الأوان.

والذين جعلوا من أنفسهم جبهة في مواجهة الإسلام وبأي ثوب كانت هذه المحصلة لا يغير منها ادعاء أكثرهم إن لم يكن كلهم يعرفون غير قليل عن الإسلام في حقائقه الساطعة المضيئة الثابتة وسيكون حسابهم عند الله عسيرا ولا يجنون في الدنيا إلا ثمارا مرة وتكون في الآخرة عليهم حسرة. فاللهم اهدنا وثبتنا على دينك القويم واجعلنا من حملة القرآن العظيم لننطلق فيه بالحياة أعلاما منيرة وفي الآخرة نورا به نلقاك.

ظهور ونصر

وموضوع اليوم فيه من العبرة بليغها، والأحداث عجيبها، والأخبار مذهلها، مؤداها أن الصدق لا يضيع ودين الله الحق لا يغيب ومنهجه المضيء لا يحجب مها كان، فلابد أنه يوما ما ظاهر والله تعالى له ناصر يجري الأمور بحكمة قد لا نعلم كلها ونشهدها خلال أجيال، والمسلم يخدم دينه في كل حال ولكن النهاية للإسلام الذي وعد الرحمان بنصره والتمكين له في الأرض يورثه عباده المؤمنين فاللهم اجعلنا منهم ولنا شرف حمل الأمانة المباركة ولديك من المقبولين واحشرنا عندك يوم الدين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

الغدر شيمة الجاهلية مهما كانت الهوية

إنه بعد استسلام أبو عبد الله الصغير وتسليم غرناطة آخر حصن للمسلمين في الأندلس للملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا حسب معاهدة

العار (معاهدة تسليم غرناطة) التي وقعت سنة 897 هـ في نحو 67 بندا أو أقل من ذلك كان أول شيء فعله الملكان الكاثوليكيان المتدينان للسلطات الاسبانية الصليبية بتجنيد الكنيسة وتأييدها وتشديدها هو نقض بنود هذه المعاهدة كافة شيئا فشيئا إلى أنه بعد عشر سنوات من هذا التاريخ إلى حد قيام سلطة الدولة والكنيسة بإجبار المسلمين على التنصر قهرا وإلا فلا مكان لأحد منهم هناك. ومن يعارض ذلك أو يقاومه أو يمتنع عنه فليس له إلا الموت وقد أبيدت قرى ومواقع امتنعت عن التنصر واستأصلوا من آخرهم قتلا وسبيا.

محاكم التفتيش وحفلات التحريق ووحشياتها الكنسية

وأمام هذا القمع الوحشي لكل من تمسك بالإسلام وأظهره جعل مسلمة الأندلس يظهرون النصرانية ويبطنون الإسلام، وعرف هؤلاء باسم الموريسكيون. ويوم أحست السلطات الاسبانية ومعهم الكنيسة قاموا باعدام الكثير منهم حرقا، وهو أمر تكرر في أكثر من مكان وفي أوقات في تلك الديار. كانت أحكام الموت حرقا كثيرا ما تتم بشكل جماعي في احتفال كنسي يحضرها المخدوعون المثقلون من الناس يستمتعون بها أو يتظاهرون ومن غزتهم روح الصليبية استمتعوا بها حقا لاسيا السلطات الكنسية.

ثم إن تلك المحاكم لكي تعزل هؤلاء المسلمين وتحجزهم دون الدفاع عن أنفسهم جردتهم من حمل أي نوع من الحديد أو السلاح حتى السكين ليجعلوهم عزلا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بأي شيء، وسياسة عزل المسلم وتجريده أسلوب تتبعه السياسات الحاضرة في البلاد الإسلامية في كثير من المواقع ولابد للمسلمين أن يدركوه ويعلموا لتفويت الهدف.

وبهذه السياسة الغبية الحاقدة الغاشمة القاتلة سارت سلطات اسبانيا الصليبية وكنيستها، تلك السياسة التي ترفضها كل أديان الله تعالى وهي واحدة في العقيدة والحقيقة والاتجاه، والإسلام آخر أديان الله شامل ومفصل كامل التصور عن الكون والإنسان والحياة أنزله الله على محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والنصرانية التي تقول بالروحانية والمسالمة والرحمة حتى للمعتدي، لكنها لا تعرف عن سلطاتها غير الاعتداء على أهل الحق والخير والدعوة إلى الله وأكثرهم اعتداء ودعوة إلى ذلك وحمل رايته هم رهبانها وحاملوا راية الكنيسة فيهم. استمرت الحال على ذلك وكثر بلاؤه وعم داؤه، وكانت محاكم التفتيش الاسبانية الصليبية التي أنشأت لإبادة المسلمين والإسلام من اسبانيا بعد تعميرها لدين الله الحق لثمانية قرون ارتوت من خلالها أرض شبه الجزيرة الإيبيرية (اسبانيا والبرتغال) بالماء الزلال وأحس أهلها بإنسانيتهم مضيئة كريمة نقية فأينعت أرضها حرارة ونضارة ووضاءة جربت مرارا أن يفيض منه على من حولها في بقية أوروبا ضوءا لتعبر منها إلى الأرض الكبيرة.

ومنذ ذلك التاريخ، بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) سادت في اسبانيا قوانين الغاب بمحاكم التفتيش المتوحشة الفاتكة السافكة لدماء المسلمين لثلاثة قرون تقريبا حتى نهايات القرن الثاني عشر الهجري (18 م) ارتكبت هذه السلطات الغاشمة الظالمة من فظائع وفضائح التكبيل والتنكيل والتقتيل ما يفوق الوصف والتصور أنزلته بالنساء والرجال والشيوخ والأطفال ارتكبت فيه من الجرائم ما يصعب على أي إنسان اعتيادي يمتلك بعض السلامة في الفطرة والنظرة والعبرة سماعه أو قراءته فضلا عن المشاركة فيه أو رؤيته. عجيب أمر هذا الإنسان إذا ضل

طريق الله كان أدنى من الحيوانات السائمة السائبة، والقرآن العظيم المعجز بكل ما فيه وهو قول الله معنى ونصا أنزله الله على رسوله محمد ﷺ وهو وحده الصدق والحق فبين الله سبحانه وتعالى في وصف الكافرين قوله : ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك الغافلون**﴾ (الأعراف، 179).

وبعد كل ذلك وخلال هذه القرون الثلاثة من تاريخ الإنسان والكنيسة الاسبانية الصليبية قرون الظلم والظلام والطغيان التي تلت القرون الثمانية التي امتلأت بالعدل والرحمة والإنسانية والعمران هل تظن أن يتبقى للمسلمين هناك باقية ؟

حكمة بينة

نقول لكل الطغاة والمتجبرين والعتاة والفراعين الصغار والكبار منهم على السواء الأصلاء والعملاء سيان أن الله تعالى تكفل بحفظ هذا الدين واشراق هذه الأرض بنوره المبين، وقد يكون ما تفعلونه أنتم أنفسكم مسهما في هذا بقدرته وقوة دينه التي أودعها الله فيه وأنه يقيظ جنودا يخدمونه - ونرجو الله أن نكون من أوائلهم - ويبذلون دونه الأرواح ومنهم كانوا في أصلاب آبائهم كافرين الآن وقبله أو بعد حين كلهم صاروا لهذا الدين جنودا والحمد لله رب العالمين على نعمة هذا الدين أدامها الله تعالى وعليها نلقاه إن شاء الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

أسلوب مغرب تأباه الوحوش الضاريات

وكان من أساليب القتل والإفناء التي سلكتها محاكم التفتيش الاسبانية الصليبية التي انبثقت عن سلطاتها الرسمية والكنسية - وكلاهما رسمية

وكنسية - هي المقابر الجماعية التي ما عرف خبرها إلا في الأعوام القليلة الماضية. وهو حدث يبدو أنه لابد أن يشارك في مستقبل اسبانيا ووجهتها ليكون له تأثير كبير واضح في حياتها الجديدة ففيها الكثير من أحرار الفكر الذين يقدرون الأمور وينصفونها من رجال كنيستها وكل أحد فيها.

وخبر هذه المقابر الجماعية التي دفنت فيها محاكم التفتيش الاسبانية الصليبية آلاف المسلمين في أواخر مجاميعهم وبقاياهم لتنتهي منهم وتصفيهم بعد أن ملت وجودهم وثباتهم وصبرهم وتمسكهم بهذا الدين. وقد اكتشف منها حتى الآن أكثر من مقبرة جماعية قبل سنوات ولكن واحدة منها كانت مرعبة مغربة، لعل الأيام تأتي بغيرها وتخرجها من المجهول.

ففي نحو بدايات سنة 1979 م كشف أمر مقبرة جماعية - ولم تكن الأولى من نوعها - في جنوب اسبانيا على حدود البرتغال في كنيسة مدينة يارينا. والبحث في هذا الأمر مازال جاريا، ويظهر أن السلطات والكنيسة هناك تحاول كتم أخبارها التي تتسرب وتريد الكنيسة أن تنفي كون هذه المقبرة الجماعية من المسلمين ضحايا محاكم التفتيش التي كانت تمارس وحشياتها في الأديرة والكنائس وساحاتها ودهاليزها وسراديبها.

وكشف هذه المقبرة الجماعية في كنيسة على ذلك مثال. وعند اكتشافها كتم خبرها الذي التقطته إحدى الإذاعات الأوروبية لتبثه على العالم وتوجهت إلى ذلك الأنظار لكن السلطات هناك لم تسمح لأحد بعد متابعات إلا لطلبة كليات الطب لزيارة المكان خطوة أقيمت على اضطرار منها أمام الضغط والمطالبة لمحاصرة الموضوع وإماتته، وكأنه حصل. ثم عندها قامت بعض التحقيقات الصحافية داخل اسبانيا، والغريب أن الإعلام في البلاد العربية والإسلامية لم يكد أو يرد أن يسمع عنه أو يسمعه.

ولعل هذا أول تحقيق موسع مصور ومتكامل ينشر بالعربية يخص هذا الأمر الذي ما يزال بحاجة إلى مراجعة ومتابعة واستكناه.

إن التحقيقات والصور التي نشرتها الصحافة الإسبانية صيف 1979 م لتعبر قوي التعبير عن بشاعة وعدوانية ووحشية محاكم التفتيش الإسبانية الصليبية ضد الاسبان والمسلمين وبإمكانها أن تقنع عموم الاسبان بطغيان تلك الطغمة ودجلها وكذبها وتسترها وراء الدين - ودين الله الحق من ذلك كله براء - لحماية جدران الكنيسة التي سيهدمها الاسبان عليهم بأيديهم ليقيموا من ورائها مساجد يذكر فيها اسم الله، ويطلعنا على وسائل القمع المتبرءة من أدنى معنى إنساني إلى حد من الوحشيات تتبرأ منها الحيوانات الضارية المفترسة، كان من أولها هدم المساجد بالقوة في مدن أكثرية أهلها مسلمون وإقامة الكنائس مكانها في كل عصور الصليبية في تلك البلاد التي مازالت تنتظر الرايات الخضر تنقذها وتظللها وتبعث في أرضها الحضارة والنضارة. وهذه الأعمال تمت بشكل تدين هذه المحاكم وتؤكد توحشها وظلمها وقسوتها المتناهية وعداءها المقيت ضد الإسلام والمسلمين مما لابد أن يكون له أثر القاء ضوء قوي على أفعال هذه السلطات والعمل على اقتلاع تأثيرهم من المجتمع الاسباني وإظهار عدائهم وحربهم للإسلام الخير الذي أنزله الله رحمة للعالمين على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين. وأن هذه السلطات أساءت إلى اسبانيا والعالم النصراني والتاريخ الإنساني كله مما يتبرأ منه ومن مرتكبيه وسلطاته الديانة النصرانية كما أنزلها الله ويكون ذلك بداية لإعادة النظر من قبل الإسبان وغيرهم في الإسلام الذي رفع اسبانيا المسلمة إلى مستوى كريم في هذه الدنيا وأعدها للآخرة يوم كانت أوروبا تعيش في ضلال وظلام، ومن اسبانيا نقلت بعض جوانب الحضارة الإسلامية إليها

حيث رتعت حتى اليوم في ما تغدق عليها وعلى العالم التكنولوجيا الحديثة من نعم الله تعالى التي لم تؤد حقها، ولكن كيف تؤديه وهي لطريقة المنير مجانية.

كانت هذه صور المقابر الجماعية التي ننقل بعضها هنا قد نشرتها عدة صحف وأمثالها منها مجلة أنتر فيوويا. وأن تتولى صحف اسبانيا ذلك أمر مهم نرجو أن يأتي ثماره في اسبانيا قبل غيرها.

وقصة اكتشاف هذه المقابر الجماعية تريك الجثث التي ما تزال موجودة فيها مشوهة أو مهشمة أو مقطعة تثوى داخل دهليز وجد في كنيسة مدينة يرينا على الحدود البرتغالية حيث كان يتولى بعض العمال تصليحات في ساحتها.

قصة اكتشاف المقبرة الجماعية

وبينما هؤلاء العمال يحفرون في ساحة الكنيسة لاحظوا فتحة تابعوها، قادتهم إلى دهليز دخلوه، وإذا بقبر كبير رأوا فيه عجبا، وجدوا فيه مجموعات من الجثث التي بقيت هياكلها قدرت بما يزيد على ثلاثة آلاف جثة زاد التقدير بعدها إلى نحو الضعف ثم لم نسمع عن الأمر بعد ذلك شيئا. هذه الجثث هم المسلمون رجالا ونساء شيوخا وأطفالا ضحايا محاكم التفتيش الإسبانية الصليبية، تقرأ فيها الرعب والخوف والفزع والهلع؛ وترى كيف أن الجثة المتلازمة الأجزاء قد تكون قطعت منها أجزاء أو سلخت فيها أعضاء

أو ضربت مواقع أخرى مقطعة ترى أكواما من الجماجم. ومن نظرها وتصورها وتعرفها قد يكون التفكير إلى قبول تحليل أن سلطات محاكم التفتيش الإسبانية التي نصبت للقضاء على الإسلام والمسلمين وبعد قرون من التقتيل والتنكيل أفنت فيه الملايين بقيت مجموعات غير قليلة تعد بالآلاف هانت على المحاكم حياتهم ورأوا التخلص سريعا منهم بوحشية استقطرت خلاصة الهبوط الإنساني إذا زالت عنه الهداية إلى الضلال ولو لبست مسوح الرهبنة.

فجمعوا ما أمكن من بقايا المسلمين بعد رحلة شاقة من الأسى والدموع والأوجاع والتجويع والترويع والفتك والهتك والتقتيل وقد رفض حتى تنصرهم لو أرادوا وذلك منذ زمن بعيد هم ومن قبلهم لأجيال حيث لم يرضوا من أحد منهم إلا الرحيل أو التقتيل بل لم يتركوا لهم مجال الرحيل فأوقعوا بهم التقتيل وهاهم ينفذون ذلك في آخر المجاميع.

وفي هذا القبو أو القبر والسياط تلهبهم وتمزقهم حيث لموهم وجمعوهم فيه حتى إذا استقروا فيه مكانا ابتدأوا معه رحلة جديدة ولم تستقر نفوسهم وكيف يأتيها الاستقرار ؟ فأحاط بالمسلمين كلاب البشر جنود محاكم التفتيش بأمر وتوجيه وإشراف رجال الكنيسة الذين زعموا وخدعوا بأن ذلك من القربات إلى وثنياتهم وملذاتهم أمام الجهلة والأوشاب، وجعلوا من أنفسهم أربابا من دون الله، فأي أرباب. وكان هؤلاء الوحوش المترهبنة يحملون ألوان الأسلحة الحديدية الجوارح القواطع القاسية من فؤوس ومقاطع، فانهالوا عليهم يضربون يمنة ويسرة كيفما اتفق وأينما وقع على

رؤوس وأجسام هؤلاء المسلمين النساء والرجال والشيوخ والأطفال على أجنابهم وأيديهم وصدورهم وظهورهم ويقطعون الرؤوس أحيانا والأيادي والأرجل أخرى أو أي أجزاء غيرها. وهذا ما تراه وتقرأه في الصور أمامك[30] وكذلك ترى بوضوح هذه الأخاديد على الوجوه والأجسام والأجزاء مثلما ترى القطعة المتناثرة المتكاثرة منها والجماجم مثلما تقرأ ذلك في التقاطيع.

ثم خرجت وحوش البشر الضارية منتصرين بعدما ارتكبوا من الفظائع الإنسانية والأخلاقية واعتبروه انتصارا احتفلوا له وعملوا المنكرات المبتكرة والوحشيات المبدعة والعمليات المرعبة يشربون ويرقصون، ويكرعون أوهامهم وآثامهم قرابين لأوثانهم، ثم أطبقوا على أولئك المسلمين القبو ليكون مقبرة جماعية لهم تستوعبهم بقية هذه الحياة في ظنهم، وبنوا على ساحة الكنيسة - مكان عبادتهم - ليموت معهم خبرهم.

آمال الخير تزدهر

ولكن الله تعالى أراد لهذا الأمر أن يكتشف من قبلهم ليكون عبرة وخبرا مذكورا ودرسا لهم ولأنسالهم وليكون مدفنا لوثنية متنوعة ومنطلقا

---

30) عرضت صور شرائحية بعد تقديم البحث كما نشر بعضها في مجلة «منار الإسلام» التي تصدر في أبو ظبي، العدد الأول، السنة السابعة، محرم، 1402 هـ، حيث نشر هنا مصغر البحث المذكور المشار إليه في هذا البحث المفصل.

لدين الله تعالى تعود به اسبانيا إلى الإسلام إن شاء الله تعالى تمتد دعوته منها إلى الأقطار المجاورة وغيرها متعاونة في حمل راية الإسلام خفاقة براقة في موكب منير كريم يحمل الخير والبر لبني الإنسان وبه وحده يكون إنسانا.

أليست هذه آمالا تحدوك وتشدك وتشدوك وعملا يحركك ويدعوك، ومع ذلك فهي حقيقة تفرحك وحادث يفجؤك وبداية إلى الطريق العامل يدفعك.

ليس هذا حديث رثاء ولا بكاء وإن وجد ما يمت لذلك بسبب، ولا تسلية وتغطية وإنما هو عطاء ودواء وعلاج وضياء وأعلام إنه إعادة تقييم وإطلاق سراح معلومات حبيسة أو تنقيب عنها في ثنايا أحمال أحداث التاريخ ظلت حبيسة في الصدور أو السطور أو مدفونة في القبور، تدل عليها وقائع وأحداث أو وثائق وميرات أو شواهد وأحداث، لتحمي حقائق التاريخ وتنصف مغموط وتفصح موتور خدمة للحق وإنصافا للخير وإثارة للقيم فإنها لا تضيع مهما اتخذ لذلك من أسباب وتعاونت سلطات وارتكبت ظلمات مرت فوق هامات وأجسام ودفنت براعم وأرحام كانت تلد الخير والحضارة لتظهر من جديد وتطهر من الآثام. والحق لا يغيب ليبني ويقيم وتمتد متطاولة يحملها مواليد تدين محبسها لتنطلق في الفضاء الرحب الوسيع تدعو الحق وترسي قواعده في قوة لا تهاب، ترى الناس قوة الحق الأصيل المتصل بالله وبشرعه يجوب الحياة تتولى شطره وتحرك أرضه وتطلق نهره ويموج بحره لتدور نواعير الحضارة والنضارة وتلف طواحين الهواء نقيا فيفيض غذاء في طحنها ونثرها بذورا مبرأة من العيوب تغرس

أرضها مما لذ وطاب فترتفع عن الحياة أمراضها وعن الإنسان أوضارها ويرتفع بها الإنسان فيسكب في جوفه حبا يقيم أصلابها وأنسالها في تيار يصفو ماؤه طهورا نقيا تملأ الحياة في أرض تسعى إليه معيدا بعبوديتها لله في طريق يقود إلى السعادتين مسيرة تلث قرونا ثمانية سارت بعدها في طريق موحشة مظلمة لثلاثة قرون بعدها أو تزيد سقطت فيها الأعلام والأجسام فذهبت بقايا تلك الأزاهير، على ذبولها كانت زكية وأسكتت المزامير على خفوتها كانت قوية، لكنها بذور الأول كامنة في البطون والجهات نائمة كأنسام أذانها في الآذان وأنوارها في الجفون تنتظر موعدا أراده الله لحكمة سيكون لينصر الناس ما لم يكن بالحسبان لأن الحق والنور لا يغور ولا يموت وهو الأصيل المتصل بجذور ممتدة بمصدره القوة والحياة والنور أنزله الله شفاءا وضياءا وحياة على رسول الله ﷺ ليبلغه العالمين رحمة مهداة إليهم سيبقى مهما حجبه أو حجمه وهذا النور آت لاريب فيه.

المحاكم :

شنت الحرب على كل ما يتعلق بالإسلام حرب استقراره في النفس وامتداده في الحياة. فحاربوا كل شيء ومنعوه وهدموا المساجد وحولوها كنائس، أجبروا على التنصر فتظاهر به المسلمون وأبطنوا الإسلام (الموريسكيون).

ولدت محاكم التفتيش في أحضان الكنيسة ويديرها الرهبان واتخذت من الأديرة والكنائس مقرات لها وأحيانا تتخذ الحصون والقصور الإسلامية، زيادة في النكاية وإيغالا في الإيلام، وكان لها جيش يقوم بكل

شيء. فوفروا رقابة حتى داخل البيوت ويسأل الأطفال عمن وعما يعلمهم الآباء، فإذا ثبتت عن أي طريق أن أحدا يقوم بما يدل على أنه مسلم أو له بذلك صلة حكم عليه بالموت، نساء ورجالا وأطفالا، وينفذون ذلك حرقا في حفل يحضره الناس وكثيرا ما يكون جماعيا، وقد يلقونهم من عل كما يجرى ذلك في أحد أبراج قرطبة الذي لا يزال ماثلا كما مر بنا.

ابتدأ هذا الحال بعد سقوط غرناطة مباشرة بمضايقات ثم اضطهاد وتنصير وطرد ثم ترحيل أو قتل.

هاجر كثرة من مسلمة الأندلس خلال القرون تلك إلى المغرب الكبير ومصر والشام والقسطنطينية وربما العراق وغيرها وتمت مراسلات مع العالم الإسلامي وجرت نجدات كان منها الأخوين بربروس : عروج وخير الدين، استشهد الأول واستمر الثاني، وهكذا حتى أصدر الملك فيليب الثاني والكنيسة سنة 1018 هـ (1609 م) قرار الطرد الأخير : الرحيل أو القتل. وقتل بذلك ورحل مئات الآلاف، وأبى المسلمون خلاله إلا البقاء بالإسلام أو الرحيل معه ولو كان رحيلا عن الدنيا. وهذه الأمور قد تبينت فيما مر أعلاه مفصلة وهذه كانت خلاصة لها لتأكيد وتوضيح بعض المعاني حتى يتضح الأمر.

المسلمون في ديار الغرب

منذ سنوات والطلبة المسلمون وعموم المسلمين في ديار الغرب ـ أوروبا وأمريكا وغيرها ـ يجدون في الدعوة إلى الله مثلما يجتهدون في دراستهم إن لم يكن أحيانا أكثر. وكانت لهم هناك ثمرات تفاوتت في نقائها وصفائها

وقوتها وكثرة نتاجها المتنوع، تجاوز العمل مع المسلمين إلى غير المسلمين حيث اعتنق العديد منهم الإسلام وأصبحوا له دعاة. وتعطر الجو لأي حد في بعبق الإسلام ليبددوا بذلك بعض صور قاتمة أثبتتها الخرافات وتصورات وتصرفات طلاب وتجار وسائحين ورسميين من مسلمين حملوا من الإسلام اسمه والولاء المكاني له، وأساؤوا إليه أكبر الإساءة في تصرفهم البعيد عن دينهم وأضروا بأنفسهم، ندعو الله له بالعودة إليه إن شاء الله تعالى.

وعمل الطلبة المسلمون وغيرهم مع عواصف وأنواء وأثقال وأحمال، قلة في الإمكانيات ومضايقات واضطهادات لتجمعاتهم وأحيانا للمسلمين على مختلف المستويات، مسلحة بكافة القدرات والرسمية منها في غالب الأحيان. حمل هؤلاء الطلبة ومن معهم العمل للإسلام عشرات السنين وهم مجهولون ليعطوا الأرض العطشى بعض الري نقيا زلالا متمثلا في جهودهم البارة وسلوكهم الجهادي الأمين حتى غدت حركة الطلبة الإسلامية صوتا مسموعا ووجودا متبوعا وكيانا قائما وأثرا ملموسا وحركة مؤثرة حاولت جهات تحمل الصفة الإسلامية رسمية أو غيرها أن تحتوشها أو تحتويها لتجهضها بطريقة لا تدرك من السطح بالنظر السهل. لكنها إن شاء الله تعالى تسير فالدعوة الإسلامية تتدارك الموقف وتستعلي على كل محاولة باغية وتتأبى على كل مصاولة ولا تخدع والمؤمن كيس فطن وسيسير الموكب الكريم في الطريق المنير إن شاء الله تعالى وهم على استعداد بفضل الله لكل تضحية وهم بها سعداء ولها أقوياء متكلين على الله لبذلها في سبيل هذا الدين.

جمعية إسلامية اسبانية وليدة

كان من هذا العطر الذي فاح هناك في اسبانيا على أيدي الدعاة من الطلبة المسلمين وغيرهم من مختلف البلدان أن اراد الله هداية بعضهم لهذا

الـدين فـأجرى أسبـاب هـذا الأمر أن تعرفت جمـاعـة قليلـة من الاسبــان النصـارى الكاثوليـك على الإسلام قبل سنوات تكاد تعـد على أصـابع اليـد الواحدة بفضل العاملين للإسلام داخل اسبانيا والمغـاربـة الـذين لهم صلات واتصالات وجهود وعمل في هذا الشأن فآمنت به هذه المجموعـة من نصـارى الاسبان وحملته ودعت إليه بين قومها واتخذت لها مقاما في قرطبـة ثم نقلتـه إلى غرناطة بفضل الله تعالى تقوى وتزداد والأمل أن يحقق الله على يـديهـا الكثير وعلى المسلمين في كل مكان معاونتهم، وتعمل الآن لإقامـة مسجـد في غرناطة التي كانت آخر معقل لتبدأ منـه الـدعوة الإسلاميـة الكريـة لتكون معقلا إسلاميا جديـدا ترعـاه وتحمل الهدايـة وتقود الموقف، والأمل أن يتم ذلـك وغيره يمد المسلمون لهم يـد المعونـة من كل لون وهو واجب لهم كبير ومتقدم، وكونت جمعية إسلامية ترعى الإسلام ودعوته في تلك الديار ردهـا الله للإسلام ورده إليها وعبر إلى غيرهـا إن شـاء اللـه تعـالى. أطلقت هـذه الجماعة الإسبانية على نفسها اسما جميلا مرهفا نديا «الجمعيـة الإسلاميـة لعودة الإسلام إلى الأندلس» تقوم بواجبها وواجبنا نحو الإسلام ندعو اللـه لهم ولنـا ولكل العاملين في سبيل هذا الدين بالنصر والتأييد والتثبيت من الله تعالى ونطالب بمعاونتهم في كل سبيل من كافـة الأشخـاص والهيئـات رسميـة وغير رسمية في اسبانيا وخارجها لاسيا بلدان العالم الإسلامي.

وإن شـاء اللـه تعـالى فلعلنـا نشهـد أعلام الإسلام ترتفع في اسبـانيـا والأندلس كلها من جديد، وهنيئا لمن سـار في ظلالهـا الوارفـة ويعمل بيـد قوية على رفعها خفاقة في الآفاق مرتفعة عزيزة مضيئة بالإيمان.

تلـك كانت بعض تـواقيع متنـوعـة في قيثـارة التـاريـخ الإسـلامي وحضارته وواقعه خلال رحلة الحياة الإنسـانيـة على وجـه هـذه الأرض إلى الله تعالى في الآخرة لتحمل الخير والحضارة والإنسانية الربانية دعت الناس

إليها وستعود تلك الرايات تقوم بهذا والعمل به ليعم نور الله ويسود منهجه وتقوم حضارة الإنسان لتعم هذه الأرض وتعمل بشرع الله مفتاح السعادة في الآخرة ندعو الله به لنا وللجميع ووفقنا تعالى لرضاه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

لم يقترف المسلمون ذنبا إلا أن يقولوا ربنا الله في كل الذي جرى لهم خلال رحلتهم الشاقة التي استغرقت فوق ثلاثة قرون بل حتى اليوم التي نشهد فيها تفتحا نلمسه هناك إن شاء الله يتسع ويزيد ونرى أعلامه عما قريب بعون الله تعالى.

وإذا وجد من الباحثين من غيب هذه الفعال أو أنكرها أو بررها ففيهم ومن الغربيين بالذات والاسبان على وجه الخصوص من أنصف هذا الأمر وهم أولى به لأنه كذلك ضدهم ولابد أن يتوفر هذا يكثر ويكبر ومنهم سلف حملوا الإسلام وحموه إيمانا والتزاما قرونا ودهورا، لولا هذه الشناعات والبشاعات ما بعدوا عن هذا الدين فلابد من عودة والعود أحمد وفي ذلك لله حكمة.

رغم كل شدة الظلم والظلمات وعمق المأساة فلابد من ومضات تندفع وتتسع كيما يعود الضياء ويعم النماء وتبدأ تدور طواحين الهواء مثل التي عند قنطرة الوادي الكبير بقرطبة وتعود الأسود الإثنى عشر أو الثلاثة عشر أو تزود وتكثر إلى اخراج المياه تمجها من جوفها قويا رتيبا زلالا مستمرا يكون ساعة زمنية كما كانت وأوفر والله يلهمنا الصواب.

اللهم انفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علما بفضلك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. عبد الرحمن علي الحجي

خطابُ
السيد وزير الشؤون الثقافية
الدكتور سعيد ابن البشير
في الجلسة الختامية للقاء العلمي في موضوع
تاريخ الأندلس
وحياة وآثار أبي مروان ابن حيّان

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الأمين

سيداتي سادتي، أيها الزملاء الأعزاء

في مفتتح هذا اللقاء الفكري تخليدا لشيخ مؤرخي الأندلس، أبي مروان ابن حيان ـ أعربت لجمعكم الموقر ـ عن ثابت يقيني بجدوى مثل هذه اللقاءات العلمية، وفاعلية مردودها في نفض الغبار عن الدور الطلائعي والسباق، لإسهامات الفكر الإسلامي الرائدة، في التناول الواقعي الأمثل، والمعالجة الحياتية السوية، لما اعترض مسيرة رسالته السماوية، ووظيفته الحضارية، من ملابسات، حتم الاحتكاك بها تنوع سمات وخصائص ومعتقدات وأعراف الشعوب والمجتمعات، المرحبة بالإسلام في ديارها عقيدة وسلوكا، والتي أثبت حضوره فيها مرونة في التكيف مع إنسانها، والانصهار في بيئاتها، إلى جانب تعامل سمح واحترام لين، في الصلة بغيره من الأديان، وأهل الكتاب منهم على الأخص.

وصدق بحمد الله يقيني فيما أملناه ورجوناه فقد أثمر اللقاء - بفضل فيّاض علمكم، وجادّ وجاد حواركم - أخصب النتائج وسلط كاشف الضوء، على زوايا خفية وشائكة من تاريخ الأندلس، عكس طرحها بالموضوعية والوضوح المعالج بها، ظاهرة صحية لافتة تمثلت فيما تلمسناه بجلاء من اقتناع جماعي بواجب إعادة قراءة وكتابة تاريخنا، من منطلق اعتماد القديم والحديث من ضوابط التوثيق في عرض الأحداث وسرد الوقائع، وعند غربلة المصادر من شوائب التجريح والضعف.

ومن خلال ما أمتعنا من إصغاء إلى قرابة ثلاثين من قيم العروض الأكاديمية والتي تقيّد الأغلب من معدّيها بالوقوف عند الحديث عن الشخصية العلمية التي يكرم هذا اللقاء جهدها المتفرد، ومنهجيتها المتميزة، في أسلوب كتابة التاريخ، تعرفنا على الكثير من جديد وطريف المعلومات، عن حياة وثقافة وأُسلوب ابن حيان، وبالتالي عن مدى قدرته على تسجيل ماضي وحاضر واقع مجتمعه، ومتابعة هزاته وتقلباته بتجرد وعين بصيرة.

ولما تقتضيه الأمانة الفكرية، ويمليه التصور الموضوعي، من حرية في التعبير عن الرأي العلمي، وما يخلفه من تباين في وجهات النظر، فليس بدعا أن تنتهي اجتهادات واستنتاجات الباحثات والباحثين في هذا اللقاء، إلى اختلاف في إصدار حكم يبرئ أو يدين بعض أو جملة ما كتبه ابن حيان عن تاريخ الأندلس ورجالاتها، مما فسر بالتزامه بالجهر بالحق، أو بجنوح إلى الغلو في صراحة نالت من مكانة قلة.

أيها السادة :

لقد أتاح لقاؤنا فرصة تسليط الأضواء على كثير من جوانب عبقرية ابن حيان فقد امتاز بشمولية النظرة إلى المجتمع باعتبار كل مقوماته المادية والروحية والسياسية.

وهذه تعكس العقلية العلمية للرجل أي عقلية الحضارة الناضجة المتكاملة التي تنظر إلى التاريخ نظرة أوسع وأشمل وأعمق مما نراه في الفكر التجزئي للمجتمعات المتخلفة.

وقد أدى ابن حيان ذلك أداء منهجيا علميا يساعد على إدراك العناصر المؤثرة في المجتمع من منظار شمولي له.

وهكذا وبفضل ذلك استطاع أن يقدم تحليلات عميقة ومتكاملة وهادفة ومتضمنة للعوامل والتأثيرات في المجتمع مما يجعله يحتل مركزه اللائق في سلسلة علمائنا الاجتماعيين الذين أسهموا في بناء هذا العلم حتى استقر متكاملا عند ابن خلدون وقد ألمحت إلى ذلك في كلمة الافتتاح وإنما أردت هنا التأكيد على هذه الفكرة لما لها من تقويم سليم لهذا الرجل الذي نكرّم أنفسنا بإحياء تاريخه وفكره.

ولنستشهد بأول كلمة قالها الأستاذ الجليل **الدكتور محمود علي مكي** في التمهيد لتحقيق المقتبس : «يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان ابن حيان يعد من أعظم مؤرخي الإسلام وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس بل والغرب كله - الإسلامي والمسيحي منه على السواء - طوال العصور الوسطى ولا نستثني من هذا الحكم إلا فيلسوف

التاريخ أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الذي يعتبر في تاريخ الفكر الإنساني كله ظاهرة فذة غريبة».

وبفضل أُسلوب ابن حيان وطريقته في التحليل فإنه يساعد القارىء على تتبعه واستيعاب فكرته في وضوح ويسر ومتعة.

ان ابن حيان بذلك لم يتخذ التاريخ أدبا بل جعله علما ومنهجية في الرواية والتفكير والأَداء. ولنتذكر بأي قوة كان التعبير عن هذه الفكرة أثناء اللقاء وخاصة على لسان الدكتورة الجليلة السيدة **عائشة عبد الرحمن.**

ولقد كانت لمنهجية ابن حيان وطريقة تحليله للوقائع والأَحداث والمؤسسات وإيراده لبعض الأَخبار مفصلة كما تلقاها ورواها أو شاهدها أثر أكيد في إرساء وبناء بعض قواعد ما نسميه اليوم بالمستقبلية ذلك أنه جعل قارئه في عصره يستطيع من خلال هذه التحليلات أن يتنبأ بالمستقبل ويتصور المصير، لأن ابن حيان لم يقدم لنا تاريخا جامدا أي شريحة مجمدة في تاريخ مجتمع ولكنه قدم التاريخ في حركته الدائبة.

فمن خلال تقديم الخبر وتحليل الواقع الاجتماعي كما يرسمه ابن حيان يستطيع القارىء النبيه آنذاك أن يتصور المآل ويتنبأ بالكارثة، إلا أن القائمين على الأمر على اختلاف درجاتهم ومهامهم في المسؤولية لم يغيروا ما بأنفسهم فلم يغير الله ما بهم.

أيها السادة :

بما ان هذه الندوة بما القي فيها من بحوث جادة وما تخللها من تدخلات غنية وحوار مثمر قد حققت فعلا إنجازا علميا ذا نجاعة وقيمة في

طريق بنائنا الحضاري ذلك أن الندوة استطاعت أن تكشف ابن حيان المؤرخ الحضاري وأن ترسى بعض القواعد وتضع معالم السير لإتمام الجوانب التي لا تزال في حاجة إلى البحث والكشف.

واسمحوا لي في النهاية وباسم حكومة جلالة الملك أعزه الله أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأساتذة الكرام الذي أسهموا بعلمهم الغزير، بالعروض والمناقشة في هذا اللقاء العلمي الكبير الذي نرجو أن يمتد في لقاءات أخرى لتقديم ما يجد من دراسات واكتشافات حول شخصية ابن حيان.

د. سعيد ابن البشير

الفهرس